كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر

الجهود اللُّغويَّة

للدكتور مهدي صالح سلطان

فاطمة داخل كاظم

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

منشورات

مركز البحوث والدراسات والنشر

كلية الكوت الجامعة

٧ / ٤١٠

ك ٢٦٨ كاظم ، فاطمة داخل .

الجهود اللغوية للدكتور مهدي صالح سلطان / فاطمة داخل كاظم

. -ط١. - بغداد : مطبعة كلية الكوت الجامعة ، مركز البحوث والدراسات والنشر ، ٢٠٢٤م

٣٣٢ ص ؛ ٢٤ سم .

١. اللغة العربية - دراسات - ٢ سلطان ، مهدي صالح (لغوي)

أ ٠ العنوان .

رقم الإيداع

١٥٧٠ / ٢٠٢٤

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

١٥٧٠ لسنة ٢٠٢٤م

ISBN: 978-9922-685-81-6

ملاحظة

مركز البحوث والدراسات والنشر في كلية الكوت الجامعة
غير مسؤول عن الافكار والرؤى التي يتضمنها الكتاب
والمسؤول عن ذلك الكاتب او الباحث فقط.

Al-Kut University College Printing Press

مطبعة كلية الكوت الجامعة

(تصدير)

الحمد للهِ ربِّ العالمين والصلاةُ والسلامُ على سيّدنا محمد وعلى آله الطيّبين الطاهرين ، وبعدُ ، فهذا الكتاب في الأصل رسالة ماجستير للطالبة (فاطمة داخل كاظم) ، بعنوان : (الجهود اللغويّة للدكتور مهدي صالح سلطان) .

وأعرفُ أنّ الباحث الدكتور مهدي كان قد خَبَرَ التراث اللغويّ العربيّ ، وتَزَوَّدَ من أفانين العربيّة ومنابعها الأصيلة ، ونهل ما استطاع من النظريّات اللغويّة الحديثة، كالوصفيّة والتوليديّة والتوزيعيّة وغيرها .

وإنّ صحبتي بالأستاذ المبحوثة جهودُه صلة قديمة ، تمتدّ لعشرات من السنين، ومنذ مراحل الدراسات العليا ، الماجستير والدكتوراه ، ومن بعدها التدريس في كليّة الآداب/ جامعة بغداد ، فكانت هذه الرفقة الطيّبة قد استمرّت معبّرةً تعبيرًا صادقًا عن الإخلاص للبحث العلميّ وللزملاء والطلبة .

وقد وجدته على تعاقب الأيّام وتقلباتها ذلك المطبوع بطابع الجِدِّ والمثاليّة والثبات والصدق في القول والعمل ، والأنموذج الحياديّ والمبدئيّ الذي يُظهِرُ مع هذه الجِدِّيَّة وغزارة العلم ، وسماحة الخلق ، ودماثة الطبع ، البعد كلّ البعد عن التصنّع والتكلّف .

لكلِّ ذلك ارتضيت لابنتي طالبة الماجستير فاطمة داخل اختيارها تلك الجهود الجامعة للقديم والحديث ، لباحثِنا الفاضل الذي كانت له آراء في الظواهر اللغويّة ، التي أرى أنّها تستحق الدراسة والتقويم ، التي تشهد على غزارة علمه ، وبها حاجة إلى مراجعة وانتشار، لينتفع بها أهل التخصّص وغيرهم .

وكنت قد وافقت على الإشراف على هذه الرسالة ، التي بَذَلَت فيها الطالبة من جهود ما بذلت ، وقد اعتذرَتْ لما عانت ... فعذرتها .. وهذا ما وضَّحَتْهُ في مقدمتها لرسالتها وفقها الله لكلّ خير وشافاها ... والحمد لله رب العالمين .

الأستاذ الدكتور مجيد نوط الشمّريّ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، الذي له الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

أما بعدُ فهذه الرسالة تسعى إلى متابعة النشاط اللغوي والنحوي للأستاذ الدكتور مهدي صالح سلطان ، الذي اتّسَمَ نشاطه بسمات الباحث الضليع ، والقارئ المُتَتَبِّعِ ، والفَهِمِ الدقيق ، ما جعلني أفكِّرُ في منجزه في اختيار رسالتي للماجستير، تحت عنوان : (الجهود اللغويّة للدكتور مهدي صالح سلطان) ، عَلَّني أحقّقُ إضافة نوعيه إلى مكتبتنا اللغويّة والنحويّة ، ذلك لما لمسته فيما اطَّلَعتُ عليه من أصالة رأي ، ومن محاولات جادّة لتقديمِ رؤًى جديدة لكثير من القضايا التي تتصل بهذا العلم الجليل .

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن يكون منهجها موزّعًا على عشرة فصول يسبقها تمهيد يتضمّن ترجمة لحياة الدكتور، وذِكرِ أهمّ مؤلفاته ، وتتلو الفصول خاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث ؛ أمّا فصول الرسالة فكانت كالآتي :

الفصل الأول : (نَقْطُ المُصْحَفِ الشريف)

الفصل الثاني : (آثار التّفكير في النّقط)

الفصل الثالث : (النّقط والمقطع والعلم اللغويّ)

الفصل الرابع : (التفكير النحويّ)

الفصل الخامس : (القرآن والنحو)

الفصل السادس : (مباحث قرآنيّة)

الفصل السابع : (الأفعال الناسخة)

الفصل الثامن : (الخلاف النحوي)

الفصل التاسع : (جذور اللغات العراقيّة القديمة)

الفصل العاشر: (المصطلح ولغة العلم)

وقد اعتمد منهج بناء الرسالة على وصف ما عرضه الدكتور في مؤلّفاته ، وما تشعّبَ فيه من آراء، وقد حاولتُ استقصاء ما أنجزه ، لكن من دون إحاطة كاملة لدواعي سأذكرها بعد قليل، وربما اختلط حديثي بحديث باحثنا ، أمّا التمييز فإلى الإحالة على المصدر الذي أخذت منه، وكنت قد اعتمدت فيما كنت أعرض للتحليل أو للتعليل لما اقتضته بعض المباحث .

وأذكرُ أنّ أوّل ما واجهني من صعوبات هو التنوع في بحوث باحثنا ، لما واجه من تجارب، وما وجد من دوافع للبحث والكتابة ، ولِما كان له من إمكانات ، ما جعلني أقبل التحدّي ، تحدّي متابعة النشاط الواسع ، وتعقّب شخصيّة الباحث ، برغبة كبيرة في البحث؛ لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السّفن ؛ إذ واجهت الباحثة صعوبات جَمّة ، في المراحل الأخيرة من كتابة الرسالة، حالت دون تحقيق ما كانت تتمنّى، وفي مقدمتها ما صارت تعانيه من مرض نادر، سُمّيَ بـ (داء الذئب الأحمر) ، وهو مرض مناعي يصيب المفاصل أوّلاً ، ثم ينتقل إلى بقية أعضاء الجسم ، ومع مرور الوقت تفاقم تأثير هذا المرض على القلب والكبد، وأخذ الجسم النحيل بالتورم ، وبظهور بقع زرقاء ، أدّى إلى فقدان الحركة فقدانًا كاملًا، ما تسبّبَ بأكثر من جلطة ، ولاسيّما الجلطة الدماغيّة ، التي أقعدت الباحثة وأفقدتها الوعي والنطق والحركة .

وإن أنسَ فلا أنسى من وقف إلى جانبي في محنتي ، وساعدني على إتمام رسالتي ؛ وفي مقدمهم الأستاذ المشرف الدكتور مجيد نوط الشمّري ، وباحثنا الأستاذ الدكتور مهدي صالح سلطان ، وكذلك أساتذتي في لجنة المناقشة ، والفضلاء من أساتذة قسم اللغة العربية ، الذين وقفوا معي فيما عانيت ، فللجميع الشكر والتقدير والدعاء بالصحة والتوفيق ... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التمهيد

حياة المترجم له وآثاره

وُلِدَ باحثُنا المُترجَمُ له الدكتور مهدي صالح سلطان في أواخر عام ١٩٥٠، في بيت متوسّط الحال، قياسًا بما يحيط بأسرته، ولوالدٍ يحفظ القرآن الكريم، ويديرُ حلقة تدريس الأولادِ على طريقة الكتاتيب، ويلتقِي في مجلس جدّه (سلطان) ، كبار رجال قرية الشيخ عبد الله آل حسوني، في ناحية كنعان/ قضاء بعقوبة/ محافظة ديالى ، ليأنسوا بمجلس يقرأُ فيه ولده (ملا صالح) من القرآن الكريم ، ومن الكتب الدينية المتوافرة في حينها ، وكان المُلّا يقرأ أيضًا ما موجود في التقويم السنويّ ، الذي يحتوي في أوراقه المناسبات التي توافق ذلك اليوم الذي هم فيه، ويقرأ أيضًا النصائح والمواعظ التي تتضمنها ، والحوادث التي كانت قد مرّت في ذلك اليوم، وكذلك يقرأ المُدوّن فيها من مواسم الزّرع ، وتغيّر الجو، وغير ذلك من معلومات في أجواء الأميّة ، هذا من مثل ما يؤدّيه الإعلام ، وتتولّاه الثقافة في هذا العصر[١].

وفي الكتاتيب تلقّى المُترجَمُ له أوّل تعليمه على يَدَي والده في سنٍّ مبكرة ، ويَجِدُ أنّ ذلك التعليم يستند في أوّل مراحله إلى ضبط الحرف وحركته ، ومن ثمَّ إلى القرآن الكريم ، وهو الأنسب إلى تعلم اللغة العربيّة وتعليمها ، لأنَّ هذه الطرائق (تنطلق من أسس تناسب العربية دقّةً وسرعة ، ولأنَّ قديم تعليم الكتابة العربيّة يضع بين يدي المتعلمين مرجعًا دقيقًا، يمكّنُهم من مقاطع الكلمات ، وآلية "تهجئة" دقيقة لا بُدَّ أن يتدرّب عليها المنتظم في الكتاتيب[٢] ، إذ إنَّ الحرف العربي يتبين بما يكمّله من حركات أو سكنات ، ولهذا فالكلمة العربيّة لا تتّضح بأحرفها وحدَها خِلوًا من الحركات ، بل لا بُدَّ ممّا يكمَلُ هذه الحروف ، وحينما تختفي هذه الحركات فإنها موجودة في الذهن ، ذهن الكاتب الذي يكتب ، والقارئ الذي يقرأ ، لكنّ المتعلّم المبتدئ لا يستغني عنها في تمييز المقاطع)[٣] .

---

[١] ترجمة حياة الدكتوره مهدي صالح سلطان (مخطوط)، بقلم الدكتور مهدي صالح سلطان، ص١.

[٢] المصدر نفسه .

[٣] الألف باء ومقاطع الحروف ٢١.

وكان باحثنا المترجم له يشهدُ في السنين اللاحقة أنَّ الوالد يدير الردّات الحسينيّة للمواكب التي تنتقل في مجاميع تنشدها من قريةٍ إلى أخرى ، وربما نظم هذه الردّات في الأربعينيّة باسم مجتمعه التي تُظهِرُ محبّةَ الجماعةِ إلى آل البيت عليهم السلام ، وتمسكهم بمنهجهم[٤].

وكان والد الدكتور المعروف بالملا صالح من الأوائل الذين قرؤوا المجلاّت المصريّة كالهلال وغيرها ، وكان قد أدخلها إلى القرية منذ أواخر الأربعينيّات ، هذا في أجواء الأميّة المطبقة ، وكان من الذين يحاولون امتلاك كلّ جديد يتمكن من شرائه ، ينفع به أهل قريته ، فهو أقرب إلى اليسر قياسًا بأقرانه في ذلك الزمان .

وكان والده إلى جانب حلقة الكتاتيب يتاجر بالحبوب في المواسم الزراعية من القرى إلى المدن والقصبات المجاورة ، ما أتاح له التفكير في الانتقال من القرية إلى المدينة ، ولاسيّما بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ ، إذ كان قد قرّر في هذا المقطع من الزمان الانتقال إلى بغداد ، والتحوّل إلى تجارة الأقمشة في منطقة باب الشيخ ، التي كانت المجمع الذي يقصده الناس للتبضّع من المناطق الريفية من ضواحي بغداد ، والمدن المجاورة كديالى وواسط[٥] .

وحينها وجد الوالد نفسه في أجواء جديدة ، وحياة مختلفة ، وتحوّل كامل ، ممّا كان في القرية ، ما جعله يسعى إلى التكيّف والانسجام مع حياة المدينة ، والاستجابة لمتطلباتها، وليسير سيرًا حثيثًا نحو تأمين متطلبات النجاح ، النجاح على المستوى المادّي والحياة اللائقة، وعلى مستوى الطموح في وضع أولاده على سكّة العلم والتعليم ، إذ منعهم من امتهان المهن الحرّة المتاحة له ، والتي يتّخذها الكثير من أقرانه لأولادهم ، والتي ربّما تخفّف عنه الأعباء الاقتصاديّة، ولاسيّما في سنيّ العسر التي واجهته في السبعينيّات ، بعد دخول أولاده الكليّات .

وكان من نصيب باحثنا ، وهو أكبر أولاده على صعيد التعليم أن يدخل المدرسة الابتدائيّة مدرسة الفلاح في بغداد الجديدة ، وفي الصف الرابع الابتدائي من دون المرور

---

[٤] مقابلة شخصية مع الدكتور مهدي ، وترجمة حياة الدكتوره مهدي ٢.

[٥] المصدر نفسه .

بالصفوف الثلاثة الأُول[٦] ، بعد اختبار في القراءة والكتابة والشعر والمعلومات العامّة والرياضيّات، ذلك لأنَّه كان مؤهلاً لهذه المرحلة في الكتاتيب على يدي الوالد .

وتمرّ سنيّ النجاح في الدراسة العامّة الابتدائية والمتوسّطة والاعدادية، الفرع العلميّ، لكنّ خاتمتها لم تكن بمستوى ما كان يُؤمّل الوالد من طموحٍ في القبول في كليّة الطبّ، الذي تحقَّق له لاحقًا . بتوفيق الله . لاثنين من أولاده : الرابع منهم الدكتور الناجح عبد السلام (طبيب الباطنيّة الاختصاص) ، وولده السادس الدكتور المتألّق أحمد(الطبيب الجرّاح الاختصاص)، وخمسة آخرين ، أكملوا الجامعة ، بين مهندس أو متخصّص في الإدارة أو الإحصاء أو الزراعة أو علوم القرآن ، وأبرزهم الابن السابع الأستاذ الكيماويّ المهندس الدكتور منتظر .

لكن حين أنهى باحثنا مرحلة الاعداديّة في سنة ١٩٦٨ انفتحت أمامه فرصة التعيين في وزارة النفط ، وكانت في حينها فرصة كبيرة ، لكنّها لم تكن نهاية المطاف له ولوالده ، فما أن أتيح له التقديم سنة ١٩٦٩ إلى الجامعة المستنصرية، كان أمامه القبول في كليّة العلوم بحسب شهادة الفرع العلميّ ، أو اللغة العربيّة استنادًا إلى الأجواء التي انتمى إليها ، أجواء تعليم القرآن وآداب اللغة العربيّة ، وربما كانت الوظيفة الدافع للبحث عن الثقافة العامّة ولاسيما اللغويّة ، لا التخصّص العلميّ التطبيقي ، الذي ترك اختياره وصار ثانويًّا في الأهميّة[٧]. أمّا الجمع بين الوظيفة البعيدة عن التخصّص والتلمذة التي بها حاجة إلى بذل الوسع والطاقة ، فهذا ما منعه من إظهار كامل إمكاناته ولاسيما في سنيّ الدراسة الأولى[٨] .

وحين أنهى مرحلة دراسة البكالوريوس سنة ١٩٧٤ ، فكّر في الانتقال من وزارة النفط إلى وزارة التربية / التعليم الثانويّ ، راضيًا بالراتب الأدنى ، ومضحّيًا بالامتياز الوظيفيّ ، لأجلِ الخلوص للتخصّص ، في تدريس اللغة العربيّة للمرحلة الإعدادية ، الأقرب إلى النفس والبيئة والشهادة، وهذا ما جعل مدرّسنا الذي نترجم له موضع الجدّية في محاولة الارتقاء إلى مرتبة

---

[٦] ترجمة حياة الدكتوره مهدي ٣ .

[٧] المصدر نفسه ٣ .

[٨] المصدر نفسه .

اتقان تدريس المنهج المقرّر، والانفتاح الواسع على دراسة المواد اللغويّة والأدبيّة في كتابات القدماء والمحدثين[٩] .

وفي دورة من دورات تطوير مناهج اللغة العربية يلتقي بالأستاذ الدكتور نعمة رحيم العزاوي (رحمه الله) ، الذي يشجّعُهُ على مواصلة التقديم للدراسات العليا، ربما لما وجد فيه من مؤهلات ميّزته من غيره من المنتظمين في تلك الدورة ، واطّلاعه على كتب الدكتور المخزومي والجواري وإبراهيم مصطفى وغيرهم ، الكتبُ التي تلقَى قبولاً عند العزّاوي ، وكان لهذا التشجيع الأثر الكبير في الاستعداد لمرحلة الدراسات العليا في أواسط الثمانينيّات[١٠] .

وفي مرحلة الدراسات العليا كان له استعداد آخر واستقرار نفسي ووظيفي واجتماعي، وتنبّهه على أهميّة تكرار التلمذة على أكابر أساتذة اللغة العربيّة المعروفين آنذاك ، وبإحساس جديد وشعور بمسؤوليّة علميّة تتجاوز مجرّد القراءة لأجل النجاح وعبور المراحل الدراسية ، فحينئذٍ وجد نفسه بإزاء مسؤوليّة مواجهة الأساتذة الأجلاء، والعلماء الأعلام والإفادة منهم ومن تجاربهم، وضرورة الارتفاع بمستواه إلى ما ينال رضاهم ، كالأستاذ الدكتور علي جواد الطاهر والأستاذ الدكتور عناد غزوان والأستاذ الدكتور علي الزبيدي والأستاذ الدكتور فاضل السامرائي والأستاذ الدكتور حسام النعيمي والأستاذ الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد، والأستاذ الدكتور هادي الحمداني والأستاذ الدكتور محمد ضاري حمادي والأستاذ الدكتور عدنان محمد سلمان... وغيرهم[١١] ؛ وكان صاحبنا قد كتب رسالة ماجستير بعنوان : الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ، تحت إشراف الدكتور حاتم صالح الضامن ، فيحصل على درجة الامتياز. وينتقل وظيفيًّا إلى معهد المعلمين المركزي سنة ١٩٨٩، ثم إلى كليّة المعلمين سنة ١٩٩٢، ثمّ إلى كليّة الآداب جامعة بغداد، بدءًا بمحاضر من سنة ١٩٩٦، وإلى ملاك الكليّة نفسها سنة ٢٠٠٣.

---

[٩] ترجمة حياة الدكتوره مهدي ٣ .

[١٠] المصدر نفسه .

[١١] المصدر نفسه ٤ – ٥ .

ثم كتب باحثنا أطروحته للدكتوراه بمضمون : (الخلاف النحويّ بين الكوفيّين) ، تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد ، ويحصل على الشهادة بدرجة جيد جدًا عالٍ[١٢] . ويتدرّج في الترقيات العلميّة من مدرّس ١٩٩٦، وإلى أستاذ مساعد سنة ١٩٩٩، وإلى أستاذ سنة ٢٠٠٨ ، ويبدأ مرحلة جديدة من التأليف الجدّي ، والمشاركة بتدريس طلاب مراحل الدراسات العليا الماجستير والدكتوراه ، والإسهام في الإشراف على الرسائل والأطاريح ، ومناقشتهما في كليّته والكليّات الأخرى ، كالجامعة المستنصريّة ، والقادسيّة، والبصرة، والأنبار، وديالى، وبابل، وغيرها[١٣].

آثاره العلمية : أ – الكتب :

١– الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين، طبع في دار الكتب العلمية في بيروت سنة ٢٠١١.

٢– أهل القرآن وتأسيس النحو، طبع في دار الضياء، في النجف الأشرف سنة ٢٠١٢،

٣– في المصطلح ولغة العلم، طبع ضمن منشورات المجموع العلمي العراقي سنة ٢٠١٢.

٤– مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين، طبع في دار الشؤون الثقافية ببغداد سنة ٢٠١٣.

٥– خلف الأحمر والريادة اللغوية ودعوى الانتحال، دار عدنان ٢٠١٦.

٦– أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية، دار عدنان ٢٠١٧.

٧– القرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه، دار عدنان ٢٠١٧.

٨– الألف باء ومقاطع الحروف ، طبعة ٣ ، دار عدنان ٢٠١٨.

٩– خطبة الزهراء سيدة النساء، العتبة العباسية المقدسة، ٢٠١٥.

١٠– موجز تاريخ اللغات السامية، دار عدنان ٢٠١٩.

١١– خطب الإمام الحسن ، دراسة لغويّة في ضوء المناسبة ، العتبة الحسينية المقدسة ، ٢٠٢٠.

١٢– القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربيّ ، دار بين الكتب ، ٢٠٢٠ .

١٣– كتاب قواعد اللغة العربية للصف الخامس العلمي، بالاشتراك مع آخرين .

ب – الكتب المخطوطة : ١ . المعجم الصحي العراقي . **٢ .** القرآن والشاهد منه.

ج– البحوث المنشورة.

---

[١٢] ترجمة حياة الدكتوره مهدي ٣ .

[١٣] المصدر نفسه .

١- التكرار في سورة هود/ مجلة كلية المعلمين، ١٩٩٩.
٢- اختبار التمكن من أساسيات اللغة العربية/ مجلة المجمع العلمي العراقي ٢٠٠٢.
٣- (أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) في القرآن الكريم/ مجلة كلية المعلمين ٢٠٠٢.
٤- التكرار في سورة النجم/ مجلة كلية المعلمين ٢٠٠٢.
٥- تعليم العربية في الكليات التي تدرس بالأجنبية (لغة الضاد) المجمع العلمي ٢٠٠٣.
٦- التغير اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات / مجلة كلية الآداب ٢٠٠٨.
٧- التفكير الدلالي عند الشهيد الثاني، مؤسسة المنتظر ٢٠٠٨.
٨- مختارات من نوادر روضة الكافي، المؤتمر الدلالي للشيخ الكليني ٢٠٠٩.
٩- الزمن في سورة الحاقة، مجلة ن والقلم ٢٠٠٩.
١٠- النجوى في سورة المجادلة، ن والقلم ٢٠١٠.
١١- الأنا والآخر في خطبة الزهراء، المؤتمر التخصصي الرابع ٢٠١١.
١٢- علامات النقط واللحن والدرس الحديث (المعرفة اللغوية) ٢٠١٢.
١٣- الإعراب ومعاني النحو ، مجلة كلية العلوم الإسلامية ٢٠١٣.
١٤- سلمان المحمدي الباحث عن الحق ، المؤتمر السنوي الثاني ٢٠١٣.
١٥- إبراهيم السامرائي وأسطورة المدارس النحوي، دار اللغة العربية، مجلة سيراء ٢٠١٦.
١٦- العربية والعلوم والتعليم ، مجلة المورد ٢٠١٨.
١٧- الفاضلان مطلوب والحديثي، مجلة المجمع العلمي ٢٠١٩.
١٨- التفكير في معجم صحي عراقي، مجلة المجمع العلمي العراقي ٢٠٢١.
١٩- العربية والبدء بتعليم ضبط الحروف، أوراق مجمعية ٢٠٢١.
٢٠- رجل بمجمع ومجمع برجل، مجلة المجمع العلمي العراقي ٢٠٢١.
٢١- استنفر واستفز حوار ومرجعة واستعمال ، أوراق مجمعية ٢٠٢٢.

د-اللجان العلمية:

١- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق ٢٠٠٣ .
٢- عضو اللجنة الوطنية لمناهج اللغة العربية في وزارة التربية لسنة ٢٠١١.
٣- رئيس لجنة اختبار الأساتذة في اللغة في جامعة بغداد للمدة من ٢٠٠٨ إلى ٢٠١٥.
٤- رئيس لجنة الأصوات واللهجات في المجمع العلمي العراقي لسنة ٢٠٢٢.

الفصل الأول
نَقْطُ المُصْحَفِ الشريف

المُقَدِّمَة

النَّقْطُ لغةً واصطلاحًا

جاء عن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ) في معنى النَقط : (نَقَطَ يَنْقُطُ نقطًا، والنُقطة : الاسم ، والنَّقْطةُ مرة واحدة)[١٤] ؛ وعن ابن دريد (ت٣٢١هـ) : (النَّقْطُ : نَقْطُ المُصحفِ وغيره بالقلم ومَا أشبهه ، والواحدة نُقْطَة ، ونَقَطَتِ المرأةُ خَدَّها بِالسَّوَادِ تتحسّن بذلك ، ومَنْه نَقْطُ الْمَصَاحِف)[١٥] ، وقال الأزهري (ت٣٧٠هـ) : (قَالَ اللَّيْث : يُقالُ : نقطَ النَّاقِطُ الكِتابَ : يَنْقُطُهُ نَقْطًا ، النُقْطةُ : الاسْمُ ؛ والنَّقْطَةُ : فَعْلَة واحِدَة . وَيُقالُ : نَقَّطَ ثوبَهُ بالمِدادِ والزَّعْفَرانِ ، تنقيطًا)[١٦] ، وقال الجوهري (ت٣٩٣هـ) : (نقط الكتاب يَنْقُطُهُ نَقْطًا ، ونَقَّطَ المصاحِفَ تَنْقيطًا ، فهو نَقّاط)[١٧] .

وتتسع دلالة النقط إلى أنَّ نقَطَ الكتابَ : شَكَلَهُ ، ونَقَطَ الحرف : مَيّزَه ، ونَقَطَ النَّصَّ: رقَمَهُ بعلامات الترقيم[١٨] ، إذ اتّسع معنى النَّقط ليشتمل على ثلاثة أنواع :

١ . ضبط الحروف بالحركات .

٢ . نقط الأعجام بتمييز الحروف المشتبهة في الرَّسْم ، والإعجام من أعجمت الشَّيْء إذا بَيَّنته[١٩].

٣ . علامات الترقيم التي توضع بين الكلمات والجمل لترشد القارئ إلى ما يناسب الألفاظ والتراكيب والمعاني[٢٠] .

---

[١٤] كتاب العين ٥/١٠٥.

[١٥] جمهرة اللغة ٢/ ٩٢٥.

[١٦] تهذيب اللغة ٩/ ٢٥.

[١٧] تاج اللغة وصحاح العربيّة ٣/ ١١٦٥.

[١٨] معجم اللغة العربيّة المعاصرة ٣/ ٢٧١ .

[١٩] المحكم في نقط المصاحف ٤٣ .

[٢٠] الألف باء ومقاطع الكلمات ١١٧ .

نَقْطُ المُصْحَفِ اصطلاحًا : هي العلامات الدّالة على ما يعرض للحرف من حركة أو شدٍّ أو مدٍّ، وَضَعَها أبو الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ) ، ليفرق بين الحركات المختلفة في اللَّفْظ[٢١] ، ومنها نُقَطُ الإعراب . والإعراب لغة : (هو: البيان ، من أعرب عن الشَيء إذا بيّنه وأوضحه)[٢٢] .

والإعراب اصطلاحًا : تغيّر آخر الكلمة حِسًّا أو حكمًا ، بحركة أو حرف ، لاختلاف العامل لفظًا ، أو معنى ، أو تقديرًا[٢٣] ، والإعراب عند النحويين هو اختلاف آخر الكلمة لاختلاف العامل لفظًا أو تقديرًا ، ويدخل في هذا إعراب الاسم الصحيح والمعتل فالمقصور يقدر على ألفه الإعراب كاللفظ ، وليس كذلك آخر المبني فإن آخره إذا كان ألفًا لا تقدر عليه حركة إلاّ أن يكون مما يستحق البناء على الحركة[٢٤]، وسبب دخول الإعراب هو التفريق بين الفاعلية والمفعولية والإضافة ، وقد احتج القدماء ، أنّ الإعراب لو لم يدخل إلى العربيّة لالتبست المعاني[٢٥] .

---

[٢١] المحكم في نقط المصاحف ٤٣ .

[٢٢] البديع في علم العربيّة ١/ ٤٤.

[٢٣] المصدر نفسه .

[٢٤] اللباب في علل البناء والإعراب ١/ ٥٢.

[٢٥] التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين ١٥٦.

المبحث الأوّل : دواعي ضبط الحروف

يرى الدكتور مهدي صالح أنَّ العَلاقة بين جمع القرآن الكريم ، وتيسير حفظه ، وضبط حروفه، وسلامة نطقه ، جميعها ترتبط بحامله ، وبحاجة المجتمع الذي تلقّاه إلى صيانته من التحريف ، مستندًا في رأيه هذا إلى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾[٢٦] ، مبينًا وجهة الخطاب القرآني ، فالقرآن خاطب المتقين بالبُشرَى ، والإنذار لشديدي الخصومة ، فكانت (حاجة الإفهام والفهم إلى اللغة المشتركة بين الطرفين أكيدة ، وهي منطلق التمكن من إيصال مضامين التنزيل العزيز)[٢٧] ، وقد بيّن أن الحاجة الأساس لضبط حروف اللغة كانت من أجل فهم القرآن وضبط قراءته بعد أن توحد المسلمون على القراءة المتعارف عليها (التي تلقوها بالتواتر عن النبي ص، لكنّ هذه القراءة كتبت خالية مما سمي لاحقًا بالإعراب أو النقط أو الشكل ، ممّا أدى فيما بعد إلى التباس بعض الكلمات ببعض حسب الرسوم الخطية غير المضبوطة)[٢٨] ، وقد أكد ما جاء عن القدماء من أسباب وضع نقط المصحف هي اللحن ، ومن ذلك ما جاء في قول المبرد (ت٢٨٦هـ) بعد ذكره لواقع اللحن والحاجة إلى الضبط : (أنَّ ابنةَ أبي الأسود الدؤلي قالت : يا أبتِ ما أشدّ الحر! قال : الحصباء بالرّمضاء ، قالت : إنَّما تعجبت من شدّته ، قال : أَوَ قد لَحنَ الناس؟ فأخبر بذلك عليّا عليه السلام فأعطاه أصولًا بنى منها، وعمل بعده عليها ... وأبو الأسود أوّل من نقط المصحف)[٢٩].

والغايةُ من ذلك بيّنةٌ واضحةٌ ، فأبو الأسود الدؤلي بتوجيه من علي بن أبي طالب عليه السلام، عمل على (تأسيس ما يُهَيِّئُ إلى تقويم الألسنة ، ويصحِّحُ الغلط ويسهم في حفظ النص الشريف ،

---

[٢٦] سورة مريم ٩٧.

[٢٧] القرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٢٣.

[٢٨] المصدر نفسه ٢٢٤.

[٢٩] الفاضل ، للمبرد ٥ .

ولاسيما بعد انتقاله إلى موضع حاجة المسلمين من أهل البصرة ، مدينة الاختلاط وابتكار العلوم)[٣٠] .

ونقل أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) عن غيره ، قال : (أخبرنا أبو أحمد عن أبي زيد عن أبي حاتم عن محمد بن عباد عن أبيه قال : سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ "أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ"[٣١] ، بكسر لام رسولِه ، فقال : لا يسعني إلاّ أن أصنع شيئًا أصلح به نحو هذا ، فوضع النحو[٣٢] ، قال : وأبو الأسود أوَّل من نقط المصاحف)[٣٣] .

وبحسب الروايات اختلف علماء العربيّة فيمن كان له السبق في وضع نقط المصحف فذهب جمع منهم إلى أنَّ أبا الأسود الدؤلي هو أوّل من وضع نقط المصحف ، ومنهم : أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي (ت٣٥١هـ)[٣٤] ، والصحاري (ت٥١١هـ)[٣٥]، وأبو البركات ، كمال الدين الأنباري (ت٥٧٧هـ)[٣٦] ، وابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)[٣٧] ، اليغموري (ت٦٧٣هـ)[٣٨] ، وشمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ)[٣٩] ، والسيوطي (ت٩١١هـ)[٤٠] .

وكانوا قد عرضوا أنّ المؤسّس وضع هذه النقط ، لما يقابل الرفع والنصب والجر[٤١] ، كما وجدوا أنها تمثل (أساس الضبط الصوتي لحروف ما يقرأ به النص الشريف ، والتثبت من النطق الصحيح من أهل القرآن وخاصته ، لأنهم كانوا مرجعه الأول)[٤٢] .

---

[٣٠] القرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٢٦ .

[٣١] سورة التوبة ٣ .

[٣٢] الأوائل، أبو هلال العسكري ٣٧١ .

[٣٣] المصدر نفسه ٣٧٢ .

[٣٤] مراتب النحويين ١٠– ١١.

[٣٥] الإبانة في اللغة العربيّة ١/ ٢٢.

[٣٦] نزهة الألباء في طبقات الأدباء ٢١.

[٣٧] المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٦/ ٩٦.

[٣٨] نور القبس، أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود اليغموري ، ٢.

[٣٩] تاريخ الإسلام ٥/ ٣٧.

[٤٠] المزهر ٢ / ٣٩٧.

[٤١] مراتب النحويين ٢٤ .

وبهذا يكون أبو الأسود الدؤلي قد وضع الآليات التي تمنع من التوهم أو الغلط ، في قراءة النّص ، ليتمكن بهذا الوضع غير السليقي من استعمال ما تقيّد به الحروف من علامات الهداية إلى الصواب ، ومن بعدها تسويغ وجود هذه العلامات بالقواعد، فكان من نتيجة خطوة الضبط بالنقط التصنيف على وفق ما يناظرها : الفاعل والضمّ ، والمفعول والفتح ، والإضافة والكسر، وكانت هذه هي مرحلة الآليات الجديدة التي تختلف عن سابقتها ، وتتجاوز مرحلة مجرّد وضع الصحيح بمقابل الخطأ ، في بناء جديد ومرحلة جديدة أساسها التفكير بتمييز الحروف بعلامات تضبط الأبنية والتراكيب ، وتمنع من وقوع الخطأ ، عبّر عنها ابن خلدون بالانتقال من المَلَكَةِ إلى القوانين ، (يقال بإشارة عليّ لأنّه رأى تغيّر الملكة ، فأشار عليه [على أبي الأسود] بحفظها، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة)[٤٣] .

ومن البواعث الأخرى لوضع آليات أبي الأسود الدؤلي من التي أضافها الدكتور شوقي ضيف لوقف اللحن ، هي اعتزاز العرب بلغتهم وخوفهم عليها من الفساد ، وكذلك بواعث اجتماعية تعود إلى حاجة الشعوب المستعربة لمن يرسم لها أوضاع العربيّة في إعرابها وتصريفها ، فضلًا عن رقيّ العقل العربي ونمو طاقته الذهنية التي دعته للنهوض برصد الظواهر اللغوية ووضع قواعدها[٤٤] ، ومن مِثلِهِ من التَّوَسّعِ في دواعي الوضع ، ما ذهب الدكتور إبراهيم السامرائي من (أنّ النحو كان ينبغي أن يكون على النحو الواسع الذي تعرفه ولو لم يكن قد ظهر اللحن وشاع)[٤٥] .

ومع أنّ باحثنا الدكتور كان يعي أنّ خطوة أبي الأسود الدؤلي كانت تمثل بداية التفكير في النحو، إلّا أنّه قَوَّمَ هذه الجهد بأن وجده جهدًا علميًّا يستند إلى الحسّ والتجريب ، بالمطابقة بين النطق والسماع والتدوين الصوتي لما يُسمع وينطق، ورجّح ما عرضه أبو الطيّب اللغويّ من أنَّ (أساسَ ضبطِ حروفِ المصحفِ الشريف بالنقط ، كان قد دُوِّنَ من لحظ حركة الفم ومن طريقة

---

[٤٢] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ٦٧ .

[٤٣] مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ٥٩٩ .

[٤٤] المدارس النحويّة ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف، ط٧ ، ١٢.

[٤٥] المدارس النحوية، أسطورة وواقع د. ابراهيم السامرائي: ١١.

النطق ، إذ لا بد أن يكون المؤسس قد فكر زمنًا طويلًا ، ولاحظ نطق الكلمات والحروف الواردة في كلام الناس أو الواقعة في آيات القرآن الكريم وتغيراته ، وراقب شفاه الناطقين بهذه الآيات وميَّز مواقع فتح الشفتين ومواقع ضمّهما ومواقع كسرهما)[٤٦] ، وكل ذلك جرى بمهارة فائقة ودقّة عالية ، وكان المنطلق هو الحفاظ على نص القرآن الكريم ، الذي يتطَلَّبُ هذه الدقة وتلك المهارة ، وقد كان أبو الأسود الدؤلي واعيًا في طريقة اختياره لمن يساعده في تدوين النّقط على حروف القرآن الكريم ، إذ اختار كاتبًا لَقِنًا يفعَلُ ما يقول له أبو الأسود ، فأُتِيَ بكاتِبٍ فلم يَرضَهُ ، فأُتي بكاتب غيره ، قال له أبو الأسود : (إذا رأيتني قد فتحتُ فمي بالحرف فانقُط نُقطة فوقه على أعلاه ، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرتُ فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإن أتبعتُ شيئًا من ذلك غُنّةً فاجعل مكان النقطة نقطتين ، فهذا نقطُ أبي الأسود)[٤٧] .

وإنّ الذي ينظر مليًّا إلى روايات بَدءِ تأسيس علوم العربيّة ، وإلى تسجيل الخطوات الأولى في انتقال الأمة من مرحلتها الأميّة التي كانت عليها إلى المرحلة العلميّة الجديدة ، يَجِدُ أنّ الخطوات الأولى للانتقال ، كانت على يدي أهل القرآن المعتنين بنصّه الشريف المشتغلين بألفاظه ومعانيه ، من ذلك قول ابن خلدون : (إنّ الملّة في أوّلها لم يكن فيها علم ولا صناعة ؛ لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ؛ وإنّما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه ، كان الرجال ينقلونها في صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنّة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ... وكانوا يسمّون المتخصّصين بحمل ذلك ونقله القرّاء ، أي الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أميين ... فهم قرّاء لكتاب الله والسنّة المأثورة ... لأنّهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلاّ منه . قال ص : "تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسُنّتي")[٤٨] . ويروى هذا الحديث برواية : (خلّفتُ فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، حبلان ممدودان من

---

[٤٦] مراتب النحويين ١٠ . ١١، والقرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ٦٨.

[٤٧] أخبار النحويين البصريين ١٦.

[٤٨] مقدّمة ابن خلدون ٥٩٣ ـ ٥٩٤ .

السماء إلى الأرض ، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض)[٤٩] ؛ وتكون هذه هي الانتقالة الكبرى بوصية المبعوث رحمة للعالمين ، وبمباشرة عترته الطاهرة .

وكان هذا التوجّه وهذا البناء من الشأن الخطير في حياة الأمّة دينيًّا وتحوّلها علميًّا ، وفيه الانتقال إلى الخطوات العمليّة الأولى التي أسست لبناء علوم العربية على الأسس الرصينة ، وينقل الدكتور مهدي رأيَ الدكتور حسين نصار في هذا الشأن : (ظهرت فئة أخرى من العلماء، لم يكن همّها الأوّل التدريس بل العلم ، من أمثال أبي الأسود الدؤلي وتلاميذه ، وأراد هؤلاء العلماء الاتصال باللغة في أنقى صورها ...)[٥٠] .

فـ (كان عمل أبي الأسود الدؤلي عملاً معقولاً ، ولأسباب معقولة أيضًا ، فهو لا يستطيع أن يقوم بتلك المهمة الخطيرة من ذات نفسه ، فهذا عمل عظيم الشأنِ خطيره ، يتعلّق بكتاب الله)[٥١] .

ونقرّر أنّ منهج تأسيس النحو نقلَ الأمّة إلى المنهج العلمي في تداول العلوم ولاسيما علوم اللغة العربيّة ، استنادًا إلى حاجة الضبط ، ومن إحساس المشتغلين بالقرآن الكريم بالخلل النطقي لمقاطع الحروف ، فجاؤوا بما يناسب هذه الحاجة .

ولمّا كان تثبيت مؤسّس النحو العربي أصغر وحدة صوتية لغويّة تمييزيّة ترافق الحرف العربيّ ، أي إظهار الوحدة الصوتيّة التي تتألف من الحرف والحركة بوضع العلامات التي تُميّز ضمّ الشفتين بهذا الحرف ، أو فتحهما ، أو كسرهما ...إلخ ، وكان هذا النّقط هو الخطوة الأولى في بناء النحو ، تلبية للحاجة إلى ضبط الكلام على وجهه الصحيح ، فضلًا عن أنّ المعاني المختلفة (يُعَبَّرُ عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ)[٥٢] .

فكان الأساس ضبط حروف ما يُقرأ به النصّ الشريف ، والتَّثبُت من النطق الصحيح من أهل القرآن وخاصته ، لأنّهم كانوا مرجعه الأول ، ومن ثمّ هو اهتمام القرّاء الأساس

---

[٤٩] شرح نهج البلاغة ٩١/٩ .

[٥٠] المعجم العربي ٢٤ .

[٥١] التأليف النحوي بين التعليم والتفسير ، وضحة جمعان ٤٥ . ٤٦ .

[٥٢] أخبار النحويين البصريين ١٦.

عامة في كلّ عصر ، ومنتهاهم إلى ما يوافق ما نزل به نطقًا ، ثمّ كتابةً ، بضبط هذه الكتابة بنقط الإعراب ، وفي النقط أداء الحروف بما يكمّلها ، أداء صوتيًّا صحيحًا ، قال الجاحظ : (والصوتُ هو آلة اللفظ ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف، ولا تكون الحروف كلامًا إلاّ بالتقطيع والتأليف)[٥٣] ؛ لأنّ الضبط في حقيقته صوتيٌّ ، كان قد تحقق بوضع العلامات الكتابيٌّة التي هي من نسيج الكلمات والجمل ، وبه تحقّق التمكن من أوضاع الكلمات في التراكيب ، ومن حيث هي كلمات وأبنية صرفية ، ولـ (أنّ معاني النحو مقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام ... وتوخّي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ) [٥٤] .

ولمّا كان البدء من لحظ الغلط في قراءة القرآن الكريم ، ولا أعتقد أنّ هناك مسوّغًا أجلّ شأنًا عند أهل القرآن من تدارك الغلط فيه ، فالرواية التي تتضمّن (أنّ عليّ ابن أبي طالب ع ، سمِع قارئًا يقرأ على غير وجه الصواب ، فساءه ذلك ، فتقدّم إلى أبي الأسود الدؤلي ، حتى وضع للناس أصلًا ، ومثالًا ، وبابًا ، وقياسًا ، بعد أن فتّق له حاشيته ، ومهّد له مهاده ، وضرب له قواعده)[٥٥] ؛ هي الأقرب للقبول ، وقد تضمّن هذا النصّ الحاجة إلى مجموعة من التدابير العملية المباشرة ، في التصدّي للخطأ في قراءة القرآن، فلا تكون التعليقة ووضع الأبواب والقواعد مما ينسب إلى المؤسس إلاّ نتيجة طبيعيّة ، وثمرة من ثمار هذا الجهد المبارك .

ويسند ما تقدّم ، روايات اللحن ، ولا سيّما النصوص التي تتضمن لحونًا تؤكّد الحاجة إلى حصول الضبط ، من مثل ما (رُوي من حديث عليّ ع مع الأعرابي الذي أقرأه المقرئ : (أنّ الله بريء من المشركين ورسولِه ـ براءة ٣) ، حتى قال الأعرابيّ : برئت من رسول الله ، فأنكر ذلك عليّ ع ، ورسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه : ما

---

[٥٣] البيان والتبيين ٧٩/١ .

[٥٤] المقابسات ٨٠ .

[٥٥] البصائر والذخائر ٨٣/١ .

لا يجهل موضعه) [٥٦] ، ولا أظنّ أنّ (ما لا يجهل موضعه) هو الأبواب البدائية خانات الضبط وحقوله المتحصلة غير المباشرة ، بل الضبط الصحيح الذي يوقف هذا الغلط مباشرة ويفضي إلى ما يتّصل بإيجاد الأبواب أو ما يكمّلها .

ولذلك نرجح أنّ (الخطوة الأولى في وضع النحو ينبغي أن تكون بمثابة ردّ الفعل المباشر لتسرّب اللحن إلى اللغة على الخصوص ، فلا بدّ إذن أن يكون الغرض منها إبعاد هذا الخطر عن نصوص القرآن ، ولن يتأتى ذلك إلاّ بوضع ضوابط عملية تحفظ عليه نصوصه ، وتسهل على من لم يكن متمكّناً من العربية قراءته) [٥٧] قراءة صحيحة .

ويكون أبو الأسود الدؤلي قد تلقى التوجيه الصحيح بإبعاد خطر اللحن بوضع الضبط ، لأنه قد اختصّ بجمع ما رواه عن الإمام ع من هذا العلم أو أكمل ابتداعه ، لذلك لا نرى إلحاق الأبواب البدائية الأولى به أو بالإمام ع مما ينفي النسبة عن أحدهما ، لأنّ أبا الأسود ينسب هذا العلم إلى الإمام ع ، ويترجح أنّ الجهد مشترك بينهما في التنبيه على المطلوب والمناسب ، وتثبيت الملامح الأُوَل لهذا البناء الشامخ ، وكان الفضلُ لأبي الأسود في الحفظ والتنفيذ ، وإكمال ما تلقّاه من توجيه ، وما ينسبه الرواة لأحدهما يوجب التفكير باشتراك الآخر معه ، استنادًا إلى جميع معطيات هذه القضية ، وكامل تفرعاتها في الزمان والمكان ، وقولهم : (وكان أوّل من أسّس العربيّة وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها ، أبو الأسود الدؤلي ... وإنّما قال ذلك حين اضطرب الكلام ، فغلبت السليقة ، ولم تكن نحوية ، فكان سراة الناس يلحنون ، فوضع باب الفاعل ، والمفعول ، والمضاف ، وحروف والرفع ، والنصب ، والجزم)[٥٨] . لا ينصرف هذا إلى أحدهما ، ولاسيّما تضمّن هذه الرواية مجمل ما حصل من وضع هذا العلم ، ويتضح أيضًا : أنّ

---

[٥٦] الخصائص ٢/١٠.

[٥٧] دراسات في اللغة والنحو حسن عون ٢١١ .

[٥٨] طبقات فحول الشعراء ١/ ١٢ .

داعي وضع النحو لم يقتصر على حاجة الأعاجم وعامة الناس بل حتى السراة ، وإلى أسرة أبي الأسود نفسه ، فأوجب ذلك تدارك هذا الموقف الخطير ، واتخاذ ما يناسبه .

ويُؤكِّد ذلك أنّ أخذَ أبي الأسود عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام(لأنه سمع لحنًا) ، فقال لأبي الأسود : اجعل للناس حروفًا ، وأشار إلى الرفع والنصب والجرّ[٥٩] ، ولا يُتصور أنّ الإشارة إلى الرفع والنصب والجرّ هي الأبواب المنسوبة مرة إلى الأمام ع وأخرى إلى أبي الأسود ، إذ هي فيما أحسب واستنادًا إلى الفهم المباشر من نصّ العبارة أنّها : علامات الضبط ، النواة الأولى لهذا العلم ، ومداره الذي دار به ، وحتى القول بالأبواب، ما هي إلاّ الإشارة إلى إظهار وظيفة الضبط وأثره ، ولو تأملنا المرويّ من أسماء وعبارات وعنوانات هذه الأبواب المذكورة قبل قليل في رواية طبقات فحول الشعراء وغيره، هي ثلاثة بعدد علامات الضبط لا أكثر ولا أقل ، الفاعل : النموذج الذي يمثل علامة الضبط بالضم ، والمفعول : نموذج الضبط بالفتح ، والمضاف : النموذج المتصل بضبط الكسر، ثمّ لو دققنا فيما أُتْبِعَ به ذكر الأبواب الثلاثة ، لا نجد سوى مسببات ظهور هذه العلامات ، وهي الإشارة إلى : الرفع : ما يسبب ظهور الضمة ، والنصب : ما يسبب ظهور الفتحة ، والجرّ: ما سبب ظهور الكسرة ، فالراوية تؤكد بعضها بعضًا وجاءت بعبارات أو مصطلحات القرن الهجري الثالث ، وتسميتها بالأبواب ربما كانت تسمية مجازية باعتبار ما صارت إليه ودلّت عليه ، في تداول النحويين من أهل ذاك القرن .

قال ابن حزم : (معنى النحو هو تنقل هجاء اللفظ وتنقل حركاته الذي يدل على ذلك اختلاف المعاني ، كرفع الفاعل ونصب المفعول ، وخفض المضاف إليه ... فإنْ جهل هذا العلم عسر عليه علم ما يقرأ من العلم)[٦٠] .

---

[٥٩] مراتب النحويين ٢٤ .

[٦٠] ابن حزم الرسائل ٦٤ .

ولا بُدّ من لحظ اختلاف ما تحقق للعربيّة من منطلق ما طابق حاجتها ، ومن تمسّك هذه اللغة بكتابها المقدّس ، وحينئذٍ تتعذّر موازنة هذا الانجاز بما تحقق للغات الأوربيّة التي انقطعت عن ماضيها[٦١] .

[٦١] حركات العربيّة ٢٦ .

المبحث الثاني : واضع نقط المصحف الشريف

هناك من خالف السائد في تعيين من أسّس نقط المصحف الشريف ، وما جلبه هذا الضبط من مراحل تطور العلم اللغوي ، إذ ذهبوا . على سبيل المثال . إلى أنّ يحيى بن يعمر هو أول من وضع النحو ، (وقيل هو أول من نقط المصحف)[٦٢] ، ومن الذين عرضوا هذا السائد ، ونسبوا إلى يحيى بن يعمر وغيره : المازري (ت٥٣٦هـ)[٦٣] ، وسبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ)[٦٤] ، وجمال الدين المزّي (ت٧٤٢هـ)[٦٥] ، وأبو حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ)[٦٦] ، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ)[٦٧] ، وابن عادل (ت٧٧٥هـ)[٦٨] ؛ وذهب السيوطي إلى عرض هذا الخلاف في قوله : (اختُلِفَ في نقط المصحف وشكلِه ، وقال : أوّل من فعل ذلك أبو الأسود الدؤلي بأمر عبد الملك بن مروان ، وقيل : الحسن البصري ويحيى بن يعمر، وقيل : نصر بن عاصم الليثي وأول من وضع الهمز والتشديد والروم والإشمام الخليل)[٦٩] .

وكان الدكتور مهدي صالح قد تناول روايات التشكيك ، فقدّم أولًا الروايات التي وردت عن القدماء ، إذ أورد ما جاء في أخبار النحويين البصريين ، والمزهر، وبغية الوعاة ، ونزهة الألباء ، ومراتب النحويين[٧٠] ، وجميعها توثّق أنّ الرائد في وضع نقط المصحف هو أبو الأسود الدؤلي ، وأنَّ ذلك كان بتوجيه مباشر من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وإشرافه ، فضلًا عما نقله عن الدجيلي محقق ديوان أبي الأسود الدؤلي الذي

---

[٦٢] نور القبس ٨ .

[٦٣] المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٤٨٦.

[٦٤] مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ١/ ٢٧ ، ٤٢٨/٩.

[٦٥] تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٣٢/ ٥٤.

[٦٦] البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ، تح صدقي محمد جميل ٣٤٩/٦ .

[٦٧] البداية والنهاية ٩/ ٨٨.

[٦٨] اللباب في علوم الكتاب ١١/ ٢٤٦.

[٦٩] الإتقان في علوم القرآن ٤/ ١٨٤.

[٧٠] أخبار النحويين والبصريين ١٤، ١١، ونزهة الألباء ٥، وبغية الوعاة ٢/ ٢٢ .

نسب النحو لأبي الأسود ، في قوله : (نحو أبي الأسود هو في الواقع تثبيت النطق العربي حين قراءة القرآن ، فهو إذن قد وضع الجذور للنحو العربي ؛ ومن هذه النقط ابتدأ النحو)[٧١] .

وقد سَبَقَه إلى هذا الرأي الشيخ محمد حسن آل ياسين مؤيّدًا ما ذهب إليه جمعٌ من العلماء ، قال الشيخ : (وكان أبو الأسود أوّلَ من أسس العربيّة ، ونهج سبلها ، ووضع قياسها)[٧٢] ، وأكّد أنّه أول من عمل كتابًا في النحو متصلًا ذلك كله بإشارة وتلقين من علي عليه السلام[٧٣] ، وهذا ما جاء عن المتقدمين كابن النديم (ت٤٣٨هـ)[٧٤]، وياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)[٧٥] ، ومن المتأخرين ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ)[٧٦] ، والزبيدي (ت١٢٠٥هـ)[٧٧].

وقد ذهب آخرون إلى إنكار هذه الروايات ، إذ ذكر الدكتور مهدي صالح ما جاء عن بعض المحدثين باختلاف الحجج ، من ذلك ما ذكره الدكتور شوقي ضيف ، إذ نسب الروايات التي تحيل على أبي الأسود إلى الشيعة على أنَّه ميل مذهبي ، قال : (قد يكون من صنع الشيعة ، وكأنّهم رأوا أن يضيفوا النحو إلى شيعي قديم ، فارتفع به بعضهم إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ، ووقف آخرون عند أبي الأسود صاحبه الذي كان يتشيع له ...)[٧٨] ؛ ورأى أن طبائع الأشياء تنفي أن يكون قد وضع ذلك ، وينفي ما جرى من تقسيمات منطقية ، يمكن أن تصدر عن علي بن أبي طالب[٧٩] .

---

[٧١] ديوان أبي الأسود، تح الدجيلي ٧٠.

[٧٢] ديوان أبي الأسود الدؤلي، تح الشيخ محمد حسن آل ياسين ١١ .

[٧٣] المصدر نفسه ١٢.

[٧٤] الفهرست ٦١.

[٧٥] معجم الأدباء ٤/ ٤٦٥.

[٧٦] شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١/ ٢٩٧- ٢٩٨.

[٧٧] حكمة الإشراق إلى كتاب الآفاق ٦١.

[٧٨] المدارس النحوية، شوقي ضيف ١٤- ١٥.

[٧٩] المصدر نفسه ١٤.

وذكر الدكتور مهدي أنَّ الأستاذ أحمد أمين سبق الدكتور ضيف إلى هذا الرأي ، وقد ربط رواية لحن ابنته برواية هندية ، وقال : (أنا أخشى أن تكون حكاية أبي الأسود قد وضعت في العربيّة على نمط الحكاية الهندية)[٨٠] ، ثم ذكر أنَّ سعيد الأفغاني تابعه على ذلك بسبب مختلف فقد رمَى عصر أمير المؤمنين وأبي الأسود بالضعف والقصور عن التفكير في العلوم ، وإلى ذلك ذهب الأستاذ إبراهيم مصطفى ، وقد عَزّز رأيه بأن المستشرقين أنكروا ذلك وعدّوه حديث خرافة [٨١] ، فضلًا عن ذكره لآراء الشيخ الطنطاوي التي وصفها بالمضطربة ، لكنّ آراءه اقتربت من الواقع في قوله : (فالذي نَخالَهُ قريبًا من الواقع ويرتضيه النظر أنّ أبا الأسود الدؤلي هو واضع هذا الفن ، ونسبة هذا الوضع إنما تُعَدُّ نتيجة لقيام الواضع ببعض الأبواب الأساسية في ذلك الفن وهذا ما كان لأبي الأسود)[٨٢] ، وأورد الدكتور مهدي رأيًا آخر للدجيلي يرى فيه أنّ العرب في صدر القرن الأول للهجرة كانت بعيدة عن أن تصل إلى مستوى التقسيم والتبويب وتعريف الجزئيات ...)[٨٣] .

وكان الدكتور مهدي حريصًا على نسبة تأسيس هذا العلم إلى من ابتدعه ، وفي الوقت نفسه ، عرض آراء المؤيدين والمشككين ، إذ ناقش هذه الآراء وردَّ عليها بما يناسبها ، ومنها ما جاء عن الدكتور الدجني في قوله : (وجدت أنَّ الامام عليًا لم يعمل في النحو شيئًا ، وكل ما عمله في هذا الموضوع أنه أيَّدَ أبا الأسود وشجعه على السّير قدمًا في هذا المضمار، وقام مؤرخو الشيعة ونسبوا النحو للإمام علي كرم الله وجهه)[٨٤] ، وقد اضطر للتعجب أو قُلِ التهكم بأسلوب مهذب في قوله مخاطبًا الدكتور الدجني : (وكأنّه

---

[٨٠] ضحى الإسلام ١/ ٢٥٧ ، والقرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٣٥.

[٨١] في أصول النحو ١٥٥، والقرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٣٥– ٢٣٦.

[٨٢] نشأة النحو ٢٨، والقرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٣٦.

[٨٣] ديوان أبي الأسود الدؤلي الدجيلي ٦٦ ، وأبو الأسود الدؤلي السيد هاشم محمد ١٣٠–١٣١، والقرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٣٧ .

[٨٤] أبو الأسود الدؤلي ١٠، وأهل القرآن وتأسيس النحو ٥٨.

كان حاضرًا ما جرى بين أبي الأسود والإمام عليه السلام ليشهد وضع الخطوة الأولى في بناء هذا العلم الجليل ، حتى أنه قرّر تكذيب ثاني الاثنين ، عند نسبته هذا العلم إلى صاحبه، ويكذب كذلك المؤرخين عامة ، وأهل طبقات هذا العلم خاصة ، والجميع معروفون بالصدق والورع والصلاح والتقوى ، من دون أن يأتي الباحث الفاضل هو وغيره بأيّ دليل سوى تكذيب ما رسخ في العقول ، وقد ضرب هؤلاء عرض الحائط تواتر الروايات ، وما استقرّ منسوبًا لأهله في هذا العلم وليس عندهم سوى الظن)[٨٥] ؛ وقد استفاد من ردَّ مثل هذا الجحود ، بقول الزجاجي : (ليس يجب علينا تركَ ما قد تيقّناه وعرفناه حقيقةً وَصَحَّ في العقول لشكّ بغير دليل ولا برهان ؛ لأنّ الشكوك لا تدفع الحقائق)[٨٦] .

ثمّ إنّ أبا الأسود على رأي الدكتور مهدي نسب الفضل إلى أهله في ابتداع هذا العلم ، فلماذا لم يدَّعِه لنفسه لو كان قد انفرد بوضعه ؟! وأبو الأسود موجود في البصرة قبل مجيء الإمام ، بنحو عقد ونصف من السنين ، فلو اكتمل هذا العلم عنده من دون الإمام ، لكان أظهره أو شاع منسوبًا إليه ، وَحدَهُ قبل قدوم الإمام ، فلماذا يؤجّل إظهاره إلى أن يأتي الإمام ؟! إذ تشتبك الأمور وتتعقّد الأوضاع العامة ، ولاسيّما ما يخصّ الدؤلي نفسه ، ثمّ ما سرّ إبعاد نسبته عن نفسه ؟ ولا نرى ذلك إلاّ أن يكون ما نسبه صحيحًا ، وإلاّ فلماذا هذا التأخير؟ ولماذا ينسب إلى الإمام ما ليس له ؟ وأبو الأسود بالمكانة العالية الموصوف بها من الوثاقة ؟ ومعروف أنّ النسبة إلى الإمام تضرّ أبا الأسود ولا تنفعه ، مثلما هو معروف في زمنه اللاحق !![٨٧] .

فعلى الرغم من اعتراف أبي الأسود بوضع الإمام الخطوة الأولى في بناء العربية ، لكنّ اللّافت أنّ بعض المحدثين لا القدماء ـ هذه المرّة ـ يتفنّنون في افتراض التشكيك ،

---

[٨٥] أهل القرآن وتأسيس النحو ٥٨.

[٨٦] الإيضاح في علل النحو ٤٣ ، وأهل القرآن وتأسيس النحو ٥٩ .

[٨٧] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ٩٨ .

ومحاولة البرهنة على ما لا وجود له ، إذ لا يكتفي المشكّك منهم بنفي نسبة وضع النحو عن الإمام ، بل نفي نسبة هذا العلم أن يكون من ابتداع العرب والمسلمين ، استنادًا إلى موضوعية مُدَّعاة ، ولاسيما من تلامذة الجاحدين لأيّ فضيلة لهذه الأمة حتى في لغتها، أولئك الذين انبهروا بما عند الغربيين ، بل ربما بجميع ما عندهم ، من دون دليل أو تَثَبُّتٍ، ولاسيّما قبل منتصف القرن الميلادي الماضي .

أمّا إنكار منطلقات تأسيس هذا العلم ، وصَدّ جميع ما رُوِيَ جملةً من دون تمييز هو الإشكال الذي يوجب المراجعة والإنصاف ، فقد تجاوزَ بعضُ المحدثين روايات تشكيك القدماء ، ولم ينظر هؤلاء المشككون إلى معطيات نشأة النحو ، ولا مُنطلق بناء مسائل هذا العلم ، ولا إلى تدرّج ما حصل من تتابع اكتمال أساسيّاته ، ولم يَرَوا أنّ الربط بين الضبط وما صدر في تلك الحقبة من قواعد منطقي ومتوقع ، في جهود حثيثة امتدّت قرنًا من الزمان ، إذ كان الضبط بالنقط قد جلب التفكير في آثاره وتمييز تنوّعه ، بدليلين (حاسمين : الأوّل هو أنّ ما وصل إلينا من المصاحف المنقوطة بالكيفيّة المنسوبة إلى أبي الأسود ، فجزء منها يرجع عهده إلى القرن الأوّل الهجري ، وبعضه ربما يرجع إلى نهاية النصف الأوّل منه ، والسبب الثاني هو اتفاق هذا الحدث التاريخيّ مع الروايات القديمة التي تنسب وضع النحو إلى أبي الأسود ، وكذلك نقطه للمصحف ، بالتعاون مع أولي الأمر) [٨٨] .

إلّا أنّ الأهم في هذا المضمار ما تفضل به الشيخ محمد حسن آل ياسين ، الذي يأبى التسليم لمثل هذا التشكيك ، في قوله : (إنّ التشكيك في انتساب النحو لعليّ عليه السلام مع تضافر الروايات وتواترها في ذلك لن يكون له محصلة إلّا السماح برفع اليدِ عن أيّة قضيّة تاريخيّة اتفقت عليها الكلمة ... وهذا ما يرفضه المنهج العلميّ كلّ الرفض ، وتأباه الدراسة الموضوعيّة أشدَّ الإباء)[٨٩].

---

[٨٨] منطق العرب في علوم اللسان ١٧ .

[٨٩] ديوان أبي الأسود ، تح آل ياسين ٢٢، والقرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٣٧.

ويستفيد باحثنا أيضًا من الآراء التي تصدت للإنكار، من مثل رأي الدكتور عبد الرحمن السيد، الذي وجد أنّ هذه الآراء مجتلبة سارت خلف المستشرقين بغير هدًى[٩٠] ، مما دعا الدكتور مهدي صالح بعد تقديم هذا العرض إلى القول : (كان الانسياق وراء المستشرقين في هذا العصر، والقبول بكل ما عندهم ، ذلك لشعور المنساقين بالعجز، وانبهار المتابعين بما وجدوه من تقدم علمي ، ومنجز حضاري تقني ... وقد عبر المندفعون خلفهم ، عن عقد النقص والشعور بالتقصير، فسَلَّمُوا أن لا إبداع للعلوم إلاّ ما أبدع الغربيون ، ولا تأسيس إلاّ ما أسسوا ، ولا ريادة إلّا لمن ارتضَوا ، ولا مبادئ للعلوم إلّا أنْ تكون قد صدرت عنهم ؛ فلا يقرّون للحضارة العربيّة الإسلاميّة نعمة التفكير حتى في لغتهم ... التي هي الشاغل للمسلمين وأوّل ما يتداولون ويعتنون)[٩١] ؛ (فمن الغريب بعدئذ أن يستنكر المستشرقون هذه النسبة المتواطأ عليها قديمًا وحديثًا)[٩٢] .

أمّا إذا أردنا نسبة الآراء إلى أصحابها . بحسب الدكتور مهدي . فلا نعدو قول الدكتور صبحي صالح الذي قرن عناية القوم . بحسب تعبيره . بالروايات التي يستمدون منها المسألة النحوية بعنايتهم بالروايات التي يستمدون منها المسألة الدينية ، وأن أبا الأسود الدؤلي (عزا إلى عليٍّ التفكير الأوّل في ذلك الأمر، وفي عزوه هذا ضَربٌ من الإسناد يؤكّد التبكير في إيضاح طريق التحمّل والأداء ولو لم يتعلّق المرويّ بموضوع دينيّ تشريعيّ ، وأبو الأسود كما نقل عن عليّ هذه الرواية وأسندها ، أخذ عنه الكثير من فتواه في الدِّين عازيًا إليه ما أخذ أوضح ما يكون العزو والإسناد)[٩٣] .

وقد ضاعت الكثير من الروايات ، في مثل هذا الشأن بسبب (الظروف التي مُنِعَ فيها من تدوين العلوم حتى منتصف القرن الهجري الثاني ، وبسببها اختفت الأدلة التفصيلية

---

[٩٠] مدرسة البصرة ٥٣ ، والقرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٣٧.

[٩١] القرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٣٧ . ٢٣٨ .

[٩٢] نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ٢٦.

[٩٣] علوم الحديث ومصطلحه ٣١٨ .

لكامل نصوص نشأة النحو كغيره من العلوم ، فضلًا عن أحداث منعت من تداول ما يتصل بالإمام وأصحابه)[٩٤] .

وقد رجّح باحثنا الدكتور مهدي صالح رأيٍ الدكتور كمال إبراهيم في عدم جواز متابعة المستشرقين والأخذ بأقاويلهم ، قائلًا : (وهذه كلها أقاويل واجتهادات لا تقوم على سند يُعتَدُّ به ، والروايات التي هي أقرب إلى عهد الوضع ، هي الأحرى بالأخذ والثقة بها)[٩٥]. (فمع وجود هذه الروايات والنصوص الكثيرة وإجماع القدماء ، المقاربين في زمانهم لزمان أبي الأسود على وضعه للنحو، فلا مجال لكل هذه الاجتهادات والافتراضات والسفسطات ، والاعتراضات المشكِّكة لوضع أبي الأسود للنحو حتى لو تلبست بلباس البحث العلمي)[٩٦] .

ويمكن القول إنّ الدكتور مهدي صالح لم يكن أول المحدثين خوضًا في موضوع نقط المصحف وأول الباحثين عن حقيقتها والمتصدين لها إلاّ أنه مع ذلك استطاع أن يضيف أدلة جديدة ، وأن يقدم آراءً ساندة محققة تارة بالدليل النقلي وتارة أخرى بالدليل العقلي المنطقي .

---

[٩٤] القرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٣٨ .

[٩٥] مجلة البلاغ، واضح النحو الأول، د. كمال ابراهيم، العدد٨ ، ١٨.

[٩٦] مجلة تراثنا، مؤسسة آل البيت ، أبو الأسود الدؤلي ودوره في وضع النحو العربي، السيد هاشم الهاشمي ٤٣.

المبحث الثالث : وحدة الضبط وحدة الإعراب

حاول باحثنا الدكتور مهدي صالح الرَّبطَ بين نقط المصحف الشريف والتأسيس الصوتيّ لعلوم اللغة العربيّة ، إذ وجد أنّ مؤسّس النحو العربي كان قد وضع ما يُنبّهُ على اكتشاف أصغر وحدة صوتية لغويّة تمييزيّة ترافق الحرف العربيّ ، بالنقط الذي أظهر العلامات التي تُميّز ضمّ الشفتين بالحرف أو فتحهما أو كسرهما ... إلخ[٩٧] ، وأنّ الضبط بالنقط جاء من لحظ حركة الفم ، ومن طريقة النطق ، إذ لا بدّ أن يكون المؤسِّسُ قد فكّر زمنًا طويلًا ، ولاحظ تَغَيُّرَ نطق الحروف الواردة في كلام الناس أو الواقعة في آيات القرآن الكريم ، وراقب شفاه الناطقين بهذه الآيات وميّز مواقع الفتح والضّم والكسر، وهذه هي بداية التفكير في النحو[٢] استنادًا إلى تعرّف الوحدات الصوتيّة ، لـ (أنّ عبارة "فتح" الفم و"كسره" و"ضمه" يَسّرت خلق مصطلحات ثلاثة للإشارة إلى هذه النُّقطِ ، وإلى طريقةِ نطقِها أيضًا ، وتلك هي المصطلحات "الفتحة" و"الكسرة" و"الضمة"؛ ولعل الوصول إلى هذه المصطلحات كان (كشفًا هائلا يقف من بناء صرح النحو العربي موقف اكتشاف النار من تقدم الحياة الإنسانية ، ولعل الدليل القوي على ذلك أنّ النحو العربي بُنِيَ كلُّه على هذه الحركات ، لكونها أصبحت علامات الإعراب)[٩٨].

و(إنّ نظرة واحدة إلى هذا النصّ [نص تنقيط المصحف] تشير في وضوح إلى أنّ أوّل من تكلّم عن حركات الإعراب والتنوين هو أبو الأسود، وما النحو في مظاهره العديدة، وقضاياه المتشعّبة إلاّ هذه الحركات التي تتناول معظم أبواب النحو: المرفوعات ، والمنصوبات ، والمجرورات)[٩٩] ، بل هي كلّ النحو العربي ، على رأي من يدّعي أنّ النحو هو الإعراب وهذا التنقيط هو علاماته التي تحدّده ، وبه ثبّتَت أركان ما صار يعرف فيما بعد بعلم النحو، وإلى ما تعورف عليه لاحقًا من مصطلحات ، فما كانت عبارات ما ضُبِط به النصّ القرآني [فتح الفم

---

[٩٧] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ٧٨.

[٩٨] الأصول ٣١ .

[٩٩] الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ٢٢٢ .

وكسره وضمه] إلاّ مصطلحات هذا العلم ، تُومِئُ إلى عبقرية الواضع وإبداع المنفذ ، وهما أهل القرآن وخاصته ، الذين نهلوا من علم النبي ص ، وارتووا من نهل مدينته[١٠٠] .

قال الدكتور كمال بشر (إنّ أبا الأسود نهج في هذا الأمر نهجًا عبقريًّا ، مازال الدارسون المعاصرون يعتمدونه واحدًا من سبل تعرف الحركات والوقوف على خواصها وأنواعها ، أخضع عمله للتجريب والتذوّق الفعلي للحركات القصيرة ، معتمدًا في ذلك على وضع الشفاه من فتح وكسر وضمّ لها، ومن ثمّ كانت التسمية التقليديّة المعروفة، الفتحة والكسرة والضمّة)[١٠١] . فالرواية عن أبي الأسود الدؤليّ : (إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه من أعلاه . وإنْ ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف . وإنْ كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف . فإن أتبعت شيئًا من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين)[١٠٢] ؛ وكان ذلك تثبيتًا لواقع النطق والسماع ، واتجاهًا سديدًا في التأسيس لعلوم هذه اللغة ، وإقرارًا لثنائيّة الحرف والحركة ، من مثل قول القدماء : إنّ الحرفَ إمّا أن يكون متحرّكًا أو ساكنًا ، إذ لا بُدّ له من حركة ، تتبعه أو تسبقه في تأليف الكلمة الواحدة ، أو ما تتركب منه العبارات والجمل ، فالحركة تكمّل الحرف ، وتميّزه في النطق والسمع والكتابة ، ودليلنا الحاجة إلى ضبط الكلمات بحركات قصيرة أو طويلة، وكان اللافت أنّ تطبيق (نقط الإعراب) أفضى إلى معرفة العلامة اللغويّة (الوحدة الأساسيّة) لهذه اللغة لأنَّ المعاني المختلفة (يُعبّر عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ)[١٠٣] ، وبهذا الاختلاف تتّضح الفوارق بين الوحدات اللغويّة الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والدلاليّة[١٠٤] ؛

---

[١٠٠] أهل القرآن وتأسيس النحو ٧٨ . ٧٩ .

[١٠١] علم الأصوات ٤٢١ .

[١٠٢] أخبار النحويين البصريين ١٢ ، والفهرست ٦٣ .

[١٠٣] الإحكام في أصول الأحكام ١٩٣/٢ .

[١٠٤] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربيّ ٢٠١ .

باختلاف الحركات وبناء الألفاظ) [١٠٥] ، وبهذا الاختلاف تتّضح الفوارق بين الوحدات اللغويّة الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والدلاليّة[١٠٦].

لكنَّ هناك من لم يلتفت إلى جهود هذه المرحلة ، ومنهم الدكتور علي خليف الذي ذكر (إنَّ مؤسس الدراسات الصوتية عند العرب هو الخليل بن أحمد الفراهيدي وهذا الرأي لا جدال فيه ، فهو الذي وضع أسس هذا العلم ، وتابعه في ذلك علماء العربيّة)[١٠٧] ، لكنَّ الدكتور مهدي صالح كان قد نبّه على أنَّ بداية الدرس الصوتيّ كان من الجهود المبكّرة التي وضعها أبو الأسود الدؤلي .

---

[١٠٥] الإحكام في أصول الأحكام ١٩٣/٢ .

[١٠٦] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربيّ ٢٠١ .

[١٠٧] منهج الدرس الصوتي عند العرب، علي خليف حسين، أطروحة دكتوراه، آداب بغداد ٦ .

المبحث الرابع : نقط الإعراب والوحدات اللغويّة الصغرى

نجدُ مما تقدّم أنّ نقط الإعراب (علامات أو وحدات صغرى تتعين بها الوظائف اللغوية ، وبها يتميز صوت من صوت وكلمة من كلمة ، أو هي الأدوات . على سبيل الجواز . التي تُنَبِّهُ على الخانة ، أو الجدول الصرفي العمودي ، أو النحوي الأفقي ، الذي تنتمي إليه الكلمات في التراكيب ، فبين مفردات الباب الذي تحتل به تلك الخانة ، أو أن تقع ذلك الموقع ، فترتبط علامة الضبط بتمييزِ بِنيَةِ المفردة ، ووظيفتها التي يمكن أن تحتلَّها ، وكذلك أثرها في البناء اللغوي)[١٠٨] ، فالنُّقَطُ مع الحروف هي التي ميّزت الدلالة الصوتية أو الصرفيّة أو النحوية ، في الربط بين النّقط وهيأة الفم ، فعبارة فتح الفم وكسره وضمه يَسّرَت خلق مصطلحات ثلاثة للإشارة إلى هذه النُّقَطِ ... وإلى طريقة نطقها أيضًا ، وتلك هي المصطلحات الثلاثة : "الفتحة" و"الكسرة" و"الضمة")[١٠٩] .

وقد حاول الدكتور مهدي إظهار أهمية نقط الإعراب ، التي جاءت بالأفكار التأسيسية البدائية لعلوم اللغة العربيّة ، تلك التي صارت تنمو وتترقى مرحلة بعد مرحلة[١١٠] .

فهي الخطوة الكبيرة هي التي جاءت بعلوم العربيّة ، بعد أن وجد اللحن يَتَفَشَّى في زمن علي بن أبي طالب عليه السلام ولاسيما في مدينة البصرة عام ٣٦ للهجرة النبويّة .

ومن هذا : (ما يروى في شأن الحاجة إلى النحو: عن صعصعة بن صوحان قال : جاء إعرابي إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين كيف نقرأ هذا الحرف (لا يأكله إلاّ الخاطون) كلنا والله يخطو، فتبسم عليٌّ عليه السلام وقال : (لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ . الحاقة ٣٧) ، قال صدقت يا أمير المؤمنين ، ما كان الله ليسلمَ عبده ، ثم التفت عليٌّ عليه السلام إلى أبي الأسود الدؤلي فقال : إنَّ الأعاجم قد دخلت في الدين كافة فضع للناس شيئًا يستدلون به على صلاح ألسنتهم،

---

[١٠٨] القرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٨٠.

[١٠٩] المصدر نفسه ٦٨ .

[١١٠] المصدر نفسه ١٢٥.

فرسم له الرفع والنصب والخفض)[١١١] ، والرفع والنصب والخفض علامات النقط وفي الآنِ نفسه هي علامات النحو؛ وبهذه العلامات ومقاطعها يُميّز بين الألفاظ المتشابهة المختلفة المعاني ؛ وقد اعتمد الدكتور في تعضيد ما ذهب إليه على آراء القدماء ، فقد ذكر قول ابن فارس : (الإعراب هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل عن مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدرٌ من صدر، ولا نعت من توكيد)[١١٢] .

وقد جاءت البدايات الأولى للتفكير في تمكين الأعاجم من القراءة الصحيحة وتوجيه تأثيرهم في استعمال لغة العرب ، إذ إنَّ (الضبط بالنقط علامات تظهر سرّ تأليف المقاطع والكلمات والجمل ، والوسيلة العملية والعلمية في التحليل اللغوي ، ومنه انطلق الدرس اللغوي بحسب ما اقتضته طبيعة اللغة العربيّة استنادًا إلى منهج عربي خالص ناسب نظام هذه اللغة ، وكشف منظومة علاماتها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية ، فالضبط جعل الاختلافات الصوتية لنطق الحرف الواحد مدركة بالنظر إلى كتابته)[١١٣] ، فهي بذلك بداية لعلم الصوت فالحرف مع الحركة يمكن أن يُعَدَّ أصغرُ وحدةٍ صوتية .

وقد كانت عناية أبي الأسود الدؤلي بضبط الحروف بالنُّقَطِ ، التي هي مقاطع أصوات أجزاء الكلمات ؛ التي تُحَدِّدُ دلالة الكلمة ، ومن ثم دلالة الجملة التي يمكن أن تتأثر باختلاف نطق هذه المقاطع ، التي تأتي بمعانيَ مغايرة ، ومن ذلك اللحن الذي عرضناه وحصل في قراءة قوله تعالى : (لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ . الحاقة ٣٧) ، وقوله تعالى : (أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ . التوبة ٣) ، بكسر اللام من رسوله ، وهذان المثالان كانا من الأسباب العتيدة التي دعت إلى وضع النُّقَطِ على الحروف والأسس الأولى لعلوم اللغة العربيّة .

---

[١١١] نزهة الألباء ٣، والقرآن والتأسيس الصوتي في النحو العربي ١٢٧.

[١١٢] الصاحبي ٨١ ، والقرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٥٦.

[١١٣] القرآن والتأسيس الصوتي في النحو العربي ١٥٥.

وكان عمل الدكتور مهدي صالح على توثيق نسبة منجزِ أبي الأسود الدؤليّ ، لما شهد به العلماء ، ومنهم ابن سلام الجمحي (٢٣١هـ) ، وابن قتيبة (٢٧٦هـ) ، والمبرد (٢٨٥هـ) ، والزجاجي (٣٣٧هـ) ، وأبو الطيب اللغوي (٣٥١هـ) ، وأبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ) ، وأبو سعيد السيرافي (٣٦٨هـ) ، وأبو بكر الزبيدي (٣٧٩هـ)،، وابن النديم (٣٨٥هـ) ، وابن جني (٣٩٢هـ) ، وآخرون[١١٤] .

وقد قدم الدكتور مهدي صالح روايات القدماء التي جاءت على الغالب بالمعنى الذي ذهب إليه أبو الطيب النحوي في قوله : (كان أبو الأسود قد أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ، لأنه سمع لحنًا ، فقال لأبي الأسود: اجعل للناس حروفًا وأشار إلى الرفع والنصب والجر)[١١٥] ، وذكر الدكتور أن النص يشير إلى وضع الحركات لضبط النص ، وقد أشار أيضًا أن الضبط لم يكن قاصرًا على وضع علامات الإعراب، (والدليل على أن الضبط لجميع الحروف ، الحاجة القصوى إلى ضبط حرف الزاي مثلاً ، في مثل قوله تعالى: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَ . الزلزلة ١) ، المختلف في مواضع ما ورد من الآية الكريمة ، (زُل/ زِ)، (زِل/ زا) ، فضبط الزاي هنا أهم من ضبط غيره على أن الضبط مهم لجميع حروف الكلمات ، فضلاً عن أهمية ضبط الأواخر، ولاسيما في القرآن الكريم)[١١٦] .

وعلى الرغم من تأكيده أن الحرف لا يمكن أن يستغني عن الحركة ، تمايز الحرف والحركة عند الدكتور مهدي صالح في أصل جُزأي المقطع ، فوجد أنّ الحرف هو الأصل، وهو ما جاء عن الخليل في ثبوت الحرف وتغير هذه الحركة ، فالحرف أما أن يكون ساكنًا أو متحركًا .

وتزداد أهمّيّة مراجعة الخطوة الأولى في تأسيس علوم اللغة العربيّة ، بالنظر إلى خطورة اكتشاف الوحدات التي تميّز الحرف الواحد ، والتأكّد من أنّ المقصود بالنقط هو ضبط ما يستحقه الحرف المنقوط ، من أيّ جزء من أجزاء الكلمة الواحدة ، أي لجميع أحرفها، من أوّل الكلمة أو أوسطها أو آخرها ، وتسميته بنقط الإعراب من باب تغليب الأحرف الأواخر على

---

[١١٤] أهل القرآن وتأسيس النحو ١٢٢– ١٢٩.

[١١٥] المصدر نفسه ١٤٩– ١٥٠.

[١١٦] أهل القرآن وتأسيس النحو ١٥٠.

غيرها ، أيّ أنّ الذي تحصّل هو ضبط موضع ما يُحوجُ إلى الضبط بالنقط ، في أيّ موضع من مواضع الكلمة المفردة ، أو المنتظمة في تأليف كلام ، هذه الآلية هي التي مكّنت من التعرّف على ما يميّز مقاطع الكلمات ، على وفق ما جرى عليه نظام اللغة ، وما يتلقاه السامع أو ينطقه الناطق ، ومن ثَمّ ما يكتبه الكاتب .

المبحث الخامس : الضبط وقواعد العربيّة

يرى الدكتور مهدي صالح أن أهل تأسيس علوم العربيّة كانوا قد اكتشفوا وحدة الضبط التي أظهرت الفارق بين المعاني المختلفة ، فهي وحدة ضبط الأبنية اللغوية ، ووحدة المطابقة بين المنطوق والمكتوب ، ووحدة تمييز المقاطع الصوتية والصرفية ، وهي الإعراب ، ورجّح أنّ عملهم كان كشفًا عبقريًا خارقًا للطبع والاعتياد ، إذ قيدوا حروف لغة القرآن الكريم بما يناسبها ويطابق نطقها ، وفتحوا الباب أمام التفكير بما يتصل بهذا الضبط ، من دراسات صوتية وصرفية ونحوية ، فوحدات أبي الأسود الدؤلي وحدات قرآنية خاصة ثم لغوية عامّة ، ومن أهميتها أن دار الدرس اللغويّ بمدارها، حتى تعاظم شأنها بعد اكتشافها وقد استشهد بما ذكره القدماء، ومنهم ابن سلام الجمحي إذ ذكر باب الفاعل والمفعول والمضاف ، مشيرًا إلى أن كلَّ نوعٍ من أنواع الضبط يقابل بابًا نحويًا مثلما عرضنا ، ورجح أنهم عبروا عن العلامات بالأبواب بدليل هذه المطابقة والإشارة إلى الحروف حروف الرفع والنصب والجر والجزم، المعبرة عن العلامات من جهة وعمّا يقابلها من أبواب من جهة أخرى[١١٧]، (فعلامات الضبط إشارات تدل على اختلاف اللفظ والمعنى، وكذلك وظيفة الكلمة من الجملة، في التركيب ومعنى يزاد على معناها المعجمي ، فالضم والكسر والفتح والسكون وما ينوب عنها لحروف أواخر الكلمات حروف الإعراب ، وحروف الإعراب للأسماء المتمكنة ، وللأفعال المضارعة)[١١٨] ، فـ(الإعراب : تغير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظًا أو تقديرًا، وفائدته الدلالة على المعنى الحادث بالعامل)[١١٩] ، وكان السهيلي قد ذكر أن (جميع ما يعرب به الكلام تسعة أشياء،

---

[١١٧] دي سوسير ، حياة في اللغة ، ثنائيات النحو العربي ٢٢٧.

[١١٨] الكتاب ٢٢٥.

[١١٩] المقدمة الجزولية في النحو ٧.

هي: الحروف والحركات والحذف والسكون ، وكلها أشياء في الحقيقة إلاّ الجزم والحذف، فإنهما عبارتان عن معدوم، والمعدوم ليس بشيء، وهو معلوم)[١٢٠] .

ومن أمثلة مرحلة التأسيس الربط بين الضبط وما يغيّر أسلوب الجمل وإعرابها ، وهذا ما جاء في حكايات تأسيس النحو، من مثل : ما أجملُ السّماءِ ؟ فهذا هو ضبط جملة الاستفهام ، أمّا ضبط جملة التعجب فـ : ما أجملَ السّماءَ ! جاء في الإيضاح : (حُكي عن أبي الأسود الدؤلي أنه لمّا سمع كلام المولدين بالبصرة من العرب ، أنكر ما يأتون به من لحن لمشاهدتهم الحاضرة وأبناء العجم ؛ وأن ابنة له قالت له ذات يوم : يا أبَه ما أشدُّ الحرِّ ؟ فقال لها : الرمضاءُ في الهاجرة يا بُنيّه ؛ أو كلامًا نحو هذا ، لأنّ في الرواية اختلافًا ، فقالت له لم أسألك عن هذا ، تعجَّبتُ من شِدّةِ الحرّ. فقال لها : قولي إذًا : ما أشدَّ الحرَّ! ثمّ قال : فسدت ألسنة أولادنا)[١٢١] .

والذي اتضح من هذا الربط هو ما تؤدّيه وحدة الضبط أو آلة الإعراب ، (فقد كان الهدف الأول من وضع النحو، كما تقول الرواية عن أبي الأسود الدؤلي، تعليم الكلام [للمولدين و] لهؤلاء الموالي الذين رغبوا في الإسلام ودخلوا فيه)[١٢٢] .

ويبدو للمدقق . بحسب رأي الدكتور مهدي . التلازم بين اكتشاف ضبط الحروف وتحديد تنوّعها والتفكير بما يكون سببًا لهذا الضبط ، إذ إنّ ابتداع آليات التمكّن من النطق الصحيح أفضى إلى التفكير بسبب اختيار العَلامَة المنظورة المناسبة لجزء الكلمة المؤثّر في بنائها وبناء جملتها أيضًا ، بمعنى أنّ الضبط أدى إلى التفكير فيما يتصل ببناء الكلمة والجملة ، وأدّت حاجة الضبط إلى اكتشاف العلامة التي تحدّد أصغر وحدة لغوية تؤثر في بناء المفردة الواحدة من جهة ، والجملة الكاملة من الجهة الأخرى ، ثمّ انفتح أمام دارسي اللغة ما وجدوه ينتظم ويطّرد في جزء الكلمة

---

[١٢٠] نتائج الفكر في النحو ٨٧.

[١٢١] ٨٩ .

[١٢٢] طبقات النحويين ٢٧.

الواحدة أو الكلمات في الجمل وقد حدّدوه وعلّموه بالنقط ، وهكذا صار النقط مُتَمِّمًا للحرف ، ووحدة لغوية تؤثر صوتيًا وصرفيًّا ونحويًّا ودلاليًّا ، وجُزءًا يربط مقاطع الكلمات والجمل ، فالنقطة التي وضعها أبو الأسود هي الوحدة اللغوية الأساسية التي لها الشأن الكبير في تقعيد اللغة وتعليمها وضبط تداولها الصحيح ، على جميع المستويات اللغوية[١٢٣] .

وارتبط الإعراب (القواعد) بالضبط (الشكل) ، وكانا وجهين لورقة واحدة ، لأنّ الإعرابَ نتيجة من نتائج الضبط ، وجاء التفكير به بعده ، ويكونُ نقط أبي الأسود في ضبط القرآن الكريم إظهارًا لعلامات الإعراب ، التي هيّأت للتفكير في سبب اختلاف النقط ربطًا ببنية الكلمات وتأليف الجمل .

ويلحظ أنّ وحدة ضبط الإعراب نفسَها هي وحدة ضبط مقاطع الكلمة الأخرى، كالتغيّر الصوتيّ الصرفي فضلًا عن النحويّ : عَلِمَ ، عِلْمٌ ، عَلِمْتُ ، عُلِمَ ... إلخ ، لذلك كانت هذه الوحدة ، هي وحدة استقرار أساسيّة ، وأولية في تعليم الهجاء العربي، بالبدء بتعليم الحرف وضبط الكلمات بالحركات ، ومن ثمّ ينتقل المبتدئ إلى التمكن من القراءة والكتابة بعد ضبط الآلية الدقيقة لإتقانهما ، ومن بعد ذلك (يُنتقل إلى علم النحو واللغة معًا ، ومعنى هذا هو [البدء بـ] معرفة تنقّل هجاء اللفظ ، وتنقّل حركاته الذي يدلّ كلّ ذلك على اختلاف المعاني ، كرفع الفاعل ، ونصب المفعول ، وخفض المضاف إليه ، وجزم الأمر والنهي ... فإن جهل هذا العلم عسر عليه علم ما يقرأ من العلم)[١٢٤] .

لـ(أنّ الاسم لمّا كان يدل على المعاني المختلفة كالفاعلية ، والمفعولية ، والإضافة ، وصيغته واحدة ، احتيج إلى الإعراب ؛ لإزالة اللبس ، بدليل : المثال العتيد : "ما أحسنَ زيدًا !" فإنَّ نصبَ زيدٍ ، وفتحَ نون أحسنَ يدلُّ على التعجب ، ورفع نون

---

[١٢٣] القرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٦٩ .

[١٢٤] مراتب العلوم لابن حزم رسائل ابن حزم ١ / ٦٤ .

أحسن ، وجَرّ زيدٍ يدل على الاستفهام ، وفتح نون أحسنَ ورفع زيدٍ يدل على نفي الإحسان)[١٢٥] .

ويُلحَظُ أنّ المتغير فيما تقدم اختلاف الضبط ، ضبط الحرف الأخير وغيره من الكلمة، فيما سمّي الحرف الأخير فيما بعد حرف الإعراب ، لاختلاف المعنى الذي تؤدّيه كلمته بتغير ضبطه ، فهي إشارات تدلُّ على موضع الكلمة من الإفهام ، ومعنى يزاد على معناها المعجمي ، في تأليف الجملة ، وتركيب كلماتها مع غيرها تركيبًا تحصل به الفائدة ، فالضمُّ والكسرُ والفتحُ والسكونُ وما ينوبُ عنها لحروفِ أواخرِ الكلماتِ حروفُ الإعراب ، (وحروفُ الإعرابِ للأسماءِ المتمكنة ، وللأفعال المضارعة) [١٢٦] .

وكان التمكّن . فيما يعرض الدكتور مهدي . من ضبط كتابة الأصوات بهذه النّقط ، مدخلًا إلى معرفة الأسرار اللغويّة ، وهي الوسيلة التي صارت تُعِينُ القارئَ في التأكد مِنَ النُّطقِ الصحيح ، وهي الأداة التي أفاد منها اللغويون في التحليل المقطعي : الصوتي والصرفي والتركيبي ، ومن ثَمّ إدراك سرّ منظومة الصرف والإعراب . ويستشهد بقول ابن حزم : (اختصاص اللسان العربي بالعلامة الإعرابية المتحكّمة في المعنى والوظيفة)[١٢٧] .

ويذكرُ أنّ اكتمال تدوين منظومة الضبط بنقط الحروف للتمكن من النّطق الصحيح ، كانت أكبر من الردّ على انتشار اللحن بين الأعاجم ، لأنّها جاءت بالتفكير في أبواب النحو الأولى والإعرابِ ، وتطوّرت تطوّرًا هائلًا إلى أن استوت ونضجت في مراحل لاحقة ، فكانت الغاية في كتاب سيبويه ، لأنّ المُتحَقّقَ والمتحصّلَ في هذا الكتاب قد تجاوز هذه القضية ، قضية إصلاح الألسنة ومنع اللحن ، لكنّه انطلق من الضبط

---

[١٢٥] المغني في النحو ١/١٩٦ .

[١٢٦] كتاب سيبويه ١/ ١٣ .

[١٢٧] النظريّة اللسانيّة عند ابن حزم الأندلسي ١١ ، والقرآن والتأسيس الصوتيّ للنحو العربي ١٧٢ .

واليسير من التبويب إلى التأسيس العلميّ الكبير والبناء الشامخ ، الذي يليق بسَعي أجيال أهل القرآن المنقطعين له ؛ فكان هذا الانقطاع قد أثمر التفكير بالمحسوس المختلف من ضبط بناء الكلمات ، ثمّ التفكير بتمييز كلِّ نوع من أنواع الضبط ، وجعله في حقل نحوي أو مجموعة ضبط مختلفة ، سُمِّيَت بالباب النحوي ، واللافت أنّ أبواب التأسيس الأولى مثلما عرضنا بعدد علامات الضبط : باب الفاعل : باب الرفع ، وباب المفعول : باب النصب ، وباب الإضافة : باب الجرّ، وكان ذلك منطلق تأسيس علوم العربيّة بتمييز المجموعات المختلفة من حيث الضبط ، وقد انكشفت بها عجائب نظام هذه اللغة ، بعد إظهار تحليل أجزائها إلى مقاطع وكلمات وتراكيب ، وقد تدرّج ما بدا يسيرًا، لكنه كان اكتشافًا هائلاً ، وإنجازًا كبيرًا ، وتوجّهًا سديدًا ، بخطوات راسخة متتابعة أثمرت في قرن من الزمان أعظم كتاب لغوي ، وقد استقرّ هذا العلم استقرارًا عجيبًا ، لا يمكن أن يستعار من أيّ لغة من اللغات لاختلافه واختلافها ، فما كان هذا ليكون لولا القرآن المجيد ، فهذه القواعد لهذه اللغة وعلى هذا التأسيس ، وبهذه المطابقة الخالدة خلود الدهر[١٢٨] .

وقد بنى الدكتور مهدي زعمه الذي قال فيه : (يحق لنا أن نزعم أن أبا الأسود استطاع اكتشاف العلامات الرمزية البَصَرِيّة التي تظهر نظام ضبط حروف اللغة العربيّة ، استنادًا إلى تمييزه . ضبط كتابتها . لمقاطع الكلمات والجمل التي تقابل المسموع والمنطوق ، وكان لهذه العلامة صلة مباشرة بالألفاظ والدلالات والتراكيب)[١٢٩] ، وإنّ أهمية النقط في النطق والسماع والكتابة ، إذ ذكر أنّ الأساس في عمل أبي الأسود الدؤلي والهدف الرئيس منه الضبط الصوتي لحروف القرآن الكريم والتثبت من النطق

---

[١٢٨] أهل القرآن وتأسيس النحو ٧٢ .

[١٢٩] القرآن والتأسيس الصوتي في النحو العربي ١٥٢.

الصحيح ، وهو نفسه اهتمام القراء الأساس عامة في كل عصر، ومنتهاهم إلى ما يوافق ما نزل به نطقًا ثم كتابة[١٣٠] .

ويجد الدكتور مهدي أنَّ الضبطَ بالنّقط جزءًا من بناء الكلمات ، بما يُؤدِّي إلى قراءة القرآن قراءة صحيحة ويمنع من اللحن في اللغة العربيّة ، وقد استقرّ (أنَّ معاني النحو مقسّمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ)[١٣١] .

والذي يبدو لي أنّ ما ذهب إليه الدكتور مهدي من أن نقط الإعراب تمثل البداية الأولى التي مهدت لعلوم العربيّة : الصوت والصرف والنحو والدلالة ، فقد مثلت الثنائية الصوتية الأولى في بيانها لعلاقة الحرف بالحركة ، ومثلت من ناحية أخرى اختلاف دلالة الحرف باختلاف نوع الحركة مع الحرف الواحد ، فضلًا عن دلالتها النحوية إذ لم يكن وضع نقط الإعراب اعتباطيًا عند أبي الأسود الدؤلي ، بل كان وضع هذه النّقط مبني على مواقع الكلمة من الجملة ، ما يؤدّي إلى دلالات مختلفة باختلاف نوع الحركات التي وضعت على الحروف من أواخر الكلمات ، ويؤيّدُ ذلك قول السيوطي : (ومن العلوم الجليلة التي اختصت بها الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ولولاه ما مُيِّزَ فاعل من مفعول ولا مضافٌ من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ولا صدر من مصدر ولا نعتٌ من تأكيد)[١٣٢].

وإنّ غاية نقط القرآن ، وَضْعُ الضوابط لما يحفِظ النصّ من التحريف والخطأ، وصولًا (إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة صوابًا غير مبدّلٍ ولا مغيّر، وتقويم كتاب الله عز

---

[١٣٠] المصدر نفسه ٦٧ .

[١٣١] المصدر نفسه ٦٨ .

[١٣٢] المزهر ١/ ٣٢٧ . ٣٢٨.

وجلّ ، الذي هو أصل الدين والدنيا المعتمد ، ومعرفة أخبار النبي ص ، وإقامة معانيها على الحقيقة ، لأنه لا تفهم معانيها على صحة إلاّ بتوفيتها حقوقها من الإعراب) [١٣٣] .

وينقل الدكتور مهدي في هذا الشأن رأي الحلواني في نقط أبي الأسود ما يُشير إلى أسس معاني النحو الأولى ، في قوله : (إنّ عمل أبي الأسود في نقط المصاحف من شأنه أن يوجه الانتباه إلى الظواهر الإعرابية ، ولا يبعد أن يكون دفعه إلى وضع ملاحظات يسيرة تفسر رفع الأسماء ونصبها وجرها تفسيرًا بسيطًا ، وهذا يوافق ما يمكن أن يستخلص من الكتب القديمة في ذكرها الأبواب التي وضعها، وهي ثمانية : الفاعل والمفعول ، والمضاف ، وحروف النصب والجر والجزم ، والتعجب ، والاستفهام ، والعطف ، والنعت ، وإنَّ وأخواتها ...)[١٣٤] .

---

[١٣٣] الإيضاح في علل النحو ٩٥ .

[١٣٤] الخلاف النحوي وكتاب الإنصاف ١٣ .

المبحث السادس : الضبط والخليل وكتاب سيبويه

حاول الدكتور إثبات علاقة نقط الإعراب التي وضعها أبو الأسود الدؤلي بجهود الخليل وسيبويه منطلقًا من :

أولًا : المقابلة بين الضبط بالنقط وما سُمّي بالأبواب النحويّة ، بين ضمّ الشفتين والفاعلية ، والفتح والمفعوليّة ، والكسر والإضافة ، وتأسيس التفكير فيما يسببه الضبط ويتّصل به ، فكل نوع من أبواب الضبط يقابل بابًا نحويًّا ، وقد نبّه هذا الضبط على التفكير في تصنيف الكلمات ، وتبويبها بحسبِ ما يُلحَظُ من أثرٍ على أواخر الكلمات ، أيِ أنّ انطلاق التفكير اللغوي العربيّ كان استنادًا إلى ما يجمع أو يُفرّق بين الكلمات بحسب ضبطها ، فيكون التصنيف بحسب تمييز أجزاء الصنف الواحد، من لحظِ الخصائص والفروق ، أي أنّ الذي فكّر في الضبط لاحظ أوجه الشبه ، ولاحَظَ أوجه الفرق والاختلاف .

وقد عبّروا عن ربط العلامات بالأبواب بدليل هذه المطابقة ، والضبط بالنقط أساس الإعراب ، أو أنّ الضبط والأبواب خطوتان مترافقتان ومترادفتان ومتلازمتان ، وكانت الثانية بسبب الأولى ، فالبَدءُ بالضبط ثم التفكير في توجيه ما يجلبه ويدعو إلى تفسير وجوده ، أي بالقواعد التي تنتظم هذا النقط وتكون السبب في تثبيتها ، ذلك الذي نما وكَبُرَ واكتمل عند تلامذة أبي الأسود وتلامذة تلامذته[١٣٥] .

واللافت بحسب رأي الدكتور مهدي انكشاف عجائب نظام اللغة ، بعد إظهار تحليل أجزائها إلى مقاطع وكلمات وتراكيب ، وقد تدرّج حتّى استقرّ ليناسب لغة القرآن المجيد ، ويؤمّن ما تحتاجه ، من آليات تمكن من نطقها نطقًا صحيحًا ، ويثبّتُ نصّ كتابها المقدّس[١٣٦] .

---

[١٣٥] القرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٥٨ . ٢٥٩ ، ٢٦٧ .

[١٣٦] أهل القرآن وتأسيس النحو ٧٢ .

فبعد أنِ اكتملت قوانين منظومة الضبط في مراحل متتابعة واستوت فكانت الغاية في كتاب سيبويه ، وكان المتحصّلَ . على رأي الدكتور مهدي . في هذا الكتاب قد تجاوز إصلاح الألسنة ومنع اللحن ، مع أنّه انطلق من الضبط واليسير من التبويب إلى التأسيس العلميّ الكبير والبناء الشامخ ، الذي يليق بِسَعيِ أجيال أهل القرآن المنقطعين له ؛ لكن (لو نظرنا إلى الصفحات الأُول من كتاب سيبويه ، لوجدنا البدء بما بدأ به أبو الأسود بدأ بأقسام الكلام ، فإن لم يكن أخذها عن أبي الأسود وتلامذته وتلامذة تلامذته، فمن أين جاء بها؟ ... واللافت أنّ سيبويه لا ينسب ما جاء في هذه الصفحات إلى أحد ممن سبقه ... حتى نحو ستين صفحة من طبعة هارون ، على أنه ينسب الآراء لأصحابها فيما بعد ...)[١٣٧] .

وتتكرّر هذه الأقسام أقسام الكلام نفسها في مقدّمة خلف الأحمر، في قوله : (العربية على ثلاثة : اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وهذا الحرف هو الأداة التي ترفع وتنصب وتخفض الاسم وتجزم الفعل)[١٣٨] .

ثانيًا : ما ينقله الدكتور عن بَدءِ الخليل (بدراسة الأصوات التي تتألف منها مفردات اللغة العربيّة ليعرف مواقع تلك الأصوات من جهاز النطق ، ويقف على خصائصها ، وما يترتب على تجاورها ، واستطاع بذلك أنْ يُفَسّرَ ظواهر لغوية لم تكن لِتُفهمَ بدون فهم سابق لطبيعة الحروف وتفاعلها بتجاورها وتمازجها)[١٣٩].

ووجد أنّ الخليل صَبَّ عنايته على الحروف ، فوجد أنّ هذه الحروف وحدات تتمثّل بمقاطع ، فعبّرَ عنها بالأسباب والأوتاد ، وهذا ما ناظر عمل أبي الأسود الدؤلي بنقط الحروف نقط الإعراب ، و(كان أساس الخليل ومنطلقه وأداته ، مما وجده قد استقر واضحًا قبله ، ذلك هو تمييز الوحدات اللغوية بضبط حروف الكلمات بالنقط ، وكان قد

---

[١٣٧] القرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٨٤ .

[١٣٨] مقدمة في النحو ٣٥ .

[١٣٩] الإعراب المحلي ٣٥ ، والقرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٨٥ .

التفت إلى ضرورة تطوير تسمية علاماته ، علامات النقط التي جعلها شكلًا أفضل ينتظم وينسجم بحركات إلى جانب نقط الإعجام ، ولاحظ أن تأليف المقاطع والكلمات يتحقق من اجتماع الحروف وما يكملها من هذه الحركات في مقاطع صوتية ، أو صرفية ، أو نحوية ، أو عروضية...)[١٤٠] .

(ويتأكّدُ للمدقّق أنّ الخليل أكمل ما وجده من تنفيذ أبي الأسود في ضبط الحروف ، وقد أفاد من آليات الضبط فيما كان يُحلِّلُ ، وأخذ يعيد التفكير في قاعدة ضبط الكلمات الموضوعة قبله ، فهو يتذوّق الحرف في أوّل مقطع الكلمة وأوسطها وآخرها ، كما يتذوّقه منفصلًا عنها ، مدركًا اختلاف أوضاع النطق عند التلفظ به ، (وإنّما كان ذواقه إيّاها أنّه كان يفتح فاه بالألف ثمّ يظهر الحرف ، نحو : ابْ ، اتْ ، احْ ، اعْ ، اغْ ...)[١٤١] ، ويجد الدكتور مهدي أنَّ هذا هو منهج أبي الأسود الدؤلي نفسه ، الذي اتخذه بالتعاون مع من ينقط له حروف القرآن الكريم ، وكان هَمّه تثبيتَ الصحيح بعلامات تميّز اختلاف النطق ، وقد أوصله تمييز الاختلاف بالنقط إلى معرفة نظام ضبط حروف العربية وكلماتها ؛ وثَبَتَ عنده وعند من سبقه أنْ لا حرفَ من دون حركة ، تتبعه ، أو تسبقه ، وقد قرّر أنّ مقطع الحرف المتحرك من ضمن مقاطع الكلمة يختلف عن تسميته منفردًا منفصلًا منها وخارجًا عنها ، جاء في الكتاب ، في (باب إرادة اللفظ بالحرف الواحد ، قال الخليل يومًا وسأل أصحابه : كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لَكَ والكاف التي في ما لك ، والباء التي في ضَرَبَ؟ فقيل : نقول : باء كاف ؛ فقال : إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف ؛ وقال : أقول : كَهْ وبَهْ . فقلنا لِمَ ألحقت الهاء ، فقال : رأيتهم قالوا : عِهْ فألحقوا هاءً ، حتى صيّروها يستطاع الكلام بها، لأنه لا يلفظ بحرف [يقصد بحرف منفرد] فإن وصلت قلت : كَ و بَ ... كما قالوا عِ يا

---

[١٤٠] القرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ٢٨٦ .

[١٤١] ترتيب كتاب العين ٤٢/١ .

فتى ، فهذه طريقة كل حرف كان متحركًا ، وقد يجوز أن يكون الألف هنا بمنزلة الهاء لقربها منها وشبهها بها ، فتقول : با وكا ، كما تقول : أنا)[١٤٢] .

وقد وجد (الخليل أنّ الحركات لواحق تمكّن الحروف من تأليف المقاطع والكلمات والجمل ، ووَصْلُ الحرفِ بما بعده والكلمة بما يليها ، جاء في الكتاب : (وزعم الخليل أنّ الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهُنّ يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به)[١٤٣] ، (وبعد أن عرض للحرف المتحرك ، عرض أيضًا لتمييز الحرف الساكن المسبوق الذي يجب أن يُسبقَ بحرفٍ وحركة في مقطعٍ مغلقٍ بهذا الساكن من مقاطع الكلمات ، في قوله : (كيف تلفظون بالحرف الساكن نحو ياء غلامي وباء اضربْ ودال قدْ ؟ فأجابوا بنحو ما أجابوا في المرة الأولى ؛ فقال : أقول : إبْ وإيْ وإدْ ، فألحِقُ ألفاً موصولة . قال : كذاك أراهم صنعوا بالساكن [يقصد الوصول إلى الساكن بمتحرك قبله] ، ألا تراهم قالوا : ابْنٌ واسْمٌ حيث أسكنوا الباء والسين ، وأنت لا تستطيع أن تكَلَّمَ بساكن في أوّلِ اسمٍ كما لا تصل إلى اللفظ بهذه السواكن ، فألحقت ألفًا حتى وصلت إلى اللفظ بها ، فكذلك تلحق هذه الألفات حتى تصل إلى اللفظ بها كما ألحقت المسكن الأوّلَ في الاسمِ...)[١٤٤].

---

[١٤٢] كتاب سيبويه ٣/٣٢٠ .

[١٤٣] المصدر نفسه ٤/٢٤١ ـ٢٤٢.

[١٤٤] كتاب سيبويه ٣/٣٢١ .

المبحث السابع : ثنائية الحرف والحركة والحرف والسكون

عَرَفَتِ اللغة العربيّة نظام الثنائيات ، كثنائية اللفظ والمعنى ، والحقيقة والمجاز، والتشبيه والاستعارة[١٤٥] ، فعادة ما يكون اقتران أجزاء الثنائية بالملازمة بعضها ببعض ، فاللفظ الدَّال على معنى هو اللفظ الذي يستحق الدراسة والاهتمام ، في حين لا يَستَحِقُّ اللفظ الذي ليس له معنى أي اهتمام ، وتجد ترابطًا آخر قائم على التضاد ، إذ لا تجتمع الحقيقة مع المجاز، فالحقيقة : (كُلُّ كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع ، وإن شئت قلت : في مواضعة ، وقوعًا لا تستند فيه إلى غيره)[١٤٦] ، وغيرها الذي يختلف فيه المجاز عن الحقيقة اختلافًا كليًا ، فالمجاز (كلّ كلمة أريد بها غير ما وضعت له في وضع واضعها)[١٤٧] ، أمّا ما يخصّنا من ثنائيّات في هذا الفصل فـ :

أ . ثنائية الحرف والحركة :

وهي من أهم الثنائيات التي عرضها الدكتور مهدي صالح التي لها صلة بنقط حروف العربيّة : ثنائية الحرف والحركة ، الثنائيّة المؤثّرة في الفهم والنطق .

فيرجّح أنّ بداية التفكير في نقط حروف العربيّة قد بدأ بـ (وضع اليد على ما سمي بالرسوم أو الأصول أو الحروف في حديث دار بين [الإمام وأبي الأسودِ الدؤلي كان] يتركز في التفكير في معالجة قضية النطق الصحيح لآيات الذكر الحكيم معالجة عَمَلِيّة مناسبة)[١٤٨] ، وأنَّ الخطوةَ الأولى كانت تعنَى بضبط الكلمات بما يشير إلى الرفع والنصب والجر وغير ذلك مثلما عرضنا ، وأنَّ هذا التمييز فتح آفاقًا للوصول إلى مرحلة التصنيف التي تضمنت تشخيص الفاعل والمفعول والإضافة[١٤٩] .

---

[١٤٥] اسرار البلاغة ٣٢٠/٤، ٣٥٠.

[١٤٦] المصدر نفسه ٣٥٠.

[١٤٧] أسرار البلاغة ٣٥١.

[١٤٨] القرآن والتأسيس الصوتي في النحو العربي ٣٤، وأهل القرآن وتأسيس النحو ٥٦.

[١٤٩] القرآن والتأسيس الصوتي في النحو العربي ٤٨– ٤٩.

وكان الدكتور مهدي قد ذكر في بحثه الموسوم (ثنائيات النحو العربي) ، أنّ علوم العربيّة عرفت هذه الثنائيات ، بَدءًا من تحديد أصغر وحدة كلامية منطوقة ، أو مسموعة ، أو مكتوبة ، مرورًا بالتعرف على ضبط الكلمات واشتقاقها وانتهاءً في التفكير في سر تأليف الجمل النحوية[١٥٠] ، وفصَّلَ القول في بيان أهمية الحركة في وجودها مع الحرف فهي تتصل به ، فتتبعه ، أو تسبقه بعد حرفٍ آخر، ويرى أنها هي التي تبعث فيه الوجود الصوتي[١٥١] .

وكان قد رجّح أنّ تثبيت نقط الإعراب هو تثبيت أصغر وحدة صوتية لغوية تمييزية ترافق الحرف العربي[١٥٢] ، فضلًا عن أنه يرى أن الصوامت لا يمكن النطق بها من دون الحركات (فالمتكلم لا يتكلم بالحرف المفرد ، ولا بالحركة وحدها ، بل من تركيبهما معًا في مقاطع)[١٥٣] ، وهذا يعني أن علاقة الحرف بالحركة علاقة وجود فلا يمكن وجود أحدهما من دون الآخر، وقد ربط الدكتور مهدي اكتشاف هذه العلاقة أو تنظيمها وإظهارها من أبي الأسود الدؤلي ، والشبه أكيد بينه وبين اكتشاف الفونيم ، مُبَيِّنًا أهمية ما قام به أبو الأسود، مؤكدًا القيمة العلمية التي تحققت في تلك المرحلة المبكرة[١٥٤] .

وما استتبع ذلك من خطوات علمَيّة كبيرة ، وعمليّة مبكّرة ، منطلقها التعرّف إلى قانون التلازم بين الحرف وحركته ، وإقرار ثنائيّة الحرف والحركة ، من مثل قول القدماء : إنّ الحرفَ إمّا أن يكون متحرّكًا ، أو ساكنًا ، إذ لا بُدّ له من حركة ، تتبعه أو تسبقه ، ولا يستقلّ الحرف عن الحركة ، في تأليف الكلمة الواحدة ، أو ما تتركب منه العبارات والجمل ، فالحركة تكمّل الحرف ، وتميّزه ، في النطق والسمع ، والكتابة ، ودليلنا الحاجة إلى ضبط الكلمات بحركات قصيرة أو طويلة ، لذلك (فالحركات أصول كما الحروف

---

[١٥٠] دي سوسير، حياة في اللغة ٢٢٠.

[١٥١] أصوات اللغة العربيّة ١٠٩، ودي سوسير حياة في اللغة ٢٢٩.

[١٥٢] دي سوسير حياة في اللغة ٢٣٠.

[١٥٣] المصدر نفسه ٢٣٣ .

[١٥٤] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٦٨ .

أصول ، فلا توجد سلسلة مكوّنة فقط من حروف ، إذ لا بُدّ للحرف من حركة ، لأنّ الحرف بمثابة انسداد مجرى الهواء والحركة بمثابة انفتاح المجرى نفسه ، أمّا الدليل الذي سِيقَ للبرهنة على أنّ الحرف هو الأصل ، فالجواب عنه أنّ طبيعة المقطع في اللغة العربيّة هي التي تفرض ذلك ، فالحرف يوجد بمفرده بخلاف الحركة)[١٥٥] ، ذلك على سبيل الافتراض ، لأنهما متلازمان .

ب . ثنائية الحركة والسكون

فرّق الخليل بين الحركات والوقف أو السكون ، وقد أفاد من منهج أبي الأسود الدؤلي في تطبيق ضبط النطق ، ومن القيم الصوتية التي تتحقق من الضبط المختلف عند من سبقه من النحاة والقراء ، مميزًا قِيَمَ الترتيب والتبادل والتوافق[١٥٦] ، وذكر أنه توصل في تطلعاته وتذوقه الحرف العربي إلى التفريق بين الحركة والسكون ، وقد أفاد من هذه الثنائية ؛ فـ (بعد أن عرض الخليل للحرف المتحرك ، عرض أيضًا لتمييز الحرف الساكن الذي يجب أن يسبق بحرفٍ وحركة في مقطع مغلق بهذا الساكن من مقاطع الكلمات)[١٥٧] ، وهذا يعني أنّ الخليل أفاد في اكتشافه لعلم العروض من حركة الحرف وسكونه ، وكلّ ذلك كان له صلة بما قام به أبو الأسود الدؤلي مبكرًا ، ولا عجب أن يتم ربط جهود الخليل بجهود أبي الأسود الدؤلي ، فقد امتد اكتشاف الحركة أو إظهارها على الحرف إلى معرفة موسيقى الشعر التي كانت حاضرة لدى المتلقين وكانت بحاجة إلى معرفة أجزاء هذه الموسيقى وتنظيم أسبابها ، وهو ما قام به الخليل على وجه الدقة .

والحركة أو نقطة الإعراب : (ضد السكون)[١٥٨] ، والسكون قطع الحركة ، والحرف المتحرّك : المتبوع بحركة ، ضمّة أو كسرة أو فتحة ، والحرف الساكن المسبوق بحركة

---

[١٥٥] حركات العربيّة ٢٦ .

[١٥٦] القرآن والتأسيس الصوتي في النحو العربي ٥٣- ٥٤.

[١٥٧] المصدر نفسه ٥٥.

[١٥٨] معجم مقاييس اللغة ٤٥/٢ .

وهو غير المتحرك . والحركات زوائد بحسب (زعم الخليل أنَّ الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهنَّ يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلّم به ...)[١٥٩] ؛ ولا يتحقق نطق الأصوات إلا بوجود الحركات مع الحروف ، لأنّ الحركة تغيّرُ نطقه وتلوّنُه وتحدّده بها ، بعد أن كان مجرّدًا غيرَ محدّد[١٦٠] .

(ولمّا كانت الأصوات هي دعامة اللغة الأساسيّة ، كان لا بُدّ لها من الدخول المباشر في صيغها وأبنيتها التركيبيّة ، سواء على مستوى النظم (Syntax) ، أو على مستوى الدلالة (Semantics) ، أو على مستوى الصرف (Morphology) ، أو على مستوى المعجم (Lexicogrophy) ، وإنّ أيّ دراسة لغويّة لا تأخذ بعين الاعتبار الجانب الصوتي ، كملحظ أساس ، تُعَدُّ قاصرة ، وغير منتجة ، إذا كنّا نعدُّ اللغة منظومة محكمة البنية)[١٦١] ؛ ومن ذلك قول الدكتور مجيد الماشطة : (لقد اختارت مدرسة البنيويّة الأمريكيّة بريادة بلومفيلد، عبر كتابه الذائع الصيت (اللغة) عام ١٩٣٣، الصوت نقطة بداية درسها ... phonology ثمّ بني عليها علم الصرف ، أي دراسة الكلمة وأجزائها ، ليكون هذا الكلام أساسًا لدراسة الجملة)[١٦٢] .

وعن التمييز ومعرفة الأجزاء الصوتيّة للعبارة اللغويّة ، قال المسدّي : (إنّ العبارة ليست إلاّ أصواتًا مُقَطّعَة ، تُحكى صيغتها صيغة ما هو قائم في النفس)[١٦٣] ؛ وإنّ مرحلة التأسيس الصوتيّ بضبط الحروف بعلامات نقط الإعراب ونقط الإعجام ، وكانت المدرسة المعجميّة الصوتيّة قد اعتمدت هذا الترتيب الصوتيّ وبحسب مخارجها ، ورائدها الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ومنذ البدايات الأولى لظهور العلوم اللغويّة المبكرة عند

---

[١٥٩] كتاب سيبويه ٤/٢٤١ ـ ٢٤٢ .

[١٦٠] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ٨٣.

[١٦١] علم الصرف الصوتي ٢٨ ـ ٢٩ .

[١٦٢] اللغة العربيّة واللسانيّات المعاصرة ٥٦ ـ ٥٧ .

[١٦٣] دراسات في اللغة ٤٣ .

العرب ، استنادًا إلى التطبيق عند مجيدي قرّاء القرآن الكريم ، ثم تناوله النحويون والمعجميون ، وتحوّلَت نَقطُ أبي الأسود إلى حركاتٍ عند الخليل ، قال الداني : (الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل ، وهو مأخوذ من صور الحروف ، فالضمة من واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف ، لئلاّ تلتبس بالواو المكتوبة ، والكسرة ياء صغيرة تحت الحرف ، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف)[١٦٤] .

وكان للدكتور غالب فاضل المطلبي رأيٌ في كتابة الصوائت القصيرة والصوائت الطويلة في قوله : (يلاحظ المتتبع لتاريخ الكتابة العربيّة أن النظام العربي قد عزف عن كتابة أصوات المدّ في صلب الكلمة حقبًا شاركه في ذلك معظم نظم الكتابات السامية، لكنه أدخل كتابة أصوات المدّ الطويلة فيها شيئًا فشيئًا، ويبدو أنّ السبب في ذلك أنه بإمكان هذه الأصوات أن تحلّ في أثناء التصريف محل عناصر الأصل، مما سوّغ إدخالها في الصلب"[١٦٥]، أما الصوائت القصيرة (الحركات) (فقد حلت عن طريق ما يُطلق عليه نظام (الشكل) وقد فعلت ذلك – أيضًا– معظم اللغات السامية، ويتلخص هذا النظام بأن تدون هذه الأصوات في الكلمة على هيأة علامات ، ولكن ليس في صلبها، وإنما تلحق فوق الأصول أو تحتها من نحو ما نجد في العبرية والسريانية وأخيرًا العربيّة)[١٦٦] .

---

[١٦٤] المحكم في نقط المصاحف ٧ .

[١٦٥] في الأصوات اللغوية ٨.

[١٦٦] المصدر نفسه .

الفصل الثاني
آثارُ التفكير في النقط

المبحث الأوّل : الصوت اللغويّ

الصوت : من صاتَ يَصُوتُ صوتًا ، فهو صائت بمعنى صائح ، وكل ضَرْبٍ من الأُغنيات صَوتٌ من الأصوات، ورجل صائت : حَسَنُ الصوتِ شديدُه ، ورجلٌ صَيّتٌ : حَسَنُ الصَّوتِ ، وفلان حَسَن الصِّيت : له صِيتٌ وذِكْرٌ في الناس حَسَنٌ"[١٦٧] ، و(الصَوْتُ : مَعْرُوف وَهُوَ اسْمٌ يلْزمُ كلُّ نَاطِقٍ من النَّاسِ والبهائمِ والطَّيرِ وغيرهم ، يُقَال: صَوت الإنسان وَالْبَعِير وَغَيرهُمَا)[١٦٨] ، والمقصودُ هنا الصوتُ اللغويّ الإنسانيّ .

وقد عرّفهُ الجَاحظُ بقولِهِ : (هو آلةُ اللفظِ والجَوهِر الذي يَقُومُ به التقطيعُ ، وبه يُوجَدُ التأليفُ ، ولَنْ تكون حركات اللسانِ لفظًا ولا كلامًا موزونًا أو منثورًا إلاّ بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلاّ بالتقطيع والتأليف)[١٦٩] .

وحَدَّدَ ابنُ جني الصوتَ والحرفَ بقوله : (إنّ الصوتَ عَرَضٌ يخرجُ مع النَّفَسِ مُستَطِيلًا مُتَّصِلًا ، حتى يَعرِضُ له في الحلقِ والفَمِ والشفتين مقاطعُ تثنيه عن امتدادِه واستطالتِه ، فيُسمّى المَقطَعُ أينما عرض له حرفًا ، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها ...)[١٧٠] .

ومنه ما جاء في التفسير الكبير (مفاتح الغيب) : (لا معنى للكلام اللساني إلاّ الاصطلاح من الناس على جعل الأصوات المقطّعة والحروف المركّبة معرفات لما في الضمائر) [١٧١] .

---

[١٦٧] كتاب العين ٥/ ١٤٦.

[١٦٨] جمهرة اللغة ١/ ٤٠١.

[١٦٩] البيان والتبيين ١/ ٨٤ .

[١٧٠] سر صناعة الإعراب ١٩/١ .

[١٧١] ٢٦/١ .

وكان الدرس اللغويّ العربي قد بدأ بالعلامات الصوتية ، بضبط حروف القرآن الكريم، من رواية تشير إلى توجيه الإمام عليّ ع لأبي الأسود ، إلى ما يُمَكِّنُ من الضبط ، في قوله : (اجعل للناس حروفًا ، وأشار له إلى الرفع والنصب والجر)[١٧٢] .

يقول الدكتور: (إنَّ فضلَ أبي الأسود الدؤلي كان في وضع الضبط موضع التنفيذ العلميّ الصحيح ؛ ذلك الذي مكّن من علوم العربية ، الذي انفتح به باب تمييز تنوّع الحرف الواحد ، هذا الذي أسلمه إلى آلية تعليم الأجزاء بعلامات ، وهذه هي التي تظهر اختلاف نطق الحرف الواحد ووظيفته ، وهذه الآلية مَكّنَته من تعرّف ما يميّز الكلمة وأجزاءها عند تغيير هيأة الفم بأصوات حروفها ، ومن ثَمّ تأثير التنوّع في بنائها منفردة ، أو في تأليف جملتها الكاملة ، استنادًا إلى ما جرى عليه نظام اللغة العربية ، محسوسًا فيما يُسمع ويُنطق ، وصار على يدي مكتشف الضبط منظورًا مكتوبًا في تداول القرآن الكريم) [١٧٣] .

(وجرى تطبيق هذا الاكتشاف الجديد على أعلى نصّ لغوي ، بمباشرة أهل القرآن وخاصته ، وقد انفتح بالنقط أمام قارئي القرآن ودارسي اللغة ما وجدوه ينتظم ويطّرِد في الحروف والكلمات المفردة أو في الجمل المُؤلفة ، وهكذا صار النقط مُتَمِّمًا للحرف ، ووحدة لغوية تؤثر في جميع مستوياتها ، فضلًا عن ربط مقاطع اتصال الكلمات والجمل، فكان النَّقطُ الوحدةَ اللغوية الأساسية التي لها الشأن الكبير في تقعيد اللغة وتعليمها وضبط تداولها ، وربما عَبّرُوا عن إحساسهم بأنّ صحة الضبط من البيان ، فجاءت المناسبة بتسميته بنقط الإعراب لأنّ المعنى اللغوي للإعراب الإبانة والإفصاح والإيضاح[١٧٤] ، وأعرب الرجل إذا أفصح[١٧٥] ، قال ﷺ : (أعربوا القرآن فإنّ الله يحبُّ أن

---

[١٧٢] مراتب النحويين ٢٤ .

[١٧٣] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربيّ ٧٩ .

[١٧٤] المصدر نفسه ٨٥ . ٨٦ .

[١٧٥] معجم مقاييس اللغة ٢٩٩/٤ . ٣٠٠ .

تعرب آياته)[١٧٦] ، أي تبين هذه الآيات ؛ و(أعرب الرجل عن حاجته إذا أبان عنها ؛ ورجلٌ مُعرِبٌ أي مبينٌ عن نفسه ... ثمّ إنّ النحويين لما رأوا في أواخر الأسماء والأفعال حركات تدل على المعاني ، وتبين عنها ، سمّوها إعرابًا أي بيانًا ، وكأنّ البيان بها يكون؛ كما يُسَمّى الشيء باسم الشيء إذا كان يشبهه أو مجاورًا له . ويسمّى النحو إعرابًا ، والإعراب نحوًا ... والإعراب الحركات المبينة عن معاني اللغة ؛ وليس كلّ حركة إعرابًا ، كما أنّه ليس كلّ الكلام معربًا ...)[١٧٧] ؛ فالإعراب بمعناه اللغوي جودة النطق وظهور مخارج الكلام ، والخلو من عيوب النطق وعثرات اللسان[١٧٨] .

وكان الإعرابُ قد جاء من بعد التمكّن من ضبط كتابة النقط المعبّرة عن الأصوات ، وكانت المدخل إلى معرفة الأسرار اللغويّة ، وهي الوسيلة التي صارت تُعِينُ القارئ في التأكّدِ من النطقِ الصحيح ، وهي الأداة التي أفاد منها اللغويون في التحليل المقطعي : الصوتي والصرفي والتركيبي ، ومن ثَمّ إدراك سرّ منظومة الصرف والإعراب . قال ابن حزم : (اختصاص اللسان العربي بالعلامة الإعرابية المتحكّمة في المعنى والوظيفة)[١٧٩].

وكان الإعراب يُدَلُّ عليه بالعلامات ، وقد ارتبط (بنشأة النحو لدى أبي الأسود ، وإلاّ فكيف بادر إلى دفع الوقوع في الخطأ في الإعراب ، من دون أن يعرف هذه الدلالة ودون أن يُبَصِّرَ الذين وقعوا في الخطأ بهذا الربط بين الإعراب والمعاني التي يدلّ عليها، وكيف يتسنّى لمثل ابنته أو لمثل الذي قرأ بجرّ لفظة (رسوله) في الآية الكريمة [:﴿إنّ الله بريء من المشركين ورسوله﴾]... أن يتجنّب الخطأ ما لم يبصّرهم بارتباط هذه الحركات بدلالة معيّنة أي ربطها بمعاني الكلام ...) [١٨٠] .

---

[١٧٦] المغني في النحو ٤٥/١ .

[١٧٧] الإيضاح في علل النحو ٩١ .

[١٧٨] الإعراب المحلي ٧١ .

[١٧٩] النظريّة اللسانيّة عند ابن حزم الأندلسي ١١ .

[١٨٠] دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء ٣٠ .

المبحث الثانيً : الصوت والضبط

يقول الدكتور مهدي : (إنّ التلازم بين ضبط الحروف الذي هو تدوين صوتي للمقاطع وتحديد تنوّعها ، يوازنه ويوازيه التفكير في سبب الضبط ودواعيه ، بمعنى أنّ الضبط أدّى إلى التفكير بما صار يُعرف . فيما بعد . بأدوات تمييز الدرس الصوتي ، وآليات التمييز الصرفي وكذلك النحوي ... إلخ ، إذ إنّ اكتشاف علامات الضبط . التي هي أصغر الوحدات اللغوية . المؤثّرة في جميع مستويات اللغة ، كان قد جلب التفكير في أثرها المقطعيّ الصوتيّ ، وفي بناء كلمتها المفردة ، وجملتها المستقلّة الكاملة ، وكذلك في تتابع جملها)[١٨١] .

وكان الدكتور قد ذكر (أنَّ أبا الأسود نقل الضبط الصوتي المنطوق إلى ضبط كتابي ، أي حوّل الضبط من المنطوق والمسموع إلى المنظور، اعتمادًا على الحسّ بالمشاهدة والسماع ، والمعرفة المبنيّة على التجريب ؛ فالحروف التي كانت مبهمة قبل النقط تبيّنت بالعلامات ، وقد ضَبَطَ مقطع الحرف ، ونقله من الإبهام والاحتمال إلى البيان والوضوح النطقي والكتابي ، ذلك الذي يجب أن يراعيه المتكلم أو السامع أو الكاتب إن أراد الدقة)[١٨٢] .

فالدرس الصوتي التأسيسي عند العرب . بحسب الدكتور مهدي . أقرب إلى المنهج العلمي ، وقد نما في أحضان أهل القرآن ، الذين وجدوا صعوبة في استعمال اللغة من دون ضبط حروف المصحف الشريف ، ثمّ تابعوا التفكير في أثر هذا الضبط وتغيّره واختلافه ، ومنذ مرحلة التأسيس ، فالاهتمام واضح بالظاهرة الصوتيّة ، وما يعبّر عنها من وصف أو علامات ، وهي موضع انطلاق هذا العلم ؛ قال الدكتور حلمي خليل :

---

[١٨١] القرآن والتأسيس الصوتيّ للنحو العربيّ ١٨٧.

[١٨٢] المصدر نفسه ٨١ . ٨٢ .

(إنّ النظام الفونولوجي ينظر إلى الأصوات ويحللها من خلال وجودها في بنية لغويّة)[١٨٣] .

وصار لهذه الأصوات أو الحركات الأهميّة التي يتعذر تركها ، ويعسر النطق من دونها، فإمّا أن يكون الحرفُ متبوعًا بضبط وإمّا مسبوقًا به ، حتى في تسميته ، لأنّ التسمية لا بُدّ أن تأتي من مقطع وهو الحرف وضبطه[١٨٤] ، ولأنّ التسمية (كالحكاية : لحروف التهجي التي ليست بكلم ، ومن ثم كانت أوائلها تلك الحروف المحكيّة)[١٨٥] .

ويمتنعُ البَدْءُ بغير الحرف المتحرك ، إذ لا يُبدَأ إلاّ بمتحرك ولا يُوقف إلاّ على ساكن، والحركة تحذف في الوقف ؛ ولا استقلال للحركة من الحرف ، لكن لا يبدأ بها ، ولا يوقف عليها ، لأنّ كلَّ موقوف عليه ساكنٌ ، ولأنَّ الأعضاء الناطقة تتهيّأ في أثناء الحركة للنطق بحرف آخر، قال ابن جنّي : (ألا ترى أنّ [الحرف] المبتدأ لا يكون إلّا متحرّكًا ، وأنّ الموقوفَ عليه لا يكون إلّا ساكنًا ...)[١٨٦] .

وقال الدكتور مهدي (ربما تركوا الضبط بالعلامات الكتابيّة ، فلا يلتزمون وضعها دائمًا، لأنهم كانوا يُشكِلون ما يُشكِل ، فيضبطون ما يُحوِجُ إلى الضبط ، فيكون ضبطهم بعلامة موجودة مع الحرف أو متخيل وجودها ومقدّر، لكنّ الضبط في الأصل لجميع حروف الكلمات ، الأول من الكلمة أو الأوسط منها ، فضلاً عن الآخر ، وغلّبوا آخرها في التسمية ، لكثرة تغيّره ، بسبب موقعه ووظيفته التركيبيّة ، التي هي موضع عناية النحاة أكثر من غيرها ، وقد قدّموا هذا العِلم على غيره من علوم اللغة ، فكانت التسمية له وبحسبه ، على الرغم من أهمية ضبط جميع حروف الكلمة صوتيًّا وصرفيًّا ونحويًّا ودلاليًّا ...)[١٨٧] .

---

[١٨٣] مقدمة لدراسة اللغة ١٩٣ .

[١٨٤] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ٨٢ .

[١٨٥] شرح الرضي على الكافية ٥٣/١ .

[١٨٦] الخصائص ٥٧/١ .

[١٨٧] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ٨٤ .

ويقول الدكتور مهدي : (إنَّ تنوّعَ الحرف موجودٌ بوجودِ العربية قبل تنفيذ أبي الأسود ومن طبيعة هذه اللغة ، لكنّ المؤسّس أدرك ضرورة إظهاره بعلاماتٍ كتابية ، وهي التي وجّهت الدارسين وجهة التفكير العلمي في بناء الكلمات والجمل ، استنادًا إلى الضبط بهذه العلامات ، فكان اكتشاف العلامات اكتشافًا للوحدة اللغوية المطلوبة التي يجب وعيَ وجودها ضمانًا لدقّة القراءة ، فهي من جملة محدّدات ما يجب أن يلحظ القارئ ، أو يكتب الكاتب ، أو يصحّح المصحّح لما يسمعه ممّا يخالف الصحيح ؛ فإلى الحرف المتحرّك والحرف الساكن ينتهي التحليل اللغويّ ، وتتحقّق الدقّة في تحصيل علوم اللغة العربية)[١٨٨] .

(وصار التمييز بين الحركات والسكنات المُسَلّمَة الأولى من مسلّمات التمكن من العربية بَدءًا من القراءة والكتابة ، وأساس من أسَّس تداول علوم هذه اللغة ؛ وباب من أبواب تفسير الكثير من ظواهر الأبنية اللغوية ، الصوتية أو الصرفية أو النحوية أو الدلاليّة أو العروضية ... إلخ)[١٨٩] .

---

[١٨٨] المصدر نفسه ٧٩ .

[١٨٩] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ٨٠ .

المبحث الثالث : حروف اللغة العربيّة

(الحَرْفُ فِي الأصل : الطَّرَفُ والجانِبُ ، وَبِهِ سُمِّيَ الحَرْفُ مِنْ حُرُوفِ الهِجاء)[١٩٠] ، أو هو : (الطرف والجانب والحَدّ ، ومن ذلك حرف الجبل أعلاه، والحرف النّاقة الضامرة الصُّلبة لأنّها شبّهت بالألف أو الواو من حروف الكتابة في دقّتها وهزالها)[١٩١]، و(الحرف: واحد حروف المباني والهجاء والتهجيّ العربيّة ... ومعنى الحرف : قال ابن الجزري : (إنما سُمِّيَ كل واحد من التسعة والعشرين حرفًا على اختلاف ألفاظها لأنه طرف للكلمة في أولها وفي آخرها ، وطرف كلِّ شيءٍ حرفه من أوله ومن آخره، ولذلك كان أقل عدد أصول حروف الأسماء والأفعال ثلاثة : طرفان ووسط)[١٩٢] ، وجاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ - الحج ١١﴾ أي طرف[١٩٣] .

(ويجوز أن تكون سُميّت حروفًا لأنها جهات للكلم ونواحٍ ، كحروف الشيء وجهاته المحدقة به) [١٩٤] ، وسميّت حروف المعجم أو المعاجم ، قال الخليل : (المعجم حروف الهجاء المقطّعة)[١٩٥] ، وعند الفراء من أعجمت الحروف[١٩٦] .

وعرض الدكتور ترتيب الحروف في مبحثه الأول من كتابه الموسوم : (الألف باء ومقاطع الحروف) ، لعدد الحروف العربيّة ، وترتيبها ، والتدريب على مقاطع نطقها[١٩٧]؛ مستعينًا بما ذهب إليه الخليل وسيبويه في أنَّ عدد الحروف تسعة وعشرون حرفًا ، في حين عدَّ المبرد وابن جني الحروف ثمانية وعشرين حرفًا ، ولم يعدّا الألف أو الهمزة

---

[١٩٠] لسان العرب ، ابن منظور ٤١/٩ .

[١٩١] سر صناعة الإعراب ٣٠/١ ، وتاج العروس ١٢٨/٢٣ .

[١٩٢] التمهيد في علم التجويد ٧٥.

[١٩٣] الكشاف ٦٩١ .

[١٩٤] سر صناعة الإعراب ٢٨/١ . ٢٩ .

[١٩٥] ترتيب كتاب العين ٢٣٨/١ .

[١٩٦] التهذيب ٢٩١/١ .

[١٩٧] الألف باء ومقاطع الحروف ٢٥ .

منها ، لأنّها بِحَسبِ المبرّد (لا تثبت على صورة واحدة ، وليست صورة مستقرة فلا أعتدُّها مع الحروف التي أشكالها محفوظة معلومة)[١٩٨] ، وعلّل ابن جنّي لهذا الرأي بقوله: (اعلم أنَّ الألف التي في أول حروف المعجم صورة الهمزة ، وإنما كتبت الهمزة واوًا مرةً وياءً أخرى على مذهب أهل الحجاز في التخفيف ، ولو أريد تحقيقها ألبتة لوجب أن تكتب ألفًا على كل حال)[١٩٩] ؛ لكنّ الدكتور كمال بِشر من المحدثين، كان قد أخَذَ بمذهبِ الخليلِ وسيبويه ، وقَدَّمَ مسوّغًا لما ذهب إليه من أنَّ حروفَ اللغةِ العربيّة تسعة وعشرون حرفًا ، ويرى (أنّ المبرد وقع في خطأ واضح ، إذ هو قد خلط بعباراته هذه بين مستويين : مستوى النطق ومستوى الكتابة ، إنَّه يعلِّلُ تركَهُ للهمزةِ وعدمَ ذكرِه لها في الألف باء ... إنما هي الصورة الكتابية للهمزة لا نطقها ، فمن المؤكد أنَّ الهمزةَ تنطقُ سواء أكتبتها على الياء أم الواو، وبالطبع حينما تكتب على صورتها الأصلية وهي الألف)[٢٠٠].

وأوّل ما عرض الدكتور مهدي الترتيب الهجائي المُسَمّى المعجميّ أو (الأبتثي)، الذي يَعتَمِدُ في الترتيب على التشابه الكتابي في رسم الحروف ، وكان قد عَرَضَ لكيفيّة نُطقِ أسماء الحروف ، مستعينًا بما ذهب إليه الخليل في أنَّ اسمَ الحرف يُنطقُ بالبَدءِ بصوته في مقطع تسميته ، إذا كان مستقلًّا غير متّصل بغيره ، مثل : باء تاء ثاء جيم حاء خاء ... إلخ ، لأنّ الخليل نفسه كان قد فرّق بين اسم الحرف وصوته في مقاطع الكلمات[٢٠١] .

ثم عرض للترتيب الأبجدي ، الذي رجّح أنّ هذه الحروف جُمِعت : (في هذا الترتيب في ألفاظ ثمانية ، وأصلها ستة ، ولا يتضح لكلمات الأبجدية معنى ، وقد اختُلِف في

---

[١٩٨] المقتضب ١/ ١٩٢، وسر صناعة الاعراب ١/ ٥٥.

[١٩٩] سر صناعة الاعراب ١/ ٥٥ .

[٢٠٠] دراسات علم اللغة ٢١.

[٢٠١] مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٣/ ٣٢٠.

أصلها، فقيل : إنها نبطية ، أو آرامية سريانية ، أو عروبية قديمة ، حافظ عليها الخط العربي وطورها ، وزاد عليها اللفظين الأخيرين بما يناسب اللغة العربيّة ويكمل حروفها ، وقد انتقلت فيما يُروى بين الحيرة القريبة من الكوفة شمالاً ، أو من اليمن جنوبًا إلى أهل العربيّة)[٢٠٢] ؛ قال الدكتور جواد علي : (لا يعقل بالطبع أن يكون أهل العربيّة الجنوبية قد أوجدوا خطهم من العدم ، من غير استعانة بعلم مسبق عن الحروف والأبجديات ، بل لا بد أن تكون أبجديتهم قد أخذت من أبجديّة أخرى، ومن فرع من فروع الخط الذي أوجدته البشرية ، ودليل ذلك أن أسماء الحروف الأساسية التي ترد في كل أبجدية هي واحدة ، وفي وحدة الأسماء دلالة على وجود أصل واحد ، تفرعت منه الخطوط ، والمسند بالنسبة لنا ، هو خط قائم بذاته ، يشابهه الخط الحبشي ، ومن فروعه الأبجدية اللِّحيانيّة والثمودية والصفوية . فكل هذه الأبجديات هي من فصيلة واحدة رأسها المسند، أما ما فوق المسند ، فلا نعرف من أمره أي شيء)[٢٠٣] ، وقال بهذا الرأي الأستاذ أحمد حسن الزيات : (وأصحاب المعاجم من العرب ، ولو أنهم لم يفطنوا إلى الموازنة بين الأبجدية العبرانية والآرامية القديمتين ، وبين الأبجدية العربيّة، إلاّ أنهم فصلوا بين الحروف الأولى والأحرف الستة الأخيرة، فقالوا عن الكلمات الأولى أنهم "ملوك مدين" ثم وجدوا بعدهم : "ثَخِذَ ، وضَظَغَ" فسموهما الروادف) ... وهي أحرف ليست من أسمائهم ، وهذا يَدُلُّ على أنّ الأصل الذي انحدرت عنه الأبجدية العربيّة أصل قديم عبراني وآرامي، ولكن العرب نسوا ذلك الأصل)[٢٠٤] .

---

[٢٠٢] الألف باء ومقاطع الحروف ٣٢ .

[٢٠٣] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٥/ ٢١٤.

[٢٠٤] مجلة الرسالة، أصدره، احمد حسن الزيات ، العدد ٢٥٤، ١٨.

وقد لاحظ الدكتور أنَّ ثَمّةَ تشابهًا في الترتيب الأبتثي مع الترتيب الهجائي ، فـ (كَلَمُنْ) في الترتيب الأبجدي ، هو نفسه في التسلسل الهجائي (ك ، ل ، م ، ن) ، وهو نفسه أيضًا في ترتيب الحروف الانكليزية (KLMN) ومثله (QRST) في المقابلة مع (قَرَشَتْ)[٢٠٥] .

ثمّ عرض باحثنا ترتيب الخليل للحروف العربيّة بحسبِ مخارج الحروف صوتيًّا ، ثم قدم تفصيلاً لمخارج الحروف التي جاءت على تسعة مخارج هي : الأحرف الحلقية ، والحرفان اللهويان ، وأحرف شجر الفم ، والأحرف الصفيرية ، والأحرف النطعية ، والأحرف اللثوية ، والأحرف الذلقية ، والأحرف الشفوية ، والأحرف الهوائية) ثم ذكر أنصاف الحروف التي هي الحركات (الفتحة ، والضمة ، والكسرة)[٢٠٦] ، والخليل هو الأسبق لهذا الترتيب، وأتبعه سيبويه بترتيب الحروف بحسب مخارجها إلى أنه خالفه في عدد مخارجها فقد بدأ من مخرج الحلق من أقصاها الهمزة والهاء والألف وانتهى بالخياشيم مخرج النون الخفيفة[٢٠٧] .

وقد تضمّن كتاب الدكتور (الألف باء ومقاطع الحروف) ، عرض الترتيب الهجائي ، والترتيب الأبجدي ، والترتيب الصوتي ، توثيقًا لجهود عظيمة بذلها القدماء ، فضلًا عن الربط بين الحرف واكتشاف المقطع الذي يقارب اكتشاف الفونيم ، والذي (... يُعادل اكتشاف الطاقة النووية ؛ لأنَّ هذا الكشف في مجال علم اللغة أدّى إلى ثورة في التفكير اللغوي ، كما أنّ كشف الطاقة النووية أدى إلى ثورة في العلوم التقنية وأن نظرية الفونيم قد انبثقت من ملاحظة كيفيات النطق المختلفة ، ووظائف الأصوات المتنوّعة ، ومن محاولة وضع ألفبائيات للغاتٍ مختلفة)[٢٠٨] .

وبدأ الدكتور كتابه بملاحظة التراجع الواضح في التعليم الصحيح لأساسين مهمين هما : القراءة والكتابة ، مشيرًا إلى أن الأخطاء اللفظية والكتابية تسرّبت إلى الكثير من

---

[٢٠٥] الألف باء ومقاطع الحروف ٣٢.

[٢٠٦] المصدر نفسه ٣٦.

[٢٠٧] كتاب سيبويه ٤/ ٤٣٣- ٤٣٤.

[٢٠٨] دراسة الصوت اللغوي ١٦٦، ١٧١، والألف باء ومقاطع الحروف ١٥- ١٦.

المعلمين وظهرت إلى العلن حتى على أيدي بعض الخطاطين من المعروفين بالاهتمام والتجويد ، وصولًا إلى وضع الحركات في غير مواضعها لتصوّر بعضهم أنّها لمجرد تزيين حروف الكلمة ، وأكد ضرورة الاهتمام بتعليم المقاطع والحروف ، وإن تطلّب ذلك وقتًا أطول مما هو مُعَدّ له في السنوات الدراسية الأولى ، مبينًا أن تعليم مقاطع الحروف وضبطها قراءة وكتابة ولفظًا يُعَدُّ أساسًا لتعليم اللغة العربيّة[٢٠٩] ، وقد أكّد ضرورة تعلم ضبط مقاطع الحروف ، مشيرًا إلى عدة نقاط من شأنها أداء مهمة يمكن الإفادة منها في البرنامج التعليمي ، منها[٢١٠] :

١ . التعريف بتنوع نطق الحروف تبعًا لما يرادفها من حركات مختلفة تعريفًا قصديًّا لا عرضيًّا .

٢ . تقديم القواعد التي تستند إليها القراءة وإظهار ما خالف القواعد من شواذ في قوائم مستقلة .

٣ . إظهار معاني المكتوب حين تدريب التلاميذ ، بربط المهارات اللغويّة الأساسيّة القراءة والكتابة والفهم والتعبير بعضها ببعض ، وتفعيل النشاط اللغوي بإظهار التعجب والاستفهام والفرح والحزن والغضب والنفي والإثبات .

أمّا تعجيم الكتاب فـ (تنقيطه كي تستبين عجمته ويَضِحُ ؛ وأظنّ أنّ الخليل أراد بالأعجمية أنّها ما دامت مقطّعة غير مؤلّفة تأليف الكلام المفهوم ، فهي أعجميّة ، لأنّها لا تدّل على شيء ... حروف الخط المعجم ، وهو الخط العربيّ ، لأنّا لا نعلم خطًّا من الخطوط يعجم هذا الإعجام حتى يدلّ على المعاني الكثيرة ... فسُمّيَ إعجامًا لأنّه ... يدلُّ على المعنى)[٢١١] .

---

[٢٠٩] الألف باء ومقاطع الحروف ١٩- ٢٣.

[٢١٠] المصدر نفسه ٢٣- ٢٤.

[٢١١] معجم مقاييس اللغة ٤/٢٤٠ . ٢٤١ .

فالإعجام الحركات التي تتّضح بها حروف الهجاء المقطعة في تأليف الكلام ، وإعجام الحروف تنقيطها ، ومن التنقيط الأوّل نقط المصحف ، وهو نقطُ أبي الأسود الذي يظهر المقطع اللغوي أي الحرف المتحرك بحركات مختلفة أو الحرف الساكن ، ونرجّحُ أنّ أبا الأسود ضَبَطَ جميع أحرف القرآن الكريم ، ولم يكتفِ بنقط أواخر الكلمات ، ولاسيّما ما يؤثّر في البناء والتأليف والمعنى ، ونؤكد ضرورة ضبط مثل قوله تعالى : ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ . الذاريات ١٠﴾ ، فالأهم ضبط مقطع الحرف الأول من الكلمة (قُ) ، ومقطع الحرف الثاني منها (تِ) ، وليس المقطع الأخير مثلهما في الأهمية ، لذلك نرجّح أنّ تسمية هذا النقط لاحقًا بنقط الإعراب لتمييزه من نقط الإعجام أولًا ، ومن تغليب ضبط أواخر الكلمات لأهمّيتها وكثرة ما يعتريها من تغيير موازنة بما قبلها ثانيًا .

فالبَدْءُ بالتفكير بالضبط في العلامات الصوتيّة (الحرف والحركة) مدخلٌ إلى التفكير في الكلمات ، إذ يربط الدكتور سمير استيتيّة باعتناء علماء القراءات بضبط الكلمات ، من الذين (جعلوا دراسة الأصوات سبيلًا إلى تفسير التغيّرات الصرفيّة ، أي أنّ دراسة الصرف لا يمكن عزلها عن دراسة الأصوات ؛ فهم أوّل من وضع قواعد علم النُّظُمِ الصوتيّة phonology ، وعلم الصرف الصوتي morphonology ، وأكثر الكثير ممّا قالوه في ذلك صحيح لا تنقصه المعرفة الحديثة في هذين العلمين)[٢١٢] .

وبهذا يكون أبو الأسود قد وضع بين يَدَي من جاء من بعده الأسس لعلم النحو بوضع العلامات الكتابيّة الخالدة المعبّرة عن النطقِ بالكتابة ، التي بها كَمُلَ ضبط الحرف العربيّ في أيّ موضع من مواضع كلمته ، وبها ظهَرَ تنوّعه ، وكانت تلك العلاماتُ هي الوحدات المحسوسة التي ينتهي إليها التحليل اللغويّ ، وهي المنطلق إلى معرفةِ مكوناتِ السلسلة الكلاميّة ، وقد ارتبط تغيّر هذه العلامات من أوّل وضعها بتمثيل الأصوات المنطوقة من جهة ، وبالتصنيف وبالأبواب النحويّة الأُوَل من جهة أخرى ، وبالأساليب

---

[٢١٢] اللسانيّات المجال والوظيفة والمنهج ١٨ .

التي قد تتغيّر بحسب تغيّر هذه العلامات من جهة ثالثة ، ذلك ما يجده المتتبّع والمتأمل لروايات تأسيس النحو، فقد وجد تلامذة أبي الأسود بهذا الضبط إمكان تنوّع الحرف الواحد ، واختلاف ضبط الكلمة الواحدة ، وأنّ استقامة المعنى الوظيفي للكلمات تتحقق بعلامة الضبط الصحيحة ، وقد نقل أبو الأسود الحرف من العام المحتمل المتعدد، إلى المُحَدّدِ بالضبط في سياق جملته، وهو ما سمّاه علم الدلالة الحديث بالكلمات الشكليّة المبهمة التي لا معنى لها في المعجمات ، ولها معنى قواعدي يتضح من الربط والسياق اللغوي ، ولا يوصف منفردًا ، إلاّ متصلاً بغيره)[٢١٣] .

وقد عَبّرَ الخليل بن أحمد الفراهيدي عن الحرف بمعنى الصوت الذي يقابل الشّكل الكتابي، وكذلك سيبويه في مثل قوله في (باب الإدغام : هذا باب عدد الحروف العربيّة، ومخارجها ، ومَهْمُوسها ومَجْهُورها ، وأحوال مَجْهُورها ومَهْمُوسها ، واختلافها ؛ فأصل حروف العربيّة تسعة وعشرون حرفًا ...)[٢١٤] .

والحرف عند ابن جنّي (في أوّل تسميته لفظه بعينه ، ألا ترى أنك إذا قلت : جيم فأوّل الحرف (جيم) وإذا قلت : دال ، فأوّل الحرف دال ، وإذا قلت : حاء، فأوّل ما لفظت به حاء ، وكذلك إذا قلت ألف ، فأوّل الحروف التي نطقت بها همزة ... كون صورة الهمزة مع التحقيق ألفًا)[٢١٥] ، فالحرف أوّل اللفظ المحكيّ .

وعدا التسمية فإنّ معرفة (صدى الحرف ، أن تأتي به ساكنًا لا متحركًا ، لأنَّ الحركة تقلق الحرف عن موضعه ، ومستقرّه ، وتجتذبه إلى جهة الحرف التي هي بعضه ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله)[٢١٦] ، لأنَّ الساكن يغلق به مقطع الحرف المتحرك السابق له وينتهي به المقطع ، ولا يمكن الابتداء به ، فتقول : إكْ ، إقْ ، إجْ ،

---

[٢١٣] علم الدلالة لبالمر ٤٠ ، عن دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء ٢٥٥ .

[٢١٤] كتاب سيبويه ٤ /٤٣١ .

[٢١٥] سر صناعة الإعراب ٥٦/١ .

[٢١٦] المصدر نفسه ١٩ . ٢٠ .

وكذلك سائر الحروف ، وقلق الحرف هنا تلوّنه وتعدّده ، كأنّ الساكن الثابت أو الأصل، أو السكون الصفر أو الوحدة اللغويّة التي تربّع الحركات الثلاث ، والحركات مادة للجهات التي تلوّنه وتفرّعه وتشكلّه وتغيّر نطقه . وقد ظهر فيما تقدم التمييز بين الحرف المتحرك بأن وَضَعَهُ في أول مقطع جديد يوضحه ويظهره ، والساكن في آخر المقطع ، وهما في مقطعين مختلفين يناظران المطلوب لفظه ، أي أنّه بيّن موضع كلّ حرف من البناء المقطعيّ للكلمات التي وردت فيها ، فالمتحرك وضعه أول مقطع ، والساكن أغلق به المقطع من آخره بعد الحرف وحركته[٢١٧].

وقد جعلوا الحرف يدلّ على ما يُكتب وما يُنطق معًا ، أمَّا الصّوت المصطلح فيدلُّ على ما يُسمع عند لفظ الحرف ، وفَصَل المُحدَثون الصوت من الحرف، لأنَّهم عَدُّوا أنَّ الكتابة التي يُعبَّرُ بها عن (الحرف) هي ليست من جوهر اللغة ؛ لأنَّ اللغة أقدم وأعرق من الكتابة ، كما أنَّ الكتابة عرضٌ واللغة مجموعة أصواتٍ لغويّة وما الكتابة إلاّ رموز لها أدخل المُحدَثون الحرف والصوت في علاقة العموم والخصوص فكلّ حرفٍ لديهم هو صوتٌ وليس كلُّ صوتٍ حرفًا وإن دلَّ على معنى الحرف ، فكثير من الأُمم تتفق في أنْ تُخرج صوتًا عند إرادة النفي ولكن لا حرف له في اللغة . لكنّ أبا الأسود الدؤلي وَعى ضرورة إظهار الحروف بالعلامات الكتابية ، ذلك الوعي الذي وجّه الدارسين وجهة التفكير بالمحسوس في بناء الكلمات والجمل ، استنادًا إلى هذا الضبطِ بهذه العلامات ، وكان ذلك اكتشافًا لأصغر وحدة لغوية عربيّة ، صار الذهن ينصرف إلى التفكير فيها ، ويضطرُّ إلى وعيها بعد اكتشافها ، وإدراك وجودها حين يريد الدقة والمراجعة ، سواءً أكُتِبَتْ هذه العلامات ، أم لم تكتبْ . وصار التوجيه بحسبها ضرورة أولى من ضرورات التمكن الدقيق من العربية ، بَدْءًا من القراءة والكتابة ، وبديهة من البديهات في تداول علوم هذه اللغة ، حتى أنّ المبتدئ بتعلم الهجاء العربي في التعليم التقليدي ، لا يَبْدأ إلّا

---

[٢١٧] سر صناعة الإعراب ١٩ . ٢٠.

مِن الحرفِ وما يكمّله من ضبط ، ومن بعد ذلك ينتقل إلى التدريب على التهجئة ، التي هي جمع المقاطع الصوتيّة للحروف المضبوطة بحسبِ علامات ضبطها ، إذ نقرأ الكلمة بتهجئتها حرفًا بعد حرف، باستعمال أبجديّة فونولوجيّة[٢١٨] .

وهذا هو المدخل الصحيح إلى جميع علوم العربية ؛ وهو باب تفسير كثير من الظواهر في الأبنية اللغوية ، ومدخل أساس إلى معرفة طبيعة اللغة ، الصوتية ، أو الصرفية ، أو النحوية ، أو الدلاليّة ، أو العروضية ... إلخ ؛ (يقول دي سوسير في هذا الصدد : يريد اللغويّ أن يجد بين يديه قبل كلّ شيء وسيلة لتمثيل الأصوات المنطوقة التي تنفي كلّ غموض) [٢١٩] .

لكن لا بُدّ أن نتساءل عن أثر نقط الإعراب وأهمّيّته ، الإجراء الكتابي الذي سمح بإظهار الاختلاف على مستوى الكلمة المفردة ، وكذلك تركيب الجمل، في بناء علوم العربيّة ، وعن صلة هذا النقط بالمسموع والمكتوب في ذلك الوقت المبكر .

لكن هل بإمكان مرحلة التأسيس ، مرحلة العقد الرابع حتى العقد السادس من سنة الهجرة النبويّة الأولى ، من إعادة تأهيل كتابة الحروف صوتيًّا ، وتجاوز مرحلة التمييز بين مقاطع الحرف الواحد إلى ما بعدها ؟

هذا ما تساءل عنه الدكتور مهدي ، وتساءل أيضًا :

هل كان بإمكانهم فرز مجموعات الضبط التي تُضبط به كلمات هذه الحروف، في هذا الزمن المبكّر ؟

وهل يمكنهم تمييز المتشابه من المختلف ، في تلك المرحلة ؟

وهل عبّرت فكرة النقط وما تمخّض عنها عن واقع اللغة العربيّة ، مستجيبة لبنية هذا الواقع ، ومنفذة لما يجب أنْ يكون عليه تخالف ما انحدر إليه استعمال الناس للغة القرآن في حينه ؟

---

[٢١٨] في علم اللغة العام ٦٠ .

[٢١٩] المصدر نفسه ٥٩ .

وهل كانت مقولات التأسيس صحيحة ، ومنطقية ، وعلميّة ؟

وهل تمكّن المؤسّس من جعل (اللغة المنطوقة تابعة للكتابة) مثل ما يقول دريدا[٢٢٠] .

أسئلة تصلح أن تكون منطلقاً للإثارة العلميّة، أو التفكير الجدّي في الإجابات، أو هذا ما حاول تداوله في كتابه[٢٢١] .

---

[٢٢٠] اللغة والمعنى ٢٥٤ .

[٢٢١] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٦٤ . ١٦٥ .

المبحث الرابع : مقطع الحرف

المَقطَعُ : موضِعُ القطعِ ، والمِقطَعُ : ما يُقطعُ به الشيء ، والمقاطعُ من القرآن : مواضِعُ الوقوف ، والقِطْعُ : ظلمة آخر الليل ، أو القطعة منه ، قال تعالى : (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ . هود ٨١) ، والقطيعُ لإخوانه الذي لا يثبت على مؤاخاة ، وتقاطعت أرحامهم : تفرّقت وتعادت ، لمطامع وغيرها ، قال تعالى: (... أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . سورة محمد ٢٢) ، والمقطَعُ : الموضِعُ الذي يُقعُ فيه النهر من المعابر وغيرها ، والتقطيع في الشعر: وزنه بأجزاء العروض ، ومُقطّعاتُ الشيء : طرائقه التي يتحلَّلُ إليها، ويتركّبُ منها ، ومقاطيع الشعر: الأسباب والأوتاد[٢٢٢] .

وفي الاصطلاح : (الأصوات النطقية المُقطَّعة ، تقاطيع بها يتميز بعضها من بعض ، تميزًا لا بحسب الحِدّةِ والثقلِ ، ولا بحسبِ الفخامةِ والضؤولة ، ولا بحسب الصفاء والكدورة ، ولا بحسب الجهارة والخفوت بل بحسب المخارج وأصولها التي تختص كل واحدة منها بواحدٍ منها)[٢٢٣] .

أمّا رأي الفارابي في المقطع فهو : (كلُّ حرفٍ غير مصوّت [أي صامت] أُتبِعَ بمصوّت قصير [أي حركة قصيرة] قرن به ، فإنّه يُسَمّى المقطع القصير، والعرب يسمّونه الحرف المتحرّك ، من قبل أنّهم يسمون المصوّتات القصيرة حركات ، وكلّ حرف لم يُتبع بمصوّت طويل فإنّا نسميّه المقطع الطويل)[٢٢٤] ؛ إنّ الفارابي كان يدرك حدود المقطع يطابق تصوّر المحدَثين في تحديد المقطع الصوتي ، فقد انصرف بأمثلته إلى الإفصاح عن خواصّ المقطع الصوتي من حيث التركيب والبناء ؛ وذلك أنّ في أمثلة الفارابي إنباء صريح عن أن المقطع الصوتي في العربية لابد أن يشتمل على حركة قصيرة أو طويلة على سواء .

---

[٢٢٢] تاج العروس ٢٢ / ٢٥ وما بعدها .

[٢٢٣] المستوفى في النحو، علي بن مسعود الفرغاني ٥٨٠.

[٢٢٤] الموسيقا الكبير ١٠٧٥ .

ويرى ماريو باي أنَّ المقطع عبارة عن (قمة إسماع ، غالبًا ما تكون حركة ، مضافًا إليها أصواتًا أخرى عادة . ولكن ليس حتمًا . تسبق القمة أو تلحقها ، أو تسبقها وتلحقها)[٢٢٥] ؛ ويرى هيلمسليف أن المقطع عبارة عن (سلسلة تعبيرية تشتمل على نبر واحد بالضبط)[٢٢٦] ؛ أما عبد الصبور شاهين فعرَّف المقطع ، بقوله : (تأليف صوتي بسيط تتكون منه واحد أو أكثر كلمات اللغة ، متفق مع إيقاع التنفس الطبيعي ، ومع نظام اللغة في صوغ مفرداتها)[٢٢٧] ، وعرّفه إبراهيم أنيس بـ(أنه عبارة عن حركة قصيرة أو طويلة مكتنفة بصوت أو أكثر من الأصوات الساكنة "الأصوات الصامتة")[٢٢٨] .

فالمقطع هو (المزيج من صامت وحركة ، يتفق مع طريقة اللغة في تأليف بنيتها ، ويعتمد على الإيقاع التنفّسي ... ولعلّنا نتذكّر بهذا التقسيم الطريقة التي تعلمنا بها القراءة في المدرسة الأولى ، فقد كانت في الواقع قراءة مقطعيّة على النحو الفطريّ)[٢٢٩]. أو (هو وحدة صوتيّة تبدأ بصامت يتبعه صائت ، وتنتهي قبل أول صامت يرد متبوعًا بصائت ، أو حيث تنتهي السلسلة المنطوقة ...)[٢٣٠] ، والصامت فيما نعرض في هذا البحث هو الحرف ، والصائت هو الحركة ، أو حرف المدّ ، وكان الضبطُ الكتابيّ المقطعيّ التأسيسي لعلوم اللغة العربيّة . بحسب الدكتور مهدي . دقيقًا يُناظر السلسلة الصوتية المنطوقة ويطابق الدقات السمعية ، ولم يقتصر على كتابة الحروف الصحيحة فقط بل أكملها بما يُميّزها من أصوات وإشارات كتابية ضرورية كافية لتحقيق أساس لنظام كتابي جيّد ؛ وقد قُسِّمَتْ حروف الهجاء ، إلى السلسلة الصوتية المنطوقة طبقًا

---

[٢٢٥] أسس علم اللغة لماريو باي ٩٦.

[٢٢٦] علم الأصوات العربيّة ٢٣٤.

[٢٢٧] القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ٢٥.

[٢٢٨] موسيقى الشعر ١٤٧.

[٢٢٩] المنهج الصوتي للبنية العربية ٣٨ .

[٢٣٠] أبحاث في أصوات العربيّة ٨ .

للدقات السمعية المتجانسة فيها ، فكانت هذه العلامات الكتابية المقطعية هي منطلق تأسيس علوم اللغة العربيّة[٢٣١] ؛ في ثنائيّة الحرف والحركة ، ويتفرّع عن هذه الثنائيّة . ثنائيّة التأسيس ثنائيّة أبي الأسود . ثنائيّة المبني والمُعرب المستندة إلى ثبات الحركة وتغيّرها ، التي ابتُنى بحسبها سيبويه نظام كتابه ، ومن ثمّ أبدع ثنائيّة المُسند والمُسند إليه ، ثنائيّة مكوّنات الجملة العربيّة .

فقد استند هذا البناء بعضه إلى بعض ، وكمّل آخره أوّله ، وصولًا إلى منظومة الإعراب، استنادًا إلى اكتشاف وحداتها الأساسيّة ، التي ابتدأت وحدات قرآنيّة خاصّة ثمّ لغويّة عامّة ، ومن أهميّتها أن دار الدرّس اللغويّ بمدارها ، حتّى تعاظم شأنها بعد اكتشافها ، وقد ابتُنِيَت أبواب النّحو بحسبها ، فما الأبواب النّحويّة الأولى إلّا التعبير المباشر عن وظائف الضّبط ، فكلّ ضبط يقابل بابًا نحويًّا مثلما عرضنا .

فالضبط الدقيق بالنقط . فيما يقرر الدكتور مهدي . هو (الذي أوجدته مرحلة تأسيس النحو العربي في التطبيق الذي نُفِّذَ على حروف القرآن الكريم ، ومن بعده التعديل الشكلي اليسير بالحركات ، ذلك الذي أجراه الخليل بن أحمد الفراهيدي ، قد حقق الغاية في التكامل بين الحرف وما يميزه من حركات أو علامات ، وقد اتّضح لاحقًا في التنظير والافتراض ، وكذلك في التطبيق عدا ما تُرِكَ من الضبط لمعرفته ، وكثرة تداوله، أو ما خرج عنه ، في حالة الشواذ المحدودة المعروفة ؛ فمن موازنة منطلقات هذا الوضع بأطروحات علم اللغة الحديث ، يتبيّن أنّ النحو العربي انطلق من اكتشاف العلامات الوحدات الصغرى ومعرفة وظائفها : الصوتيّة والصرفية والنحويّة والدلاليّة ، فاكتشافها نبّه على تمييز الكلمات : اشتقاقها وأقسامها ، ومعرفة أجزائها ، وضبط جملها، من النسيج اللغوي نفسه ، وبانَ من هذا التمييز طبيعة وظائف أجزاء الضبط ،

---

[٢٣١] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٩٢ .

في الكلمات المستقلّة ، وفي التراكيب والأساليب ، كالفاعلية والمفعولية والإضافة والتعجب والنفي والاستفهام ... إلخ)[٢٣٢] .

وكان ضبطُ أبي الأسود الدؤلي قد ربط بين الصوت (الحركة) بالصامت (الحرف) ، بالبدء بحرف تتبعه حركة ، وهذا ما كانت عليه الكتابة العربيّة ، مثل :

/بَ / ، / بُ / ، / بِ /

أو قد يتبع هذا الحرف بحركة طويلة ، ألف أو واو مدّيّة أو ياء مديّة ، أو ما يسمّى بصائت طويل ، مثل :

/ با / ، / بُو / ، / بِي /

وكان على المتعلّم أن يتقن الرموز الكتابيّة في مقاطع صوتية ، الرموز المؤلّفة من حروف وحركات ، وربما استغنوا عن كتابة الحركات لأنها معلومة ، واتّصل النحو بتمييز صوت الحرف الواحد وكذلك بتصنيف الكلمات ، وتبويبها بحسبِ ما يُلحظُ من أثرٍ لهذا الضبط على الأقسام ، استنادًا إلى ما يجمع أو يُفرّق بين الكلمات المضبوطة ، وكذلك على الأقسام التي يمكن أنْ تدخلَ في مجموعات أو جداول ، يميّزها المتأمّل ، في أقسام موجودة في أكثر اللغات الإنسانيّة ، وهي مباني التقسيم ، أو أقسام الكلام ، ومباني التصريف ، ومباني القرائن التركيبيّة[٢٣٣] .

ونستدلّ بمثل ما قاله الدكتور تمّام حسان في إمكان الإفادة من (الحرف والحركة) في الفرز والتصنيف ، بما نميّز به الأشياء من الأشخاص ، شرط وضوح المراد فرزه وتصنيفه ، فـ (من السهل أن نعرف هذه العلاقات بنوعيها ، بواسطة الملاحظة على ما ندرك أوجه الشبه ، والفروق بين الأشخاص والأشياء ، ومن ثمّ تصبح سهولة العمل

---

[٢٣٢] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٩٣ . ١٨٤ .

[٢٣٣] اللغة العربيّة معناها ومبناها ٨٢ . ٨٣ .

التصنيفي وصعوبته مرتبطة بوضوح المفردات أو خفائها ، لكنّه في النهاية ليس من الجهود العقلية الشاقة)[٢٣٤] .

وقال أيضًا : (تتمّ الدراسة الحسّيّة بالملاحظة والتسجيل قبل محاولة أيّ تفكير تجريدي يرمي إلى استنباط العلاقات ، التي تجمع أو تفرّق الأصوات التي جرت ملاحظتها في إطار لغوي ما ، ومن ثمّ تعتبر دراسة الأصوات مقدمة لا بُدّ منها لدراسة النظام الصوتي والنظم اللغويّة الأخرى)[٢٣٥] ، لكنّ الدكتور تمام نفسه يميّز بين ملاحظة الكلام ودراسة اللغة ، لأنّ الكشف عن النظام من عمل الباحث ، وهنا نشير إلى الرّبط بين الضبط والأبواب النحويّة الأُوَل ، ما يمكن أن يكون جمعًا بين ملاحظة الكلام والتصنيف[٢٣٦] .

وبهذا الضبط دُوّنت الصوائت المنطوقة كتابيًّا ، مباشرة من نسيج الكلام واتصال أجزائه، ومن منظور ومسموع في قراءة حيّة لنصّ القرآن الكريم ، فالناطق ينطق ، والكاتب يكتب على وفق ما يشاهد من تغيّر هيأة فم الناطق، ويسمع من طريقته في الأداء ، فيثبت الكاتب العَلَامة المناسبة التي تظهر الصائت وتبيّن موضعه من تحليل الكلام إلى مقاطعه ، قال فندريس : (لا توجد في اللغات أصوات لغوية منعزلة ؛ وهذا لا يعني فقط أنّ الأصوات اللغوية لا توجد مستقلة وأنها لا تُحلّل على انفراد إلاّ بنوع من التجريد ، إذ إنها في كل لغة تكوّن نظامًا مترابطًا ؛ لكنّ معنى هذا أيضًا أنها لا تستعمل على انفراد فلا يُتكلم إلاّ بمركبات من الأصوات اللغوية ، فأقل جملة وأقل كلمة تفترض سلسلة من الحركات النطقية المعقدة وقد تركبت فيما بينها)[٢٣٧] .

فبفضلِ ضبط أبي الأسود الدؤلي تحوّلت كتابة حروف العربيّة من مرحلة إلى مرحلة ، فأمام ناظرَي القارئ والباحث بعد الضبط : الحروف مُعلمَة بعلامات مختلفة ، تبيّنُ ضمّ

---

[٢٣٤] الأصول ٥٦ .

[٢٣٥] اللغة العربيّة معناها ومبناها ٦٦ .

[٢٣٦] المصدر نفسه ٦٦ .

[٢٣٧] اللغة ٨٣ ، ومبادئ اللسانيات ١٤١ .

الشفتين بالحرف ، أو كسرهما أو فتحهما ، وكان ترك العلامة علامة للوقف أو السكون، واستقرّت منتظمة مع الحروف ، فلا حرف من دون حركة ، ولا حركة من دون حرف ، فالعلامات مع الحروف في نسيج الكلمات والجمل والنصوص ، وصار لها الاعتبار والمكانة المعلومة المعروفة ، سواء أضُبِطَ بها الحرف أم لم يضبط ؟! إذ إنّ اختفاءها قصدًا من الكاتب أو إهمالاً بات لا ينفي وجودها ، فيفكّر في هذا الضبط القارئ الذي يقرأ والكاتب الذي يكتب ، جزءًا يتمِّم الحرف ويكمّله ، وأداة توضّح بنية الكلمة واشتقاقها، وتبيّن وظيفتها التركيبيّة ، وقد ارتبطت هذه العلامة بالأقسام والأبواب النحوية، من أوّل الوضع ، ذلك لأنّ التركيز على تقابل الرموز أو العلامات مبدأ من مبادئ الاهتمام والفرز وإظهار الفرق والاختلاف ، وقد لحظ النحويون العرب هذا المبدأ وصدروا عنه في تقسيماتهم وتصنيفاتهم ؛ (ولعلّ نظام الإعراب الذي فسّروه على أساس القول بالعامل إنما يقوم ، في بعض وجوهه ، على هذا المبدأ ، لذا فإنّهم عملوا في ضبطه ضبطًا منطقيًّا مطلقًا)[٢٣٨] .

(وهذا الوضعُ هو الأساس المعتمد فيما بعد مرحلة التأسيس ، إذ يظهر أثر "الحرف والحركة" في أوّل تقسيم كتاب سيبويه ، ف"الحرف والحركة" مرجعه في التمييز بين ثبات حركة أواخر الكلمات ، التي اصطلح عليها بالكلمات "المبنيّة" ، أو في تغيّر أواخرها الذي اصطلح عليها بـ "المعربة" ، وكان لهذين المصطلحين : البناء والإعراب "الثبات والتغيّر" ، الأساس المهم في تبويب (الكتاب) وتقسيمه ، وكذلك التوسّع فيما يقع تحتهما من تفريع وتوجيه وتعليل في التعامل مع البنى اللغويّة)[٢٣٩] .

---

[٢٣٨] نظرية النحو العربي ٤١ .

[٢٣٩] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٥٢ . ١٥٣ .

المبحث الخامس : تنوّع مقاطع الحروف

لا ينطق الحرف من دون مقطع[٢٤٠] ، فلا يمكن النطق به مستقلاً من دون حركة ، و(الحركة هي نواة المقطع)[٢٤١] ، والتعرّف على نظام الحرف والحركة مدخل التمكن من تعلمّ اللغة العربيّة وإتقانها ، قال الدكتور كمال بشر: (الحركات في كل اللغات تمثل صعوبة ظاهرة في الدرس النظري وفي الأداء الفعلي لها أيضًا ، ذلك أنّها تختلف اختلافًا كبيرًا باختلاف اللغات واختلاف البيئات واختلاف الأفراد في البيئة الواحدة ؛ إنها تختلف في عددِها ، وطبيعتها ، وخواصها المميزة لها ...)[٢٤٢] .

وقد عرض الدكتور مهدي صالح مقاطع الحروف العربيّة العامّة بحسب ترتيب الألف باء في كتابه التعليميّ الموسوم بها : (الألف باء ومقاطع الحروف) ، إذ يمثل اختلاف الحركة تغييرًا واضحًا في نوع المقطع للحرف الواحد ، وقد عرضها على تسعة أقسام ، لأجل التدريب على مقطع تغيّر الحركة بعد الحرف ، وهي مقطع : (الفتحة ، وتنوين الفتح ، ومد الفتحة ، والضمة ، وتنوين الضم ، والواو المدية ، والكسرة ، وتنوين الكسر، والياء المدية) ، أي ثلاثة مقاطع مع الفتح ، وثلاثة مع الضمّ ، وثلاثة مع الكسر.

١ . **مقطع الفتحة** : (الفتحة : الحركة الأمامية المفتوحة غير المدورة ، أو الصائت الوَسَطِيّ القصير المفتوح ، إذ يبقى الفم معها مفتوحًا)[٢٤٣] ، ومَثّلَ لها بكلمات كثيرة بحروف مختلفة منها : أَ كَ لَ ، وكَتَبَ ، وجَمَدَ [٢٤٤] ، وقد ذكر الفراء أن (الفتحة تخرج من خرق الفم بلا كلفة)[٢٤٥] .

---

[٢٤٠] الألف باء ومقاطع الحروف ٤٤ .

[٢٤١] علم الأصوات، كمال بشر ١٥٠.

[٢٤٢] المصدر نفسه ٤١٩ .

[٢٤٣] علم الأصوات العام ١٣٢، والألف باء ومقاطع الحروف، ٤٥ .

[٢٤٤] الألف باء ومقاطع الحروف ٤٥.

[٢٤٥] معاني القرآن ، للفراء ١٣/٢.

٢ . **مقطع تنوين الفتح** : قدم الدكتور للتعريف بمقطع تنوين الفتح ، ببدئه بحرف مفتوح ، وغلقه بنون ساكنة زائدة ، تكتب بحسب نظام تأسيس علوم اللغة العربيّة الأوّل فتحتين[٢٤٦] ، وتعريف تنوين الفتح (نون زائدة ساكنة آخر الكلمة تكتب فتحتان قبل ألف وفوق الحرف المنون وتسمى هذه الألف تمييز تنوين الفتح)[٢٤٧] .

٣ . **مقطع الحرف متبوعًا بمد الفتحة** : الألف مد الفتحة ، والفتحة نفسها : نصف ألف ، وكان البدء بالهمزة التي اتبعَت بألف (أا) ، وقد جعلا ألفًا يعلوها علامة المد : (~) فصارت اختصارًا (آ) ولا حركة قبل الألف ؛ لأن الألف يُعَدُّ حركة طويلة[٢٤٨] ، يقول كمال بشر في حروف المد : (ولعلماء العربيّة في القديم شيء من الجهد غير المنكور في تعرّف الحركات في اللغة العربيّة ، وبخاصة الحركات الطوال التي سموها "حروف مدّ" : وهي الألف في "قال" والياء في "قيل" والواو في "يقول")[٢٤٩] . أما قول المحدثين فلا حركة قبل الألف .

٤ . **مقطع الضمة** : الضمة بعض الواو[٢٥٠] ، أو هي : الصوت الصائت الخلفي من اللسان ، ومعها تكون فتحة الفم ضيقة ، أما الشفتان فمفتوحتان متقدمتان مدورتان نحو الإمام[٢٥١]، وميّز الفراء ثقل الضمة والكسرة بقوله : (فإنما يستثقل الضم والكسر لأن لمخرجيهما مؤونة على اللسان والشفتين تنظم الرفعة بهما فيثقل الضمة ويمال أحد الشدقين إلى الكسرة فترى ذلك ثقيلاً)[٢٥٢] .

---

[٢٤٦] الألف باء ومقاطع الحروف ٤٦.

[٢٤٧] المصدر نفسه ٤٦ .

[٢٤٨] الألف باء ومقاطع الحروف ٤٩ .

[٢٤٩] علم الأصوات، د. كمال بشر ٤٢٠ .

[٢٥٠] سر صناعة الإعراب ١/ ٣٣.

[٢٥١] علم الأصوات العام ١٢٣، والألف باء ومقاطع الحروف ٥٠.

[٢٥٢] معاني القرآن، للفراء ٢/ ١٣.

٥ . **مقطع الحرف المتبوع بمد الضمة ، أي بواو مديّة :** نقل باحثنا قول ابن جني : (المضموم هو الذي إذا أشبعت حركته حدثت عنها واوًا)[٢٥٣] ، وذكر أن علامته الكتابية أنْ يسبق بحركة من جنس الواو، أي الضمة ، ثم ذكر أنّ الواو المدية : واوٌ ساكنةٌ مسبوقةٌ بضمةٍ لتمييزها من غير المدية ، وإن لم تكن مسبوقة بالضمة التي تجانسها ، فليست بمديّة ، بل حرفًا صحيحًا[٢٥٤] ، وفي الحقيقة هي حركة طويلة وليس قبلها حركة بحسب رأي المحدثين .

٦ . **مقطع تنوين الضم :** فهو الذي يبدأ بالحرف المضموم ويغلق بالنون الساكنة التي تكتب ضمتين ، وهي نونٌ زائدة مسبوقة من حيث النطق بضمّة ، أما من حيث الكتابة فتكتب ضمتين فوق الحرف المنون من آخر الكلمة[٢٥٥] .

٧ . **مقطع الكسرة :** الكسرة بعضُ الياء[٢٥٦] ، أو أنّ الياء من إشباع الكسرة ومدّها ، في قول ابن جني : (المكسور: هو الذي إذا اشبعت حركته حدثت عنها ياء نحو ضاد ضِراب ، لك أن تشبع الكسرة فتقول ضيراب)[٢٥٧] ، وَوَصَفَ الفراء لفظها بقوله : (يمال أحد الشدقين إلى الكسرة فترى ذلك ثقيلًا)[٢٥٨] ، أو هي صوت صائت أمامي قصير، ويكون الفم معها مفتوحًا بالكاد ، وتكون الشفتان مشدودتين أقصى ما يكون الشدّ[٢٥٩] .

٨ . **مقطع تنوين الكسر من آخر الكلمة :** (نونٌ زائدةٌ ساكنةٌ من حيث النطق لكنها تكتب كسرتان تحت الحرف الأخير من الكلمة المنونة)[٢٦٠] ، وقد ذكر ابن هشام

---

[٢٥٣] سر صناعة الاعراب ١/ ٤٣، الألف باء ومقاطع الحروف: ٥١.
[٢٥٤] الألف باء ومقاطع الحروف ٥٢.
[٢٥٥] الألف باء ومقاطع الحروف ٥٣.
[٢٥٦] سر صناعة الاعراب ١/ ٣٣.
[٢٥٧] المصدر نفسه ١/ ٤٣.
[٢٥٨] معاني القرآن، للفراء ٢/ ١٣.
[٢٥٩] الألف باء ومقاطع الحروف ٥٤- ٥٥.
[٢٦٠] المصدر نفسه ٥٦.

أنّ (التنوين وهو نون زائدة ساكنة تلحق الآخر لغير توكيد فخرج نون حسن لأنها أصل)[٢٦١] ، وقال أيضًا : (التنوين وهو نون زائدة ساكنة تلحق الآخر لفظًا لا خطًّا لغير توكيد نحو زيدٍ ورجلٍ وصهٍ وحينئذٍ ومسلماتٍ ، فهذه وما أشبهها أسماء بدليل وجود التنوين في آخرها)[٢٦٢] .

٩ . **مقطع الحرف المتبوع بِمَدِّ الكسرةِ أو الياءِ المدِّيّة** : على أن تسبق هذه الياء بحركة من جنسها[٢٦٣] ، وإن لم تكن مسبوقة بكسرة فهي حرفٌ صحيحٌ وليست مدّيّة ، ذلك إن تحركت أو سبقت بغير الكسرة ، ومن أمثلة غير المدية : يَد ، يَقرَأ، يَوم ، لَيْلَى ... إلخ[٢٦٤] . والمَدُّ حركةٌ طويلةٌ وليس قبلها حركة بحسب رأي المحدثين مثلما عرضنا .

أمّا تجاورُ الحرفين في مقطعٍ واحد ، فأوَّلهما لا بُدَّ أن يكون متحركًا والآخر ساكنًا ، ذلك لأنّ العربَ لا تبدأُ إلاّ بمتحرك ولا تقف إلاّ على ساكن ، وبين الحرفين حركة قصيرة (حرف + حركة + حرف) ، ومثاله : أَبْ ، أُمْ ، سِرْ ، أو (حرف + مد + حرف) ، ومثاله : بَابْ ، سُوقْ ، بِيرْ؛ وقد يكون الوقف على حرفين ساكنين (حرف + حركة + حرف + حرف)[٢٦٥] ، ومثاله : بِنْتْ ، تَمْرْ، أَنْفْ[٢٦٦] .

ومن المقاطع مقطع التشديد ، وهو إدخالُ حرفٍ في حرف ، وإدغامُ الحرفينِ في حرفٍ واحدٍ، والتشديد علامة الإدغام[٢٦٧] ، على صورة شين من دون نقط ، (وكل حرفٍ مشدَّدٍ يقوم مقام حرفين في الوزن واللفظ على القارئ أن يتبين الحرف المُشَدَّد

---

[٢٦١] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٤٤٤– ٤٤٥.

[٢٦٢] شرح قطر الندى وبل الصدى ١٢.

[٢٦٣] الألف باء ومقاطع الحروف ٥٧ .

[٢٦٤] الألف باء ومقاطع الحروف ٥٧ .

[٢٦٥] المصدر نفسه ٦١.

[٢٦٦] المصدر نفسه .

[٢٦٧] كتاب العين ١/ ٤٩، والألف باء ومقاطع الحروف، ٦٣.

حيث وقع ليعطيه حقه من النطق ... وعلى الكاتب أن لا يغفل ضبط كتابة الشّدَّة في موضعها)[٢٦٨] ، والسبق كان للقدماء فسيبويه شبه الإدغام بالتشديد في قوله : (النون تدغم مع الراء لقرب المخرجين على طرف اللسان ، وهي مثلها في الشدّة ، وذلك قولك : مِن رَّاشدٍ، ومَن رَّأيت)[٢٦٩] .

ومن ذلك مقطع الحرف الشمسي : الذي لا يُنطقُ معه لام التعريف ، إذ يشدد الحرف الشمسي بحذفِ هذه اللام لفظًا لا كتابة ، وسَبَّب هذا التشديدُ تقاربُ النطق بَين اللام والحرف الشمسي[٢٧٠] ؛ واللام نفسه حرف شمسي ، ودخول لام الجرّ على الكلمات المبدوءة تحذف بسببها ألف الوصل في مثل (الله ، لِلّه دَرُّكَ ، اللِّباقةُ وللِبّاقةِ...)[٢٧١] ، في حين أنَّ الحرف القمري ، لا يُشَدَّدُ بل يُسَكّن لام التعريف قبله وتجمع الحروف القمرية بـ (إبغِ حجّكَ وخف عقيمة) ، فاللام تنطق مع الحرف القمري ولا تنطق مع الحرف الشمسي .

وترى الباحثة أنَّ مقطع التشديد يتكون من مقطعين منفصلين ، فمثلاً كلمة (مدَّ) تتكون من مقطع مغلق (مَدْ) يتكون من حرف (م ـَ د) (حرف + حركة + حرف) ، والمقطع الثاني يتكون من مقطع قصير (دَ) (حرف + حركة) ، ومقطع الحرف الشمسي : (أشْشَ) ، وهذا المقطع يتكون من مقطعين هما : (ء ـَ ش + ش ـَ) .

وقد اعتنى الدكتور بكتابه التطبيقي (الألف باء ، ومقاطع الحروف) ، بمقطع كتابة الهمزة[٢٧٢] ، والفرق بين التاء والهاء من آخر الكلمة[٢٧٣]، كما اعتنى ببيان زيادة بعض الحروف أو حذفها[٢٧٤].

---

[٢٦٨] المصدر نفسه ٦٤.

[٢٦٩] كتاب سيبويه ٤/ ٤٥٢.

[٢٧٠] الألف باء ومقاطع الحروف: ٦٧.

[٢٧١] المصدر نفسه ٦٧.

[٢٧٢] المصدر نفسه ٧٣– ٨٢.

[٢٧٣] المصدر نفسه ٨٥– ٩٠.

وَكانَ قد رَسَخَ عند القدماء تَعْلِيمُ الْقِراءَةِ والْكِتابَةِ بِتَحْفِيظِ الْمُتَعَلِّمِينَ الْحُرُوفَ (الرُّمُوزَ القَلِيلَةَ) التي تُحْفَظُ فِي مُدَّةٍ قَصِيرَةٍ ثُمَّ الْمِرانُ عَلَى ما يُمَيِّزُها ويُنوّعها مِن علامات ، وَبِهذا يتهيّأ المتعلّم للجمع بين الحروف ، باعتماد المقاطع في تهجئة الكلمات .

لكِنَّ بعضَ التربويين من الْمُحدَثِينَ غَيَّرُوا ما دَأَبَ عَلَيْهِ الْقُدَماءُ إذْ تَرَكُوا الْبَدْءَ بِمَقاطِعِ الكَلِماتِ (الحروف ثمّ ما يتبعها من حركات) ؛ فَصارَ الْمُتَعَلِّمُ يَقْضِي السَّنَوَاتِ مِنَ التّعلّم والتَّعْلِيمِ وَالتَّدْرِيبِ مِنْ دُونِ أنْ يُحِيطَ بِمَهارَتَي القِراءَةِ والْكِتابَةِ إحاطة كاملة ، وَيَعْسُرُ عَلَيهِ الإفادةُ من عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ الأساسيّةِ أو استيعابِها ، ولاسِيَّما النَّحْو والصَّرف، ذلِكَ لأَنَّهُ غَرِيبٌ عَن التمكن من الكلمات ، لا يَعْرِفُ سِرَّ تَأْلِيفِها نُطْقًا وكِتابةً ؛ فأضْحَى ذلِك السَّهْلُ المتدرّجُ الذي يبدأ بالمقاطعِ صَعْبًا بعيدًا .

فهل بعد هذا الذي عرضناه من كتاب الدكتور (الألف باء ومقاطع الحروف) من اعتراض على ما يُناسب العربيّة من وسيلة تعليم؟! في ظلّ كَثرةِ أخطاءِ ، ورداءة خطّ ، وكتابة شوهاء ، وسوء فهمَ وإفهامَ ، وازدراءِ كَتَبَةٍ ، وضعف الاتّصال بين القارئ والكاتب ، وهذه النتائج تحُطُّ من شأن التعليم والمتعلمين ، وتؤثّر في المستوى العلميّ العام لجميع الموادّ الدراسيّة .

---

(٢٧٤) المصدر نفسه ٩٣– ١٠٤.

الفصل الثالث

النّقط والمقطع والعلم اللغويّ

المبحث الأوّل : الكتابة المقطعيّة قبل أبي الأسود

نقل الدكتور ما عرضته الباحثة نورة بنت عبد الله في قولها : (عُرِفَت الكتابة المقطعية في العراق قبل الألف الثالث قبل الميلاد ، وعثر على نصوص ووثائق تعود لعرب الجنوب دالة على تطور الكتابة التي ترتبط بالمعابد ، وفيها كَتَبَةٌ متخصّصون يدوّنون القرارات والأوامر والقوانين ، وتكتب مثل هذه الوثائق على ألواح حجرية أو معدنية ، وتنصب في الأماكن العامة ، وعند المعابد والأسواق ومداخل المدن)[٢٧٥] .

وذكرَ أنَّ أوّل من مارس الكتابة المقطعية هم أواخر السومريين وأوائل الأكديين ، وعُدَّتِ الكتابةُ المسمارية كتابة مقطعية ، وقد ذُكِرَ (أنَّ المقاطع الصوتية السومرية تزيد عن خمسمئة مقطع لكل منها عدد من القيم الصوتية ، والمعاني المختلفة)[٢٧٦] .

أمّا الأكديون فكانوا يعيشون في وادي دجلة والفرات ، وقد اقتبسوا الكتابة السومرية ، وظلّت كتاباتهم بها أكثر من ألفي سنة[٢٧٧] ، والمعروف أنّ اللغة السومرية من أقدم اللغات الإنسانية المعروفة من حيث التدوين في بلاد الرافدين ، وهي لغة الأقوام الذين استقروا في القسم الجنوبي من البلاد ، بدءًا بالتدوين بالخط المسماري (الصوري) الذي استمر طوال الألف الثالث قبل الميلاد لغة رسمية للبلاد ، واستعملت على الصعيد الرسمي والشعبي ، وقد وصلت منها بعض الشواهد على الألواح الطينية إلى عصرنا هذا، وقد أسهمت هذه الشواهد في الكشفِ عن أسس الحضارة العراقية القديمة[٢٧٨] ؛ ومنها ألواح الكتابة السومرية التي تؤكد اعتمادها على المقطعية ، وهذه المقطعيّة لها القابلية على التنويع وتشكيل الألفاظ الجديدة ذات المعاني ، التي تظهر بلصق المقاطع بعضها إلى بعض[٢٧٩] .

---

[٢٧٥] التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربيّة ١٥٨ ، وموجز تاريخ اللغات السامية ٩٤.

[٢٧٦] الصلاة المشتركة بين أبجديات الوطن العربيّ ٥٢ ، وموجز تاريخ اللغات السامية ٩٥.

[٢٧٧] موجز تاريخ اللغات السامية ٩٦.

[٢٧٨] مقدمة إلى قواعد اللغات القديمة في بلاد الرافدين ٢.

[٢٧٩] المصدر نفسه ٣.

ووجد الدكتور مهدي أنّ هذا النحو من التفكير هو الذي يميّزُ بين الكلمة والحرف والمقطع والصوت تفكيرًا مبكرًا ، لأنَّ فرزَ المقطعِ وتمييزه هو تمييزٌ لـ (أصغر وحدة يمكن أن تقسّم عليها الكلمة المحكيّة أو سلسلة من الأصوات التي هي المقطع)[٢٨٠] ، وناصر هذا التمييز نظام الكتابة السومريّة المرنة ، الذي (ساعد الكَتَبَة في استخدام الطريقة الصوتية في الكتابة ، أنّ اللغة السومريّة التي وجدت الكتابة أصلاً لتدوينها ، لغةً منفردة ذات صفات خاصة ، وأنَّ معظم مفرداتها اللغوية والأسماء والأفعال والأدوات النحوية أحادية المقطع ، أي أنَّ الاسم والفعل يتألف فيها من مقطع صوتي واحد ، لذا كان من اليسير على الكاتب ، أن يكتب أيّة جملة أو مفردة ... وإنّ جميع المحاولات التي قام بها الكَتَبَةُ العراقيون القدامى ، تؤكد مبلغ ذكائهم واستيعابهم المشاكل التي قد تعترض الكاتب أو القارئ ، ومقدرتهم على إيجاد الحلول المناسبة لكلّ مشكلة ، إلّا أنّهم ظلّوا يستخدمون الكتابة المسماريّة المُعقّدة ذات العلامات ...)[٢٨١] .

(وفي العصر البابلي ، أصبح عدد العلامات المسماريّة ثابتًا بحدود ستمئة أو سبعمئة ، وست علامات لحروف العلّة ، وسبعة وتسعون مقطعًا "مفتوحًا" دا da ، دِي di ، دو du ، وأكثر من مئتي مقطع أكثر تعقيدًا : مقاطع "مغلقة"، مثل : بات bat ، سان sun ، ألان alan ...)[٢٨٢] ، وبذلك يتضح أنَّ الحركات قديمة قدم اللغة السومرية التي دوّن بها الأكديون لغتهم .

أمّا الدكتور محمود فهمي حجازي من المحدثين فقد أفاد ممّا تقدّم في القول بثنائيّة بناء الكلمات ، وأنّ الأصل في اللغة ، أنها ثنائية ، في قوله : (ترد كلمة يَد في اللغات السامية كلها مكونة من الياء والدال مما يشير إلى ثنائية أصل هذه الكلمة ، غير أنّ بعض اللهجات العربيّة حاولت جعل هذه الكلمة في شكل الثلاثي بأن شدّدت الدال ،

---

[٢٨٠] الكتابة د . ديرينجر ١٨ .

[٢٨١] المصدر نفسه ٤٦ ، ٥٠ . ٥١ ، وموجز تاريخ اللغات السامية ٩٦.

[٢٨٢] المصدر نفسه ٣٧ .

وحاولت لهجات عربية أخرى جعلها ثلاثية بإضافة همزة في أول الكلمة)[٢٨٣] ، وذهب إلى أنّ بعضها أحادي الأصل في قوله : (وهناك كلمة ترد إلى أصل أحادي وهي كلمة الفم : فوك ، فيك ، فاك ، فالأصل المشترك هو الفاء التي ترد في اللغات السامية أصلاً لهذه الكلمة وقد تكوّنت الصيغ العربيّة من هذه الفاء مع حركة طويلة في الرفع والنصب والجر، أما الميم التي تظهر في كلمة فم فيمكن أن تكون راسبًا من رواسب ظاهرة التمييم وهي ظاهرة تقابل التنوين في بعض اللغات السامية)[٢٨٤] .

ويقول الدكتور حجازي أيضًا : (إنّ الخطّ المساريّ الذي دونت به اللغة الأكديّة يُدوِّن الكلمات مقسّمة إلى مقاطع ، وبذلك احتفظ الخط الأكديّ رغم صعوبته بتدوين الحركات مع الصوامت ، ومن هذا الجانب تفصح الكتابة الأكديّة عن طبيعة الحركات سواء أكانت في وسط الكلام أم آخره ...) [٢٨٥] .

(وما يظهر علامات الخط المساري البابلي لاحقًا ، التي انتهت إلى استعمال العلامة أو الحركة مع الحرف (أَ ، إِ ، أُ) ، التي تقابل ما استقر لاحقًا (ـَ ، ـِ ، ـُ) ، وهذه هي الحركات التي صارت تُسَمَّى حركات الإعراب من أواخر الكلمات في اللغة العربيّة)[٢٨٦] .

ويقول الأنطاكي : (إنّ التحليل الصوتيّ إلى مقاطع ليس شيئًا اعتباطيًّا ناشئًا عن ترفٍ لا لزوم له في الأبحاث الصوتيّة ، بل هو أمر موجود فعلاً في أبسط أشكال الحسّ اللغويّ ، فأنت إذا سَمِعتَ كلامًا لا تفهمه ، تعذّر عليك أن تحلّله إلى كلماتِه ، لكنّك تستطيع بسهولة أن تحلّله إلى مقاطعه التي يتألّف منها ؛ والكتابة بدأت مقطعيّة قبل أن

---

[٢٨٣] علم اللغة العربيّة ٢٠٧.

[٢٨٤] علم اللغة العربيّة ٢٠٧.

[٢٨٥] المصدر نفسه ١٩٤ .

[٢٨٦] موجز تاريخ اللغات٩٧.

تكون هجائيّة ، فالأكديّون كانوا يرمزون إلى كلّ أصوات المقطع الواحد برمز واحد في كتابتهم المسماريّة)[٢٨٧] .

ووجد الدكتور مهدي صالح الدلائل التي تؤيد أنّ حروف اللغة العربيّة كانت مجردة من النّقط ، وكانت قد أخذتها من أختها النبطية ، وكلُّ هذا من مزيّات الرسم المشتركة بين الكتابة العربيّة في أول عهدها والخط النبطي[٢٨٨] ، والقصد من هذا التشابه أن حروف اللغة العربيّة مشابهة بخطها وبعض قواعدها بالخط النبطي ، وقد دوّنت المصاحف العثمانية ، بطريقة إملائية كانت هي السائدة في الكتابة العربيّة ، وكانت لا تعرف الإعجام ولا الإعراب فنقش القاهرة (٣١هـ) الذي كتب مهملاً من هذه الضوابط في الرسم، يعاصر الحقبة نفسها من التي دونت فيها هذه المصاحف ، والتي جردت هي أيضًا من الإعجام والنقط ، والرسم العثماني بما فيه من تنوع الأمثلة الكتابية وكثرتها، يقدم نموذجًا حقيقيًا لما كانت عليه الكتابة العربيّة في النصف الأول من القرن الهجري الأول ، حين كان الناس في تلك الأيام لا يلاحظون فرقًا بين رسم المصحف وكتابتهم في الأغراض الأخرى[٢٨٩] .

وإلى ذلك ذهب الدكتور محمد عابد الجابري في قوله : (إنَّ الكتابة لم تكن تتمتع قبل عصر التدوين على الأقل بما يكفي من الحصانة والمصداقية؛ ولذلك لم يكونوا يكتفون بكتابة القرآن في المصاحف بل كانوا يحرصون شديد الحرص على حفظه واستظهاره على ظهر قلب وضبط رواته وقراءَته)[٢٩٠] .

---

[٢٨٧] الوجيز في فقه اللغة ٢٥٦ .
[٢٨٨] اللحن في اللغة العربيّة تاريخه وأثره ١٧٤.
[٢٨٩] مجلة المورد، عدد ٤٢/٤ ، ٨٦ ٤٢ .
[٢٩٠] بنية العقل العربي ١٢٣.

أمّا اختلافَ العلامات على الحروف فهي التي تميّز الفروق الدلالية ، بدءًا من التركيب المقطعي ، المؤلّف من الحرف والحركة ، (فالضبط بالنّقط علامات تظهر سرّ تأليف المقاطع والكلمات والجمل ، والوسيلة العمليّة في التحليل اللغويّ ، ومنه انطلق الدرس اللغويّ العربي ، بحسب ما اقتضته طبيعة اللغة العربيّة استنادًا إلى منهج عربيّ خالص ناسب نظام هذه اللغة ، وكشف منظومة علاماتها الصوتيّة والصرفيّة والتركيبيّة والدلاليّة، فالضبط جعل الاختلافات الصوتية لنطق الحرف الواحد مدركة بالنظر إلى كتابته ، بوضع العلامات التي تميّز تنوّعه بعلامات منظورة ، وتنوّع الحرف من طبيعة هذه اللغة، ومن خصوصيّتها التي لا مثيل لها في انتظام هذا التنوّع ، فالمؤسس أبو الأسود الدؤليّ كان قد وعى ضرورة إظهار العلامات الكتابيّة التي تميّز هذه الطبيعة ، وقد وجّه الدارسين وجهة التفكير بالمحسوس في بناء الكلمات والجمل ، استنادًا إلى هذا الضبط بهذه العلامات)[٢٩١] .

[٢٩١] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٥٥ . ١٥٦ .

المبحث الثانِيً : مقاطع الكلمات

مقطع الحرف (عبارة عن الحرف متبوعًا بحركة قصيرة كالفتحة أو الضمة أو الكسرة أو حركة طويلة "مدّ الفتحة أي الألف أو مدّ الضمة أي الواو أو مدّ الكسرة أي الياء" أو أنَّ المدّ هو الواو أو الياء وقد سبقا بحركة من جنسهما، أما الألف فمديّة دائمًا)[٢٩٢] ، وعَرّفَ باحثنا الكتابة المقطعية بقوله : (الكتابة المقطعية هي الكتابة التي تربط بين الصوت "الحركة" بالحرف ، وتتألف المقاطع الصوتية التي استقرت لاحقًا بالبدء بحرف تتبعه حركة ، وهذا ما صارت إليه الكتابة العربيّة ، مثل :

/بَ/ ،/ بُ/ ،/ بِ/

أو قد يتبع هذا الحرف بحركة طويلة ، أي : ألف ، أو واو مديّة ، أو ياء مديّة ، وقد يُسمى هذا المدّ : بصائت طويل ، مثل :

/با/ ،/ بُو/ ،/ بِي/[٢٩٣] .

فكان لا بُدّ من التفكير في تمييز مقاطع (syllables حروف الكلمات ، وما يكملها من مدود وحركات ، خطوة أولى في تعليمِ المبتدئ حفظ أشكال الحروف ، ويجد متصحّف الشابكة العالميّة ، ما تعتمده مواقع إنكليزية . وليست عربيّة مع الأسف الشديد . في تعليم اللغة العربيّة ، مثل موقع : (arabic alphabet song)[٢٩٤] ؛ إذ يتفاجأ المتصفّح بأطفالٍ ينطقون الحروف مرتبة ترتيبًا هجائيًّا ، بمصاحبة موسيقى جميلة تنسجم انسجامًا رائعًا مع أداء هذه المقاطع ، انسجامًا باهرًا يجذب المتعلم إلى نطق الحروف مع الحركات والمدود ؛ مثل : ب (با ، بو ، بي) ، (تا ، تو ، تي) ، (ثا ، ثو ، ثي) ، (جا ، جو ، جي) ، (حا ، حو ، حي) ، (خا ، خو ، خي) ، (دا دو، دي) ، (ذا ، ذو ، ذي) (را،

---

[٢٩٢] الألف باء ومقاطع الحروف ٤١ .

[٢٩٣] موجز تاريخ اللغات السامية ٩٥ .

[٢٩٤] يُنظر : https:||www. Youtube .com .

رو، ري) ، (زا ، زو ، زي) ؛ س (سا، سو، سي) ، (شا ، شو ، شي) ... وهكذا بقيّ الحروف ، أي التدريب على جميع الحروف بحسب الترتيب الهجائيّ المعجميّ ، وهي وسيلةُ تعليم جميلة سائغة تشدُّ الأطفال وترغّبُهم في المواصلة ، وتمكّنُهم من الحفظ والنطق الصحيح ، وكذلك التمييز العلمي الدقيق لمقاطعِ هذه الحروف .

والمعروف أنّ المقطع الصوتي كان قد أخذ حيزًا كبيرًا من الدراسات اللغوية الحديثة ، وعرف بتعريفات كثيرة ، منها : (هو كمية من الأصوات ، تحتوي على حركة واحدة، ويمكن الابتداء بها والوقوف عليها، من وجهة نظر اللغة موضوع الدراسة ، ففي العربيّة الفصحى مثلاً، لا يجوز الابتداء بحركة ، ولذلك يبدأ كل مقاطع فيها بصوت من الأصوات الصامتة)[٢٩٥] ، أو أنّ (المقطع هو عبارة عن كمية من الأصوات تحتوي على حرف وحركة ؛ ويمكن تحديد المقطع الصوتي : بأنه الفترة الفاصلة بين عمليتين من عمليات غلق جهاز التصويت سواء أكان الغلق كاملاً أم جزئيًا هي التي تمثل المقطع)[٢٩٦] .

وقد نقل باحثنا أنَّ بَدْءَ التفكير في العلامات الصوتية مدخلٌ إلى التفكير في الكلمات ، وأنَّ لحظ تعاور العلامات على مقاطع الحروف في اللغة العربيّة مهمٌّ في التمييز، وكان هذا من جملة جعل المؤتلف في صنفٍ محدد ، بحسب ما يكون من هذه العلامات ، مختلفة أو متفقة وقد يثبت واحد منها ليميز الكلمة في صنف آخر، وربما جرى تبادل بعضها لأسباب صوتية أو صرفية أو تركيبية أو دلالية ، فكان الاختلاف والائتلاف سببًا من أسباب التصنيف بحسب العلامات ، على مستوى الكلمة أو التركيب[٢٩٧] .

و(إنَّ تمييز المقطع اللغوي وتحديده مهمٌّ في التَّعرُّفِ على أجزاء الكلمة العربيّة ، والأهم من هذا معرفة ما يحصل لهذا المقطع من تغيير لمناسبة ما يجاوره من مقاطع الكلمة ،

---

[٢٩٥] المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ١٠١.

[٢٩٦] فن الألقاء، طه عبد الفتاح مقلد، مكتبة الفيصلية ١١٣.

[٢٩٧] دي سوسير ، حياة في اللغة ، ثنائيات النحو العربي ٢٣٢.

أو الكلمات الأخرى استنادًا إلى نظام اللغة وما استقرَّ عليه)[٢٩٨] هذا النظام ؛ والمقاطع هي الحروف وما يكملها من حركات ، وإليها ينصرف الذهن في التفكير في الأجزاء ، لأنّها الوحدات اللغوية العربيّة هي التي ينتهي إليها التحليل اللغوي[٢٩٩] .

وقد أشار باحثنا الدكتور إلى أن المقطع الصوتي الذي صار بحسبِ الضبطِ مكتوبًا ، وحدة لغوية صغرى يمكن تمييز نطقها ، وحذّر من إهمالِ تمييزِ تعليم هذه المقاطع ، أو عدم التفكير في ضبطها ، في مستقبل تعليم اللغة العربيّة ، إذ وجد أنَّ طرائقَ التعليمِ الحديثة التي لا تعتمد البدء من أصغر وحدة نطقية كتابية هي طرائق تعليم لا تلبّي حاجة متعلّم اللغة العربيّة ، وأكّدَ أن لا سبيل للنهوض بالتمكن من العربيّة إلّا بالمرور بضبط المقاطع أساس القراءة والكتابة العربيّة ، ومقدمة للتمكن من علوم العربيّة ولاسيّما الصرف والنحو والعروض[٣٠٠] .

أمّا مقاطع أواخر الكلمات فقد أفرد الدكتور مهدي صالح بحثًا بعنوان (التغير اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات)[٣٠١] ، لتوجيه اهتمامه على هذه المزية التي امتازت بها اللغة العربيّة ، فالتغيير الصوتي الحاصل في أواخر الكلمات يؤثر في وظائفها وإعرابها، وله علاقة وثيقة بموقعها من الجملة ، فهو تغيير صوتي متعلق بإعراب الجملة وموقع الكلمة من الإعراب ، والمعروف أن هذا التغيير يخصُّ الكلمات المعربة ، وهي كثيرة وعلى كثرتها استحقت اهتمام الدارسين ، وقد جاء عن أبي علي الفارسي : (الإعراب تغير أواخر الكلم ، واختلافها باختلاف العوامل . والبناء خلاف ذلك ، فالمعرب من الكلم الثلاث ، الاسم ، والفعل ، فأما حروف المعاني ، فكلها مبنية ، وما تختلف به أواخر الكلم للإعراب : الحركة ، أو السكون أو حرف غير حركة ، فالحركات على

---

[٢٩٨] مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٧٣.

[٢٩٩] المصدر نفسه ٧٣ .

[٣٠٠] المصدر نفسه ٧٣– ٧٤.

[٣٠١] مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٧٧ .

ضربين : حركة ظاهرة في اللفظ مسموعة منه ، وحركة منوية ، غير خارجة إلى اللفظ)[٣٠٢] ، فقد كانت عناية القدماء بالإعراب ظاهرًا كان أو غير ظاهر مشيرين إلى الفارق في تغير الصوت من عدمه .

[٣٠٢] الحجة للقراء السبعة ١٠٩.

المبحث الثالث : نظام كتابة الحروف العربيّة

يقول باحثنا : إنّ (نظام كتابة الحروف العربيّة يستند إلى تمييز الحرف بضبطه بالحركات ، وإمكان عزله من غيره من الحروف المجاورة له في نظم الكلام ، حتى يمكن التّعرّف إليه مُفردًا أو ضمن حروف أخرى ، فالحركات ترافق الحرف العربيّ وتلوّن نطقه وتنوّعه ، وهي ثلاث : الضمّة ورمزها واو صغيرة فوق الحرف ، هكذا "ـُـ" ، والفتحة ورمزها ألف مضطجعة فوق الحرف ، هكذا : "ـَـ" ، والكسرة ورمزها ياء صغيرة من دون نقطتين تحت الحرف ، هكذا : "ـِـ" ، أمّا السكون فعدم الحركة ورمزه فوق الحرف دائرة تعني الصفر، هكذا : "ـْـ" ، والحركات وعدمها ترافق حروف الكلمات العربيّة ، وعلامة ضبط صوتي لِبِنية النّطق في هذه الكلمة ، وهذه الحركات وعدمها "السكون" لها ترتيب تنازلي في ضبط الكتابة ، من الأقوى إلى الأدنى : الكسرة ، فالضمّة ، فالفتحة ، فالسكون ، وتؤثّر هذه القوّة في مقاطع كتابة الهمزة ، في الكلمة العربيّة ، مفردة ، أو على ألف ، أو على واو ، أو على ياء من دون نقطتين ...)[٣٠٣] .

ومن ذلك أيضًا الربط بين نطق مقطع الحرف وحركته في تطابق صوتيّ ورسم كتابيّ ، فالمَدُّ الذي قد (يدلُّ على همزة ثانية ساكنة قلبت ألفًا بعد همزة مفتوحة في أوّل الكلمة العربيّة المهموزة الأوّل ، ويكتب هكذا : "آ" أمّا الوصل فيدلّ على إسقاط الهمزة نطقًا في الكلمة المهموزة في أوّل الكلام ، وتكتب أَلِف وصلٍ ، أَلِفٌ يعلوها صاد ، أمّا القطع فيدلُّ على ثبوت الهمزة نطقًا وكتابةً من أوّل الكلمة العربيّة ، وتكتب هكذا[٣٠٤] :

"أَ ، أُ ، إِ")

بحسبِ الحركة ، حركة الفتح والضّم من فوق الكلمة ، ومن أسفلها حين الكسر .

---

[٣٠٣] موجز تاريخ اللغات الساميّة ١٠٩ .

[٣٠٤] المصدر نفسه ١١٠ .

وقال باحثنا : أنّ (خطوة الضبط التي انبثقت من الحرص على النص الشريف كانت قد حقّقت حاجة متداول القرآن الكريم ، وانفتحت بها في الوقت نفسه آفاق المضيّ في فهمِ بناءِ علوم العربيّة ، فالاهتمام بالقرآن الكريم تأسيس الاهتمام بهذه العلوم)[٣٠٥] .

وقد ذكر أنّ أبا الأسود الدؤلي ، كان (قد عيّن بهذا التأسيس من حيث يدري أو لا يدري الصوائت المكملة للصوامت أو السواكن وحدّد علميًا المقاطع أو الوحدات اللغوية ، بضبط حروف الكلمات بالحركات الصوائت كتابيًا)[٣٠٦] .

ورجّح باحثنا الدكتور مهدي صالح الربط بين النقط الأوّل لحروف اللغة العربيّة والتفكير في مقاطعها الصوتيّة الكتابيّة ، بلحظ تأليف هذه المقاطع من الحروف والحركات للكلمات والجمل لتثبت بهذا الضبط لغة القرآن الكريم ، فأبو الأسود الدؤليّ نقل الضبط الصوتيّ إلى ضبط كتابيّ بنقط الحروف ، وكانت هذه الحروف مبهمة قبل النقط ، وقد اتضحت مقاطعها بالعلامات ، وهذا ما كان من انطلاق الدرس الصوتي القديم ، الذي عرض له المُحدثون من المُتخصّصين .

فأساسُ الكِتابَةِ صحّةُ النُّطقِ ، وبصحّة النطق حاجة إلى تمييز تنوّع الحرف بما يرافقه من حركات ، وعلى التَّعْلِيمِ أن يعتمدَ وسيلة التطابُقِ بين المنطوقِ والمكتوبِ ، اعتمادًا مبكّرًا ، يُخَلِّصُ الْمُتَعلِّمِينَ من فَوْضَى الْتِباسِ الْكَلِماتِ ـ بَعْضِها بِبَعْضٍ ـ ذلِكَ الَّذِي يُوجِبُ الْمُرُورَ بِضَبْطِ الْمَقاطِعِ أساسًا لا يَجُوزُ تَجاوُزُهُ ، وبِدايَةً يَضُرُّ تَرْكُها ضَرَرًا بَلِيغًا . وَإذا كانَتِ الْمَقاطِعُ بِهذِهِ الأهَمِّيّةِ فَمِنَ الأَوْلَى أَنْ تُعْرَضَ مُسْتَقِلَّةً على الْمُتَعَلِّمِينَ في كُرّاسة (الألِفْ باءْ) الّتي نُسِيَت أَوْ تُنُوسِيَت في العُقُودِ الأخِيرةِ ولا بَأْسَ أنْ تُقَدَّمَ تَقْدِيمًا جَدِيدًا يجتذب الطلبة لِيَتُحَقّقَ ما يَأْتِي :

١ . التَّعْرِيفُ بِتَنَوّعِ نُطْقِ الْحُرُوفِ تَبَعًا لِما يُرافقُها مِنْ حَرَكاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تَعْرِيفًا قَصْدِيًّا لا عَرَضِيًّا، يُبَيّنُ مَخارِجَها وترتيبها مِنْ جِهازِ النُّطْقِ ، وَأَشْكال كتابتها .

---

[٣٠٥] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ٥٠ ، وأهل القرآن وتأسيس النحو ٦٧ .

[٣٠٦] انطولوجيا المعرفة اللغوية علامات النقط والنحو والدرس الحديث، الدار العربيّة للعلوم ناشرون ٢٥٩ .

٢. تَقْدِيمُ الْقَواعِدِ الَّتِي تَسْتَنِدُ إلَيْها الْقِراءَةُ وإظْهارُ ما خالَفَ الْقَواعِدَ مِنْ شَواذّ في قوائم مستقلة ، وهِيَ قَلِيلَةٌ قِياسًا باللُّغاتِ الأخْرَى . والتَّنْبِيهُ على اخْتِلافِ الْكِتابَةِ الْقُرْآنِيّةِ ، عَنِ الكتابة الصوتيّة ، والكتابة القياسيّة التي اصطلح عليها أهل اللغة .

٣ . إظْهارُ مَعانِيَ الْمَكْتُوبِ عِنْدَ التَدْرِيبِ على قِراءَتِهِ ، وربط المهارتين بالمهارات اللغوية الأخرى، وتفعيل النشاط اللغوي بإظهار التَّعَجُّبِ وَالاسْتِفْهام وَالْفَرَحِ والحُزْنِ والْغَضَبِ والنَّفْيِ وَالإثْباتِ ، فضلاً عن تعوّدِ الْبَدْءِ بِمُتَحَرِّك ، والتَّسْكِينِ عِنْدَ الْوَقْفِ ...إلخ .

٤ . الإفادَةُ مِنَ الْوَسائلِ التَّعْلِيمِيّةِ الْحَدِيثَةِ لِتَحْبِيبِ صَوْتِ الْحَرْفِ وتَعْلِيمِ نُطْقِهِ الصَّحِيحِ الْفَصِيحِ وطَرِيقَةِ كِتابَتِهِ وحِفْظِ مَقطِعِهِ ، بِالْوَسائِلِ الصَّوْتِيّةِ واللَّوْحاتِ الْجَمِيلَةِ وَالأَغانِي الْقَرِيبَةِ مِن نَفْسِ الطِّفْلِ ومُجْتَمَعِهِ وحياتِهِ.....إلخ .

٥ . تدريب الأذُنِ على الإصغاء إلى المعنى ، واللسان على كيفيّة النطق ، واليَدِ على رَسمِ الحروف الصحيحة .

ذلك لأنّ حُسْنُ الأداءِ اللُّغَوِيّ يستند إلى إتْقانِ الأصْواتِ اللُّغَوِيّةِ ومعرفتِها مَعْرِفَةً دَقِيقَةً ، وهي الأساسُ في تَعْلِيمِ ضَبْطِ القِراءةِ والكِتابَةِ ، وهُما الْمَهارَتانِ الأساسيَّتانِ اللتانِ تُيَسِّرانِ الفَهْمَ وتُسَهِّلانِ التَّعْلِيمَ على الْمُتَعَلِّمِينَ ، أمّا التَّهاونُ في ضَبْطِهِما فإنَّه يُفْضِي إلى تَراجُعِ الْمُسْتوى الدِّراسِيّ ، لذلك قِيلَ : إنّ التَّفَوّقَ الدراسيَّ يقومُ على الذَّكاءِ من جِهَةٍ وعلى مَعْرِفَةِ الْقِراءَةِ والْكِتابةِ مِن جِهَةٍ أُخرَى ، فَهُما رُكنا التَّحصِيلِ العِلمِيّ ولاسيّما في سَنَوَاتِ الدِّرَاسَةِ المُبَكِّرَةِ .

ولكِنْ يَلْحَظُ الْمُهْتَمُّونَ مِنَ التَّرْبَوِيّينَ وأوْلِياءِ الأمُورِ تَراجُعَ التَّمَكُّنِ مِنْ هاتَيِنِ الْمَهارَتَيْنِ في الْمَرْحَلَةِ الابْتِدائِيّةِ ويَتَعَدَّاها إلى ما بَعْدَها مِنَ الْمَراحِلِ الدِّراسِيَّةِ ، ورُبَّما شاعَ الْغَلَطُ فِيهِما حتّى بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُعَلِّمِينَ ، وصِرْنا نجدُ بَعضَ الخَطَّاطِينَ الَّذِينَ يُعْرَفُونَ بِجَوْدَةِ الكِتابَةِ يَغلَطُونَ فِيما يخُطُّونَ مِنْ كَلِماتٍ ، ولا يَعْرِفُونَ مواضعَ عَلاماتِ ضبط

الحـــروف ، إذْ يَتَصَـــوَّرُ بَعْضُـــهُمْ أنَّ الْحَرَكـــاتِ والسَّـــكَناتِ والتَّشْـــدِيدَ والْمَـــدَّ والْوَصْـــلَ وَســـائلُ زِيْنَـــةٍ تُـــزَيِّنُ بِهـــا الْكَلِمـــاتُ ، فَيَضَـــعُونَها فـــي غَيْـــرِ مَواضِـــعِها الْصَـــحِيحَةِ ؛ ويَظْهَـــرُ لِلْمُتَتَبِّـــعِ ذَهـــابُ الصُّـــوَرِ الصـــحيحةِ فـــي كِتابَـــةِ مَـــنْ يَكْتُـــب الْحُـــرُوفَ والْكَلِمـــاتِ ، واخْتِفـــاءُ النُّطـــقِ الفصـــيح ، وغِيـــابُ الْقَوَاعِـــدِ اليَسِـــيرةِ التـــي تَقُـــومُ علَيْهـــا أسْـــرارُ الْكِتابـــةِ العربيـــةِ . لـــذلك صـــارَ الْمُـــتَعَلِّمُ يَتَخَـــبَّطُ بَـــيْنَ الْحُـــرُوفِ والْعَلامـــاتِ الَّتـــي تُصـــاحِبُها فَيَضْـــطَرُّ إلـــى أنْ يُخمِّـــنَ الْكَلِمـــاتِ تخمينًـــا ويَخْلُـــطُ بَيْنَهـــا خلطًـــا عجيبًـــا ، لأنّـــه أُبْعِـــدَ ــ فيمـــا يَبْـــدُو ــ عَـــنِ مَعْرِفَـــةِ مُرُونَـــةِ الْمُفْـــرَدَةِ الْعَرَبِيَّـــةِ وَاسْـــتِجابَتِها لِلتَّغَيُّـــرِ ، وَكَـــذلِكَ عـــن الأسُـــسِ الصَّـــحِيحَةِ الَّتـــي تُناسِـــبُ هَـــذِهِ الْمُرُونَـــة وهِـــيَ البَـــدْءُ بـــالتمكن مـــن ضـــبط الـــمَقاطِعِ الَّتِـــي تتغيَّـــرُ الْكَلِمـــاتُ بِتَغَيُّرِهـــا ، وأَضْـــحى هـــذا المـــتعلِّمُ يتـــردّدُ فيمـــا يقـــرأُ أَو يكتـــبُ مُبْتعـــدًا عَـــنْ تَـــداوُلِ اللُّغَـــةِ الصَّـــحِيحَةِ الفصـــيحة فِـــي أثْنـــاءِ الـــتَّعلُّمِ والتعلـــيم فَضْـــلاً عَـــنْ إمْكـــانِ تَـــداوُلِها فـــي مواقِـــفِ الْحَيـــاةِ الاعْتِيادِيّـــةِ ، ولا يُعبِّـــر عَمّـــا فـــي نَفْسِـــهِ بِعِبـــارَةٍ لُغَوِيَّـــةٍ سَـــلِيمَةٍ ، وكَـــأنَّ بيْنَـــهُ وبَـــيْنَ لغتـــهِ الوطنيّـــةِ حـــاجِزًا ونفُـــورًا . وهـــذا مـــا يجـــبُ أن يُثيـــرَ حَمـــاسَ الْمُخْلِصـــينَ عامَّـــةً والْمُتَخصِّصـــينَ خاصَّـــةً لأنَّـــهُ يَكْشِـــفُ عَـــنْ ظـــاهِرَةِ تَراجـــعِ التَّحصـــيل العِلْمـــي وعَـــنْ شِـــيُوعِ الغلـــطِ اللُّغَـــوِيّ وتَفاقُمِـــهِ عامـــا بَعْـــدَ عـــامٍ ولاسِـــيَّما بَعْـــدَ الظُّهُـــورِ الْواسِـــعِ والْمُبَكِّـــرِ لِلُّغَـــةِ الأجْنَبِيَّـــةِ الْمُنافِسَـــةِ لِلُّغـــة الْعَرَبِيَّـــةِ فِـــي الإعْـــلامِ وأجْهِـــزَةِ الْحاسُـــوبِ وَالْحَيـــاةِ عامَّـــةً ، فلابُـــدَّ مِـــنْ تَـــدارُكِ الْخَلَـــلِ بِإلْقـــاءِ الْمَنـــاهِجِ الضَّـــعِيفَةِ الْمُتَرَهِّلَـــةِ غَيْـــرِ الْمناسِـــبَةِ ، وبـــالْعَوْدَةِ إلـــى الطَرائِـــقِ الصـــحيحةِ الَّتـــي كانَـــتْ تُحَقِّـــقُ ضَـــبْطَ المهـــارتين فـــي سَـــنَةٍ أوْ سَـــنَتَيْنِ ، ذلِـــكَ لأَنَّ طَرائِـــقَ ذلـــكَ الزَّمـــانَ تَنْطَلِـــقُ مِـــنْ أسُـــسٍ تُناسِـــبُ الْعَرَبِيَّـــةَ دِقَّـــةً وسُـــرْعَةً ، ولا يَـــدَّعي مُـــدَّعٍ بِعَـــدَمِ فائِـــدَةِ منـــاهج الدِّراســـاتِ الْحَدِيثَـــةِ إذا مـــا راعَـــتِ الْخَصـــائِصَ لِمـــا يُـــرادُ تَحْدِيثُـــهُ ، لأنَّ الإنْصـــافَ يخـــالِفُ مِثْـــلَ هـــذا الادّعـــاءِ ، والأوْفَـــقُ

تَرْصِينُ المَنهَجِ لِيُفِيدَ مِنَ الْقَدِيمِ الْجَدِيدُ ؛ ذلِكَ لأنَّ قَدِيمَ تعليمِ الكِتابَةِ العربِيّةِ يضع بين يدي المتعلّمين مَرْجِعًا دَقِيقًا ؛ يمكّنهم مِنْ مَقاطِعِ الْكَلِماتِ آلِيَّةً دقيقةً لابُدَّ أَنْ يَتَدَرَّبَ علَيْها مُتَعَلِّمُ الْقِراءَةِ والكتابةِ . ولأَنَّ بِها يَتَمَيَّزُ الْمَقْطَعُ الصَّوتيُّ الَّذِي يُقابِلُهُ الْمَقْطَعُ الْكِتابِيُّ ومادامَ هذا الْمَقْطَعُ يَتَغَيَّرُ بِتَغَيّرِ ما يَتْبَعُهُ مِنْ عَلاماتٍ تُؤثِّرُ في نُطْقِهِ ودَلالَةِ الكَلِمَةِ الَّتي يُؤَلِّفُها فلا مَناصَ مِنَ الْبَدْءِ بِهِ ، إِذِ الحَرْفُ العربيُّ يَتَبَيَّنُ بِما يُكَمِّلُهُ ويُوَضِّحُهُ مِنْ حَرَكاتٍ أوْ سَكَناتٍ ، ولهذا فَإنَّ الْكَلِمَةَ الْعَرَبِيَّةَ لا تَتَّضِحُ بِأحْرُفِها وَحدَها خِلْوًا من الحركاتِ بَل لا بُدَّ مِمّا يُكَمِّلُ هذِهِ الأحْرُف ، وحينما تَخْتَفِي حَرَكاتُ هذِهِ الأحْرُفِ مِنَ الْكِتابةِ فإنَّها مَوْجُودَةٌ في الذِّهْنِ ذِهْنِ الكاتِبِ الَّذي يكَتَبَ ، والقارِئُ الَّذِي يَقْرَأُ لكِنَّ الْمُتَعَلِّمَ الْمُبْتَدِئَ لا يَسْتَغْنِي عنهما في تَمْيِيز الْمَقاطِعِ في كتابتِهِ وقِراءَتِهِ، اللَّهُمَّ إلاّ إنْ أُرِيدَ مُحاكاةُ الْعامّيَّةِ الَّتِي لا تَعْبأ كَثِيراً بالضَّبْطِ ، وَهذا الْمَهْوَى لا يُقِرُّهُ أَحَدٌ ، لِذا فَإنَّ إهْمالَ تَعْلِيمِ هذِهِ الْمَقاطِعِ في ابْتِداءِ التَّعْلِيمِ يُؤدّى إلى فَوْضَى في الْقِراءَ ةِ والكِتابَةِ ، التي ستلازم المتعلم فيما بعد . ذلك لأنَّ الْحَرْفَ الْعَرَبِيَّ لَيْسَ على نَمَطِ غيره من حروف اللغات الأخرى التي استغنت عن الضبط ، فلا يُساوِي هذا الْحَرْفُ حَرْفَ ما اسْتَعارَ الْمُحْدَثُونَ من طرائق تعليم لا تناسب لغتنا ، فلا بُدَّ من تَدارُكِ ما فاتَ الْمُحْدَثِينَ ، الَّذِينَ تَجاوَزُوا الْمَقاطِعَ والتَّهْجِئَة ، وكانوا قد قَصَدُوا التحديث والتَّيْسِيرَ ، لكنّهم أضَرّوا، مِنْ حَيْثُ أرادُوا النَّفْعَ ، لأنهم لم يراعوا ما يناسب اللغة العربية .

ونقول : إذا كان التَّركِيزُ على تَعْلِيمِ الْمَقاطِعِ والْحُرُوفِ صَعْبًا على طالِبِ السَّنَةِ الأُولَى ، فلْيُؤَجَّلْ إلى السَّنةِ الثَّانِيَةِ أوِ الثَّالِثَةِ ، وَلِيُفْرَدْ لَهُ ما يُناسِبُهُ مِنْ دَرْسٍ مُسْتَقِلٍ يُمَكِّنُ الطَّلَبَةَ مِنَ النّطْقِ الْفَصِيحِ وَالْكِتابَةِ

الصَّحِيحةِ وَالْخَطِّ الْجَمِيلِ . والْغايَةُ مِنْ هذا التَّوَجُّهِ الارْتِقاءُ إلَى مَرْتَبَةِ التَّمَكُّنِ مِنَ تَمييزِ أجزاء الْمُفْرَداتِ تَمْيِيزًا دقيقًا مبكّرًا ، باعتمادِ الْمَرْجِعِ الْمَضْمُونِ في وَضْعِ الحَرَكَاتِ فِي مَوْضِعِها الصحيح ، إذ إنّ التوهّمَ قد يُؤدّي إلَى الغلط في المعنى ورُبّما إلى الْكُفْرِ ، ففي الغلطِ في قراءة مثل قَولِهِ تَعالَى ﴿الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ- الحشر ٢٤﴾، بتَغْيِيرِ حَرَكَةِ واو "المصوّر" من كسر إلى فتح ، يتغيّرُ المعنى ، وينقلب إلى ضدّ المراد منه . ويشير الدكتور مهدي إلى خطر إهمال تعليم ضبط مقاطع الكلمات العربيّة ، في مراحل التعليم الأولى ، ولاسيّما حين يعتمد التربويون المحدثون على الطرائق ، (التي لا تنطلق من أصغر وحدة نطقيّة كتابيّة ، أي البدء بالجملة والكلمة الكاملة من دون المرور بأجزائها ، وحينئذٍ لا يتمكن الطلبة من إدراك سرّ بناء الكلمات العربيّة ، وسبب تغيّر مقاطعها في تتابعها في التراكيب ، أي يجهلون ما يحدث للمقاطع من تغيّر، وقد فاتهم التحليل الدقيق إلى الأجزاء ، أي إهمال تعليم الثابت والمتغيّر من هجاء مقاطع الكلمات ... لذلك لا استغناء عن آليات التمكن منها ، ولا ركون إلى قواعد مجتلبة لا تناسبها ، مهما بولغ بمسوغات الدفاع عن هذه القواعد ، إذ لا يتحصّل منها سوى تقديم تحفيظ الجملة على حساب تعليم هجاء مقاطع الكلمات ، وقد أثبتت التجارب أنّ هذه القواعد بعيدة عن تحقيق التمكن من المهارات اللغويّة الأساسيّة المطلوب تعلّمها)[٣٠٧] .

[٣٠٧] مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٧٣ . ٧٤ .

وقد ذكر قول فندريس في التناظر بين الكتابة والصوت : (الكتابة صورة الصوت ، فكلما قربت في سيماها ، كانت خيرًا)[٣٠٨] ، كما ذكر قول ماريو باي الذي يرى أن الترتيب بين المكتوب والمنطوق يكون بـ(البدء من الصورة المنطوقة إلى المكتوبة لا العكس ... ووصف أصوات لغة معينة على أساس من إحساس المتكلمين باللغة ، واعتبارهم عددًا من الأصوات صوتًا واحدًا أو أصواتًا منفصلة)[٣٠٩] ، ومما يؤيد ذلك قول دي سوسير: (إنَّ الصفة التي تميز نظام الإشارات عن الأنظمة الأخرى لا تظهر بوضوح إلّا في اللغة ، حيث تبرز في أمور قلما يدرسها الباحث ، إذن تبقى أهمية علم الإشارات ، أو قيمته الحقيقية غير واضحة عند الناس)[٣١٠] ، وقد أكد باحثنا الدكتور مما تقدم ذكره أن عمل أبي الأسود الدؤلي يقترب من مقولات الدرس اللغوي الحديث ، لأنّ الوصول لتمثيل الكلام بكتابة أبجدية تحتاج أن يكون الواضع لها واعيًا تجريبيًّا مدركًا وجود وحدات صوتية صغرى تجسدها الحروف تلك التي نسميها الفونيمات أو الصويتات[٣١١] ، وقد وجد أنَّ أثر الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي وضع الحركات المرافقة للحروف ، وعمله في علم العروض الذي اعتمد فيه على الحركات والسكنات ، وعمله في تقليب الكلمات في معجمه كل ذلك يدخل في باب التحليل المقطعي أو الفونيمي ، فالخليل استعمل مصطلح الحرف مرة بمعنى الصوت المجرد المعزول ، وأخرى بمفهوم الفونيم الذي يكون مؤثرًا في تحديد دلالة البنية بالنظر إلى ترتيبه مع غيره من الفونيمات[٣١٢] ، وحاول الدكتور مهدي المقابلة بين الأسس اللغويّة العلمية التاريخية الرصينة وما يناظرها

---

[٣٠٨] اللغة، لفندريس، تعريب عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الإنجلو المصرية، د. ت، ٤١٦– ٤١٧، والقرآن والتأسيس الصوتي في النحو العربي ١٧٨.

[٣٠٩] أسس علم اللغة، ماريو باي، تر د أحمد مختار عمر، ط٨، ١٩٩٨م، ٤٨، والقرآن والتأسيس الصوتي في النحو العربي ١٧٩.

[٣١٠] علم اللغة، دي سوسير ٣٥.

[٣١١] مدخل إلى الألسنية ٢٢ ، والقرآن والتأسيس الصوتي في النحو العربي ١٧٩.

[٣١٢] التفكير الصوتي عند الخليل ٧٤. ٧٥، والقرآن والتأسيس الصوتي في النحو العربي: ١٨٥.

من مقولات لغويّة حديثة ، وقد وجد (أنّ مؤسس النحو العربي كان قد توصل إلى اكتشاف أصغر الوحدات اللغوية العربيّة ، ومن بعد معرفة هذه الوحدات، اهتدى إلى معرفة أثرها في تمييز الكلمات والجمل ، بدلالة انتظام هذه الوحدات في مقاطعها ، واستنادًا إلى تمييز المتشابه والمختلف من الضبط)[٣١٣] .

فعملُ أبي الأسود . على رأي باحثنا الدكتور . يستحق البحث والتقصي لما له من أهمية بدءًا باكتشاف أصغر وحدة صوتية ، وليس انتهاءً بأثر هذه الوحدة في بناء علوم العربيّة.

ولا يُسلّم الدكتور لما يُنسب إلى اللسانيين ورائدهم سوسير وغيره فيما يقولونه في الكتابة، ومنها : (... الطابع المضلل للكتابة ... وشهادة الكتابة لا قيمة لها ... وإنّ الكتابة لا يمكن أن تستقلّ بأداء الدلالة الكاملة للقيم الصوتيّة أو النطقيّة التي كانت للغة ما ، بل لا بُدّ من اللجوء إلى القرائن الأخرى لتحديد المقصود بالرمز المكتوب ، وإزالة ما يشوبه من غموض)[٣١٤] ؛ وقول أوتو جسبرسن : (إنّ الطريقة التقليديّة لكتابة اللغة الإنكليزيّة أبعد ما تكون عن الاتساق والثبات ، فمعرفتنا بأصوات الكلمة لا تساعد على تهجيّها ، والعكس صحيح ، إذ لا نستطيع نطق الكلمة إذا عرفنا هجاءها) [٣١٥] ؛ وأنطوان ميه في قوله : (فاللغة المكتوبة كثيرًا ما تكون لغة خاصة لا علاقة لها باللغة المنطوقة)[٣١٦] ، لأن كلّ ذلك هو حديث عن خصائص لغات أخرى ، وكتابات أخرى ، غير ما موجود في اللغة العربيّة .

في حين وجد باحثنا أنّ أبا الأسود الدؤلي استطاع اكتشاف العلامات البصرية التي تُظهِرُ نظامَ ضبطِ حروفِ اللغةِ العربيّة استنادًا إلى تمييزه . ضبط كتابتها . لمقاطع

---

[٣١٣] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٨٧.

[٣١٤] في علم اللغة العام ٦٢ . ٦٣ .

[٣١٥] المصدر نفسه ٦٥ .

[٣١٦] المصدر نفسه ٦٢ . ٦٣ .

الكلمات والجمل التي تقابل المسموع والمنطوق ، وكان لهذه العلامات صلة مباشرة بالألفاظ والتراكيب والدلالات ، وأكّد وجود التلازم بين النطق والسماع ، واختيار العلامة الرمزية المكتوبة ، والمنظورة المناسبة للحروف[٣١٧] .

لكن وَرَدَ ما يُخالفُ ما عرضناه في شأنِ الكتابة في علم اللغة الحديث ، ومنه قولهم : إنَّ (الطابع المضلل للكتابة ... وشهادة الكتابة لا قيمة لها ... وإنّ الكتابة لا يمكن أن تستقل بأداء الدلالة الكاملة للقيم الصوتية أو النطقية التي كانت للغة ما ، بل لا بُدَّ من اللجوء للقرائن الأخرى لتحديد المقصود بالرمز المكتوب ، وإزالة ما يشوبه من غموض)[٣١٨] .

ويُؤكّدُ ما تقدّم في وصف كتابة أخرى غير الكتابة العربيّة ، وهو ما ذهب إليه أوتو جسبرسن من رأي في بيان العلاقة بين كتابة اللغة الانكليزية ومعرفة أصواتها وإمكانية تهجيّها ، إذ قال : (إنَّ الطريقة التقليدية لكتابة اللغة الانكليزية أبعد ما تكون عن الاتّساق والثبات ، فمعرفتنا بأصوات الكلمة لا تساعد على تهجّيها ، والعكس صحيح ، إذ لا نستطيع نطق الكلمة إذا عرفنا هجاءها)[٣١٩] ، كما وجد أن انطوان ميبه التفريق بين كتابة اللغة ونطقها ، إذ قال : (فاللغة المكتوبة كثيرًا ما تكون لغة خاصة لا علاقة لها باللغة المنطوقة)[٣٢٠] .

وكان الردّ على مثل هذه الأحاديث بالتمييز بين اللغة العربيّة واللغات الأخرى ، وذكر باحثنا أنّ هذه الأحاديث عن لغات أخرى وعن كتابات أخرى لا يمكن أن يؤخذ به ، ويُسلّمُ له في اللغة العربيّة ، ودعا اللسانين العرب إلى إدراك هذا الفارق وغيره ، فالكتابة العربيّة وصلتها بالمنطوق تختلف عن غيرها من الكتابات وصلتها بمنطوقها ، ثم عمل

---

[٣١٧] ينظر: القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٥٢.

[٣١٨] ينظر: في علم اللغة الحديث ٦٢ . ٦٣ ، والقرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٥٨.

[٣١٩] في علم اللغة العام ٦٥، والقرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٥٨.

[٣٢٠] في علم اللغة العام ٦٥، والقرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٥٨.

على تعزيز هذا الرأي فيما نقله عن (دريدا) ليرد به عما تقدم من تحامل على الكتابة حتى في اللغات الأخرى . بحسب وصفه . قال : (لأن اللسانيات المعاصرة ومن خلال تصور نموذج اللغة والكتابة اللذين تنتقيهما الميتافيزيقيا الغربية ، يعبّران برأي دريدا عما لا مثيل له ، ملتفٍّ ومستميت مع مركزية لوغوسية وصوتية ، وأخرى عرقية ، لم يسلم منها حتى أبو اللسانيات الحديثة فرديناند دي سوسير، حينما انزلق مع التيار الجارف بسهولة فاضحة)[٣٢١] ، وذكر أنّ دريدا (يعتبر الكتابة في الجارماتولوجيا أصلاً للعلم وللتاريخانية من خلال تأسيس علم الكتابة ، فأنه يتصور ذلك بطرحه لمفهوم كتابة تكون سابقة على الكلام وسببًا لوجوده أيضًا ، خلافًا لما كان يؤسس فهم الكتابة داخل تقاليد الميتافيزيقيا كشيءٍ يأتي بعد الكلام ، فالكتابة الأصليّة عند دريدا تعني الأثر الخالص)[٣٢٢] .

وأشاد الدكتور مهدي صالح بما نقله من رأي دريدا ، وذكر أن الكتابة في التراث العربي الإسلامي ما هي إلاّ محاولة لتمثيل اللفظ ، وأنّ دور الحركات جاء لضبط المقطع الصوتي[٣٢٣] .

وقد صرّح دانيال جونز: (بأنّ أنظمة الكتابة الدقيقة تتطلّب لتركيبها نظريّة الفونيمات)[٣٢٤] ، وقولهم : (إنّ اكتشاف الفونيم يُعّدُّ واحدًا من أهمّ الإنجازات التي حققها علم اللغة ... يعادل اكتشاف الطاقة النوويّة ، لأنّ هذا الكشف في مجال علم اللغة أدّى إلى ثورة في التفكير اللغويّ ، كما أنّ كشف الطاقة النوويّة أدّى إلى ثورة في العلوم التقنيّة)[٣٢٥] .

---

[٣٢١] اللغة والمعنى ٢٦٢، والقرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٥٩.

[٣٢٢] اللغة والمعنى ٢٥٥ . ٢٥٧، والقرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٥٩.

[٣٢٣] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٦٠.

[٣٢٤] دراسة الصوت اللغويّ ١٧٣ .

[٣٢٥] المصدر نفسه ١٦٦ .

وهنا لا بُدّ أن نميّز نمط الكتابة العربيّة من الكتابات اللغويّة الأخرى ، لا لداعٍ من دواعي التعصّب ، لكن لواقع مختلف أحدثته النشأة الأولى لعلوم العربيّة ، التي صارت بموجبها هذه الكتابة المضبوطة المرجع اللغويّ لعلوم هذه اللغة ، لأننا وجدنا بالمقابل رأيًا غربيًّا ينصر ما نزعم ، لأنّه يُقدّم الكتابة ، لتكون أصلاً للعلم ، ومرجعًا لتأسيس التواصل اللغويّ .

لهذا نجدُ صحّةَ النقدِ الذي وجّهه دريدا إلى اللسانيّات المعاصرة ، ودريدا نفسه (قلب المنطق الميتافيزيقي والفلسفي القديم الذي جعل من الكلام ومركزيّة الصوت أساسًا وحيدًا لتصوير نموذج التواصل الأمثل ، من خلال تصوّر تواصل آخر، يعتمد على الكتابة والعلامة الخطّيّة ... ليصبح ... كلّ شكل من أشكال التواصل كتابة)[٣٢٦] .

وكان التثبيت الكتابي لنطق النصّ القرآني الكريم ، سعيًا في وقف تيّار التغيير الذي سُمّي باللحن ، لأنّ المعنيين لاحظوا أنّ طبيعة (اللغة تميل إلى التغيّر، سواء خلال الزمان أو عبر المكان ، إلى الحدّ الذي لا توقف تيّاره العوامل الجاذبة نحو المركز)[٣٢٧]، مركز انبعاث الفصاحة وبيئتها التي انطلقت منها ، إلى البيئات الأخرى غير الفصيحة ؛ إذْ ما عادت الوسائل القديمة بمجرّد وضع الصحيح محلّ الخطأ كافية في مواجهة التحدّيات الواسعة في الانحراف في استعمال اللغة في البيئات الجديدة ، وكانت غاية أهل القرآن تثبيت المنهج الصحيح في منع اللبس والخطأ ، وقد تحقق لهم ما أرادوا بالضبط الوسيلة الجديدة الخالدة ، لذلك قيل : (إنّ القراءات القرآنيّة كانت من أهمّ علوم المسلمين، لأنّها أوثقها اتصالاً بالنصّ القرآنيّ)[٣٢٨] .

وكانت الحاجة إلى تدبير ما يمنع الخطأ في البيئات الإسلامية الجديدة ضرورة أكيدة ، بعد ابتعاد الناس وقادتهم عن مركز الفصاحة التي نزل بها القرآن الكريم ، وانحراف

---

[٣٢٦] اللغة والمعنى ٢٥٨ .

[٣٢٧] أسس علم اللغة ٧١ .

[٣٢٨] النحو العربيّ والدرس الحديث ١٣ .

نطق الكلمات والتراكيب عمّا جرى عليه أهل اللغة ، فنبّهتهم هذه البيئات على التفكير فيما يحقق ذلك ، ليتوحّد الأداء على قراءة مضبوطة واحدة في مرحلة مختلفة ومواطن جديدة ، وفي هذه المرحلة استُكمِل التفكير بأدوات الضبط فيما نرجح بتوجيه أقرب الناس إلى النبيّ (ص) ، الموكّل بحفظ النصّ القرآني الكريم في زمنه ، ليكون التفكير بوسائل جديدة إلى جانب الحفظ والرواية ، تمنع الاحتمال في قراءة النصّ وتبعد عنه التصحيف، حتى لا تُمسُّ قدسيّتُه ، وقد اكتمل تنفيذ هذا الأمر فيما بعد ، وقد تمكن المؤسّس من ضبط التلقّي الدقيق لمرجع المسلمين وكتابهم ، الذي حفظته القلوب والصدور من النبي الإكرم (ص) مباشرة ، ومن بعده من الإمام (ع) مباشرة أيضًا ، وقد مهّد لأساس الضبط اللغوي الجديد ، وانقدحت الشرارة الأولى لعلمه الشامخ .

وهذا هو سعيُ المؤسّس في جعل عربيّة القرآن تبتعد عن منحدر التغيير ، الذي بدت بوادره تتكشّف ، وخطره يتّضح ، فكان الإجراء لما يحقق التمسك بنصّه الكريم ، كما هو من مصدره الشريف ، وقد بادر إلى تثبيت السماع والنطق بحسب نزوله ، ووضع الأدوات لتيسير تداوله على المتلقين ، وليضع لهذه اللغة الكريمة أسباب الديمومة والاستمرار والحيوية والخلود على ما يناسبها ، وقد اتخذ المؤسّسُ الآليات المطابقة لحاجة العربية ، في تثبيت نظامها ، وترسيخ اشتقاق أبنيتها ، وحفظ أسس تراكيبها ، ذلك ما لم يحصل للغات الأخرى ، ولا للكتب السماويّة السابقة ، التي تغيّرت تغيّرًا كبيرًا، أو ربما اندثرت ولم يعد لبعضها وجود ، في ظلّ ثبات النظام العام للغة القرآن ، التي تجاوزت المحن قديمها وجديدها ، وهذا هو الملموس قديمًا وحاضرًا ، ولاسيّما في المئة الهجريّة الرابعة عشرة ، التي تشهد لخلود العربية ، وذهاب غيرها ، فليس هناك لغة (جمدت على شكل واحد مئات السنين) [٣٢٩] ، سوى عربية القرآن الكريم ، لثبات أركانها على منهج التأسيس الذي نحن بصدده .

---

[٣٢٩] علم الأصوات ، بهنساوي ١٧٨ .

المبحث الرابع : المقطع الصوتي والفونيم (الصويت)

تتعدد تعريفات الفونيم بحسب المناهج التي اتبعها علماء اللغة فمنهم من قال : إنَّ (الفونيم : هو أصغر وحدة صوتية تغيرها يؤدي إلى تغيير في المعنى فقولنا "سار" و "صار" بينهما فرق في المعنى ؛ لأنَّ السين المتغير إلى صوت الصاد ، وبذلك اختلف المعنى)[٣٣٠] ، وهو في رأي بعضهم صوت نموذجي أو صورة عقلية للصوت أو صوت مثالي نحاول تقليده أو هو صوت مجرد... والفونيم وحدة صوتية تجريدية تتحقق عن طريق الألفونات المختلفة[٣٣١] ، في حين ذهب بعضهم إلى أنّ الفونيم هو أصغر وحدة صوتية مميزة تقوم بعملية التفريق بين معاني الكلمات ، وأنّ الفونيمات ليست أصواتًا ، بل هي مجرد صفات صوتية يستطيع المتكلم بالتدريب والخبرة اللغوية أن ينتجها ، وأن يتعرّفها في سياق الأصوات الحقيقية الكلامية[٣٣٢] .

فالفونيمات هي : (الوحدات الصغرى من الصفات المميزة للأصوات ، وأصغر ما يحدث اختلافًا في المعنى من الوحدات)[٣٣٣] .

ونقل الدكتور مهدي صالح أنَّ (نظرية الفونيم انبثقت من ملاحظة كيفيات النطق المختلفة ووظائف الأصوات المتنوعة ، ومن محاولة وضع ألفبائيات للغات مختلفة)[٣٣٤] .

ولمّا كان تثبيت مؤسّس النحو العربي أصغر وحدة صوتية لغويّة تمييزيّة ترافق الحرف العربيّ ، التي تتألف من الحركة والحرف بوضع العلامات التي تُميّز ضمّ الشفتين بهذا الحرف ، أو فتحهما ، أو كسرهما ... إلخ ، ما هيّأ للوصف الدقيق لنطق الحرف في أثناء الكلام المتّصل ، ومن ثمّ المنفصل ، وقد يقابل هذا التأسيس أو ربما يقترب من اكتشاف الفونيم (Phoneme) عند الغربيين في العصر الحديث ، الذي يقال عنه : إنّه (أصغرُ وحدةٍ صوتيّة ، عن طريقها يمكن

---

[٣٣٠] الأصوات اللغوية ١٠٨.

[٣٣١] معجم علم الأصوات ١٢٧.

[٣٣٢] علم الأصوات، د. كمال بشر ٤٨٩.

[٣٣٣] مناهج البحث في اللغة، تمام حسان ١٣٠.

[٣٣٤] الألف باء ومقاطع الحروف ١٦.

التفريق بين المعاني) [٣٣٥] ، أو (أنّه النماذج الصوتيّة التي لها قدرة على تمييز الكلمات وأشكالها)[٣٣٦] ، وإنه اكتشاف لنظريّة لغويّة مهمّة ، و (إنّ نظريّة الفونيم قد انبثقت من ملاحظة كيفيّات النطق المختلفة ، ووظائف الأصوات المتنوّعة ، ومن محاولة وضع ألفبائيّات للغات مختلفة) [٣٣٧] .

لهذا فإنّ بَدْءَ التفكيرِ في العلامات الصوتيّة مدخلاً إلى التفكير في الكلمات ، إذ يربط الدكتور سمير استيتيّة ذلك باعتناء علماء القراءات بضبط الكلمات ، من الذين (جعلوا دراسة الأصوات سبيلاً إلى تفسير التغيّرات الصرفيّة ، أي أنّ دراسة الصرف لا يمكن عزلها عن دراسة الأصوات. فهم أوّل من وضع قواعد علم النظم الصوتيّة phonology ، وعلم الصرف الصوتي morphonology . وأكثر الكثير ممّا قالوه في ذلك صحيح لا تنقصه المعرفة الحديثة في هذين العلمين)[٣٣٨] .

وحرص باحثنا الدكتور مهدي صالح على عرض آراء المحدثين في الحديث عن وجدان (دي سوسير أنَّ اللغة نظام من الرموز الصوتية والصور اللفظية ، فهذه هي إحدى أسس نظريته أعني : فكرة العلامة اللغوية ، وعنده أن اللغة نظام من العلامات ، والعلامة وحدة دلالية ، وعلى مجموع العلامات تقوم بنية اللغة ، استنادًا إلى التماثل والتعارض ، أو من العلامات يتضح نظام اللغة ، لأنها الجزء الذي يمكن تحديده وتعيينه ، وتتّسع عنده لتشمل كل ما يمكن تمييزه كالجمل والعبارات والكلمات والمورفيمات ، وقد اعتنى بتمييز ثلاث علامات هي العلامة الرمزية والعلامة السمعية والعلامة البصرية)[٣٣٩] ، وهناك تعريفات أخرى للغة تؤيد أنها رموز منها تعريف سابير (Sapir) : (اللغة طريقة إنسانية بحتة غير غريزية لتواصل الأفكار

---

[٣٣٥] دراسة الصوت اللغويّ ١٧٩ .

[٣٣٦] المصدر نفسه ١٨٠ .

[٣٣٧] دراسة الصوت اللغويّ ١٧١ .

[٣٣٨] اللسانيّات المجال والوظيفة والمنهج ١٨ .

[٣٣٩] النحو العربي والدرس الحديث ٣١، والقرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ١٥١– ١٥٢.

والانفعالات والرغبات بواسطة الرموز المنتجة إنتاجًا إراديًا)[٣٤٠] ، وتعريف بلوخ وتراجر (Bloch, Trager) في كتابيهما (Outline of linguistic Analysis) : (اللغة نظام اجتماعي من الرموز المنطوقة الاعتباطية تتعاون به مجموعة اجتماعية)[٣٤١] ، وعرفها هال Hall في كتابه (Essay on language) بقوله : (اللغة نمط اجتماعي منظم يتواصل بها البشر ويتفاعل بها الواحد مع الآخر بواسطة الرموز الاعتباطية المسموعة المنطوقة المعتاد استخدامها)[٣٤٢] .

تعرف الحركة أنها أصغر وحدة صوتية غير قابلة للتجزئة[٣٤٣] ، وهي أقل الأصوات في التأليف، وأطول منها الحرف الساكن ؛ لأن الحركة لا تكون إلّا مع الحرف ، ولا تكون الحركة حرفًا ، والمتحرك أطول من الساكن ؛ لأنه حرف وحركة ، وقولهم ساكن ؛ أي لا حركة تتبعه)[٣٤٤] ، والفونيم وحدة صوتية ، تظهر عند التحليل اللغوي ، أو الصوت القادر على ايجاد تغيير دلالي كأصغر وحدة صوتية عضوية تركيبية ، تحدث اختلافًا دلاليًا ، لا يمكن تجزئتها ، إذ ينتهي إلى هذه الوحدة التحليل الصوتي للسلسلة الكلامية)[٣٤٥] .

ففضلًا عمّا تقدّم عرض باحثنا أنّ الفونيم أو الصويت (عند الغربيين أصغر وحدة صوتية عضوية تركيبية ، تحدث اختلافًا دلاليًا ، لا يمكن تجزئتها ، إذ ينتهي إليها التحليل الصوتي للسلسلة الكلامية ، وبها يمكن التمييز بين صوت وصوت ، وبها يمكن إخراج صوت وإحلال آخر محله للأغراض العلمية التطبيقية ، الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، والدلالية ، وخير ما يمثل هذه الوحدة في اللغة العربيّة الحركة والحرف منفردين أو مجتمعين)[٣٤٦] .

---

[٣٤٠] اللغة وعلم اللغة، جون ليونز، دار النهضة العربيّة، ٤.

[٣٤١] اللغة وعلم اللغة، جون ليونز ٥.

[٣٤٢] المصدر نفسه ٦.

[٣٤٣] القرآن والتأسيس الصوتي في النحو العربي: ١٥٦.

[٣٤٤] انطولوجيا المعرفة، مجموعة أعمال مهداة إلى الدكتور صاحب أبو جناح لمناسبة بلوغه السبعين، اعداد مؤيد آل صوينت، علامات النقط والنحو والدرس الحديث، د. مهدي صالح سلطان، الدار العربيّة للعلوم، ناشرون: ٢٧٠.

[٣٤٥] انطولوجيا المعرفة ٢٧١ .

[٣٤٦] مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٨٣، وأهل القرآن والتأسيس النحوي ٢٠٧– ٢٠٨.

ولاشك أن الدراسات الحديثة لم تنطلق إلاّ من قواعد دراسية عديدة في جميع المجالات، فقد اعتمدت الدراسات الحديثة على جذور وتفرعات وأرث كبير ما زالت قواعده سارية في النظم العلمية ، وانطلقت بأساليب ونظريات جديدة ، وقد عمل الدكتور مهدي صالح على المقاربة بين القديم والحديث في بعض بحوثه ، ومنها أنه عرض للمقطع العربي المتكون من الحرف والحركة[٣٤٧] ؛ والفونيم الذي هو أصغر وحدة صوتية[٣٤٨] ، فذهب أوّلاً إلى تعريف الحرف لغويًا ، وما يعنيه اصطلاحًا ، وما طرأ عليه من نقط الضبط ، مفرقًا بين نقط الإعجام ، ونقط الإعراب التي بادر بها أبو الأسود الدؤلي في الصدر الأول من الإسلام بغية الحفاظ على لغة القرآن وتجنب اللحن ، وقد وجد (أنَّ أبا الأسود الدؤلي نقل الضبط الصوتي إلى ضبط كتابي، أي حول الضبط المسموع إلى منظور، فالحروف التي كانت مبهمة قبل النقط تبيّنت مقاطعها بالعلامات ، وهذا الإعجام أظهر مقطع الحرف ونقله من العجمة والإبهام والاحتمال إلى الوضوح المقطعي)[٣٤٩] .

وفي معرفة صدى الحرف أورد الدكتور مهدي صالح ما جاء عن ابن جني في قوله : (معرفة صدى الحرف أن تأتي به ساكنًا لا متحركًا ؛ لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه، ومستقرّه ، وتجتذبه إلى جهة الحرف التي هي بعضه ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله)[٣٥٠] .

فقد بحث الدكتور مهدي صالح عند القدماء عن الكيفية التي يمكن أن ينطق بها الحرف مستقلاً ، فوجدها عند ابن جني بما تقدم من وصف ، وفسره ومثل له بقوله : "فتقول إكْ ، وإقْ، وإجْ ، وكذلك سائر الحروف ، وقلق الحرف هنا تلونه وتعدده ، كأنَّ الساكن الثابت أو الأصل ، أو الساكن هو الوحدة التي تربع الحركات الثلاث ، والحركات مادة للجهات التي تلوّنه وتفرعه وتشكله وتغير نطقه)[٣٥١] ؛ في حين وجد تساؤلاً وجوابًا يَشِي بالحرف بوصفه أساسًا للمقطع ، إذ

---

[٣٤٧] المصدر نفسه ٧٥.

[٣٤٨] المصدر نفسه ٧٥.

[٣٤٩] مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٧٦.

[٣٥٠] سر صناعة الإعراب ١/ ١٩– ٢٠، مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٧٦– ٧٧.

[٣٥١] مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٧٧.

فرّق بين اسم الحرف وصوته ، قال: (كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لَكَ... والباء التي في ضَرَبَ؟ فقيل له: نقول باءْ كافْ، فقال: إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف. وقال: أقول كَهْ، وبَهْ، فقلنا لِمَ ألحقت الهاء (قال) حتى يستطاع الكلام بها)[٣٥٢] .

وكان قد أظهر كيفيّة الابتداء بساكن ، وبين الابتداء بمتحرك ، وقد نقل المبرّد عن سيبويه روايته عن الخليل ، قال : (قال سيبويه خرج الخليل يومًا على أصحابه ، فقال كيف تلفظون بالباء من (اضرِبْ) والدال من (قَدْ) ، وما أشبه ذلك من السواكن ؟ فقالوا : با ، دال ، فقال إنما سَمَّيْتُم باسم الحرف ، ولم تلفظوا به ، فرجعوا في ذلك إليه فقال : أرى إذا أردت اللفظ به أن أزِيدَ ألف الوصل ، فأقول : (إبْ) ، (إد) ؛ لأن العرب إذا أرادت الابتداء بساكن زادت ألف الوصل ، فقالت : اِضرِبْ ، اُقتلْ إذا لم يكن سبيل إلى أن تبتدي بساكن . وقال : كيف تلفظون بالباء من "ضَربَ" والضاد من ضُحى ؟ فأجابوه كنحو جوابهم في الأول ، فقال . أرى إذا لُفِظَ بالمتحرك . أن تزاد هاءٌ لبيان الحركة كما قالوا : ارمه "وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ . القارعة ١٠" ، فأقول : بَهْ، ضُهْ، وكذلك كل متحرك)[٣٥٣]، ومن ذلك القول يظهر التمييز بين مقطع الحرف الساكن والمتحرك، ونطق الحرف الساكن المبتدأ به الذي لا بُدّ له ممّا يسبقه ويضاف إليه قبله ، والمتحرك أغلق مقطعه بالهاء الساكنة بعده .

---

[٣٥٢] كتاب سيبويه ٣/ ٣٢٠، مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٧٧.

[٣٥٣] المقتضب ١/ ٣٢ . ٣٣ ، وكتاب سيبويه ٣/ ٣٢٠ .

المبحث الخامس : الفونيم بين القدماء والمحدثين :

كان الدكتور تمام حسان قد مثل لتعدد صوت الحرف ، (بالنون بداية "نحن" ، وبها قبل الثاء في "إن ثاب" ، وقبل الظاء في "إن ظهر" ، وقبل الشين في "إن شاء"، وقبل القاف في "إن قال"، إذ الاختلاف واضح بين مخارج هذه الأصوات من جهاز النطق ولا يحتل أحدهما محل صاحبه ، فالصوت في "إن ثاب" ، و"إن ظهر" مما يخرج فيه اللسان كالثاء والذال والظاء تمامًا... العلاقة بين النونات المختلفة علاقة بالصفة مع اختلاف المخرج)[٣٥٤].

وذهب الدكتور إلى أنّ الفونيم في أحد معانيه يقصد به معنى الحرف[٣٥٥] ، وبذلك يمكن الفهم أن الحرف فونيم ، في حين الفونيم أعم من الحرف ، إذ ذهب بلومفيد إلى : (أنّ فونيمات اللغة ليست أصواتًا ولكنها صفات في الأصوات التي ينتجها المتكلم بالتدريب ويميزها في تيار الكلام العلمي)[٣٥٦] ، فبين (التاء) والدال في قولنا (داء) ، (تاء) فالدال فونيم والتاء فونيم ، وفي قولنا : (كَرَمٌ) اسم ، وكلمة (كَرُمَ) فعل ، الفتحة فونيم ، والضمة فونيم ، وكذلك الكسرة في قولنا : (سَفَرْ) و (سِفر)[٣٥٧] ، واختلفت وجهات النظر في الفونيم بحسب اختلاف المناهج .

وذهب العالم الانجليزي دانيال جونز إلى أنّ الفونيم مجموعة من أصوات اللغة المتقاربة سماعًا ونطقًا ، وهي أصوات لا تتبادل المواقع ما دامت منتمية إلى فونيم واحد ، فالفتحات في العربيّة مثلاً أعضاء لفونيم واحد هي الفتحة ، بسبب اشتراكها في كثير من الصفات ، ولكن أية فتحة

---

[٣٥٤] مناهج البحث ١٥٨. ١٥٩، مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٨٤، وأهل القرآن والتأسيس النحوي ٢٠٨.

[٣٥٥] دراسة الأصوات اللغوية ١٤٩، مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٨٤، وأهل القرآن والتأسيس النحوي ٢٠٨.

[٣٥٦] مناهج البحث ١٦٢، مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٨٤.

[٣٥٧] الأصوات اللغوية، الدكتور عاطف فضل محمد ١٠٨.

منها لا تقع في موقع الأخرى ، فالفتحة المفخمة في (طَاب) لا تقع في محل الفتحة المرققة في (تاب) أو العكس[٣٥٨] .

ويرى (تروبتسكوي) أنّ الفونيم هو أصغر وحدة فونولوجية في اللغة ، أو الوحدة المميزة الصغرى للغةٍ معينة ؛ بمعنى أنها أصغر وحدات اللغة التي تستطيع . بطرق التبادل . أو تميز كلمة من كلمة أخرى ، كقولنا : "نام" و "قام" فالفونيم عنده فكرة لغوية تؤدي إلى أسس علمية لتحليل تركيب اللغة ، ويرى بودان دي كورتيني الذي يعد المكتشف الحقيقي لمفهوم الفونيم . من وجهة نظر عقلية نفسية . أنّ الفونيم صوت واحد لصورة ذهنية تجريدية ويستطيع المتكلم استحضارها في ذهنه ويحاول لا شعوريًا النطق بها في الكلام الفعلي وذهب العالم الأمريكي (تودال) . من وجهة نظر تجريدية . إلى أنّ الفونيم لا وجود له من الناحية المادية ولا من الناحية العقلية وإنما هو وحدة تجريدية تخيلية مصطنعة[٣٥٩] .

ووجد الدكتور مهدي صالح أنّ استبدال الفونيم عند المحدثين يميز الكلمة من الأخرى مثل : (تاب ، وناب ، وعاب) وهذا ما كان عند الدكتور تمام حسان ، (إذ إنَّ استبدال الصوت الأول الذي ينتمي إلى فونيمات مختلفة عدَّل الدلالة وغير المعاني بإيجاد كلمات جديدة متباعدة)[٣٦٠]، وهذا أقرب لما ذهب إليه ابن جني في إظهاره لاختلاف الوقوف على الصوت من وصله بما بعده ، (تقول : (إصْ ، إسْ ، إثْ ، إفْ) ، فتجد الصوت يتبع الحرف ... ما وقفت عليها ، لأنك لا تنوي الأخذ في حرف غيرها ، فيتمكن الصويت فيظهر، فإذا وصلت هذه الحروف ونحوها فإنّك تحس معها شيئًا من الصوت كما تجده معها إذا وقفت عليها ، وذلك نحو: يَصبر، ويَسلم، ويَزلق ، ويَثرد ، ويَفتح ، وإنما ذلك كذلك من قبل أن أخذك في الحرف آخر وتأهبك له قد حالا بينك وبين التلبث والاستراحة التي يوجد معها ذلك الصويت)[٣٦١] .

---

[٣٥٨] المصدر نفسه ١٠٨.

[٣٥٩] المصدر نفسه ١٠٩ . ١١٠.

[٣٦٠] مناهج البحث ١٥٩.

[٣٦١] سر صناعة الإعراب ٢٠.

أما في استحضار النظرية العقلية للفونيم ، النظرية التي ترى أنَّ الفونيم تجريد ذهني، وعند تروبتسكوي النظرية التي تمنح المادة الجوهرية لتحليل التراكيب اللغوية وأساسًا قويًا للكتابة الصوتية[٣٦٢] ، وقد وجد الدكتور مهدي صالح أن أبعاد هذه النظرية هو مما أدركه العرب في بداية درسهم اللغوي ، حينما استندوا إلى المطابقة الكتابية لنطق القرآن الكريم واصطلحوا عليه بنقط الإعراب[٣٦٣] ، وقد أفاد من النتيجة التي وصل إليها الدكتور تمام حسان إذ (خلص إلى النتيجة العملية من الفونيم في أدائه الوظائف الدلالية ، ووسيلة إلى النطق الصحيح ، ومعرفة أثره في منهج الصرف والنحو ... إلخ ، والإعانة على خلق أبجديات منظمة للغات[٣٦٤] ، واستخلص منها فوائد دراسة الفونيم وكانت على النحو الآتي[٣٦٥] :

١- إيجاد كتابة دقيقة ، برمز واحد لكل فونيم ، واستحداث علامات كتابية للدلالة على الصورة الصوتية الفرعية .

٢- وضع الدارس على بداية العناصر اللغوية التي تؤدي وظائف دلالية .

٣- الإعانة على تعلم نطق اللغة نطقًا صحيحًا في التراكيب، من أهلها ومن غيرهم .

٤- تبيين ما يتغير للتقارب الصوتي إبدالاً أو ترادفًا أو إمالة أو إعلالاً... الخ .

وقد أفرزت جهود الدكتور مهدي صالح بيان الحاجة إلى الفونيم وتطبيقاته إذ وجدها أقل فائدة في اللغة العربيّة ؛ لانتظام مقاطع الكلمات العربية واقتراب كتابتها من نطقها ، وعلل لها بأسباب، هي[٣٦٦] :

١- ضبط نقط القرآن استنادًا للمشافهة والتلقي السماعي الصوتي ثم الضبط الكتابي المبكر له حرفًا حرفًا.

---

[٣٦٢] مناهج البحث ١٦٠- ١٦١، مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٨٥ ، وأهل القرآن والتأسيس النحوي: ٢٠٩.

[٣٦٣] مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٨٥.

[٣٦٤] مناهج البحث في اللغة تمام حسان ١٦٢، وأهل القرآن وتأسيس النحو ٢١٠.

[٣٦٥] أهل القرآن وتأسيس النحو ٢١٠ ، مناهج البحث في اللغة تمام حسان ١٦٢.

[٣٦٦] مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٨٩.

٢- طبيعة اللغة العربيّة الصرفية الاشتقاقية التي تعتمد التغير الداخلي بتغير المقاطع الصوتية زاد من الاهتمام بهذا الضبط وكذلك بزيادة السوابق واللواحق، مثل: وَعَد، يَعِدُ، عُدْ، مَوْعِد، وعود، وعيد، موعود، موعودون، موعودين، وعدنا... الخ.

٣- ضبط اتصال الكلمات ببعضها، فضلاً عن ضبطها منفردة إلى التغيير الاعرابي وغيره .

وقد تابع الدكتور مهدي ما ذهب إليه الدكتور تمام حسان من أن (اللغة العربيّة استغنت بوسائلها المتعددة عن استخدام هذه الوسيلة قاصدًا الفونيم مشيرًا إلى ما أبدعه أبو الأسود الدؤلي؛ وصولاً إلى ما قدمه الخليل بن أحمد الفراهيدي، ذاكرًا استعماله لمصطلح الحرف مرة بمعنى الصوت المجرد المعزول، وأخرى بمفهوم الفونيم الذي يؤدي دورًا في تحديد دلالة البنية بالنظر إلى ترتيبه مع غيره من الفونيمات)[٣٦٧] . (والفونيم عند الغربيين وحدة صوتية ، تظهر عند التحليل اللغوي، وتنبثق من ملاحظة كيفيات النطق المختلف، ووظائف الأصوات المتنوعة)[٣٦٨] .

وربما بالغ باحثنا الدكتور مهدي بعرض بعض منطلقات أبي الأسود الدؤلي التي تدلُّ على أصالة الدرس اللغويّ العربيّ ، على نصوص مختارة من الأسس التي دعا لها رائد الدرس اللسانيّ دي سوسير، في الأقل في الشّبه في المنهج العام ، في النقاط الآتية[٣٦٩] :

١ . ينقل باحثنا : (إنَّ تقسيم الأصوات في السلسلة المنطوقة لا يكون إلاّ على أساس الانطباعات السمعية ... إذ لا يمكن القيام بوصف الأصوات إلاّ على أساس فعل النطق)[٣٧٠] .

وقد ذكر باحثنا أنّ أبا الأسود الدؤلي (جعل من الكلمات المتتابعة مقاطع صوتية مضبوطة في تتابعها ضبطًا كتابيًا ، على وفق ما ينطقه أبو الأسود نفسه، ويؤديه الكاتب المكلف بالضبط الكتابي لما يسمع من حروف القرآن الكريم)[٣٧١].

---

[٣٦٧] التفكير الصوتي عند الخليل ٧٤- ٧٥، ومجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغير اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٨٦.

[٣٦٨] أهل القرآن وتأسيس النحو ٢٠٧.

[٣٦٩] مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات ٨٧، أهل القرآن وتأسيس النحو ٢١٥- ٢١٧.

[٣٧٠] علم اللغة ٥٧ .

[٣٧١] أهل القرآن وتأسيس النحو ٢١٥ .

٢ . ينقل باحثنا : أنّ (الانطباع السمعي يصلنا بصورة مباشرة كما تصل الصورة التي تنتجها الأعضاء الصوتية أضف إلى ذلك أنّ الانطباع السمعي هو أساس أي نظرية صوتية... فالانطباع السمعي له وجود لا شعوري عند المرء يسبق دراسة الوحدات الفونولوجية)[٣٧٢] .

وقد أبدى باحثنا في تعليقه على هذه النقطة العجب من اهتداء أبي الأسود الدؤلي وتوفيقه في التوصل إلى آلية التنفيذ التي ربطت بين النطق والسمع والضبط الكتابي[٣٧٣] .

٣ . ينقل باحثنا أنّه (ينبغي علينا أن نعود إلى الحركات التي تنطوي عليها العملية الصوتية ، ففي هذه العملية يرتبط كل صوت بفعل معين ، فترتبط (ب) الدقة السمعية بـ (بَ) "الدقة المنطوقة" ، فأوَّل ما نحصل عليه عند تقسيم السلسلة المنطوقة هما الوحدتان : ب ، بَ ... والفونيم هو الحصيلة النهائية للانطباعات وحركات النطق ، وهو الأثر المتبادل للوحدات السمعية والوحدات المنطوقة، إذن فهو وحدة مركبة لها جذر في السلسلة المنطوقة وآخر في السلسلة السمعية)[٣٧٤].

ويردُّ باحثنا أنّ نصُّ هذه الفِقرة يغني عن التعليق لأنّه هو هو الذي عمله أبو الأسود ، فأجرى في توجيهه جعل المنطوق والمسموع مكتوبًا بما يميّز الحرف ، فيتنوّع بحسب النطق إلى أنواع ، أي فتح الفم به "بَ" ، أو ضمّه "بُ" ، أو كسره "بِ" ... وهو ما عمله أبو الأسود الدؤلي الذي جعل المنطوق المسموع مكتوبًا[٣٧٥] .

٤ . ينقل باحثنا (أنّ السلسلة الصوتية لا تنقسم إلى دقات إيقاعية متساوية بل إلى دقات إيقاعية متجانسة تتصف كلّ دقة بوحدة الانطباع وهي نقطة الانطلاق الطبيعية للنظام الصوتي)[٣٧٦] .

---

[٣٧٢] علم اللغة ٥٦ .

[٣٧٣] أهل القرآن وتأسيس النحو ٢١٦.

[٣٧٤] علم اللغة ٥٦ . ٥٧ .

[٣٧٥] أهل القرآن وتأسيس النحو ٢١٧.

[٣٧٦] علم اللغة ٥٧ .

ويجيب بأنّ هذا هو ما تَحَصّلَ من الضبط ، أي التنبيه على تطابق المقاطع المتجاورة وتناسبها صوتيًّا وكتابيًّا، وانتظامها في تأليف الكلمة الواحدة ، وفي تجاور الكلمات في تأليف الجمل ، والجمل في النصوص ، على وفق نظام أبنية اللغة وقواعدها .

(وقد بنى الخليل ما استنبطه من أوزان الشعر كلّه على مفهومَي الحركة والسكون ؛ وعلى كيفيّة إدراج الحروف المتحرّكة والساكنة في سياقات خاصّة يحدث منها إيقاع ، واتّضح له أنّ أقلّ ما يمكن أن ينطق به من الوحدات الخاصّة بوزن الشعر هو الحرف المتحرك المتلوّ بحرف ساكن وسمّاه سببًا ، ولم يجعل الحرف المتحرك وحده ، لأنّه يستحيل الوقوف عليه)[٣٧٧].

٥. ينقل باحثنا أنّ (الوحدات والحقائق النحوية إنما هي أسماء مختلفة للتعبير عن جوانب متنوعة لحقيقة عامة واحدة : هي الوظيفة التي يقوم بها التقابل اللغوي . ويعبّرُ هذا القول عن حقيقة جوهرية تساعدنا على معالجة مسألة الوحدات بتناول الحقائق النحوية أولًا)[٣٧٨] .

ويجيب أنّ هذا ما وجدناه في هذا البحث ، أي أنّ البدء كان بالتوصل إلى العناصر التي تقابل الوظائف الصرفيّة ، والنحويّة ؛ وهذه العناصر كانت قد أظهرت أيضًا تنوّع الأساليب ولاسيّما ما عبّر عنه المثال العتيد : ما أجمل السماء : فالضبط بالحركات ـ مثلما عرضنا ـ هو الذي ميّز أسلوب التعجب من الاستفهام أو النفي .

٦. ويجدُ باحثنا أنّه : (إذا لم يكن لعلمٍ ما وحدات ملموسة يمكن تشخيصها من الوهلة الأولى ، فإنّ سبب ذلك أنّ مثل هذه الوحدات ليست ضرورية ... أما اللغة فتشبه تمامًا لعبة الشطرنج . ففي لعبة الشطرنج تعتمد اللعبة كليًّا على الارتباط بين قطع الشطرنج المختلفة ، وكذلك تتميّزُ اللغة بأنّها نظام يعتمد كليًّا على التقابل بين وحداته الملموسة . فنحن لا نستطيع الاستغناء عن الإلمام بهذه الوحدات ، ولا نستطيع أن نخطو خطوة واحدة من دون أن نعود إليها ، ومع ذلك يكون تحديد هذه الوحدات مسألة دقيقة تجعلنا نتساءل في بداية الأمر ، هل لهذه الوحدات

---

[٣٧٧] بحوث ودراسات في اللسانيات العربيّة ١٨٨/٢ .

[٣٧٨] علم اللغة ١٤٠ .

وجود ؟ إذن فاللغة تتميز بصفة بارزة غريبة وهي أنها لا تملك كيانات يمكن رؤيتها منذ البداية ، ومع ذلك لا نشكّ أنّ هذه الكيانات موجودة وأن وجودها يتوقف على عملها ، وإنّ هذه الصفة ولا شك تميز اللغة عن غيرها من نظام الإشارات)[٣٧٩] .

ومثل هذا ما ظهر في توضيح آراء سوسير نفسه ، تحت عنوان (العلاقة الجدوليّة والعلاقة الأفقيّة : اللغة تتابع من العلامات ، وكلّ علامة تضيف شيئًا إلى المعنى الكلّي ، وهذه العلامات ترتبط بعضها ببعض بعلاقات يحدّدها النظام اللغوي في كلّ لغة ، وحين يُنظَرُ إلى العلاقات في تتابع خطّي يطلق على العلاقة بينها اسم العلاقات الخطّيّة أو الأفقيّة ... مثل : أنجز الطالب البحث) [٣٨٠] ، وهذا هو التتابع النحويّ الأفقي ، وأما الجدولي فهو ما تستدعيه كلّ كلمة لرديفتها التي يمكن أن تستبدل بها ؛ (وكل نظام يحدّد أدوارًا واضحة لعناصره، ويمثل دي سوسير لذلك بلعبة الشطرنج فسواء جعلنا الوزير من العاج أو الخشب فله حركته المحدّدة في إطار قواعد اللعبة ، إنّ الصفة الأفقيّة للبناء اللغويّ يعطي انطباعًا بخطّيّة الدليل اللغويّ من حيث عدم إمكان التلفّظ بدليلين مختلفين في آن واحد ، فيذهب سوسير في سياق التمييز بين العلاقتين إلى أنّ العلاقة التركيبيّة علاقة حضوريّة ، بخلاف الجدوليّة فهي علاقة غيابيّة تجمع الوحدات اللسانيّة في الذهن لا في التلفّظ)[٣٨١] .

٧ . ويُوازن باحثنا ما (في كتابة كلمة BAR BA ROS [بَرْبَرِيّ] كلّ حرف يمثل دقة إيقاعية متجانسة ... لا يوجد حرف واحد يعبر عن صوتين كما يعبر (X) عن (KS) ، لقد استطاع الإغريق أن يحققوا تقريبًا نسبة واحد إلى واحد بين الأصوات والإشارات الكتابية وهي النسبة الضرورية والكافية لتوفير أساس لنظام كتابي جيّد ... هذه القاعدة لم تدركها بقية الأمم ، لذا لا تقسم حروف الهجاء ، عندهم السلسلة الصوتية المنطوقة طبقًا للدقات السمعية المتجانسة

---

[٣٧٩] علم اللغة ١٢٦ .

[٣٨٠] اللسانيّات اتجاهاتها وقضاياها ٧٨ .

[٣٨١] المصدر نفسه ٧٨ . ٧٩ .

فيها... إذ مثل هذه الإشارات الكتابية تدعى مقطعية ... واقتصر الساميون على كتابة الأصوات الصحيحة فقط . فهم يكتبون barbaros بهيأة BRBRS) [بربرس] [٣٨٢] .

فيجدُ أنّ الناظر إلى التناسب المثالي بين الحرف المكتوب ومقطعه الصوتيّ المنسوب إلى الإغريق في ادّعاء سوسير وزعمه ، كان قد غَبَرَ وذهب وصار شيئًا من التاريخ ، في حين لازم هذا التناسب العربية . وقد أدرك واضع علم العربيّة الأوّل هذه القاعدة الصحيحة ، في ضبط النصّ الشريف ، وثبّت به استعمال لغته . ويشهد لما نزعم المطابقة بين الصوت وما يناظره من مكتوب، فلا بُدَّ للحرف العربيّ من مقطع يُقابلُ ما يُنطقُ به، ولا حرف يعبر عن صوتين مثلما عبر (x) عن (ks).

فالحرف في مقطعه ـ منذ مرحلة التأسيس ـ يُضبطُ بحسب ما يُنطقُ به ، بنسبة واحد إلى واحد صوتيًّا ، وما يقابله كتابيًّا ، وهذه هي فضيلة الدرس اللغويّ العربيّ الأوّل ، وقد أدرك مؤسّس هذا الدرس أهميّة الضبط ، والتزمه من جاء من بعده فحافظ عليه ، فأساس النظام الكتابي العربيّ المُفترض التطابق بين ما هو صوتيّ وما هو كتابيّ .
فكان الضبطُ الكتابيّ المقطعيّ دقيقًا يُناظر السلسلة الصوتية المنطوقة ويطابق الدقات السمعية، ولم يقتصر على كتابة الحروف الصحيحة فقط بل أكملها بما يُميّزها من أصوات وإشارات كتابية ضرورية كافية لتحقيق أساس لنظام كتابي جيّد ؛ وقد قُسِّمَتْ حروف الهجاء ، إلى السلسلة الصوتية المنطوقة طبقًا للدقات السمعية المتجانسة فيها ، فكانت هذه العلامات الكتابية المقطعية هي منطلق تأسيس علوم اللغة العربيّة .
فالضبط الدقيق بالنقط الذي أوجدته مرحلة تأسيس النحو العربي في التطبيق الذي نُفّذ على القرآن الكريم ، ومن بعده التعديل الشكلي اليسير بالحركات ، ذلك الذي أجراه الخليل بن أحمد الفراهيدي، قد حقق الغاية في التكامل بين الحرف وما يميزه من حركات أو علامات ، وقد

---

[٣٨٢] علم اللغة ٥٧ .

اتّضح لاحقًا في التنظير والافتراض ، وكذلك في التطبيق عدا ما تُرِكَ من الضبط ، لمعرفته، وكثرة تداوله ، أو ما خرج عنه ، في حالة الشواذ المحدودة المعروفة .

فمن موازنة منطلقات هذا الوضع بأطروحات علم اللغة الحديث ، يتبيّن أنّ النحو العربي انطلق من اكتشاف العلامات الوحدات الصغرى ومعرفة وظائفها : الصوتيّة والصرفية والنحويّة والدلاليّة، فاكتشافها نبّه على تمييز الكلمات : اشتقاقها وأقسامها ، ومعرفة أجزائها ، وضبط جملها ، من النسيج اللغوي نفسه ، وبانَ من هذا التمييز طبيعة وظائف أجزاء الضبط ، في الكلمات المستقلّة، وفي التراكيب والأساليب ، كالفاعلية والمفعولية والإضافة والتعجب والنفي والاستفهام ... إلخ .

أمّا زعم سوسير في اقتصار الساميّين على كتابة الأصوات الصحيحة فيدلُّ على عدم اطّلاعه على تطوّر كتابتهم التي هي أقدم كتابة عرفها التاريخ المدوّن ، والتي بدأت صوريّة ، ثمّ مقطعيّة، ثمّ هجائيّة ، إذ كانت قد تطوّرت عن الأبجديّة المسماريّة السومريّة التي ظهرت قبل أربعة آلاف عام قبل الميلاد ، على يد الآشوريين وتغيرت تغيرًا مهمًّا تجاوزت المرحلة البدائية ، منتقلة إلى المقطعيّة التي تناظر المنطوق المستعمل ، والتي تُمَكِّنُ الإنسان من استعمالها، ثمّ تطوّرت إلى الأبجدية الهجائيّة التي جُمِعَتِ فِي أَلْفاظٍ ثَمانِيَةٍ : (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ) وكان تَسَلْسُلُ الحْرُوفِ : (كَلَمُنْ) فِي التَّسلسل الأبْجَدي : ك ، ل، م، ن ، هو نفسه الذي انتقل إلى اللُّغَةِ الإنْكِلِيزِيَّةِ ـ أو ما قبلها ـ KLMN وكَذلِكَ Q R S T تُقابِلُ : قَرَشَتْ ومِثْلَهُما : أبْجَدْ A B C ، حتّى نجد عِنْدَهُم تسلسل الحروف وتسميتها باسم الهجاء نفسه : أَلِفا بَيت : ا ب ت Alphabet .

وأشاد الدكتور مهدي صالح بالأب هنري فليش في حديثه عن قصة نقط المصحف ، في قوله: (إنَّ في هذه القصة الأسطورية نصيبًا من الصحة ، ويبقى أن نعلم إنَّ هذه التسميات "الفتحة والضمة والكسرة" في الواقع عبارة عن ثلاث ألقاب عربية محضة ذات علاقة بالوضع العضوي للفم، من خلال إصدار الأصوات ... وإنّ أعضاء النطق أمكنهم بكل بساطة أن

يقرنوها بهذا الصوت)[٣٨٣] ، كما قارب بين أحد أسس نظرية دي سوسير وهي فكرة العلامة اللغوية إذ وجد أنَّ العلامة اللغوية تتسع عند سوسير، تتسع لتشمل كل ما يمكن تمييزه كالجمل والعبارات والكلمات والمورفيمات[٣٨٤]، وهو ما ذهب إليه الدكتور محمود السعران في قوله : (إنَّ الكلمة "علامة لغوية" ونحن عندما نفرق تفريقًا أساسيًا بين فكرتين فنحن نستعمل لذلك ، "علامتين لغويتين" مختلفتين، فالتفكير، دون كلمات عائم)[٣٨٥] .

والفضل كلّ الفضل لأهل القرآن في التفكير المبكّر في اكتشاف نظام اللغة العربيّة ، بضبط مقاطعها ومفرداتها وتراكيبها ، وجاء ذلك من حرص قرّاء القرآن على المضبوط الذي كانوا يتداولون ، وقد تسلّموه كذلك ممن سبقهم ، ويريدون أن يسلّموه على ما هو عليه لمن يجيء من بعدهم ، لـ (أنّ القراءة القرآنية تعدّ المثال الحيّ الوحيد لكيفية نطق الفصحى قديماً وحديثاً)[٣٨٦] ؛ ومازال أمر القراءة يجري على الذي أُسِّسَ له ، فالقرآن الكريم نموذج اللغة الحيّة المعتمدة على المشافهة ، المأخوذة بالتواتر، والتي يتداولها جميع المسلمين على أوقات اليوم الواحد ، تتكرّر فيما يُسمع ويُنطق ويُكتب ، وقد أخذها الجيل السابق طريّة من الذي قبله ، ويسلّمها إلى الذي يليه كذلك ، في مشارق الأرض ومغاربها ، لغة عالية ، تستند إلى استعمال واسع ، وعناية فائقة ، وتاريخ طويل ، ومصادر وثيقة ، وقراءة تحفظ القرآن حفظاً في الصدور، وكتابة مضبوطة ضبطًا كاملًا مرسومًا على السطور ، جرت على وفق تأسيس علميّ راسخ . وما زال الرسم القرآني ثابتًا متّبَعًا على الأساس الذي وضع له ، و (أصبح وقفًا عليه وسُنّة مُتبعة لا تخالف ، ولذلك حَكَمَهُ ، فإنّ رسوم الهجاء تتغيّر جريًا على سُنة التطور ، وتختلف في تغيّرها من زمن إلى زمن ، بل من شعب إلى شعب ، فصيانة كتاب الله من عبث العابثين ، وإغلاقًا

---

[٣٨٣] أهل القرآن وتأسيس النحو: ٢١٢.

[٣٨٤] المصدر نفسه ٢١٣.

[٣٨٥] علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ٢٤٦.

[٣٨٦] معجم القراءات القرآنية ١/ صفحة ط .

لباب التغيير فيه ، وإحداث ما ليس منه) [٣٨٧] ، إذ إنّ أُصول ضبط القرآن الكريم كانت قد ثبتت بحسب حاجة العربيّة ، وبحسب نظام التأسيس ، وإلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها .

[٣٨٧] القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ١٨ .

الفصل الرابع

التفكير النحويّ

المقدمة

إنّ التفكير النحويّ العربيّ كان قد ارتبط بوضع مؤسس النحو ما سُمّيَ بعلامات الإعراب ، لتكون هذه العلامات المصطلح الدال على العلم الجديد ، والمعيار الذي يُحتكم إليه في صحّة نطق المفردات والجمل ، ولولا هذه العلامات لما استطاع المتكلم أن يضبط ما ينطق، والمخاطب أن يفهم ، في المجتمع الإسلاميّ الجديد الذي فَقَدَ السليقة الصحيحة ، وهذا هو ما رَجَّحَه أستاذنا الباحث الدكتور، فيما عرضه من (أنَّ أهل التأسيس اكتشفوا ـ من حيث قصدوا أو لم يقصدوا ـ وحدةَ ضبط الأبنية اللغوية ، وحدةَ المطابقة بين المنطوق والمكتوب ، وحدةَ تمييزِ المقاطع الصوتية ، والصرفية ، فضلا عن الربط الواضح بين أداة الضبط والإعراب، كشفًا عبقريًّا خارقًا للطبع والاعتياد ، فالملموس ينبّئنا أنهم وضعوا أيديهم على أركان هذا البناء الشامخ ، وقيّدوا حروف لغة القرآن الكريم بما يناسبها ويطابق نطقها ، وفتحوا الباب أمام التفكير فيما يتصل بهذا الضبط من انتظام العربية ، وبصميم درسها الصوتي ، باكتشاف وحداته ، وكذلك وحدة الدرس الصرفي ، فضلاً عن اكتشاف وحدة الإعراب المنصوص عليها بروايات التأسيس ، فارتسخ تأسيس هذا العلم باكتشاف العلامات ؛ العلامات المُدركة بالحواس: السمع والنطق والنظر، وهي التي تحقق تمييز تنوّع المقطع الذي يؤثّر في بناء الكلمات والجمل لفظًا ومعنًى ، وبه ربطوا التنوع والاختلاف لما يُضبط ، بتوزيع المضبوط على الحقول ، مجموعات تتناسب وما ضبطت به : الفتح أو الضم أو الكسر، ثم التفكير بالسبب المباشر للتمييز والاختلاف ، من منطلق النظر إلى ما صار يلحظ مضبوطًا ، لماذا يضبط هذا هكذا ؟ ولماذا هذا أشبه هذا ، وخالفا ذاك ؟ ... إلخ ، فهذه المجموعة مثلاً تلحظ مضبوطة بضبط فتح الفم ، وثانية بضبط ضمّه ، وثالثة بضبط كسره ، ووجدوا أنّ هذه متغيّرة الضبط وهذه ثابتته ، وهذه تناسب هذا الحقل وهذه تخالفه ... إلخ ، فيسأل السائل عن سرّ هذا ، أو يبحث الباحث عن الربط بين الضبط ومعنى التركيب أو موقع كلمته ووظيفتها من التأليف أو أسلوبه ، وصولاً إلى اكتشاف المنظومة اللغوية الكاملة ، منظومة الإعراب وما يستتبعها ، استنادًا إلى اكتشاف وحداتها الأساسية ، وحدات التعيين الصغرى ، وحدات أبي الأسود الدؤلي ، الوحدات التي

ابتدأت وحدات قرآنية خاصة ثم لغوية عامة ، ومن أهميتها أن دارَ الدرسُ اللغويُّ بمدارها ، حتى تعاظم شأنها بعد اكتشافها ، وقد ابتنيت أبواب النحو بحسبها ، فما الأبواب النحوية المرويّة الأُوَل إلاّ التعبير المباشر عن وظائف الضبط بعبارات المتأخرين ، فالسيرافي وابن النديم لم يذكرا فيما ينقلان من روايات وضع النحو سوى باب الفاعل والمفعول ، وذكر ابن سلام باب الفاعل والمفعول والمضاف ، فكلّ نوع من أنواع الضبط يقابل بابًا نحويًّا ، وأرجّحُ أنهم عبروا عن العلامات بالأبواب بدليل هذه المطابقة ، وكذلك الإشارة إلى حروف الرفع والنصب والجر والجزم ، المعبّرة عن العلامات من جهة وعمّا يقابلها من أبواب من جهة أخرى)[٣٨٨] ؛ كُلُّ ذلك استنادًا إلى الضبط المختلف لاختلاف الأساليب على الرغم من أنّ الحروف واحدة ، ومثالها العتيد (ما أجمل السماء) فالضبط وحده هو الذي يعيّن الأساليب : التعجب ، أو الاستفهام ، أو النفي ، التي سُمِّيَت لاحقًا بالأبواب ، وكان ذلك منطلق تأسيس علوم العربيّة بتمييز المجموعات المختلفة من حيث الضبط ، وقد انكشفت بها عجائب نظام هذه اللغة ، التي أثمرت في قرن من الزمان كتاب سيبويه ، أعظم كتابٍ لغويّ ، وعِلمٍ لا يمكن أن يستعار من لغة أخرى لاختلافه واختلافها ، فما كان هذا ليكون لولا القرآن المجيد، فهذه القواعد لهذه اللغة وعلى هذا التأسيس ، وبهذه المطابقة الخالدة خلود الدهر[٣٨٩] .

---

[٣٨٨] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ٨٧ . ٨٨ .

[٣٨٩] القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ٨٧ . ٨٨ .

المبحث الأوّل : المنهج التأسيسي الأوّل للنحو العربيّ :

يبدو أن وضع نقط الإعراب على حروف القرآن الكريم ، الخطوة التي ثبتت مصطلحات الفتحة والضمة والكسرة ، والتي لا تقِلُّ شأنًا عن الاكتشافات العلمية الأخرى ، ذلك ما عبّر عنه الدكتور تمام حسان ، في قوله : (لعل الوصول إلى هذه المصطلحات الثلاثة أن يكون بالنسبة لأبي الأسود وأصحابه كشفًا هائلا، يقف من بناء صرح النحو العربي موقف اكتشاف النار من تقدم الحياة الإنسانية)[٣٩٠] .

(وكانت هذه هي البداية الواثقة ، بداية اكتشاف الإعراب ؛ لأنَّ الإعراب الإبانة ، وقد وضع أبو الأسود ما يُبيّنُ ، وما يفرق بين المعاني والألفاظ ... وكذلك الإعراب هو مفتاح المعاني المغلقة في الألفاظ ... أو أنَّ مرحلة التأسيس في أقل ما أدَّت أنَّها وضعت علامات الإعراب على حروف القرآن الكريم ، وإلى جانب العلامات حقول تمييز الإعراب ، والأدوات والحقول هي التي فتحت الطريق أمام تلامذة أبي الأسود وتلامذة تلامذته ، ممن سعوا في إتمام بناء ما بدأه في هذا العلم الشامخ)[٣٩١] .

وكان البناء الذي بدأ بما نُقِلَ عن أبي الأسود الدؤليّ ، في قوله : (جَمَعتُ أشياء وعرضتها عليه [يعني على علي بن أبي طالب] ، فكان من ذلك حروف النّصب فذكرتُ منها : إنَّ ، وأنَّ ، وليت ، ولعلَّ ، وكأنَّ ، ولم أذكر لكنّ ، فقال : لِمَ تركتها؟ فقلتُ : لم أحسبها منها، بلى هي منها ، فزدها فيها)[٣٩٢] ؛ وهي من أوَّل ما وُضِعَ من أبواب النحو (بابَيْ العطف والنّعت، ثمّ بابَي التعجب والاستفهام ، إلى أن وصلت إلى "إنّ وأخواتها" ما خلا لكنّ ...) [٣٩٣].

---

[٣٩٠] الأصول، د. تمام حسان ٣٢.

[٣٩١] دي سوسير ، حياة في اللغة ، ثنائيات النحو العربي ٢٢٨ .

[٣٩٢] أنباه الرواة على أنباء النّحاة ٣٩ .

[٣٩٣] نزهة الألباء ٢ .

هذا التأسيس هو الذي جمع المتشابه الذي كان من نتائج الضبط والتوزيع على الأبواب وقد استدل الدكتور تمام على أهمية كشف الحركات الإعرابية المسماة بالنقط أن النحو العربي بُنِيَ على أساس هذه الحركات؛ لأنها أصبحت علامات إعراب وآثار للعوامل[٣٩٤].

ونجد أنّ الدكتور تمّام حسان نفسه كان قد نبّه على المنهج العلمي التجريبي الدقيق الذي استعان به أهل التراث في قوله : (مُدركات حسّيّة صوتيّة ... لست أشكُّ لحظة واحدة في أنّ هؤلاء العلماء الأجلاّء قد استطاعوا بالملاحظة أن يصلوا إلى وصف دقيق للأصوات العربيّة دون أن يكون لهم من الوسائل الآلية التي يستخدمها المحدثون ما يستطيعون بواسطة توثيق نتائج مدركاتهم الحسيّة ...)[٣٩٥] .

فلهذا التوجّه وهذا البناء الشأن الخطير في حياة الأمّة دينيًّا وتحوّلها علميًّا ، وفيه الانتقال إلى الخطوات الأولى التي كانت قد أسّست لبناء علوم العربية على الأسس الرصينة ، ويَنصُرُ هذا مثل قول الدكتور حسين نصار : (ظهرت فئة أخرى من العلماء ، لم يكن همّها الأوّل التدريس بلِ العلم ، من أمثال أبي الأسود الدؤلي وتلاميذه ، وأراد هؤلاء العلماء الاتصال باللغة في أنقى صورها ...) [٣٩٦] .

وخير من عَبّرَ عن جلالة قدر المشتغلين بهذا العلم وحرصهم وعلوّ مكانتهم ، ما ذكره ابن جني في باب : صِدق النقلة ، وثقة الرواة ، في قوله : (هذا موضع من هذا الأمر، لا يعرِفُ صحته إلاّ من تصوّر أحوال السلف فيه تصوّرهم ، ورآهم من الوفور والجلالة بأعيانهم ، واعتقدَ في هذا العلم الكريم ما يجب اعتقاده له ، وعَلِمَ أنّه لم يوفق لاختراعه وابتداء قوانينه وأوضاعه ، إلاّ البَرُ عند الله سبحانه ، الحظيظ بما نوّه به ، وأعلى شأنه . أوَ لا يُعلم أنّ أمير المؤمنين عليًّا ﷺ هو البادئه ، والمنبّه عليه ، والمنشئه والمرشد إليه . ثمّ تحقّق ابن عباس ﷺ به ، واكتفال أبي الأسود "رحمه الله" إيّاه . هذا بعد تنبيه رسول الله ﷺ عليه ، وحضّه على

---

[٣٩٤] الأصول، د. تمام حسان ٣٢.

[٣٩٥] اللغة العربية معناها ومبناها ٤٩ .

[٣٩٦] المعجم العربي ٢٤ .

الأخذ بالحظ منه ثمّ تتالى السلف "رحمهم الله" عليه واقتفائهم ـ آخرًا على أوّل ـ طريقه ... ويُتشاهد به من عفّة أبي عمرو بن العلاء ومن كان معه ومجاورًا زمانه ...) [٣٩٧] .

والحقُّ أنَّ أبا الأسودِ كان قد فتح باب التفكير في الإعراب ، وقد وضع يَدَه على مفاتيح أسرار علوم العربيّة ، ومنظومتها وقضيتها المركزية ، (ولهذا نقول : إنّ الحديث عن دلالة الإعراب ارتبط بنشأة النحو لدى أبي الأسود ، وإلاّ فكيف بادر إلى دفع الوقوع في الخطأ في الإعراب ، دون أن يعرف هذه الدلالة ودون أن يُبصّر الذين وقعوا في الخطأ بهذا الربط بين الإعراب والمعاني التي يدلّ عليها ، وكيف يتسنّى لمثل ابنته [التي قالت له يومًا : يا أبتِ ، ما أحسنُ السماءِ ، قال : إي بُنيّة ، نجومُها، قالت : إنّي لم أَرِد أيّ شيء منها أحسن ؟ إنّما تعجّبت من حسنها . قال : إذن فقولي : ما أحسَنَ السّماءَ ! فحينئذٍ وضع كتابًا[٣٩٨] . أو لمثل الذي قرأ بجرّ لفظة الرسول في الآية الكريمة : ﴿أنّ الله بريء من المشركين ورسولِه ـ براءة ٣﴾ ، أن يتجنّب الخطأ ما لم يبصّرهم بارتباط هذه الحركات بدلالة معيّنة أي ربطها بمعاني الكلام ...) [٣٩٩] .

و(إنّ نظرة واحدة إلى نص تنقيط المصحف تشير في وضوح إلى أنّ أوّل من تكلّم عن حركات الإعراب والتنوين هو أبو الأسود ، وما النحو في مظاهره العديدة ، وقضاياه المتشعبة إلاّ هذه الحركات التي تتناول معظم أبواب النحو: المرفوعات ، والمنصوبات، والمجرورات)[٤٠٠]؛ معنى هذا أن نقط أبي الأسود هو بداية انقداح التفكير في وضع أبواب النحو[٤٠١] ، استنادًا إلى تعرّف وحداته لـ (أنّ عبارة (فتح) الفم و(كسره) و(ضمه) يسّرت خلق مصطلحات ثلاثة للإشارة إلى هذه النُّقطِ ... وإلى طريقة نطقها أيضًا ، وتلك هي المصطلحات (الفتحة) و(الكسرة) و(الضمة) ، في قوله : (إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة على أعلاه وإذا ضممت

---

[٣٩٧] الخصائص ٣/٣١٢ ـ ٣١٣ .

[٣٩٨] أخبار النحويين البصريين ١٤ .

[٣٩٩] دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء ٣٠ .

[٤٠٠] الحلقة المفقودة ٢٢ .

[٤٠١] المدارس النحوية ، د . خديجة ٥٦ ـ ٥٧ .

فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وإذا كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف ... فابتدأ أبو الأسود يقرأ والكاتب ينقط حتى أتمّا نقط المصحف)[٤٠٢] ، ولعلّ الوصول إلى هذه المصطلحات الثلاثة أن يكون بالنسبة لأبي الأسود وأصحابه كشفاً هائلا يقف من بناء صرح النحو العربي موقف اكتشاف النار من تقدم الحياة الإنسانية ، ولعل الدليل القوي على ذلك أنّ النحو العربي بُني كلّه على هذه الحركات ، لكونها أصبحت علامات الإعراب) [٤٠٣] ، وآلة النحو والصرف لأنّ بها يحصل اختلاف الكلمات وأجزاء التأليف ، وانتقال المعاني وتغيّرها . (وقد اتفق معظم الرواة على أنّ أبا الأسود نقّط المصحف تنقيط إعراب ، وتنقيط المصحف على هذا الوضع الذي ذكره الرواة يدلّ على وضوح ظواهر الإعراب في ذهن أبي الأسود)[٤٠٤] .

وننقل عن باحثنا الدكتور أنّ التأسيسَ جاء باكتشاف وحدةَ ضبط الأبنية اللغوية ، وحدةَ المطابقة بين المنطوق والمكتوب ، وحدةَ تمييزِ المقاطع الصوتية ، والصرفية ، فضلا عن الربط الواضح بين أداة الضبط والإعراب ، فقد وُضِعتْ اليد على أركان هذا البناء الشامخ ، وفُتِحَ البابُ أمام التفكير فيما يتصل بهذا الضبط من انتظام العربية ، وبصميم درسها الصوتي، باكتشاف وحداته ، وكذلك وحدة الدرس الصرفي ، فضلاً عن اكتشاف وحدة الإعراب المنصوص عليها برواية التأسيس ، فارتسخ تأسيس هذا العلم باكتشاف العلامات ؛ العلامات المدركة بالحواس : السمع والنطق والنظر، وهي التي تحقق تمييز تنوّع المقطع الذي يؤثّر في بناء الكلمات والجمل لفظًا ومعنى ، ومنه ربطوا التنوع والاختلاف لما يُضبط ، بتوزيع المضبوط على الحقول ، مجموعات تتناسب وما ضبطت به : الفتح أو الضم أو الكسر، ثم التفكير بالسبب المباشر للتمييز والاختلاف، من منطلق النظر إلى ما صار يلحظ مضبوطًا ، لماذا يضبط هذا هكذا؟ ولماذا هذا أشبه هذا وخالفا ذاك ؟ ... إلخ ، فهذه المجموعة مثلاً تلحظ مضبوطة بضبط فتح الفم، وثانية بضبط ضمّه ، وثالثة بضبط كسره ، وهذه متغيّرة الضبط

---

[٤٠٢] مراتب النحويين ١٠ . ١١ .

[٤٠٣] الأصول ٣١ .

[٤٠٤] الحلقة المفقودة ٢٢ .

وهذه ثابتته ، وهذه تناسب هذا الحقل وهذه تخالفه ... إلخ ، فيسأل السائل عن سرّ هذا ، أو يبحث الباحث عن الربط بين الضبط ومعنى التركيب أو موقع كلمته ووظيفتها من التأليف أو أسلوبه ، وصولاً إلى اكتشاف المنظومة اللغوية الكاملة ، منظومة الإعراب وما يستتبعها ، استنادًا إلى اكتشاف وحداتها الأساسية ، وحدات التعيين الصغرى ، وحدات أبي الأسود الدؤلي، الوحدات التي ابتدأت وحدات قرآنية خاصة ثم لغوية عامة، ومن أهميتها أنّ دارَ الدرسُ اللغويُّ بمدارها ، حتى تعاظم شأنُها بعد اكتشافها ، وقد ابتنيت أبواب النحو بحسبها ، فما الأبواب النحوية المرويّة الأُوَل إلاّ التعبير المباشر عن وظائف الضبط بعبارات المتأخرين ، فالسيرافي وابن النديم لم يذكرا فيما ينقلان من روايات التأسيس سوى باب الفاعل والمفعول ، وذكر ابن سلام منها باب الفاعل والمفعول والمضاف ، فكلّ نوع من أنواع الضبط يقابل باباً نحويًّا ، ورجّحُ باحثنا أنهم عبروا عن العلامات بالأبواب بدليل هذه المطابقة ، وكذلك الإشارة إلى حروف الرفع والنصب والجر والجزم ، المعبّرة عن العلامات من جهة وعمّا يقابلها من أبواب من جهة ثانية ، حتى استقر لاحقاً أنّ النحو علم الإعراب ، ثمّ جاءت مرحلة كتاب سيبويه ، التي توسعت في البحث ، والتعليل لوجود هذه العلامات ، والعوامل التي أحدثتها ، ثم إلى تقدير العلامات إن اختفت لمانع منع من ظهورها؛ فصار الإعراب عندئذ ليس مجرد لحظ الثابت، أو المتغيّر من الحركة، أو الحرف، أو السكون، أو الحذف، إذ اعتدّه بعضهم أنّه العلم نفسه[٤٠٥].

وما انفك خلفاء الجيل الأول من النحاة على رأي الدكتور تمام حسان من (التفكير في تغيّر أواخر الكلمات بحسب اختلاف المعنى ، فأصبح هذا التغير هو المشكلة الكبرى في نظرهم ، وقد كانت مشكلة تدعو إلى الخروج من طابع العمل إلى طابع النظر)[٤٠٦] ، فالإعراب اللفظي وما سبّبه من عوامل كان مدار اهتمام هؤلاء النحاة ، ولم يفارقه من جاء من بعدهم ، إلاّ من رَبَطَ بين الإعراب القرينة من القرائن والفرع من فروع المعنى استنادًا إلى (هيأة الكلمة

---

[٤٠٥] أهل القرآن وتأسيس النحو ١٦٣ .

[٤٠٦] الأصول ٣١ .

وصيغتها ومحلّها ، وكونها مبتدأً أو خبرًا ، أو فاعلة أو مفعولة أو في مبادئ الكلام أو في جواب ، إلى غير ذلك من تعريف أو تنكير ... إلخ)[٤٠٧] .

[٤٠٧] البرهان ٣٠٢/١ .

المبحث الثاني : النحو بعد أبي الأسود الدؤليّ

إنّ المؤلفات النحوية الأُول التي تُظهِر مراحل تطوّر هذا العلم ، كانت قد فُقِدَت ، حتى تعليقة أبي الأسود أو مختصره ، كانت أيضًا من بين هذه المفقودات ، ومثل ذلك من الكتب الإكمال والجامع المنسوبان لعيسى بن عمر الثقفيّ ، بل إنّنا لا نجد ممّا أُلِّف قبل كتاب سيبويه، إلاّ مقدمة خلف الأحمر، وكتاب الجمل، ومنظومة في النحو منسوبين إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وهذه الثلاثة لم تسلم على رأي الدكتور مهدي صالح من الإهمال والتشكيك والتضعيف والزيادة والنقصان . ولم يُعتنَ بردّ هذا التشكيك إلاّ في حدود ضيّقة ، على الرغم من أنّ هذه المؤلفات كانت من المختصرات ، وأهميّتها أنها تنتمي إلى مرحلة تأسيس النحو وإلى ما قبل ظهور كتاب سيبويه ، ولا تنتمِي من حيث المضمون إلى ما بعد ظهور كتاب سيبويه ، في الأقلّ في منهج التأليف ، فإن راجعنا منهج تأليف مقدمة خلف الأحمر وجدنا أنّ منهجها عامّة ينتمي إلى مرحلة تأسيس النحو، مرحلة التوزيع إلى جداول نحوية بدائية ، أو خانات ضبط أولية ، بحسب علامة الضمّ أو الفتح أو الكسر، التي لمّا تصِلْ بعدُ إلى مرحلة التنظيم التي هيمنت فيما بعد ، مرحلة كتاب سيبويه .

ونجد أنَّ تاريخ البحث النحويّ قد تأثّر بما بثّه المستشرقون من البلبلة وادّعاء الغموض وإنكار نسبة علم النحو إلى العرب ، وقد زعموا أنّه لم يَكُن له وجود في القرن الهجريّ الأوّل ولا في العصرين الإسلاميّ والأمويّ ، حتى أنّهم ادّعوا أن لا استعمال للفظ النحو بمفهومه العلمي؛ وقد قرّروا أنّ النحو أُخِذَ عن الهنود أو الفرس ، وقد زعم أحد المستشرقين أنَّ أوّل (مقدمة في النحو) ، عُرِفت في أواخر القرن الرابع ، تقليدًا للمقدمات اليونانيّة[٤٠٨] .

أمّا (مقدّمة في النحو) فكتابِ خلف الأحمر الذي اعتنى به الدكتور مهدي صالح فيما ألّفه من كتاب تحت عنوان : (خلف الأحمر بين الريادة ودعوى الانتحال) ، وذكر أنّ هذا

---

[٤٠٨] جذور التحليل النحويّ ٢٧ . ٢٨ .

الكتاب (ينتمي إلى المرحلة الأولى من تأسيس النحو ، تلك المرحلة التي عصفت بكثير من كتبها الأيّام ، ولم يصل إلينا منها شيء إلّا القليل القليل ...)[٤٠٩] .

ويقول في شأنِ خلف الأحمر: (وقد وجدنا إهمالًا لهذا الرجل ، وصدًّا يبدو متعمّدًا ... وأحسبُ أنّ الحاجة ماسّة إلى إنصاف الرجل الذي له الفضل الكبير في رواية الشعر الجاهلي والإسلامي ، وكذلك ما له من نظر ومنهج ، ولفتات لغويّة ونحويّة بارعة)[٤١٠] .

ويقول أيضًا : إنّ ضعف التدوين في هذه المرحلة . في الحفاظ على الجهود النحويّة الأولى . لا ينفي وجودها ، ولا يعقل أن يكون بناء كتاب سيبويه على غير مثال سبقه ، هيّأ له علماء أجلّاء ، والخليل وسيبويه ليسا بعيدين عن المؤسس زمنيًّا ، فقد كانا قد تلمذا على تلامذة تلاميذ المؤسس ، وبينهما وبين أبي الأسود جيلين من أجيال النحاة[٤١١] .

قال د . عبادة في منهج كتاب الجمل في النحو السابق لظهور الكتاب : (نلاحظ أنّ المصنّف لم يتحدّث عن علامات مقدّرة وأخرى ظاهرة ، كما لم يتحدّث عن علامات إعراب المقصور والمنقوص ولا المضاف لياء المتكلم فكلّ العلامات عنده ظاهرة)[٤١٢] .

ونسب ابن مالك إلى خلف الأحمر ارتفاع الفاعل بالإسناد ، والمفعول به منصوب بمعنى المفعولية ، وحجة خلف أنّ المفعولية صفة قائمة بذات المفعول وإسناد الحكم إلى العلة القائمة بذات الشيء أولى من غيرها[٤١٣] ، فالفاعل معنى الفاعلية ، وكونه فاعلًا في المعنى[٤١٤].

فما جاء به خلف الأحمر من نحو ينتمي إلى مرحلة التأسيس ، إذ كان يربط بين الرفع والنصب والجرّ والباب النحوي[٤١٥] ، وهي ثلاثة بعدد علامات الضبط لا أكثر؛ الفاعل:

---

[٤٠٩] خلف الأحمر بين الريادة ودعوى الانتحال ١٠ .

[٤١٠] المصدر نفسه ١٠ . ١١ .

[٤١١] أهل القرآن وتأسيس النحو ١٦٨ .

[٤١٢] ٥٥ .

[٤١٣] تسهيل الفوائد ٧٥ .

[٤١٤] كتاب الجمل في النحو ١٩٠ .

[٤١٥] مراتب النحويين ٢٤ .

الأنموذج الذي يمثل علامة الضبط بالضم ، والمفعول : نموذج الضبط بالفتح، والمضاف: النموذج المتصل بضبط الكسر، ولو دقَّقنا ما جاء عن مرحلةِ التأسيس الأولى لما وجدنا سوى مسبِّبات ظهور العلامات ، وهي الإشارة إلى علامة الرفع : لظهور الضم ، والنصب : لظهور الفتح ، والجرّ: لظهور الكسر ، وإذا زدنا الجزم فعلامته : تركُ العلامة لهُ علامة ؛ فالراوية تؤكد بعضها بعضًا، وربما جاءت بعبارات أو مصطلحات القرن الهجري الثالث ، وتسميتها بالأبواب تسمية مجازية باعتبار ما صارت إليه ودلّت عليه ، في تداول النحويين من أهل ذاك القرن[٤١٦] .

وكانت آراء خلف الأحمر قد انتظمت بربط الرفع والنصب والجرّ بالباب النحوي ، وهي آراء حفظها التراث النحوي له ، من التي تنتمي إلى مرحلة تأسيس النحو، بعيدة عن التنظير والتعليل الذي بُنِيَ بحسبه كتاب سيبويه ، فكان اعتماده على نظام اللغة وتبويبها الأوّل ، تبويب أبي الأسود في توجيه الرفع وضم الشفتين أو النصب وفتحهما أو الجر وكسرهما ، وقد اعتدَّ الباب النحوي كالفاعل والمفعول والمضاف إليه داعيًا وسببًا لظهور الحركة الإعرابيّة ، فرفعُ المبتدأ عنده بالإسناد، في حين كان رافعه المسند عند سيبويه على نقل ابن هشام[٤١٧] ، وفي الكتاب (يرتفع بالابتداء) [٤١٨] ، وقد عرضنا ارتفاع الفاعل بكونه فاعلًا في المعنى ، ونسبه القُتَبِيّ إلى خلف الأحمر[٤١٩] ، ونسب ابن مالك إليه ارتفاعه بالإسناد ، وأمّا المفعول به فمنصوب بمعنى المفعولية ، وحجة خلف أنّ المفعولية صفة قائمة بذات المفعول وإسناد الحكم إلى العلة القائمة بذات الشيء أولى من غيرها[٤٢٠] ، فالفاعل معنى الفاعلية ، وكونه فاعلًا في المعنى[٤٢١].

---

[٤١٦] أهل القرآن وتأسيس النحو ٦٥ .

[٤١٧] شرح التصريح ٣٩٥/١ .

[٤١٨] ١٨٣/٢ .

[٤١٩] ارتشاف الضرب ١٣٢١/٣ .

[٤٢٠] شرح التصريح ٣٩٥/١ .

[٤٢١] همع الهوامع ٢/ ٢٥٤ .

ويتأكّد هذا الأخذ ويتبيّن عمليًّا مشاركة خلف الأحمر في مسألة الرفع بعد ليس المشهورة: (ليس الطيبُ إلاّ المسكُ) ، التي فيها خلاف أساسه اختلاف اللهجة والبيئة اللغوية ، وقد وجدنا الأحمر طرفًا في تحقيقها مع أستاذيه أبي عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر من جهة ، وأهل البيئة اللغويّة من جهة أخرى ، وقد كان الاستعمال الطبيعي للغةِ الفيصلَ في تثبيت السماع وتدوينه ، من أهل اللغة مباشرة ، مثلما كان لخلف الأحمر الفضل في تثبيت سماع الشعر، ويمكن أن يكون له مثل ذلك النهج في بناء مسائل النحو وإقرار قواعده .

وربما نجد لنهج أبي الأسود في عدم التعليل للباب النحوي قبولًا وتوسعًا عند المتأخرين من القدماء ، وقد اشتقوا منه وعلى وفقه آراء أُخر، من مثل اشتقاق الرضي ارتفاع المبتدأ ، استنادًا إلى ارتفاع الفاعل بقوله : (وقال بعضهم المبتدأ الأول يرتفع بإسناد الخبر إليه كما قال خلف في ارتفاع الفاعل)[٤٢٢] ، والعامل في المضاف إليه : (قال بعضهم : العامل معنى الإضافة ... لأنه أراد بالإضافة كون الاسم مضافًا إليه ، فهذا هو المعنى المقتضي ، والعامل: ما به يتقوّم المعنى المقتضي ، وإن أراد بها النسبة التي بين المضاف والمضاف إليه ، فينبغي أن يكون العامل في الفاعل والمفعول أيضًا النسبة التي بينهما وبين الفعل ، كما قال خلف : العامل في الفاعل : هو الإسناد)[٤٢٣] ، وليس هذا غريبًا عن الدرس العربي ، لأنه من آثار التأسيس والتبويب الأوّل للنحو .

وإن عدنا إلى (مقدمة خلف الأحمر) فنجدها كتابًا مختصرًا ، أصله قبل التحقيق سبع عشرة ورقة ، واضحة مصفّاة معقولة ، لا غموض فيها ولا إلغاز، ولا تضخم ولا كُدرَة ، كيف لا تكون صافيةً رقراقةً ؟! ومنشئُها خلف الأحمر أعلم الرواة بالشعر ومعانيه ؟! وهو رفيق سيبويه في التلمذة على عيسى بن عمر ويونس بن حبيب وأستاذ الأصمعي وابن سلام ؛ وليس في المقدمة ترتيب على وفق ترتيب كتاب سيبويه ونظامه ، فالأبواب عبارة عن جداول المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والمجزومات ، ولا نجده يتحدّث إلاّ عن خانات الضبط ، خانات

---

[٤٢٢] شرح الرضي على الكافية ٢٢٢/١ .

[٤٢٣] المصدر نفسه ٦٠/١ ـ ٦٢ ، وارتشاف الضرب ١٣٢١/٣ .

الإعراب، غاية تأسيس النحو الأولى، ودليلنا على ذلك ما اجتمع من متماثل في الباب الواحد ، اعتمادًا على الضبط بعلامة واحدة ، كأنّه يعرض جداولَ احتوت ما تشابه من الضبط الواحد .

ويسوّغ الأحمر لتأليف كتابه ، في قوله : (فأمعنت النظر والفكر في كتاب أؤلفه وأجمع فيه الأصول والأدوات والعوامل على أصول المبتدئين ليستغني به المتعلم عن التطويل فعملت هذه الأوراق ، ولم أدَعْ فيها أصلاً ولا أداة ولا حجة ولا دلالة إلاّ أمليتها فيها؛ فمن قرأها وحفظها وناظر عليها ، عَلِمَ أصول النحو كلِّه مما يصلِح به لسانَه في كتاب يكتبه ، أو شعر ينشِدُه ، أو خُطبةٍ أو رسالةٍ إن ألّفها ...)[٤٢٤] . وهو (شعور مبكر بصعوبة النحو وتضخم قواعده فحاول خلف اختصارها ولكنه كما نرى اختصار مُخِلّ مبهم في كثير من جوانبه)[٤٢٥] .

وإذا عدَدْنا هذه المقدمة أول كتاب تيسير في النحو، فإنه مختصر يطلب فيه الخفة بتسهيل الحفظ ، على أصول المبتدئين ، وقصَد الأحمر بالأصل : الأساس والقواعد والمبادئ وحقول الرفع والنصب والجر والجزم وليس أدلة النحو، ثم ذكر الأدوات والعوامل المباشرة الظاهرة وهذا هو تيسيره .

واعتُرِض على نسبة هذه المقدمة إلى خلف الأحمر، لأنه لم يُنسبْ من ترجم إليه كتاب بهذا الاسم ، وادُّعِيَ أنها لا تناسب زمن الأحمر ومرحلته ، وعبارات الأحمر في أوّل هذا المقدمة تتحدّث عن مطوّلات نحوية فيها كثرة العلل في قوله : (لمّا رأيت النحويين وأصحاب المطوّلات قد استعملوا التطويل وكثرة العلل وأغفلوا ما يحتاج إليه المتعلّم المتبلغ في النحو من المختصر والطرق العربية ، والمأخذ الذي يخفّ على المبتدئ حفظه ، ويعمل في عقله ، ويحيط به فهمه ، فأمعنت النظر والفكر في كتاب أؤلفه وأجمع فيه الأصول والأدوات ، والعوامل على أصول المبتدئين، ليستغني به المتعلّم عن التطويل، فعملت فيه هذه الأوراق)[٤٢٦].

---

[٤٢٤] مقدمة في النحو المقدمة .

[٤٢٥] العربية وعلم اللغة البنيوي ٥٢ .

[٤٢٦] مقدمة في النحو ٣٤ .

ولم تصلنا هذه المطولات ، لكنَّ العبارات والعنوانات والمصطلحات في المقدّمة لا تنتسب إلى ما في كتاب سيبويه ، أمّا الردّ على الشبهات فكان في تحقيق (كتاب الجمل في النحو المنسوب للخليل بن أحمد ـ دراسة تحليلية) ، للدكتور محمد إبراهيم عبادة ، الذي فنّد هذه الشبهات وأثبت أنّ الجمل والمقدمة صحيحان في نسبتهما إلى الرجلين استنادًا إلى توثيق آراء الخليل في كتاب العين ، وصداها في كتاب الجمل ؛ وقد وفّق المُؤلِّف في تفنيد مضامين التشكيك ، وأنّ الانبهار بكتاب سيبويه الذي أخذ بَريقَه بأبصار بعضهم ، وصرفهم عن كلّ المحاولات التي سبقته ، والتي توارت وتضاءلت في ظلِّ المؤلفات التي أعقبت كتاب سيبويه واستولى عليها شرحًا وإعجابًا ونقدًا[٤٢٧] .

فـ(مقدمة في النحو) بحسبِ المحقّق كتابٌ نحويّ تتألّفُ مخطوطته من سبع عشرة صفحة ، واضحة مصفّاة معقولة خالية من التأويل والتعليل ، تَبيّنَ فيها الرفع والنصب والجر والجزم ، إذ كانت قريبة من تفكير المبتدئ ، خالية من الصعوبة ، كيف لا يكون ذلك كذلك ؟! ومُنشِئُهُ خلف الأحمر، أعلم الرواة بالشعر ومعانيه ، يقولُ محقق نسخة الكتاب (إنَّ لغته على الظنّ الغالب هي لغة عصر خلف الأحمر ...)[٤٢٨] .

ويستشهد المحقّق نفسه لأسلوب مخطوطة (المقدمة بالدكتور محمد الفحام الذي يُعجب بسلاسة عباراتها وفرط سهولتها ، التي تستقي من منهل القرن الهجريّ الأوّل ، فلا يختلف بعضها عن بعضٍ كثيرًا ، وهذا ما أكّده الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، الذي قال : وإنّي لأشارك الدكتور الفحام في رأيه ، وإنّ هذه المقدمة من أسهل ما صنّف للمبتدئين ، وللأستاذ أحمد حسن الزيّات أيضًا شهادة يقول فيها : (هذا هو النحو قبل أن يفلسفوه) [٤٢٩] .

وإن وازنّا بين كتاب الجمل في النحو المنسوب للخليل بن أحمد الفراهيدي ومقدّمة خلف الأحمر فسنجد أنَّ كتاب الجمل الذي كانت عدد صفحاته أربعة أضعاف صفحات المقدمة ،

---

[٤٢٧] كتاب الجمل في النحو ٦ ، مقدمة في النحو ١٤٤ . ١٤٥ .

[٤٢٨] مقدمة في النحو ٤ .

[٤٢٩] المصدر نفسه المقدمة ٥ . ٦ .

يوزّع الأبواب على الرفع والنصب والجر والجزم ، فبعد أن ينتهي من هذا التوزيع يتبعه بالألفات واللامات والهاءات والتاءات والواوات واللام ألف وما والفاءات والنونات والباءات والياءات ... إلخ ، فلو أخذنا الرفع في مقدّمة خلف الأحمر على سبيل المثال فلا نجده في موضع واحد، إذ نجد أنّ باب الحروف التي ترفع كلَّ اسمٍ بعده ، وباب وجوه الرفع ، وباب ما ينصب ويرفع ، وباب ما يرفع وينصب ، وباب حروف الإشارات وهي حروف الرفع ، وباب الحروف التي تقتضي الفاعل ، وباب التحقيق وهو رفع يسميه الكوفيون : الإيجاب : ما جاءني إلّا زيدٌ[٤٣٠] .

ومن التشابه بين الكتابين المذكورين ، فـ"باب التحقيق" في مقدمة خلف الأحمر، وإلّا التحقيق في الجمل في النحو، لا رجلَ إلّا زيدٌ رفعت "زيدًا" على التحقيق[٤٣١]... يقول محقق المقدّمة : إلّا المحقّقة ، وهو باب الاستثناء المفرّغ[٤٣٢] ، ونقول : إنّ هذا المصطلح من استعمال ما قبل كتاب سيبويه ، والمُستحدث من آثار العامل فالمستثنى إمّا أن يتفرّغ له العامل بأن يقع فاعلًا أو مفعولًا وغير ذلك ، نحو : ما جاءني إلّا زيدٌ، فهو يُعربُ بحسب العوامل ، وهذا هو الذي درج على تسميته النحاة فيما بعد "الاستثناء المفرّغ" ، وإمّا لا يتفرّغ له ، فهو إمّا أن يكون في كلام موجب فينصب ، وإمّا في كلام منفي ويكون مؤخرًا فينصب أيضًا في لغة أهل الحجاز، وإلّا فيجوز جعل إلّا عاطفة[٤٣٣] .

و(مقدّمة في النحو) كتاب مختصر من المرحلة المتقدّمة التي سبقت كتاب سيبويه ، يختلف عن المختصرات اللاحقة لهذا الكتاب ، من التي جاءت بعده ، فلا يلخّص فيه خلف الأحمر كتابًا من مرحلة التنظيم التي جاءت بعد كتاب سيبويه ، ولا يتحدّث إلاّ عن جداول الإعراب وخاناته ، وفي هذه الجداول بيان لوجوه الإعراب ، وفيها عرضٌ لما يتركب من الكلمات ، أساسه الضبط الإعرابي لهذه الكلمات ، فيكون الجدول الواحد دليلَ الباب الذي

---

[٤٣٠] مقدمة في النحو ٨٠ .

[٤٣١] ٢٩٧ . ٢٩٨ .

[٤٣٢] هامش مقدمة في النحو ٨٠ .

[٤٣٣] الموفي في النحو الكوفي ٦٩ . ٧١ .

يتضح منه وجه الإعراب ، لما تركّب مع هذه الكلمات ، ويتبين ذلك من أبواب المقدمة نفسها ، بدءًا من ذكر مجموعات الإعراب ، (الرفع والنصب والجرّ والجزم) ، وتكون الأبواب بعددها ، وهي : باب الحروف التي ترفع كل اسم بعدها ، وباب الحروف التي تنصب كلّ شيء أتى بعدها ، وباب الحروف التي تخفض ما بعدها من اسم ، وباب حروف الجزم ، ثمّ يعرض هذه الأبواب مرة أخرى ، لكن بتفريع وتفصيل ، أي إلى أجزاء مفصلة : هي باب وجوه الرفع ، وباب وجوه النصب ، وباب تفسير الستة أوجه التي ترفع ، وباب تفسير النصب ، وباب الخفض ، وباب إنّ وأخواتها ، وباب كان وأخواتها ، وباب حروف الإشارات وهي حروف الرفع، باب الحروف التي تقتضي الفاعل ، باب الحروف التي تقتضي المفعول ، وباب الجواب بالفاء في باب (أنْ) ، وباب الحروف التي تنصب الأفعال ، وباب الحكاية على قَدْرِها أن تكون من الرفع أو النصب أو من الخفض ، وباب النداء ... وباب الاستثناء، وباب التحقيق وهو رفع كله: تقول ما جاءني إلا زيدٌ ترفعه بفعله ، باب التحذير والإغراء وهو نصب كله ، وباب منذ تخفض بها كل شيء ، وباب مذ ، وباب حروف النسق ، وباب ما لا ينصرف ... فعلان ... مفاعيل ... فعلاء ، وباب ربّ وكم[٤٣٤] .

أمّا توزيع موادّ كتاب خلف الأحمر على مجموعات فالمجموعة الأولى : (باب الحروف [الكلمات] التي ترفع كل اسم بعدها) ، وهذه الحروف هي الكلمات المؤلفة من حروف مفردة كـ: (هل) ، و(بل) ، و(حتّى) ، و(إنْ) ، و(لكنْ) ، و(لو) . أو حروف مركبة مع غيرها ، مثل : (إنّما) و(كأنّما) و(بِكَم) و(لِمَن) . أو أسماء ، مثل : (هو) ، و(أين) ، و(حيثُ) ، و(متى) ، و(كم)، و(ذاك)، و(أولئك)، و(نحن)... إلخ، أو أفعال، مثل : (حبذا)، و(نعم) ، و(بئس)[٤٣٥] .

---

[٤٣٤] مقدمة في النحو ، المقدمة .

[٤٣٥] المصدر نفسه ٣٦ ـ ٤٠ .

أمّا المجموعة الثانية فـ (... التي تنصب كلّ شيء أتى بعدها) ، وهذه (الحروف) الكلمات هي أفعال متعدّية ، إلى مفعول واحد أو مفعولين ، لكنّ المؤلّف لم يَقُلْ تنصب كلّ اسم بعدها ، بل (كلّ شيء) ، ولم يستعمل مصطلح المفعول[٤٣٦] ، ممّا يدلّ على ما ذكرنا في الفِقرة السابقة .

وأمّا المجموعة الثالثة : فـ (... التي تخفض ما بعدها من اسم) ، وهو باب حروف الجرّ والإضافة ، وسمّاها الأحمر (حروف الصفات) ، يريد بها الجار والمجرور معًا ، أو المضاف والمضاف إليه ، ويتضح ذلك من الأمثلة التي ضربها ، وعدّت (الصفة) فيما بعد من المصطلحات الكوفيّة ، وليس هذا المصطلح كوفيًّا مستقرًّا دالًّا على شيء واحد ، بل مختلفًا فيه بين الكوفيين أنفسهم ، إذ قد يريدون به : حرف الجر وحده ، أو الجار والمجرور معًا ، أو المحل: ظرف المكان ، أو الزمان والمكان كليهما[٤٣٧] ، فقد استعمل الأحمر مصطلح الخفض ، وهو للمنوّن من المجرورات عند الخليل ، وربما وجده الخليل والأحمر عند من سبقهما ، فكان هذا المصطلح موجودًا قبلهما فاستعملاه ، واستعمله أيضًا المبرد وغيره لاحقًا[٤٣٨] .

وأمّا المجموعة الرابعة : فـ (باب حروف الجزم) ، وفيه جمع الأحمر بين الجازم والمجزوم ، والمبني والمعرب ، بأداة جزم أو من دونها ، في قوله : (وهي : لم ولمّا وألم وألمّا، أوَلم وأفلمّا ، والأمر والنهي مجزومان أبدًا ... وتقول في نحو منه : لم أقُلْ لك ، وألم أقل لك ، وألمّا يكنْ وأفلمّا أعهد إليكم ، قال الله في كتابه العزيز : ﴿ألمْ أعهدْ إليكم ـ يس ٦٠﴾ ، جزم (أعهد) بِـ (ألم) ، وقال في باب الأمر : ﴿ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ـ القصص ٧٧﴾ فجزم ما أمر.

وعَدَّ القوزي أنّ هذا الجمعَ كان جمعًا ساذجًا ، في قوله : (إذا كان هذا الخليط الذي جمع الحروف إلى الأسماء ، إلى الأفعال وأعملها جميعًا في نظام واحد قد وقع في زمان خلف

---

[٤٣٦] المصدر نفسه ٤١ ـ٤٢ .

[٤٣٧] معاني القرآن ، للفراء ١ /٢ ، ٢٨ ، ١١٩ ، ٢٤٥ ، شرح القصائد السبع ٣٠٣ ـ ٣٠٤، مجالس ثعلب ٤٧١/٢ ، والإنصاف في مسائل الخلاف ٥١/١.

[٤٣٨] المقتضب ٥٧/٣، ٦٠ ـ ٦١، ٣٥٤، ومجالس العلماء ٢٥٣، وشرح المفصل ١٢٤/٢، ومدرسة الكوفة ٣٥٥ ـ٣٥٦.

الأحمر فماذا نتوقع أن يكون الحال عليه عند أبي الأسود ؟ ! إنه أكثر سذاجة بلا شكّ)[٤٣٩] ، ومثل هذا الرأي يؤكّد ما ندّعي ، من قدم هذه (المقدّمة) ، ومن انتمائها إلى مراحل مبكّرة ، ومن ثَمّ صحّة نسبتها إلى الرائد خلف الأحمر .

ونجد أنّ الأبواب العامة عند خلف الأحمر على سبيل التقريب ، هي أبواب أبي الأسود الدؤلي ، والتفريع تفريع من جاء من بعده ، ظهرت هذه التفريعات في هذا الكتيّب ، يسيرة من دون تعليل متعسف ، ولا تأويل بعيد ؛ بل لإظهار أجزاء ما يقع تحت الرفع أو النصب أو الجرّ أو الجزم .

ويحقُّ لنا أنْ نقرّر أنّ منهج تأسيس النحو العربيّ منهج علميٌّ مُستنبط من واقع لغويّ، استند إلى المحسوس المُدرك بالسمع والنطق والكتابة ، واتّصل بتداول القرآن الكريم ، واتصل أيضًا بتمييز دلالة المفردات والتراكيب والأساليب ، حتى اكتمل لاحقًا باكتشاف منظومة الإعراب ، الإعراب لوصل الكلمات ، وللمعاني المختلفة التي يظهرها اختلاف الإعراب ، والإعراب اللفظيّ الذي يُراد به مجرّد التفتيش عن عامل الرفع أو النصب أو الجرّ أو الجزم الموجود ، وربما المتصوّر لوظيفة الكلمة أو لموقعها من التأليف .

ولم يكن النحو علمًا مستقلاً عن البيئة العامة ، فقد عمل النحويون القدماء على تقعيد اللغة الموجودة في التداول، وعلى الرغم من انتماء النحو لبيئته العربية إلاَ أنَّ النحاة افترضوا إمكانية الجدل إذ وجدوا في اللغة نفسها اختلافًا في الاستعمال، فضلاً عن القياس الذي وضعوه، فتطابق بعضه مع لغة العرب، وخالف بعضه الآخر، وقد بدأ النحو مبكرًا وسار بخطوات مرحلية، وصولاً إلى كتاب سيبويه الذي تسلم قياده في كتابه الخالد، فقد اعتاد العرب على اللغة وتعاملت معها بسجيتها وكان تتحدث بالفصاحة بسلامة السليقة قبل أن يبدأ اللحن[٤٤٠] ، وهو ما ذكره باحثنا الدكتور مستدلاً بما ورد عن الخليل ، في قوله (عندما سُئلَ أعن العرب أخذت هذه العلل أم اخترعتها من نفسك؟ فأجاب: "إنَّ العرب نطقت على سجيتها

---

[٤٣٩] المصطلح النحوي ٣٧ ـ ٣٨ .

[٤٤٠] الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ٥ . ٦.

وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله وأن لم يُنقل ذلك عنها، وعلَّلتُ بما عندي أنَّه علَّة لما علَّلته منه فإن أكن أصبت فهو ما التمست، وأن يكن هناك علَّة غير ما ذكرت، فالذي ذكرته محتمل أنَّها علَّة")[٤٤١] .

لكنّ المؤلّفات النحويّة التي تظهر التفكير قبل الخليل كانت قد فُقِدت ، أو أهملت مثلما عرضنا ، ويؤيّد ما نزعم ربط الباب النحوي بالضبط الذي يُنسب إلى أبي الأسود ، أمّا لماذا أُهمِلَت هذه المختصرات ؟ فلانبهار تلاميذ سيبويه (وحواريّيه بكتابه ، فأخذ بريقه بأبصارهم ، وصرفهم عن كلّ المحاولات التي سبقته ، فتطامنت تلك المصنفات ومن بينها كتاب الجمل للخليل ، وتنَحّتْ عن حَيْدِ الطريق ، وتوارت تحت ركام مصنّفات النحو التي أعقبت كتاب سيبويه شرحًا له ونقدًا ؟ أو شدّ كتاب العين للخليل بن أحمد العيون واستولى على الفكر وكثر حوله الجدل فتضاءل كتاب الجمل أمام معجم العين شأنه في ذلك شأن ما نُسِبَ للخليل من مصنّفات ، وضاع في الزحام؟)[٤٤٢] .

وعلينا أن نذكرَ أنَّ لخلف الأحمر الريادة في النحو وفي تأسيس منهج السماع ، ولاسيما سماع شعر الجاهليين والإسلاميين ، فكان أوّل من أحدث السماع بالبصرة ، وله في تقديم السماع المباشر ما مكّنه من تصحيح ما يصدر عن المنشدين من التصحيف ، فكانت له مواقف تشهد له بالتفوّق ، على علماء عصره ومنهم شيخه أبو عمرو بن العلاء .

ذلك لأنه أخذ اللغة من أهلها ، ومن رواتها بعد أنِ اتّصلَ بأجواء الفصاحة ، وكذلك من العلماء بها ، فضلاً عن مواهبه الشخصية التي مكنته من النقد والتمييز، فكان العالم الضليع والعارف بدقائق هذه اللغة الكريمة .

---

[٤٤١] الإيضاح في علل النحو ٦٥-٦٦، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٨.

[٤٤٢] كتاب الجمل في النحو ٨ .

المبحث الثالث : سيبويه ونضج النحو واكتماله

كانت ولادة النحو الأولى ولادة الآليات الدقيقة ، التي لبّت حاجة البيئة العراقيّة البصريّة من التمكن من اللغة العربية في ذلك المقطع المبكّر من الزمان ، وتدبير ما ظهر من غلط في استعمالها ، استنادًا إلى آلية محكمة تمنع من التوهّم في النّطق الصحيح لحروف القرآن الكريم وكلماته وجمله ، ذلك ما جاء في الروايات التي تشير إلى الحاجة إلى ضبط الكلمات الملحونة، وهذا الضبط (أو نقط الإعراب) هو ما أدّاه أبو الأسود الدؤلي ، ونفّذه على المصحف الشريف، والذي آل إلى تثبيت منظومة الإعراب الأولى مثلما عرض باحثنا ؛ ذلك استنادًا إلى ما كان يُتداول من حكايات اللحن ، التي تُعَدُّ العامل الذي سرّع في تلبية حاجة متداولي لغة القرآن الكريم ، وهي الملاحظات الصوتيّة الكتابيّة التي نبّهت عليها طريقة ضم الشفتين بالحرف ، أو فتحهما به ، أو كسرهما ... وكذلك ما اتّصل بالغلط بما يُروى من مثل : ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ـ براءة ٣﴾ ، (حتى قال الأعرابيّ : بَرِئت من رسول الله ، فأنكر ذلك عليّ عليه السلام، ورسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه : ما لا يجهل موضعه)[٤٤٣] ، وارتبط تأسيس النحو بمعرفة الفارق بين اختلاف الضبط النطقي باختلاف الدلالة .

لكن لا نَدَّعِي لما تحقّق أكثر ممّا كان ، في تلك المرحلة من مراحل تأسيس النحو العربي ، التي بُذِرت فيها البذور الصالحة ، وارتُجِلتْ فيها الآراء التأسيسية السديدة التي صارت تنمو وتترقّى مرحلة بعد أخرى .

لذلك نقول : إنّ تلامذة أبي الأسودِ الدؤلي وتلامذة تلامذته ، كانوا قد أكملوا في نحو قرن من الزمان بناء منظومة الإعراب ، وأتمّوا ما كان قد بُدِئَ به في مرحلة التأسيس ، وقد تدبّروا أثر الضبط في ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه ، وجُمَلِهِ ونصوصِه، وشُغِف هؤلاء التلاميذ بما جاءت به أحاديث التأسيس ، وانشغلوا بما نبّهت عليه ، بل أُخِذوا بتفسير دقائقها ، على مدى عقود هذا القرن .

---

[٤٤٣] الخصائص ٢/١٠ .

وقد كبُرت الأبواب التي بدأت يسيرة ، لا تتعدّى مقابلة علامات الضبط لأبواب النحو الأولى ، تلحظُ رفع الأسماء ونصبها وجرّها ؛ إذ فُرِزَ بحسبها انتظامِ الظواهر اللغوية ، والفروق اللفظية والمعنوية بين الكلمات والجمل ، بَدءًا من تأسيس دستور النحو وأسسه الثابتة السبعة المُشار إليها في نصوص التأسيس الأولى : الاسم ، والفعل ، والحرف ؛ والرفع ، والنصب ، والجرّ، والجزم ؛ بل العشرةِ التي يزاد عليها : الفاعل والمفعول والإضافة ، فضلًا عن الأساليب التعجب والنفي والاستفهام، ومن الجميع وفي ضوئها ، وبما يتصل بها انطلقت نشاطات لغوية واسعة ، تخلُصُ إلى ضبط بنية الكلمة وتأليف جملتها ، وتغيّر ضبطها أو إعرابها ، وكان كلّ هذا من صميم عمل (أهل القرآن) وخاصته .

ونذكر . على سبيل المثال . ما عابه نافع بن أبي نعيم أستاذه عبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت ١١٧هـ) تلميذَ أبي الأسود، على قراءته لقوله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ـ المائدة ٥٠﴾ بالنصب وهي قراءة الجمهور[٤٤٤] ، (قال الأعرج : لا أعرف في العربيّة (أفحكمُ)، وقرأ: "أفحكمَ" نصبًا)[٤٤٥] ، لأنَّ (مدلول النحو كان في ذهن نافع مرتبطًا بقراءة القرآن ، وإنّ هذا العِلمَ ضروريٌّ لمن يتصدّى لقراءة القرآن ولا يمكن أن يكون النحوُ في هذا الوقت مقصورًا على الأبواب التي وضعها أبو الأسود لأنها لا تفي بحاجة القراء إلى معرفة وجوه القراءات من الوجهة النحوية ، فلا بدّ إذن من أن تكون هناك محاولات أخرى قام بها تلاميذ أبي الأسود وقد نَمَتْ هذه المحاولات وارتبطت بأصول تصون النصوص القرآنية في مجال القراءات من التصحيف والتحريفات ، ومن هنا صَحّ لنافع أن يقول في أستاذه : إنه لم يكن عالمًا بالنحو)[٤٤٦] .

ويخلص باحثنا الدكتور إلى أنّ كتاب سيبويه مرحلة جديدة ، خالفت ما قبلها في تغيير منهج النظر إلى بناء منظومة الإعراب ، استنادًا إلى ما توافر لنا من ممكنات التمييز بينه وبين

---

[٤٤٤] المحرر الوجيز ٢٠٢/٢ .

[٤٤٥] المحتسب ٢١١٨/١ .

[٤٤٦] الحلقة المفقودة ٥٧ .

ما قبله ، وكذلك مرحلة جديدة في التفكير الواسع في العامل، الذي سبب ظهور العلامات الإعرابيّة ، وفي التقسيم والتبويب والتحديد، والتعليل ، والتقدير... إلخ ، في حين كان أثر مرحلة التأسيس الأولى إلى ما قبل ظهور الكتاب ، أقرب ما تكون إلى توزيع الضبط الإعرابي على حقول الضبط الأربعة، وهي الأبواب التي تنسب إلى مرحلة انبثاق أفكار تأسيس النحو الأولى ، وهي الأبواب التي تقابل علامات الضبط مثلما عرضنا سابقًا ، الفتحة من فتح الفم بالحركة، والضمّة من ضمّهِ ، وهكذا الكسرة ، ولا حركة للوقف أو السكون . هذا يعني أنّ المؤلفين في مرحلة ما قبل كتاب سيبويه يصدرون عن منهج مختلف ، وكانوا لا يعبّرون عن التنظيم الذي جاء به الكتاب ، ولا يستعينون بالعبارات نفسها ، فلننظر مثلاً إلى نصٍّ يُنسب إلى ما قبل كتاب سيبويه : (علامات الجزم خمسٌ : السكون ، والضمّة ، والكسرة ، والفتحة ، وإسقاط النون ، فالسكون : لم يخرجْ . والضمّة : لم يدْعُ ، ولم يغزُ . والكسرة : لم يقضِ ، ولم يرمِ ؛ والفتحة : لم يتهادَ ، ولم يتصابَ . وسقوط النون : لم يخرجا في الاثنين ، ولم يخرجوا في الجميع)[٤٤٧] .

واللافت أنّ سيبويه لا ينسب ما جاء في الصفحات الأُول من كتابه ، إلى أحد ممّن سبقه ، حتى نحو ستين صفحة ، من طبعة هارون ، على أنه ينسب الآراء لأصحابها في كتابه فيما بعد ، وكانت أول إحالة أحالها ، قوله : (هذا باب ما يعمل عمل الفعل ولم يجرِ مجرى الفعل ، ولم يتمكن تمكنه ، وذلك قولك : ما أحسن عبدَ الله ! زعم الخليل أنه بمنزلة قولك : شيء أحسن عبدَ الله ، ودخله معنى التعجب . وهذا تمثيل ولم يُتكلم به)[٤٤٨] .

فإمّا أنْ يكون هذا الذي يعرضه من مقدمات في الصفحات الأُول من كتابه موجودًا بين يديه ، موضوعًا قبل كتابه ، من المرويّ المعروف المنتقل من مرحلة التأسيس وما بعدها إلى سيبويه ، وقد استقرت هذه المقدّمات على ما هي عليه ، وتسليم سيبويه لها، واقتناعه بانّها شائعة غير منسوبة ، فلو كانت منسوبة لنبّه على ذلك ، مثلما فعل في نسبة غيرها إلى

---

[٤٤٧] كتاب الجمل في النحو ١٩٠ .

[٤٤٨] كتاب سيبويه ٧٢/١ .

أصحابها في كتابه[٤٤٩] ، وإمّا أن يكون سيبويه قد ابتدعها على غير مثال سبقه فيها ، أو ربّما أخذ بعضًا ممّا كان موجودًا قبله ، وترك بعضًا ، أو أن يكون قد أعاد تنظيم عرض ما وجده ، على وفق وجهة جديدة وبناء جديد ناسب كتابه ، وهذا ما نرجحه ، لكن لا يستطيع أحدٌ تمييزَ هذا الذي له من ذاك الذي ليس له ، لفقدان المصادر المهمة لمرحلة ما قبل كتاب سيبويه .

لذلك نرجّح أنّ إعادة عرض سيبويه مقدّمات النحو وغيرها على وفق منهج كتابه ، وقد خلط ما له وما ليس له ، أو أنّه أقرّ بما وجده من المتعارف عليه قبله ، (وأنت ترى كيف قسّم الكلمة بمصطلحات من الواضح أنها استقرت في الدرس النحوي ما قبل تأليف الكتاب ؛ وسيبويه لم يُعنَ كثيرًا بتعريفها ، لأمر قد يرجع إلى تركزها في الدرس النحوي ، بحيث أصبحت من بديهيات العلم فلا حاجة لتعريفها . أو لعله اكتفى بتعريفها من خلال الأمثلة التي ضربها لكلّ قسم)[٤٥٠] .

فأقسام الكلام كانت قد (استقرت في الدرس النحوي ما قبل تأليف الكتاب؛ وسيبويه لم يُعْنَ كثيرًا بتعريفها ، لأمر قد يرجع إلى تركزها في الدرس النحوي ، بحيث أصبحت من بديهيّات العلم فلا حاجة لتعريفها؛ أو لعلّه اكتفى بتعريفها من خلال الأمثلة التي ضربها لكلّ قسم) [٤٥١] ، ولم يزد عدد أسطر الكلام عن هذه الأقسام في الكتاب طبعة بولاق على سبعة أسطر[٤٥٢] .

لكنّ سيبويه جعل العلامات ثمانية ، وهي أربعة عند من سبقه ، ليفرق في التسمية بين علامات الإعراب ، للمعرب المتغير ، وعلامات بناء الثابت على حركة أو سكون ، وجَعل تسمية حركات البناء الثابتة التي لا تزول غير تسمية حركات الإعراب ، فالفتح والكسر والضم والوقف لحركات البناء ، لأنها مبنيّة وليست حركتها من عامل سبّبَ التغيير ، فيما سمى

---

[٤٤٩] أهل القرآن وتأسيس النحو .

[٤٥٠] الإعراب المحلي ٤٨ .

[٤٥١] المصدر نفسه ٤٧ . ٤٨ .

[٤٥٢] كتاب سيبويه غ . م ١ / ٢ .

حركات الإعراب التي تزول وتتغير: النصب والجر والرفع والجزم[٤٥٣] ، في تقسيم جديد ، لا ينتمي إلى مرحلة التأسيس .

وقد غلّب المتغير على الثابت وشمله بحكمه ، وكان هذا هو الأصل ، الذي انطلق منه النحو العام في كتاب سيبويه ، بعد اكتمال منظومة الإعراب والقواعد حتى ذلك الحين .

والمعروف أنّ الضبط الإعرابي هو الإتيان بالحركة ، التي ترافق الحرف الأخير، حرف الإعراب من الكلمة ، لكنّه انتقل إلى تخيّل هذا الإتيان والمرافقة ، للذي لا يتغير بحسب المعاني المختلفة ، فالإعراب (في اصطلاح النحويين تغير آخر الكلمة لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظًا أو تقديرًا)[٤٥٤] ، وقد جُعِلَ المبنيّ معربًا في الفرضيّة والتخيّل ، على الرغم من أنّه قسيم المعرب ومخالفه .

في حين يتوسّع سيبويه نفسه في إدراج ما يدخل تحت التقسيم إلى المبني والمعرب ؛ ما يزيد على أربع صفحات من طبعة بولاق وعشر صفحات من طبعة هارون ، فيجعل التقسيم على ثمانية مجارٍ مختلفة : أربعٍ منها للإعراب ، الذي يتغيّر بحسب العوامل ، وأربعٍ للبناء الذي لا يتغيّر، ولا يتأثّر بما يدخل عليه من عوامل ، في قوله : (هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية ، وهي تجري على ثمانية مجارٍ: على النصب والجر والرفع والجزم ، والفتح والضم والكسر والوقف ... إلخ)[٤٥٥] . فاستقر المتغير (المعرب) عند سيبويه بالسّبب (لما يحدث فيه العامل) ، والثابت المبني الذي لا ترتبط حركة آخره بعامل ، قال سيبويه : (ما يبنى عليه الحرف بناءً لا يزول عنه لغير شيءٍ أحدث ذلك فيه من العوامل)[٤٥٦] .

وهذا تفريع جديد ، لا ينتمي إلى مرحلة التأسيس، إذ قسم سيبويه الكلمات في الجمل على مجموعتين مختلفتين : مجموعة ثبات أواخر الكلمات في قوله : (ضَرْبٌ ... يُبْنَى عليه

---

[٤٥٣] كتاب سيبويه ١٣/١ .

[٤٥٤] شرح جمل الزجاجي ١٠٢/١ .

[٤٥٥] كتاب سيبويه ١٣/١ ، وط بولاق غ . م ١/ ٣ . ٧ .

[٤٥٦] كتاب سيبويه ١٣/١.

الحرف بناءً لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل ... ومجموعة متغيّرة الأواخر لعامل سبب النصب والجرّ والرفع والجزم . في قوله : "ضَرْبٌ ... لما يُحدِثُ فيه العامل وليس شيء منها [من حركات الإعراب] إلاّ وهو يزول عنه ... وحروف أواخر الكلمات المعربة سماها "حروف الإعراب للأسماء المتمكنة وللأفعال المضارعة لأسماء الفاعلين) [٤٥٧] .

وقد أسّس سيبويه . ومن معه . بهذا التأسيس لتقسيم منظومة النحو التي وصلت إليه ، وقد زاد بنهجه الجديد على من سبقه مُتخذًا تعليلًا تنظيريًّا عامًّا محكمًا للبناء والإعراب ، لا يخرج عنه أيّ جزءٍ من أجزاء الكلام ، أساسه الأصل والمشابهة ، يوظفان في التعليل للعامل ، فتتبادل الأفعال والأسماء الشبه تسويغًا وتعليلًا للعمل والبناء وتغيّر الأواخر في هذا النظام الذي يفترضه، أو قل يفرضه في كتابه ، وهو: الحروف مبنيّة في الأصل (التي ليست بأسماء ولا أفعال) [٤٥٨] ؛ والأسماء مبنيّة لمشابهتها الحروف (للأسماء غير المتمكنة) [٤٥٩] ، والبناء (للأفعال التي لم تجرِ مجرى المضارعة)[٤٦٠] ، ومُنِعَ الاسمُ من التنوين لثقله شبهًا بثقل الفعل ، فهي لشبهها هذا غير متمكّنة من الاسمية (ما ضارع الفعل المضارع ... أجري لفظه مجرى ما يستثقلون ومنعوه ما يكون لما يستخفّون ... فيكون في الجرّ مفتوحًا ...)[٤٦١] ، والأصل في الاسم الإعراب ، و(التنوين علامة للأمكن عندهم ، والأخف عليهم ، وتركه علامة لما يستثقلون) [٤٦٢] . (فجميع ما يترك صرفه مضارع به الفعل ، لأنه ليس له تمكّن غيره ، كما أنّ

---

[٤٥٧] كتاب سيبويه ١٣/١ .

[٤٥٨] المصدر نفسه ١ / ١٥ .

[٤٥٩] المصدر نفسه .

[٤٦٠] المصدر نفسه .

[٤٦١] المصدر نفسه ٢١/١ .

[٤٦٢] المصدر نفسه .

الفعل ليس له تمكن الاسم)[٤٦٣] . وإعراب الأفعال المضارعة لمشابهتها الأسماء المعربة (ضارعت أسماء الفاعلين ... ضارعت الفاعل لاجتماعهما في المعنى)[٤٦٤] .

فراح سيبويه يعيد تنظيم النحو مستندًا إلى التسبيب للبناء والإعراب ، بِحَسبِ أقسام الكلام ، استنادًا إلى ما افترضه من أصل وفرع ، فيعلّلُ للمخالف لبابه ، بمشابهة مخالفه ، ويفسّر بحسب ما يكون نظيره ، ولما وجده مضبوطًا بعلامات الضبط .

وقد فتح . بتوجيهه هذا . بابًا للتقدير، وللإعراب الظاهر والمحلّي استنادًا إلى التعليل بالمشابهة والأصل والفرع ، وسمّى العلامات بثماني تسميات ، وكانت في الأصل أربع علامات أو تسميات ، ليفرق في التسمية بين علامات الإعراب للمعرب المتغير، وعلامات بناء الثابت على حركة أو سكون ، وجعل تسمية حركات البناء الثابتة التي لا تزول غير تسمية حركات الإعراب ، فالفتح والكسر والضم والوقف لحركات البناء ، لأنها مبنيّة وليست من عامل سبّبَ التغيير، فيما سمى حركات الإعراب التي تزول وتتغير : النصب والجر والرفع والجزم[٤٦٥] في تقسيم جديد، لا ينتمي إلى مرحلة التأسيس .

ونخلص إلى أنّ كتاب سيبويه مرحلة جديدة في النظر إلى بناء منظومة الإعراب ، منظومة جديدة في التفكير في العامل الذي سبب ظهور العلامة ، وفي التقسيم والتبويب والتحديد ، والتعليل ، والتقدير، والتأويل ... إلخ ؛ في حين كانت مرحلة التأسيس إلى ما قبل ظهور الكتاب عبارة عن توزيع أبواب الضبط على حقول الضبط الأربعة ، الفتحة والضمّة والكسرة والوقف . لكن هذا لا يعني أنهم لا يفرّقون بين ما كانت علامته ثابتة أو متغيّرة ، لكنهم لا يعبرون عن كلّ ذلك بالعبارات نفسها التي جاءت في كتاب سيبويه .

ولإظهار أهميّة المنهج الذي ابتدعه سيبويه قال الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح : (إنّ ما لجأ إليه النحاة العرب القدامى أمثال الخليل وسيبويه بصفة خاصّة من الوسائل العقليّة

---

[٤٦٣] كتاب سيبويه ١ / ٢٣ .

[٤٦٤] المصدر نفسه ١/ ٢١ .

[٤٦٥] المصدر نفسه ١٣/١ .

ووسائل البحث عامّة هو شيء اختصّ به هؤلاء النحاة وانفردوا به ، وهذان العالمان الجليلان [الخليل وسيبويه] بصفة خاصّة مع بعض العباقرة الذين سبقوهما وتلوهما ؛ لأنّه لا يوجد ما يماثله تمامًا ، لا عند علماء اللغة السنسكريتية الهنود ممن ظهر قبل المسيح وبعده ، ولا عند الفلاسفة والنحاة اليونانيين ، وإن كانت بعض الجوانب من طرائق التحليل عند النحاة الهنود واليونانيين قد تشبه ما استعمله العرب كالقياس والأنالوجي [قياس الشبه] ولا يطابقهما...)[٤٦٦] .

وقال أيضًا : (ونعجب لقلة من يلتفت إلى هذا الانفراد في المنهج العقلي... وكثرة من لا يتصوّر من الباحثين الغربيين أن يكون النحاة العرب اخترعوا شيئًا أبدًا . فهذه عرقيّة صرفة . وكثرة من يشكّ في وضع النحو في هذا الزمان المبكّر الذي لم يكونوا قد بلغوا بعد ـ كما يزعمون ـ المستوى من النضج الفكري اللازم لوضع منهجيّة علميّة راقية ... وإن كان يبدو معقولًا في ظاهره إلّا أنّ ما يقال من اقتباس النحاة لما جاء عند غيرهم يجب أن يقال أيضًا ، إن حصل بالفعل وفي أول نشأته ، عن العلوم الإسلاميّة الأخرى مثل الفقه الذي يقاسم النحو في لجوئه إلى وسائل عقلية ، والغريب أنّ كلّ الباحثين ... قد اقتنعوا أنّ الفقه علم عربي أصيل لم يتأثّر بما سبقه من المنطق اليوناني... مع أنّ النحو والفقه نشآ وتطوّرا في وقت واحد وتأثّر الفقه بما جاء به النحاة... وحصل التفاعل على حدٍّ سواء)[٤٦٧] .

ويقول الدكتور: إنّ سيبويه كان قد تسلّم إرثًا نحويًّا أسهم في التأسيس لكتابه ؛ لكن كان له منهجه الجديد المختلف ، وقد تعهّد الدفاع عن منظومة الإعراب وترصينها والارتفاع بها وتوجيهها وجهة أخرى غير التي كانت عليها ، فكانت في كتابه الغاية في النضج والاستواء والاكتمال والاختلاف أيضًا، بعد أن وقف مليّاً على جهود تلامذة أبي الأسود، وجهود تلامذة تلامذته ، التي لم تصل إلينا ، ولاسيما ما خالف منهج كتابه ، لأسباب كثيرة ، لذلك لم يحضَ المتخصّصون لاحقًا بتفصيل ما كان قبل الكتاب ، لأنّ العلوم لم تدوّن إلاّ بعد منتصف القرن الهجريّ الثاني ، للأسباب المعروفة ، وكذلك اختفت المدونات الهَيّنة التي طواها الكتاب خلفه ،

---

[٤٦٦] منطق العرب في علوم اللسان ٢٨ .

[٤٦٧] المصدر نفسه ٢٨ . ٢٩ .

ثم إنّ اعتماد المشافهة لما قبل الكتاب وضعف التدوين في نقل العلوم لا ينفي وجودها ، ولا يعقل أن يكون بناء كتاب سيبويه على غير مثالٍ سابق سبقه ، والخليل وسيبويه ليسا بَعِيدِينَ عن المؤسّس زمنيًّا مثلما قلنا ، فقد كانا قد تلمذا على تلامذة تلامذة المؤسس وبينهما وبين أبي الأسود جيلين من أجيال التأسيس النحوي الأوّل .

الفصل الخامس

القرآن والنحو

المقدّمة

يذكر باحثنا (أنّ البناء الفكريّ للمجتمع الإسلاميّ يدور بمدار النصّ القرآني الكريم مرجع المسلمين ودستورهم ، وبه الحجة عليهم ، وهم الذين استجابوا للاعتناء به والمحافظة عليه ، محافظة لم يَنَلْها كتابٌ آخر ، وقد نقلهم نقلة حضاريّة هائلة ، حوّل لغتهم من لغة قبائل بدويّة إلى لغة دين ودولة ، يستعملها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ؛ وكان هذا الحفظ وتيسيره قد صَدَر من النصّ القرآنيّ نفسه ، على النبيّ وعلى من تَبِعَهُ ، في قوله تعالى: "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . سورة القيامة ١٧" ، إنّ الله تعالى جامع القرآن ... وأوّلُ محافظته أن يكون مجموعًا منه تعالى)[٤٦٨] ؛ (قال ابن عباس والضحاك : معناه إنّ علينا جمعه في صدرك وتأليفه على ما نزل عليك)[٤٦٩] ، وقد (أخبره تعالى أنه يجمعه ويوضحه له)[٤٧٠] ؛ لكنّ المفسرين يقصرون الجمع على صدر الرسول وقلبه ، لتطمينه وللمسلمين من بعده عن طريقه ، واتّباع قراءته بالذهن والفكر والاستماع[٤٧١] .

ويُرَجَّحُ أنّ جمع القرآن في عهد النبي ص ضرورة منطقية من ضرورات تشكّل الأمة الجديدة ، إذ إنّه مرجعها الأول روحيًّا وفكريًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا ... إلخ ، وأدلته هي الأدلة القطعية ، ويتجلّى ذلك في كثرة حافظيه ومستظهريه ، لكنّ الحفظ في الصّدور وحده لا يؤتمن من النسيان والاشتباه والوقوع في الخطأ ، على الرغم من حمل الجميع على التقوى والأمانة والإخلاص ، لكنّ طبيعة البشر النسيان ، وسمّي الإنسان إنسانًا لكثرة النسيان[٤٧٢] ، فضلاً عن الدنوّ من الشر والابتعاد من الخير، وقد نبّه القرآن الكريم الرسول ﷺ ، وهو الصادق الأمين المبعوث رحمة للعالمين ، وحذّره على سبيل الفرض تحذيرًا وتشديدًا ، وعبرة للمسلمين ، في

---

[٤٦٨] متشابه القرآن ٧٧/٢ .

[٤٦٩] التبيان للطوسي ١٩٦/١٠ .

[٤٧٠] البحر المحيط ، غ . م ٣٨٣/٨ .

[٤٧١] معاني القرآن ، للفراء ٣/ ٢١١ ، ومجمع البيان ٥٠٤/١٠، والبحر المحيط ، غ . م ٣٨٣/٨ .

[٤٧٢] ترتيب كتاب العين ١٧٨٨/٣ .

قوله تعالى : (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه بالوتين ـ الحاقة ٤٤ ـ ٤٥")، أي (لو أنّ محمدًا صلى الله عليه تقوّل علينا ما لم يؤمر به لأخذنا منه بالقوّة والقدرة)[٤٧٣] ، فلهذه الخطورة وهذه الخِشية ، فضلاً عن عوامل التغيّر والسهو والضعف والموت والتقادم ، يُدرك من جميعها ما يؤلِّفُ هاجس الخوف على المحفوظ في الصدور؛ فكيف يُتَصَوَّرُ في زمان النبيّ ترَكُ التدوين وقد توافرت إمكانات كتابته ، ووجود كُتّابه ؟!

وإنّ وضع الخطوة الأولى في إيقاف اللحن في البصرة قد اتُّخِذت بعد اكتمال دواعي اتخاذها ، باجتماع أمير المؤمنين وتلميذه النجيب أبي الأسود الدؤلي الذي حاز على ما يؤهّله؛ لتدبير خطر داهم كان يتهدّد الاستعمال الصحيح لتداول القرآن الكريم ، ليؤدّيَ لاحِقًا تنفيذ مهمة الإصلاح وإكمالها .

ففي البصرة المكان ، وفي سنة سِتّ وثلاثين من الهجرة النبويّة الشريفة الزمان ، استجاب الإمام لما يناسب حاجة أهل البصرة بعد انتهاء معركة الجمل ، إذ بادر إلى التوجيه لما يحفظ العربية من فشو اللحن ، ولاسيّما نصّ القرآن الكريم ، فالذي نُفِّذ لاحقًا متأخّرًا هو نقط المصحف الشريف، أي وضع وحدات ضبط الحروف ، التي هي وحدات الإعراب والعربية .

---

[٤٧٣] معاني القرآن ، للفراء ١٨٣/٣ .

المبحث الأوّل : جمع القرآن بعد النبي

إنّ ابتكارَ ضبطِ المصحف الشريف آلَ إلى التفكير بأصول النحو التي كانت تعني مثلما عرضنا : المقابلة المباشرة بين الباب وعلامة ضبطه ، أي الضمّ والفاعلية ، والفتح والمفعولية ، والكسر والإضافة ، وقد وُضِع بحسب هذه الخطوة عِلْمُ العربيةِ على الطريق الصحيح ، وهذا ما يفهم مباشرة من أبي الأسود نفسه ، ويفهم من النّصوص الواردة عنه ، مثل: (أخذ أبو الأسود عن علي بن أبي طالب عليه السلام) : أو إذا سئل عن ذلك قال : (أخذته من أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام ... وأبو الأسود أول من نقط المصحف ، واختلف الناس إلى أبي الأسود يتعلمون منه العربية . وفرّع لهم ما كان أصَّلَه ، فأخذ ذلك عنه جماعة)[٤٧٤] ، وأبو الأسود أوّل من نقط المصحف في مرحلة التنفيذ في عهد متأخر عن التفكير، وكان يحتفظ به عنده قبل تنفيذه ، وهذا الضبط بالنقط هو أساس الإعراب ، والأساس بما صار يعرف لاحقًا بالصرف والنحو ... ونقل ابن النديم (عن عبد خير عن علي ع : أنه رأى من الناس طيرَة عند وفاة النبي ﷺ ، فأقسم أنه لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن ، فهو أوّل مصحف جمع فيه القرآن من قلبه وكان المصحف عند أهل جعفر؛ ورأيتُ أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رح، مصحفًا قد سقط منه أوراق بخط الإمام علي بن أبي طالب يتوارثه بنو حسن على مَرِّ الزمان)[٤٧٥] ؛ وهذه شهادة مهمة على رؤية خط الإمام في القرن الرابع الهجري ؛ وجاء في بحار الأنوار : (أهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنّه تأخر مخالفة للبيعة بل يقولون: تشاغل بجمع القرآن ، فهذا يدلّ على أنّه أوّل من جمع القرآن ، لأنّه لو كان مجموعًا في حياة الرسول ﷺ لما احتاج إلى أن يتشاغل بجمعه بعد وفاته)[٤٧٦] ؛ وفي التوجهين والرأيين انتقال الاهتمام والاختصاص من النبيّ ﷺ بحفظ القرآن والعناية بضبط قراءته ومرجعيّته إلى

---

[٤٧٤] المزهر ٣٩٨/٢ .

[٤٧٥] الفهرست ٤٤ .

[٤٧٦] ٢٣٩/١٧ .

الإمام، وهو من تربّى في حِجْره ، وأوّل من اعتقد بِهَدْيِه ، وكان معه وقد لازمه وانقطع إليه، وفي هذا إشارة كبيرة إلى ما ينتظر الإمام عليه السلام ، من واجب النهوض بهذه المهمة بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله ؛ وأوْضَحُ ما يعبّر عن أهليّة الإمام عليه السلام واستعداده لحفظ القرآن دقّة تلقّيه عن الرسول صلى الله عليه وآله ، والشاهد على مصداق هذا قول أمير المؤمنين نفسه : (ما نزلت على رسول الله آية من القرآن إلاّ أقرأنيها ، وأملاها عليّ فكتبتها بخطّي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها ، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها ، فما نسيت آية من كتاب الله ... فلم أنسَ حرفًا واحدًا ؛ ثمّ وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علمًا وفهمًا وحكمًا ونورًا ، فقلت : يا نبيّ الله بأبي أنت وأميّ : منذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنسَ ولم يَفتْني شيء لم أكتبه ، أفتتخوّفُ عَلَيَّ النسيان فيما بعد ؟ فقال لا ، لست أخاف عليك النسيان)[٤٧٧] .

ورُوي من احتجاج عليّ عليه السلام على جماعة من المهاجرين والأنصار أنّه قال : (يا طلحة إنّ كلّ آية أنزلها الله تعالى على محمد ص عندي بإملاء رسول الله ص وخطّ يدي ، وتأويل كلّ آية أنزلها الله تعالى على محمد ص وكلّ حلال أو حرام أو حدّ أو حكم ، أو شيء تحتاج إليه الأمّة إلى يوم القيامة ، فهو عندي مكتوب بإملاء رسول الله ص وخط يدي ...)[٤٧٨] .

وثبَتَ عند المفسرين ، أنّ المقصود من قوله تعالى : ("وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ـ الحاقة ١٢" أذنُ عليٍّ ، فـ "عن النبيّ ص أنّه قال لعليّ عليه السلام عند نزول هذه الآية : سألت الله أن يجعلها أذنك يا عليّ ، قال علي عليه السلام : فما نسيت شيئًا بعدُ وما كان لي أن أنسى)[٤٧٩] ، فالإمام الأذُنُ الواعية التي صبّ فيها رسول الله ص بأمر ربّه العلم صبًّا[٤٨٠] ؛ وقال رسول الله ص: (عليّ

---

[٤٧٧] أصول الكافي ٤١/١ .

[٤٧٨] البيان في تفسير القرآن ٢٢٢ .

[٤٧٩] الكشاف ١١٣٥، والمحرر الوجيز ٣٥٨/٥ ، والبحر المحيط، غ . م ٣٢٢/٨ .

[٤٨٠] مجمع البيان ٤٣٧/١٠ .

مع القرآن والقرآن مع عليّ)[٤٨١] . و(قال وهب بن عبد الله ، عن أبي الطفيل : كان علي يقول: سلوني سلوني ، وسلوني عن كتاب الله تعالى ، فوالله ما من آية إلاّ وأنا أعلم أنُزّلت بليل أو نهار)[٤٨٢] . وقال الحسن البصري في اهتمام الإمام ع بالقرآن : (أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة)[٤٨٣] . وعن ابن عباس : عِلمُ عليّ من علم النبيّ ﷺ ، وعلمي من علم عليّ؛ وكان ابن عباس يقول : (كنا إذا أتانا الثَّبَتُ عن عليّ لم نعدل به)[٤٨٤] .

فلكلّ ما تقدم كان الربط واضحًا بين النص والعناية به وتأسيس ما يَصونه من اللحن، وأنّ هذه العناية من الدِّين ومن التسديد الرباني إلى المبعوث رحمة ثمّ إلى أمير المؤمنين الواعي لروح القرآن ، (وأنّ الأصل الذي أُلقِيَ إليه من معدن العلم والنبوّة)[٤٨٥] .

وخلاصة القول : فإنّ الإمام عليه السلام رأسُ أهل مدرسة القرآن الكريم بعد النبي ص أُوكِلَ إليه حفظ نصّه ، وعن طريقه انتقل النصّ المتداول المكتوب بين الدفّتين ، إذ به انتقلتِ القراءة القرآنيّة العامة المتداولة بين المسلمين ؛ فلا غرابة أن يتقدّم الإمام عليه السلام غيره بعد النبيّ ﷺ في هذا المضمار، و(من طبيعة الأشياء) أن يشترك في تأسيس ما يضبط القرآن الكريم ويحدّد حروفه ، ويعمل فكره في صيانة لغته ، ذلك من التيسير على متداوليه ، بالهداية الربانية التي هداه الله لمثلها ، فكان أن فتح الطريق إلى تأسيس ما يهيّئ لتقويم الألسنة ، ويصحح غلط الأقلام ويسهم في حفظ النص الشريف ، ولاسيما بعد انتقاله إلى موضع حاجة المسلمين من أهل البصرة ، مدينة الاختلاط وابتكار العلوم[٤٨٦] .

---

[٤٨١] المستدرك ٣/٣٣٧ .

[٤٨٢] الإصابة لابن حجر ٣/٤٩٥ .

[٤٨٣] العقد الفريد ٤/٣١٣ .

[٤٨٤] الإصابة ٣/٤٩٥ .

[٤٨٥] روضات الجنات ٤/١٧١ .

[٤٨٦] أهل القرآن وتأسيس النحو ٣٥ .

المبحث الثانيّ : الخطوة الأولى في التأسيس النحويّ

لمّا آلت خلافة المسلمين سنة ستّ وثلاثين هجريّة إلى أمير المؤمنين ، وبُعيد انتهاء معركة الجمل انتقل إلى مدينة البصرة ليستقرّ فيها أكثر من شهر، ما بين جمادَى ورجب على ما تذكر الروايات ، ومنها أنّه دخلها يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، وكتب إلى أهل الكوفة بعد ظفره في حرب الجمل في جمادى الأولى من السنة نفسها[٤٨٧] ، وخرج منها (إلى الكوفة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب)[٤٨٨] .

وفي هذا الشهر جرى تداول ما يتصل باللحن وما يُشار إلى (النحو العربي . الذي . نشأ في الفترة التي زار فيها الإمام عليّ البصرة وذلك ما بين ٢٢ جمادى الآخرة وأوائل رجب لسنة ٣٦ هـ ، وقد استنكر بعض الباحثين هذا الرأي ، وقال : كيف حدث ذلك ؟ وقد جاء الإمام عليّ البصرة محاربًا ومقاتلاً ومشغولاً ، فنقول له نعم : حدث ذلك ولكن اللقاء العلميّ تم بين الإمام وأبي الأسود بعد النصر مباشرة ، وكان لا يحتاج إلى وقت بل يحتاج إلى موافقة ، وتبادل الآراء خدمة للدين واللغة حيث كان أبو الأسود الدؤلي مجهزًا لهذا العلم قبل مجيء الإمام وانتظر حتى زالت الحرب وعرض الأمر على الإمام فوافقه)[٤٨٩] ؛ لكنّ الإمام وبحسب الروايات كان قد وجه وَوَضَعَ وأسّس مثلما تؤكد الروايات ، وليس مجرّد متلقٍّ يوافق على ما يُعرض عليه ، كأمثال المتلقين من السلاطين ، من دون أن يكون لهؤلاء اهتمام أو تخصّص .

ويترجح في هذا الشهر تداول الإمام ﷺ وأبي الأسود في أمور القرآن الكريم والحاجة إلى مواجهة اللحن الذي وجده الإمام في البصرة ، ولا ندّعي أنّ هذا الشهر جاء بكل ما تحقق من أوّله إلى آخره ، بل فتح الباب لهذا العلم ووضع اللّبنات الأولية فيه ، ذلك بعد تأمّل طويل امتد لعقود من الاثنين الأستاذ وتلميذه سبقت استكشاف الفكرة الأساس فكرة تحديد المناسب ، حتّى أنّ الذي أشاع ضبط القرآن ونشر نواة النحو الأولى كان موجودًا في البصرة قبل الإمام

---

[٤٨٧] بحار الأنوار١٣ /٧٤٩ .

[٤٨٨] المصدر نفسه ٣٥٢/٣٢ .

[٤٨٩] أبو الأسود الدؤلي ، الدجني ٨٨ .

منذ أكثر من عقد ونصف، وقد هاجر إلى البصرة في عهد خلافة عمر الذي شجع على هجرة وجوه الناس وخطبائهم والمتقدمين منهم ، وكانت هجرته ما بعد العام السابع عشر للهجرة[٤٩٠] .

وتؤكد الروايات ثقة الإمام بأبي الأسود ، وإعجاب أبي الأسود به ، وصِدْقِ صحبتِه ، وعَدِّه من خاصّته وخلصائه ، في مثل ما أدّاه في مفاوضة أهل الجمل ، وتمثيل وجهة نظره ، فضلاً عن ائتمانه واستعماله قاضيًا وكاتبًا وعاملًا على البصرة نفسها[٤٩١] .

ويتضح هذا ممّا جاء في مثل قولهم : (الواقع أنّ عليًّا كرّم الله وجهه شغلته قضيّة اللحن ففكر فيه، وأطال التفكير وحاول أن يضع لهذه المشكلة الوافدة حلًّا ، يدلّ على ذلك ما رآه أبو الأسود [منه] إذ يقول : دخلت على عليّ بن أبي طالب رض فرأيته مطرقًا متفكرًا ، فقلت : فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ قال : إني سمعت ببلدكم هذا لحنًا فأردت أن أضع كتابًا في أصول العربية ، فقلت : إن فعلت هذا أحييتنا ، وبقّيت فينا هذه اللغة ، ثمّ أتيته بعد ثلاث فألقى إليّ صحيفة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم : الكلام كلّه اسم وفعل وحرف ...)[٤٩٢] .

وينصُرُ هذا أنّ البصرة كانت منذ تأسيسها ، واستقرار القبائل العربية فيها ، مدينة مهمة، ومركز اتصال المسلمين بالحضارات الأخرى ، حتى صارت مركز الإشعاع العلميّ ، ومن أبرز المراكز الثقافية في التأثير الإسلامي ، وقد تهيّأ فيها لأوسع لقاء بين مختلف الأقوام والأمم ، أساسه التسامح والتجاوب والتعبير عن فعاليّة الدعوة الإسلامية وواقعيتها وانفتاحها ؛ فكان مسجد البصرة مجمع العلم والقراءة والفقه والحديث ، يقصده العلماء والدارسون من جميع البلدان ، وإلى جانب هذا المسجد استُحضِرَت أجواء الفصاحة العربية في مربد الشعر، ففي البصرة نشدان التمكن من لغة القرآن الكريم مطلبًا متقدمًا من مطالب قاصديها ، وكان في هذا المِرْبَد ملتقى الخطباء والأدباء ورواة الأخبار في المواسم ، ثمّ شهدت البصرة فيما بعد نموًّا سريعًا ، وازدهارًا تجاريًّا ونشاطًا ثقافيًّا ، فكانت مسرحًا لحلقات الأدب والعلم ، ومهرجانات

---

[٤٩٠] الأغاني ١٩٨/١١ ، وإنباه الرواة ٥٠/١ ، وأبو الأسود الدؤلي ، الدجني ١١٠ .

[٤٩١] الشعر والشعراء ٦١/٢ ، وإنباه الرواة ١/ ٥٣ ، والأغاني ٢٠٢/١١ .

[٤٩٢] الكشاف ١١٣٥، والمحرر الوجيز ٣٥٨/٥ .

الشعر، تجتذب إليها العلماء والدارسين من كل الأقطار، وتجتذب أيضًا الأعراب الرواة ، كلّ ذلك وغيره أهّلها لأن تكون عاصمة الإبداع العلمي لمجتمع المسلمين ، وقد ساعدت منذ تأسيسها على تنامي البذور العلمية التي بَذَرَها أوائل المسلمين ، وما وضعوه من أسباب تأسيس علوم العربية ، بدافع الحفاظ على لغة القرآن الكريم ، فضلاً عن العلوم الأخرى[٤٩٣] .

[٤٩٣] أهل القرآن وتأسيس النحو ٣٩ .

المبحث الثالث : المطابقة بين الحاجة والاستعداد

يبدو بحسبِ ما تقدّم التناسب الموضوعي من حيث المكان لتداول أمر التأسيس الأولّ لما يمنع من اللحن ، بعد شعور الإمام بالحاجة الماسّة إلى التفكير فيما يجب وضعه ، بعد أنِ اطمأنّ إلى مَن يتدبّر هذا الأمر، في ذلك المقطع من الزمن الذي لا يحتمل التأخير في التفكير، ولم يبقَ إلاّ التنفيذ الذي أُجِّل إلى مراحل لاحقة ؛ فقد وُضِعَت في اللقاء المذكور آنفًا الخطوة المباركة الأولى لما يناسب لغة القرآن الكريم ، من معين ما يطابق الحاجة والاستعمال، وما يُناسب المقاطع والكلمات والتراكيب والنصوص ، مسموعة ومنطوقة ومكتوبة، فكانت هذه الخطوة الأساس الصحيح لبناء العلم الجديد ، وفيها الوسيلة الدقيقة التي تُمَكّنُ من منع الغلط في قراءة القرآن الكريم ، وقد عُبِّرَ عن ذلك بعبارات ناسبت الزمن الذي دوّنت فيه ، في حينها أو بعد حين منه ، توارثها اللاحقون عن السابقين ، وقد حفظها أبو الأسود ولم يستطع تنفيذها عند انبثاقها ، بسبب اضطراب الأوضاع ، وبما سُمِّيَت أو وصفت بعبارات العصور اللاحقة .

وكانت هذه الخطوة من الخطوات المبكرة في تنفيذ حفظ نصّ القرآن الكريم ، والمبادرة إلى التفكير في وضع ما يناسب هذا الحفظ ، وكان ذلك من الفتح الرباني على صفوة الأمّة من تلاميذ المبعوث رحمة ، ومن الذين تربّوا على يديه ، واستوعبوا معجزته ، وارتفعوا إلى ما خاطبهم به ، فتجاوزوا من سبقهم في العلوم الدينية والدنيوية ، وكان هذا من ضمن الاستعداد لمواجهة ما يمكن أن يحدثَ من (ردّ فعل على فوضى ضبط حركات الأواخر [وغيرها] وبخاصة في القرآن الكريم ، فهو واجب ديني مقدس، ومن ثمّ كان عملًا من أعمال الدراسة الدينية التي ظل المتقدمون والمتأخرون يؤكدون ارتباطها ذلك الارتباط الذي رسم للنحو علاقته المنهجية)[٤٩٤] .

فالعناية بلغة القرآن الكريم من التقرب إلى الله تعالى ، ومن هذا التقرّب تداول النحو، وجملة الأمر أنّهم عظّموا النظر إلى لغة القرآن الكريم ، وقال قائلهم : لو أقام إنسان على

---

[٤٩٤] الاتجاهات النحوية الحديثة ١١٢ ـ ١١٣ .

خدمة هذا العلم ستين سنة حتى لا يحظى منه إلاّ بفهم آية من كتاب الله تعالى لمـا كان ذلك كثيرًا في حقّ لغته وعقيدته ، وقالوا : اللحن في الرجل السريّ كالتغيير في الثوب الجديد، وإنّ لِلَّحنِ غمرًا كغمرِ اللحم زفرة وزناخة ؛ وشاع بينهم ليس للاحن حرمة[٤٩٥] ؛ وقد ربطوا ربطًا وثيقًا بين العربية والدراسات القرآنية ، ورفعوا تعلّمها إلى مرتبةِ تعلّمه وحفظه ، فقد روى أبو بكر بن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) (عن يحيى بن عقيل عن يحيى بن يعمر أنّ أبا ذرّ قال : تعلّموا العربيّة في القرآن كما تعلّمون حفظه)[٤٩٦] .

وقال ابن بابشاذ : (وأمّا الحاثُّ على تعلّم هذا العلم فالله ، ورسوله ، وأهل بيت رسول الله صلّى الله عليهم أجمعين ، قال الله تعالى : "الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان ـ الرحمن ١ ـ ٤" . وأمر سبحانه بتعلّم القرآن ، بقوله : "بلسان عربيّ مبين ـ الشعراء ١٩٥" ، فكأنّ هذا الإنسان لمـّا بلغ وأوضح بهذا اللسان حَثّ الله على طلبه وتعلّمه . وقال رسول الله ص : "رحم الله رجلاً أصلح من لسانه" ... وقال الحسينُ بن عليّ ع : "تعلّموا العربية فإنها لسان الله الذي يخاطب به الناس يوم القيامة")[٤٩٧] ؛ وقال ابن فلاح اليمني في علم النحو : (ومما يَدُلُّ على فضله ما انتشر عند البشر: أنّ المبتدئ بتأليفه أمير المؤمنين عليّ رض، وهو لا يعمد إلى شيءٍ ، إلاّ وهو يقرّبُ إلى الله تعالى)[٤٩٨] .

فما دام الأمر كذلك فالعربية من الدّين لصلتها الوثيقة بالقرآن الكريم ومن واجبات أهل القرآن وخاصته أن يعنَوْا به وبها ، وكانت هذه من القضايا الكبرى التي لا تتحمّل التأجيل عند أهل الفكر والنظر والهمم العالية من علماء الأمة وأئمتها ، سواء أكان اللحن أم لم يكن ، لكن يبقى اللحن حافزًا وعاملاً مهمًّا من عوامل التهديد بالفساد ، ولاسيما في البيئات الإسلاميّة الجديدة ، بيئات الحواضر، والاختلاط بين العرب وغيرهم ، لذلك نجد من لوازم الأشياء التفات

---

[٤٩٥] طبقات النحويين ٢٢ .

[٤٩٦] إيضاح الوقف والابتداء ٢٣ .

[٤٩٧] المفيد في النحو ٣٦ ـ ٣٧ .

[٤٩٨] المغني في النحو ١/٥٠ . ٥١ .

الإمام عليّ إلى تأسيس ما يحقق الضبط ويمنع اللحن ، وكان الإمام الغاية في الاهتمام بلغة القرآن الكريم ، لذلك كان اهتمامه بما يناسب ما وجده من لحنٍ في بيئة البصرة ضروري ، تذكره الروايات ، وقد كان بالاستعمال اللغوي المخالف لأسس الفصاحة الحاجة الماسّة إلى التوجيه بالمعالجة ، على الرغم من الظروف السياسية المعروفة في تلك الحقبة ، فقد فكّر بالأمر، أو وجّه بوضع التدابير الجديدة التي تجاوزت التصحيح اللغويّ المباشر: أي الانتقال من التنبيه على الخطأ ، والاكتفاء بوضع الصحيح بإزائه ، إلى وضع تدابير أخرى تصون البناء اللغوي العام استنادًا إلى أساس جديد، وناصره استعداد أبي الأسود في التنفيذ وإكمال ما يجب تحقيقه ، ولا ننسى أثر فعالية بيئة البصرة ، قاعدة الاختراعات ، في الاستجابة المباشرة في تلك الحقبة ، ثمّ فيما بعدها في تحقيق حاجة الدين، وحاجة مجتمع القرآن ، وحاجة دولة القرآن ، ليضع أهل القرآن بين يدي قراء القرآن ومفسريه من العرب والعجم ، الآليات التي تمنع من التوهم أو الغلط ، فكان أن وُضِعَ البناء الذي يصون الصحيح بالقواعد التي تضبط النصّوص ، ليتمكن بها غير السليقي من استعمال الآليات الدقيقة المحدّدة ، والأعجمي كذلك من الالتحاق بالفصحاء، باتّباع ما تقيّد به الحروف من علامات الهداية إلى الصواب ، ومن بعدها تسويغ وجود هذه العلامات بالقواعد ، بجهود أجيال تتابعت في المضيّ في إكمال هذه الخطوة المباركة ، وهذا هو الذي حصل فيما بعد ، لكنّ خطوة التأسيس نفسها كانت على مرحلتين، الأولى : الاستجابة لخطورة هذه المشكلة ووضع ما يُخلّصُ منها ، والأخرى : التنفيذ الذي تأخّر عن الوضع الأول في حقبة لاحقة ، انتظارًا لما يناسب من ظروف[٤٩٩] ؛ ونرجح أنّ الخطوة الأولى تضمّنت التفكير في ضبط الكلمات بالإشارة إلى الرفع والنصب والجرّ، قيل لأبي الأسود : (اعمل شيئًا تكون فيه إمامًا ، وتعرب به كتاب الله)[٥٠٠] ، وقول أبي الأسود نفسه : (ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن)[٥٠١] ، رافق هذه الخطوة التصنيف على وفق نظير

---

[٤٩٩] أهل القرآن وتأسيس النحو٦٥ .٦٦ .

[٥٠٠] أخبار النحويين البصريين ٦٧ .

[٥٠١] روضات الجنات ١٦٧/٤ .

الضبط : الفاعل ، والمفعول ، والإضافة في لقاء الإمام وأبي الأسود ، وكانت هذه هي مرحلة الآليات الجديدة التي تختلف عن سابقتها ، في بناء جديد ومرحلة جديدة أساسها التفكير بتمييز الحروف بعلامات تضبط الأبنية والتراكيب ، وتمنع من وقوع الخطأ ، عبّر عنها ابن خلدون الانتقال من الملكة إلى القوانين ، (يقال بإشارة عليّ لأنّه رأى تغيّر الملكة ، فأشار عليه بحفظها ، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة)[٥٠٢] .

ومن ثَمّ اكتملت قوانين منظومة الضبط وما سمّي بالأبواب النحوية في مراحل متتابعة ، إلى أن استوت ونضجت في مراحل لاحقة ، فكانت الغاية في كتاب سيبويه ، الذي كان أكبر من الردّ على انتشار اللحن بين الأعاجم ، ممّن دخلوا في ركب الإسلام ، ولا حتى بين العرب أنفسهم ، لأنّ المُتحَقِقَ والمتحصّلَ في هذا الكتاب قد تجاوز هذه القضية ، قضية إصلاح الألسنة ومنع اللحن ، لكنه انطلق من الضبط واليسير من التبويب إلى التأسيس العلميّ الكبير والبناء الشامخ ، الذي يليق بسَعي أجيال أهل القرآن المنقطعين له ، وبمن اغترفوا من باب مدينة علم نبيّهم .

نقول هذا لأنّ المشتغلين بالقرآن المتفرغين له ، يعرضون لمواجهة ما يجدون من لحن وغيره ، ويعنيهم التصدّي له ، لكنّه ظلّ سببًا من الأسباب ، (ولم يكن هذا العمل يهدف إلى حفظ النص من اللحن فقط كما وَقَرَ في الأذهان، وإنما كان يهدف إلى غاية أبعد في أصول الحياة الإسلامية ؛ ذلك أنّ المسلمين عرفوا . بداية . أنّ عليهم أن يقرؤوا القرآن وأن (يفهموه) لأنه هو الذي ينظم حياتهم ، ومن ثمّ نستطيع تفسير نشأة الحركة العقلية العربية كلها بأنها نتيجة نزول القرآن الكريم ، فهي كلها من نحو وصرف وبلاغة وتفسير وفقه وأصول وكلام تسعى إلى هدف واحد هو . فهم . النص القرآني الكريم)[٥٠٣] .

---

[٥٠٢] المقدمة لابن خلدون ٥٩٩ .

[٥٠٣] دروس في المذاهب النحوية ١٠ ، أبنية الفعل ١٢٦ .

المبحث الرابع : أثر التأسيس فيما بعده

إنّ ضبط المصحف الشريف بالنقط كلمة كلمة ، جاء من لحظ حركة الفم ، ومن طريقة النطق ، إذ لا بدّ أن يكون المؤسّسُ (قد فكّر زمنًا طويلًا ، ولاحظ نطق الكلمات والحروف الواردة في كلام الناس أو الواقعة في آيات القرآن الكريم وتغيراته ، وراقب شفاه الناطقين بهذه الآيات وميّز مواقع فتح الشفتين ومواقع ضمهما ومواقع كسرهما ... [و] اشتق منها [آلة الضبط ، من مثل قوله :] "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة على أعلاه وإذا ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وإذا كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف... فابتدأ أبو الأسود يقرأ والكاتب ينقط حتى أتمّا نقط المصحف)[٥٠٤] ، معنى هذا أن نقط أبي الأسود ما هو إلاّ بداية [انقداح] التفكير في وضع أبواب النحو) [٥٠٥] ، استنادًا إلى تعرّف وحداته .

(ولا يستطيع أحد أن يَدّعي أنّ عالمًا مشهودًا له بالتقدم والتفوق مقصودًا من الخلفاء والولاة لرسوخ قدمه في العلم وحِدّةِ ذكائه في الفهم ينقط المصحف كلمة كلمة ، ويلاحظ حركات حروفه حرفًا حرفًا ، ويفعل ذلك في دقة وبراعة ثم يخرج من عمله هذا دون أن تتكوّن لديه فكرة أوّلية عن عمل بعض الأدوات أو عن حركة بعض الكلمات ذات الوظيفة المتشابهة والوضع المتّحد ، اللهم إلاّ أن يكون راسخ القدم في الغباء بعيدًا عن صفات أبي الأسود)[٥٠٦] ؛ (وقد اتفق معظم الرواة على أنّ أبا الأسود نقّط المصحف تنقيط إعراب ، وتنقيط المصحف على هذا الوضع الذي ذكره الرواة يدلّ على وضوح ظواهر الإعراب في ذهن أبي الأسود) [٥٠٧].

والراجّح أنّ منهج التأسيس بضبط حروف القرآن الكريم ، قد انتقل إلى المراحل اللاحقة، حتى ظهر جليًّا واضحًا ، في تمييز الحروف وما يتبعها ، فنقط الحرف كان الأساس في تمييز

---

[٥٠٤] مراتب النحويين ١٠ . ١١ .

[٥٠٥] المدارس النحوية ٥٦ . ٥٧ .

[٥٠٦] مدرسة البصرة ٦٠ .

[٥٠٧] الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ٢٢ .

أبنية الكلمات التي (تتألّف من أجزاء ، وهذه الأجزاء هي الحروف، فلا بدّ إذن لمن يريد أن يدرس اللغة ، ويتفهّم طبيعتها ، أن يبدأ بدراسة هذه الحروف ، لأنّ المفردات كلّها إنّما تتألّف من حروف...)[٥٠٨] .

ويتضح هذا من مراجعة الخليل هذه الطبيعة واستعمالها والإفادة منها ، (فبدأ الدرس اللغوي بما يجب أن يبدأ به ، بدأه بدراسة الأصوات التي تتألف منها مفردات اللغة ليعرف مواقع تلك الأصوات من جهاز النطق ، ويقف على خصائصها ، وما يترتب على تجاورها ، واستطاع بذلك أن يفسر ظواهر لغوية لم تكن لتفهم بدون فهم سابق لطبيعة الحروف وتفاعلها بتجاورها وتمازجها)[٥٠٩] ؛ و(انتبه الخليل في أثناء تحليله لأجزاء الكلمة أنها لا تتألف من أجزاء بسيطة ، وهي الحروف التي تكون الوحدات الصوتية ، بل إنّ فيها وحدات أخرى وهي المقاطع، فعبر عنها بالأسباب والأوتاد في وضعه لعلم العروض ، ولاحظ أنّ منها ما هو ذو مغزى إيقاعي فقط ، إذا كان المقطع جزءًا لا يتجزأ من الكلمة المجردة ، ومنها ما يدل على معنى زائد في الكلمة سواء كان هذا المقطع لفظًا مستقلاً كمعاني الحروف ، أو كان من زوائد الكلمة التي تغير معناها في صيغتها الأصلية ، مثال : (في) من (فيهم) ، والسين والتاء من استحسن)[٥١٠] .

وكان أساس الخليل ومنطلقه وأداته ، ممّا وجده قد استقرّ واضحًا قبله ، ذلك هو تميّز الوحدات اللغوية بضبط حروف الكلمات بالنقط ، ملتفتًا إلى ضرورة تطوير علاماته ، علامات النقط التي جعلها شكلاً أفضل ينتظم وينسجم بحركات إلى جانب نقط الإعجام ، ولاحظ أنّ تأليف المقاطع والكلمات يتحقّق من اجتماع الحروف ، وما يكملها من هذه الحركات في مقاطع صوتية أو صرفية أو نحوية أو عروضية ... إلخ[٥١١] . ويتأكد للمدقق أنّ الخليل أكمل

---

[٥٠٨] عبقري من البصرة ٣٤ .

[٥٠٩] عبقري من البصرة ٣٥ .

[٥١٠] تاريخ النحو العربي ٨٢ .

[٥١١] أهل القرآن وتأسيس النحو٦٩ .

ما وجده من تنفيذ أبي الأسود في ضبط الحروف ، وقد أفاد من آليات الضبط فيما كان يحلّل، وقد أخذ يُعيد التفكير في قاعدة ضبط الكلمات الموضوعة قبله ؛ وراح يتأمّل الحرف وحركته ، خارج تأليف الكلمات وداخلها، فهو يتذوّق الحرف في أوّل مقطع الكلمة وأوسطها وآخرها ، كما يتذوّقه منفصلاً عنها ، مدركًا اختلاف أوضاع النطق عند التلفظ به ، (وإنّما كان ذواقه إيّاها أنّه كان يفتح فاه بالألف ثمّ يظهر الحرف ، نحو : ابْ ، اتْ ، احْ ، اعْ ، اغْ ...)[٥١٢] ، وهذا هو منهج أبي الأسود الدؤلي نفسه ، الذي اتخذه بالتعاون مع من ينقط له حروف القرآن الكريم، وكان همّه تثبيت الصحيح بعلامات تميّز اختلاف النطق ، وقد أوصله تمييز الاختلاف بالنقط إلى معرفة نظام ضبط حروف العربية وكلماتها ؛ وثَبَتَ عنده وعند من سبقه أنْ لا حرفَ من دون حركة ، تتبعه ، أو تسبقه ، وقد قرّر أنّ مقطع الحرف المتحرك من ضمن مقاطع الكلمة يختلف عن تسميته منفردًا منفصلاً منها وخارجًا عنها ، جاء في الكتاب في (باب إرادة اللفظ بالحرف الواحد ، قال الخليل يومًا وسأل أصحابه : كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لَكَ والكاف التي في ما لك ، والباء التي في ضَرَبَ ؟ فقيل : نقول: باء كاف . فقال : إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف . وقال : أقول : كَهْ وبَهْ . فقلنا لِمَ ألحقت الهاء ، فقال : رأيتهم قالوا : عِهْ فألحقوا هاءً ، حتى صيّروها يستطاع الكلام بها ، لأنه لا يلفظ بحرف [يقصد بحرف منفرد] فإن وصلت قلت : كَ و بَ ... كما قالوا عِ يا فتى ، فهذه طريقة كل حرف كان متحركًا ، وقد يجوز أن يكون الألف هنا بمنزلة الهاء لقربها منها وشبهها بها ، فتقول : با وكا ، كما تقول : أنا)[٥١٣] .

---

[٥١٢] ترتيب كتاب العين ٤٢/١ .

[٥١٣] كتاب سيبويه ٣٢٠/٣ .

المبحث الخامس : المطابقة بين الضبط والمعنى

يتضح ممّا تقدّم أنّ الربط واضح بين الضبط الصحيح والمعنى الدقيق، وكان هذا هو الفتح الأول في بناء النحو العربي ، فتغيّر ضبط الألفاظ يؤدّي إلى تغيّر المعاني ، وصارت المعاني المختلفة (يُعبّر عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ)[٥١٤] ؛ وبملاحظة هذا الاختلاف اتضح الفارق بين الكلمات والجمل ، وقد انفتحت أمام المنشئ ومن تبعه آفاق تحليل نظام اللغة العربية من داخل كلماتها ، فالفارق في الضبط أسّس للنحو بدءًا من لحظ الصحيح وما يخالفه ، بأدوات تقيّد المنطوق والمسموع بعلامات كتابية مناسبة .

فالانتظام بالضبط وُلِدَ من رحم العربية ، ولا يصلح إلاّ لها ، ولا يناسب غيرها ، وطابق أبنيتَها مباشرة ، إذ كان قد نَقل التفكير من السليقة والملكة اللسانية ، إلى التفكير بالمحسوس المختلف ، إذ به يُميّز بين الصحيح من الخطأ ، بعد الإمساك بالأجزاء التي سببت الضبط المختلف ، ثمّ التفكير بتمييز كلّ نوع من أنواع الضبط وجَعْلِه في حقل نحوي أو مجموعة ضبط مختلفة ، سُمّيت بالباب النحوي ، واللافت أنّ أبواب التأسيس الأولى بعدد علامات الضبط كما قلنا : باب الفاعل : باب الرفع ، وباب المفعول : باب النصب ، وباب الإضافة : باب الجر، وكان ذلك منطلق تأسيس علوم العربيّة بتمييز المجموعات المختلفة من حيث الضبط، وقد انكشفت بها عجائب نظام هذه اللغة ، بعد إظهار تحليل أجزائها إلى مقاطع وكلمات وتراكيب ، وقد تدرّج ما بدا يسيرًا ، لكنه كان اكتشافاً هائلًا ، وإنجازًا كبيرًا ، وتوجّهًا سديدًا ، بخطوات راسخة متتابعة أثمرت في قرن من الزمان أعظم كتاب لغوي في تاريخ العربية ، وقد استقرّ هذا العلم استقرارًا عجيبًا ، لا يمكن أن يستعار من أيّ لغة من اللغات لاختلافها عن طبيعة العربية وعدم مناسبتها ، وجاءت مناسبة العربيّة من ضبط الكتاب المبارك الذي رزقته العربيّة ، الذي حفظها وثبّتها ، ورزقها الله علماء أجلاّء سدّدهم جلّ وعلا إلى الصواب ، وقد تفرّدت هذه اللغة بانتظامها ومطابقتها لما اكتُشِف من داخلها ، وبأقسامها

---

[٥١٤] الإحكام في أصول الأحكام ١٩٣/٢ .

التي جرت على ما حدّدت به أوّل تحديد ، فلو لُفِّقَتْ أفكارُ التأسيس ولم تكن مناسبة وأصيلة لبان عوارها فيما بعد، وما كان هذا ليكون لولا القرآن المجيد ، فهذه القواعد الثابتة لهذه اللغة ، على هذا التأسيس ، وبهذه المطابقة التي جعلت العربية ثابتة خالدة خلود الدهر[٥١٥] .

ويخلص باحثنا الدكتور في خاتمة كتابه (القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربيّ) إلى أنّ ضبط حروف القرآن :

١ ـ من تنفيذ المرحلة الأولى لتأسيس علوم العربية ، ومن أهل القرآن وخاصته ، الذين انقطعوا له وداوموا على قراءتِه وتدبّر ألفاظه ومعانيه ، بعد أن فتح الله على أيديهم وضع الأصول الأولى التي جاءت من الاشتغال بالقرآن الكريم والإخلاص له .

٢ ـ أسهم في إيقاف فوضى استعمال اللغة ، وفتح آفاق معرفة الصحيح من السقيم ، والضبط نفسه موضع عناية من تشرّبوا بروح القرآن ، وكانوا خلاصة عصره ، والمقدّمون في مدرسته ؛ وما جاؤوا به من صميم حاجة لغته ، ومن طبيعة نظامها ، ولا يصلح لسواها ، وهو بعيدٌ كلّ البعد عن أن يكون من خارجها .

٣ ـ من التدابير الصحيحة للانطلاق تنبِئُ عن سلامة منهج الذين يُنسب إليهم الوضع اللغويّ الأوّل، سواءً أكان في الاعتبار الدينيّ المقدّس ، أم في السعي المباشر لردّ الغلط في نطق الكلمات، ذلك الذي أثمر تأسيس العلم اللغوي المحض ؛ فالعناية بضبط النص الشريف جلبت النقط ، والذي نقَّط المصحف ، كان قد اعتمد على الحسّ والتجريب ، متأمّلًا طريقة نطق الكلمات، بملاحظة هيأة الشفتين من جهة ، وما يصل إلى الأذنين من مسموع ، والدليل النّصّ الذي ينسب إلى أبي الأسود الدؤلي في اختيار الشخص الذي يثبّت النقط على حروف القرآن الكريم ، وكان هذا واضحًا وضوحًا جليًّا .

٤ ـ أثمر اكتشاف الصوائت العربية ، التي تكمّل الحروف الصوامت في بناء مقاطع الكلمات العربية ، وقد أدّى نقط المصحف الشريف إلى الربط اللفظي المباشر بين المسموع والمنطوق والمكتوب ، ربطًا مكّن من اكتشاف وحدات اللغة العربيّة الأساسيّة .

---

[٥١٥] أهل القرآن وتأسيس النحو ٧٢ .

٥ . أسّست لظهور الكتاب الأوّل ، والغاية في التأليف النحوي ، الذي حَظِيَ بإعجاب العلماء ، فوصفوه بالبحر و(قرآن النحو) ، هو السبب المباشر في إهمال مدوّنات تأسيس النحو الأولى ، التي لم يُعتنَ بتسجيلٍ وافٍ لريادتها ، ربما لمنع التدوين في زمنها ، فضلًا عن أسباب أخرى لسنا بصدد ذكرها ، وقد انشغل المتخصّصون بـ (الكتاب) بعد ظهوره ، وحفلوا بمنجزه الخالد ، من دون النظر المناسب إلى ما كان قد سبقه ؛ فكانت العناية بالأخير الذي أقرّوه على ما أنجز ، وثبّتوا له ما كان قد أبدع استنادًا إلى نصّ (الكتاب) المشاهد الملموس ، لا ما كان خلفه من جهود كانت قد اختفت . سوى القليل القليل . ولاسيما جهود التأسيس الأولى جهود أبي الأسود وتلامذته ، التي وجدوها هيّنةً بإزاءِ (قرآن النحو) .

٦ . تفتح نوافذ حوار علمي وتفاعل إيجابيّ مع اللسانيّات ، وأن نُفِيد منه في تجديد الدرس العربيّ ومراجعة نقديّة جادّة لما آل إليه درسنا النحويّ القديم ، وكذلك من التطبيقات التي يمكن أن ننتفع بها ونطوّرها ، بحسب ما يوازيها ويقاربها ، في فهم أوسع لمزيّات القديم وكذلك الجديد ، والنظر في إمكانيّة جعلهما أكثر عطاءً ، في تأمّل ما سيجري وما سيكون بالنسبة للدرس اللسانيّ العربيّ الحديث ، وبما يوضّح مواطن الغموض ، ويكشف أسباب الشكّ والتردّد والقطيعة .

٧ . يمنع الانسياق وراء بعض تلامذة الغربيّين الذين يدافعون عن كلّ ما عندهم ، ومن الذين سلّموا أنْ لا إبداع للعلوم إلاّ ما أبدع الغربيون ، ولا تأسيس إلاّ ما أسّسوا ، ولا ريادة إلاّ لمن ارتضوا ، ولا مبادئ للعلوم إلاّ أن تكون قد صدرت عنهم ؛ فلا يقرّون للحضارة العربية الإسلاميّة أنّها ابتكرت ما يناسب لغة القرآن الكريم ، الشغل الشاغل للمسلمين وأوّل ما يعتنون ويقدّمون ، وليس هذا الانسياق الأعمى إلاّ من العجز والقبول بالدونيّة ، وهذا لا يناسب (طبائع الأشياء) ولا الحقائق العلمية الموضوعية .

الفصل السادس

مباحث قرآنيّة

المقدمة

جمع باحثنا الدكتور بين الدلالة والتكرار في دراسة ظواهر لغويّة في القرآن الكريم ، في مؤلفه الموسوم بـ (أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية) ، في محاولةٍ لتدبّرِ نصوص القرآن الكريم وتراكيبه ومفرداته ، ولحظِ دقّةِ نظمِهِ وترابطِ نصوصِه ، وكذلك ما يميّز الدلالة القرآنيّة والاختيارات اللغويّة المناسبة ، والتراكيب المطابقة لمقتضى الحال ، والأساليب المعبّرة عن المواقف الملائمة لما وضعت له ، وانسجمت معه .

وقد جاء في الفصل الأول من هذا الكتاب مجموعة بحوث تعنى بدراسة الجملة القرآنية وأدواتها ومكوناتها والفرق بين دلالاتها ، ومنها : دلالة (كان) : تامة وناقصة ، وفي الفصل الثاني اختار عبارة (أسماء سميتموها) في الذكر الحكيم ، ودلالتها في أثناء عرضها في سياق النصوص القرآنية التي تكررت فيها ، ثم أخذ في الفصل الثالث نصيبه من دراسة الربط بالتكرار بين أجزاء سورة هود ، وجاءت دراسة التكرار مرة أخرى بعنوان (التكرار في سورة النجم) في الفصل الرابع ، ثم تخصص الفصل الخامس بدراسة (الجدال والنجوى في سورة المجادلة ، وأخذ الفصل السادس بدراسة (الزمن في سورة الحاقة) ، في مباحث أقرب ما تكون إلى الإيجاز، مع تأصيل ما حاول تأصيله من آراء اللغويين والمفسّرين .

ولبيان أهميّة هذه الجهود سنحاول عرضها في مباحث مختصرة ، تناظر ما كان في كتابه من تقسيم ، فعلى الرغم من أنّها موضوعات مختلفة ، كان قد نشرها في مباحث مستقلّة وفي ظروف وأزمان مختلفة ، مقتنعًا بإعادة جمعها في هذا الكتاب ، استنادًا إلى ما وجده من تقارب في مضامينها ، واضعًا إيّاها تحت إطار الدلالة والتكرار، مستفيدًا ممّن سبقه من القدماء والمحدثين ، في الموافقة والمخالفة .

المبحث الأوّل : دلالة (كان) تامة وناقصة

اعتاد علماء العربية على جعلِ (كان) أمًّا لبابِ الأفعالِ الناقصة ، ترفع المبتدأ اسمًا لها وتنصب الخبر خبرًا لها[٥١٦] ، لكن لا يعني ذلك أنهم كانوا لا يعرفون (كان) التامة ، فـ(كان) في بعض أحوالها تأتي بمعنى حدث أو وقع[٥١٧] ، وقد حاول باحثنا إظهار الفرق بين دلالة (كان) التامة ودلالة (كان) الناقصة ، وقد بدأ بحثه هذا ببيان الإسناد ، وما قيل فيه ، ذاكرًا ما جاء عن سيبويه في بيان علاقة المسند والمسند إليه ، ثم ذكر آراء عدد من علماء النحو ليصل إلى أنَّ "كان" وأخواتها لا تنتظم مع المبتدأ والخبر انتظامها في باب اسناد الفعل إلى الفاعل ، وليست أفعالاً أسندت إلى فاعلين ، لذلك ميّزها أوائل النحاة ولاسيما سيبويه في باب نحويّ مستقل ، في قوله : هذا باب الفعل الذي يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول ، واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد [٥١٨] ، ليتبيّن الفرق بين (كان) التي تدخل على الجملة الاسمية ، و(كان) التي تسند إلى الفاعلين ويتضح ذلك في قوله : (لكنَّ "كان" نفسها ، قد تسند إلى فاعل في باب الفعل العام ، مختلفة عمَّا في "باب كان وأخواتها")[٥١٩] ، وقد استند في هذا التفريق على عناية سيبويه بتركيب جملة "كان وأخواتها" واختلافها عن الجمل الفعلية الأخرى ، وقد ذهب إلى تأييد قول القائل : (جملة "كان وأخواتها" ، و"كاد وأخواتها" ، و"ظن وأخواتها" من الفروع المتحولة عن أصل واحد هو الجملة الأسمية المؤلفة من "المبتدأ والخبر")[٥٢٠] ، وانتهى إلى أنّ ما استقر في البحث اللغوي أنّ لـ(كان) جملتين مختلفتين إحداهما أن تكون بمنزلة الفعل التام وبمعنى حدث ووقع ، والثانية الناسخة التي تدخل على المبتدأ والخبر، وهي منزوعة المعنى دالة على الزمن فقط[٥٢١] ، وفي الحديث عن بيان الفرق بين التركيبين توصل باحثنا إلى

---

[٥١٦] كتاب الجمل في النحو ١٤٤.

[٥١٧] شرح أبيات سيبويه ، للسيرافي ٦/١.

[٥١٨] كتاب سيبويه ١ /٤٥ ، وأنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٦.

[٥١٩] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٧.

[٥٢٠] المصدر نفسه ١٧-١٨.

[٥٢١] المصدر نفسه ١٨.

أنّ الفرق بين الجملتين هو الفرق بين جملة اسمية وجملة فعلية ؛ لأن كان الناقصة وإن كانت تتصرف تصرف الأفعال ، إلَّا أنّها كحروف المعاني ، وأنها ليست طرفًا في بناء الجملة ، بخلاف كان التامة[٥٢٢] .

فالفرق الدلالي بين الفعل التام والناقص ، أنّ الفعل التام إذا أسند إلى الفاعل يكون موضع الرفع ، إذ لا يجوز حذف الفعل المتقدم عليه بعد أن أسند إلى الفاعل ؛ أمّا الفعل الناقص فيمكن حذفه لتعود الجملة إلى تأليفها الأول من مبتدأ وخبر[٥٢٣] . وقد مثّل لجملة "كان" التامة بقوله تعالى : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ . البقرة ٢٨٠) فدلالة "كان" في هذا التأليف : إنْ وقع غريم من غرمائكم في عسرة فأمهلوه ، فـ "كان" طرف فعلي في الأسناد ، في حين لا تكون "كان" الناقصة طرفًا في الأسناد الأساس ؛ لأن الجملة الاسمية تامة قبل دخول كان[٥٢٤] . وقد ذكر أبو البقاء العكبري هذا الرأي في قوله : ("فيكون" بمعنى "يحدث" وهي كان التامة ، مثل قوله تعالى : "وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ . البقرة ٢٨٠"، بذكر "ذو" فاعل "كان" ، ولو روي بالنصب "ذا" لكان خبرًا لكان)[٥٢٥] ، والجملة اسمية تامة الاسناد قبل دخول كان ، أي :

مدينُ الربا ذو عسرة ، ومدينُ الربا هو مدار الكلام وخبره ذو عسرة ، أمّا كان التامة فمسندة إلى فاعل ، قال سيبويه : (قد كان عبد الله ، قد خلق ، وقد كان الأمر، أي وقع الأمر)[٥٢٦] .

وقد جرت "كان" في الكريمة مُجرى الفعل التام ، وقد اكتفت بالمرفوع "ذو عسرة" ، وقد اعتدّها النحاة في هذا التركيب جملة فعليّة ، فيقولون : إنّ "كان" التامّة في الآية مدار البحث ،

---

[٥٢٢] المصدر نفسه ٢١.

[٥٢٣] المصدر نفسه ٢٢.

[٥٢٤] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ٢٣.

[٥٢٥] إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث النبوي ١٣٨.

[٥٢٦] كتاب سيبويه ٤٦/١ ، وأنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ٢٤.

(تكتفي بفاعلها كسائر الأفعال)[٥٢٧] ، ولم تدخل على ما أصله مبتدأ وخبر، وحالها حالُ الأفعال التامّة الأخرى ، التي يُسندُ الفعل فيها إلى فاعل ، على سبيل المثال :

اشتكى ذو عُسرة .

جاء ذو عُسرة .

حضر ذو عُسرة .

سافر ذو عُسرة .

كان ذو عُسرة .

أي أنّ "كان" كبقية الأفعال اللازمة ، التي يُقتصر في جملها على الفعل والفاعل ، ولا تختلف حينئذ عن الأفعال التامة الأخرى ، بمعنى وُجِدَ أو حصل أو وقع ؛ مختلفة اختلافًا كاملًا عن الناقصة الداخلة على الجملة الاسمية تامة الإسناد قبل دخولها ، تلك التي تنصب الخبر والتي ميّزوها بباب نحويّ خاصّ[٥٢٨] .

ويوضّح الدكتور بأمثلة قريبة في تأليفها من الجملة القرآنيّة ، مثل :

إن اشتكى ذو عُسرةٍ فأعينوه ، إن جاء ذو عُسرةٍ فأعينوه .

فعل فاعل فعل فاعل

إن كان ذو عُسرةٍ فأعينوه ، إن وُجِد ذو عُسرةٍ فأعينوه .

فعل فاعل فعل فاعل

وقد أُسنِد الفعل التام المختلف في جميع هذه الجمل إلى الفاعل نفسه ، وفعل الشكوى في الجملة الأولى ، والمجيء في الجملة الثانية ، والوجدان في الجملتين الثالثة والرابعة ، فالمتغيّر في جميعها الفعل وحده ، والثابت هو الفاعل "ذو عسرة" صاحب عسرة ، وهو المسند إليه مدار الكلام ، ولا جملة من دون الفعل الحدث الذي أسند إلى فاعل .

---

[٥٢٧] الدر المصون ١/ ٦٦٨ .

[٥٢٨] أنظار لسانيّة في آيات وسور قرآنية ١٩ .

ويتأكّد دليل تمام "كان" في الآية الكريمة ، فيما جاء بعدها من آيات : (وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ . البقرة ٢٨٠) ، ففي تمام "كان" توسعة ، وخروج إلى الدين العام ، لا خصوص دَينِ الربا الذي حرّم في الآيات السابقة ، في قوله تعالى : (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ... يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُون وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ... البقرة ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠) فجاء الأمر بترك ما بقي من الربا ، والإمهال وتأجيل تسديد رأس المال ، والتأخير إلى وقت التمكن ، والتشجيع على التصدّق على المُعسر، وهذا ما جاء مناسبًا بإسناد "كان" التامة إلى الفاعل "ذو عسرة" لمعنى التوسعة ، لأنه عزّ وجل يبارك في المال المُتصدّق منه[٥٢٩] .

أمّا جملة الفعل الناقص فيمثل لها من تركيب الفعل الناقص الداخل على مبتدأ وخبر:

إن صار مدين الرّبا ذا عسرة فأعينوه .

إن ظلَّ مدين الرّبا ذا عسرة فأعينوه .

إن أصبحَ مدين الرّبا ذا عسرة فأعينوه .

إن أمسى مدين الرّبا ذا عسرة فأعينوه .

إن كان مدين الرّبا ذا عسرة فأعينوه .

فالجملة الاسمية هي الأساس ، وهي مؤلّفة من ركنين ، هما المبتدأ والخبر:

مدين الربا + ذو عسرة .

مبتدأ "مسند إليه" الخبر "المسند" .

ومدار الكلام على "مدين الربا" والإخبار عن عسرته ، فالجملة على عسرة مدين الربا ، والجملة مؤلفة من مبتدأ وخبر بعد حذف "كان" ، فتعود الجملة إلى أصلها : مدين الربا ذو عسرة ، والجملة تامة الإسناد عند حذف الفعل الناقص .

---

[٥٢٩] أنظار لسانيّة في آيات وسور قرآنية ٢٢ . ٢٦ .

ودلالة "كان" الناقصة الإمهال مخصوص بدين الرّبا ، بمعنى : إن كان مدينُ الربا ذا عسرة فنظرة إلى ميسرة ، في استرداد رأس المال أو التصدّق به ، فنصب المسند بعد "كان" الناقصة "ذا عسرة" يوجب تقدير المسند إليه ، لأنّ الجملة الاسمية لا بُدّ أن تتألّف من ركنين وليست "كان" طرفًا في الإسناد الأساس[٥٣٠] .

ويمثّل الدكتور لكان التامة أيضًا من القرآن : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ . البقرة ١٩٣ ، والأنفال ٣٨)، (وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ . النساء ١١) ، (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ . المجادلة ٧) ، ومَثّلَ من إنشاد الفرزدق لبيت ذي الرمّة :

وعينانِ قال الله كونا فكانتا فعولانِ بالألباب ما تفعل الخمرُ

لو قال فعولين لأخبر أنّ الله خلقهما وأمرهما أن تفعلا ذلك ، وأراد أنهما تفعلان بالألباب ما تفعل الخمر[٥٣١] .

ومِثلُ هذا قول الشاعر[٥٣٢] :

إذا كان الشتاءُ فأدفئوني فإنّ الشيخَ يهدمه الشّتاءُ

واستشهد صاحب الكتاب بقول مقاس العائذي[٥٣٣] :

فِدًى لبني ذهل شيبان ناقتي إذا كان يوم ذو كواكب أشهبُ

وقول مسكين الدارمي :

أكسبته الوَرِقُ البيضُ أبًا ولقد كان ولا يُدعى لأب

والتقدير لقد وُجِدَ غيرُ مدعوٍّ لأبٍ[٥٣٤] .

---

(٥٣٠) المصدر نفسه ٢٣ ، ٢٦ .

(٥٣١) الخصائص ٣ / ٣٠٢ ، وأنظار لسانيّة في آيات وسور قرآنية ٢٧ .

(٥٣٢) همع الهوامع ٢/ ٨٢ ، وأنظار لسانيّة في آيات وسور قرآنية ٢٧ .

(٥٣٣) كتاب سيبويه ١ / ٤٧ ، وأنظار لسانيّة في آيات وسور قرآنية ٢٧ .

(٥٣٤) دلائل الإعجاز ١٦٠ .

المبحث الثاني : عبارة (أسماء سميتموها)

بدأ باحثنا الدكتور الحديث عن هذه العبارة ببيان معاني مفرداتها وإعرابها ، وقد أفاد من دلالة الصرف والإعراب ، معتمدًا الرأي القائل أنّ "اسم" : مشتق من "سمو" بمعنى العلوّ، وعرج على ما ذكره الرازي في "سميتموها" استعملت استعمال وضعتموها ، إذ ذكر أن الأسماء لا تسمى إنَّما يسمى بها[٥٣٥] ؛ وذكر الخليل أن اسم من سمو في قوله : (والاسم : أصلُ تأسيسِهِ: السُمُوّ، وألفُ الاسمِ زائدةٌ ونقصانُه الواوُ، فإذا صَغَّرتَ قُلْتَ: سُمَيّ . وسمّيت، وأَسْميت، وتَسَمَّيْت بكذا)[٥٣٦] ، وإلى ذلك . أيضًا . ذهب ابن فارس في قوله : "يقال: أن أصل اسم سمو، وهو من العلو؛ لأنَّه تنويع ، قال أبو عبيدة الاسم هو المسمى)[٥٣٧] .

١ . تفكيك عبارة (أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ . الأعراف ٧١ ، يوسف ٤٠ ، النجم ٢٣) ، ووجد أنها تتألّف من جزأين :

أ . الآلهة : أسماء + سميتموها : ضمير الغائبين (ها) العائد على أسماء نفسها .

ب . المخاطبون : الضمير المنفصل (أنتُم) + عطف عليه آباء المخاطبين + المضاف إلى ضمير المخاطبين (كُم) .

فوجد أنّ العلاقة جمعت الآلهة إلى المخاطبين :

(سميتموها) : الفعل الماضي + ضمير الخطاب + ضمير الغياب .

وقد حُذِفَ المفعول الثاني من جملة (أسماء سميتموها) ، بتقدير: سمّيتموها آلهة من عند أنفسكم . ما أَنْزَلَ اللَّهُ ذلك في كتاب[٥٣٨] .

٢ . وجد تماسكًا في هذا التركيب ، إذ ذكر الاشتراك اللفظي بين اللفظ (أسماء) والجملة (سميتموها) ، وبَيَّنَ أن هذا التجنيس غير متكلف ولا مستكره ، ثم بين أثر الضمير(أنتم) الذي

---

[٥٣٥] دلائل الإعجاز ٣٣ . ٣٤ .

[٥٣٦] كتاب العين ٣٠٨/٧.

[٥٣٧] مجمل اللغة لابن فارس ٤٧٢.

[٥٣٨] إعراب القرآن، للنَّحَّاس ٢٠٣/٢.

ورد ليكمل العبارة ويقوي دلالتها ، ثم أضاف عليها (آباؤكم) لربط توارث الضَّلال من الآباء إلى الأبناء[٥٣٩] .

٣ . تابع الدكتور عبارة (أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) في المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم ، بحسب السياق ، فوجدها في سورة الأعراف في سياق جدال قوم هود ، في قوله تعالى : ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . الأعراف ٧١﴾، وقد طال هذا الجدال بين الطرفين ، لأنّ الفعل كان مضارعًا مسبوقًا باستفهام الاستنكاري ، (أتجادلونني) فكان السياق أن جاءت هذه العبارة بعد أن ردَّ القوم دعوة النبي هود عليه السلام ردًا عنيفًا ، واتهموه بالكذب ، وقد أنهى مبحثه هذا بعد أن سلسل الأحداث إلى أن القوم جادلوا نبيّهم فيما لا دليل عليه فالأسماء التي آمنوا بها وجادلوا فيها لم تكن حقيقية ، وقد انتهى بهم الحال إلى تهديد هود لهم بالعذاب ، وقد وقع بهم ما يستحقون من العذاب ، جادلوه فيما يُستغرب أن يُجالُ فيه ، فيما لا حاجة لهم به إلى جدال في أسماء لا مدلولات حقيقية لها ، ولا قوّة بها هي مجرّد أسماء ، فلا فائدة في هذا الجدال ، لأنه جدال فارغ لا مضمون لها[٥٤٠] .

٤ . أمّا العبارة في سورة يوسف فكانت في سياق حديث يوسف عليه السلام إلى صاحبيه في السجن ، (... إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ـ يوسف ٣٧ . ٤٠) ؛ فلا نديّة ولا اعتراض أو جدال ، وخاطبهما يوسف بمودّة بالصحبة (يا صاحبي السجن) ، وليس في الصحبة إلّا الوَدّ والتلطف ، عرض عليهما فساد عبادتهما وعبادة آبائهما ، فهم لا يعبدون سوى أسماء تعارفوا على كونها آلهة ، وقد تلقاها الخلف عن السّلف ، وليست في حقيقة أمرها آلهة ، بل هي أسماء ليس تحتها ما يستحق هذه

---

[٥٣٩] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ٣٥ . ٣٦ .

[٥٤٠] المصدر نفسه ٣٨-٤٠.

التسمية من مضمون أو أثر ، وعرض حجته عن طريق الاستفهام الذي أراد به التقرير وإلزام الحجة البالغة (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ، أرباب مختلفون في صفاتهم ، متنافون في عددهم لا يرزقون ، ولا يحيون ، ولا يميّتون ... إلخ ، فبعيد أن يكونوا أربابًا ، لأنّ تعدّد الأرباب يفسد النظام[٥٤١] .

٥ . أمَّا في آية سورة النجم فقد جاءت العبارة نفسها بعد نفي الضلال والغواية عن النبي، (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ـ النجم ٢ . ٤) ، وقد جاء ذكر الآلهة التي يتعبدون بها بأسمائها في قوله تعالى : (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ـ النجم ١٩ . ٢٤) ؛ ذكر باحثنا الدكتور أنّ هذه الآيات تشير إلى آلهة مؤنّثة يزعمون أنها بنات الله ، وأنها مؤنّثة بالتاء أو بالألف ، وقد ذكر أن اللات : اللاة ، والعزّى : مؤنث الأعز ولا عزة لها ، ومناة : صخرة اشتقت من النوء، و(اللات كَانَت لثقيف ، والعُزَّى لقريش ، وَمَنَاة لبني هِلال)[٥٤٢] ، وقد التفَتَ الدكتور إلى التناقض الذي وقع به المنافقون من أنهم ينسبون الإناث لله ﷻ ، وفي الوقت نفسه يسمون آلهتهم بأسماء مؤنثة ، وختم بحثه بأنها أسماء لا حول لها ولا حقيقة لوجودها ، وأنّهم يتبعون الظن في ما يعتقدون[٥٤٣] .

---

[٥٤١] المصدر نفسه ٤١ . ٤٢ .

[٥٤٢] تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زَمَنِين ٣٠٨/٤.

[٥٤٣] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ٤٤ . ٤٥ .

المبحث الثالث : الربط بالتكرار بين أجزاء سورة هود

خصّص الدكتور بحثه عن الربط بين أجزاء سورة هود ، وذكر أن هذا الربط والتكرار، كان لِشَدِّ أجزاء السورة ، وقد كان هذا واضحًا في السورة ، وقد قسم بحثه هذا على مباحث :

التكرار المتناسب في افتتاح السورة واختتامها :

وجد الدكتور أنّ افتتاح سورة هود ، امتد إلى أربع وعشرين آية ، تناوب فيه الشرط والقسم والتنبيه بـ(ألا) وأسماء الإشارة ، وذكر أنّ (الشرط وما أشبهه ، للربط بين أمرين ، الثاني منهما يكون نتيجة لحصول الأول، والأول يكون سببًا لحصول الثاني ، أو تمهيدًا لحصوله)[٥٤٤]، وقد جاء الشرط مكرَّرًا في السورة ست مرات ، منها قوله تعالى :

١ . (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ . هود ٣) .

٢ . (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ . هود ٣) ، هو يوم القيامة .

٣ . (**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا** لَكُمْ **فَاعْلَمُوا** أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . هود ١٤) ، إن لم يستجيبوا للتحدّي بالإتيان بعشر سور مثل القرآن فلا بُدّ أن يسلّموا لدعوة الخاتِم[٥٤٥] .

٤ . (**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** وَزِينَتَهَا **نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ** فِيهَا . هود ١٥) .

٥ ، ٦ . (**أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ** مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ **وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ** مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ **فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ** مِنْهُ . هود ١٧) **أي منْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ** مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ كمن لا بيّنة له ، بحذف جواب الشرط .

٧ . (**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ** مِنَ الْأَحْزَابِ **فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ** فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ . هود ١٧) .

---

[٥٤٤] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ٥٢ .

[٥٤٥] التحرير والتنوير ١١ / ٢١٩ .

ووجد باحثنا الدكتور **اجتماع الشرط والقسم** ؛ لإظهار حقائق المخاطبين وتأكيدها، فـ(جملَة الْقسم إِنَّمَا هِيَ مُؤَكدَة لجملة الشَّرْط فَيتَعَيَّن اتِّفَاق المدلولين)[٥٤٦] ، وقد تكرر الشرط والقسم أربع مرات، ومنه قوله تعالى :

١ . (وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . هود٧) ، إنكار البعث ودعوى السحر على سبيل العناد .

٢ . (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ... . هود ٨) ، استعجال المخاطبين بالعذاب .

٣ . (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ. هود ٩)، سرعة اليأس.

٤ . (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ. هود ١٠) ، بطرٌ عند النعم .

أمّا التكرار بـ(ألا) الاستفتاحية فللتحقّق والتوكيد والإيجاب والتنويه[٥٤٧]، ومنه قوله تعالى:

١ . (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ . هود ٥) .

٢ . (أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . هود ٥) ، يثنون صدورهم كناية عن النفاق ، فكأنه قيل : يضمرون خلاف ما يظهرون ليستخفوا من الله ... لئلا يسمعون كلام رسول الله وما يتلو من القرآن ، ليقولوا ما يشتهون من الطعن)[٥٤٨].

٣ . (أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . هود ٨) .

٤ . (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . هود ١٨) .

ثمّ تتكرّر (ألا) نفسها في غير المقدّمة ثلاث مرات ، فكان التكرار للربط الفنّيّ اللفظي والمعنويّ ، والتنبيه على المصير السيّئ الذي صارت إليه أقوام الأمم المُستشهد بقصصهم ، عاد وثمود ومدين ، ممن سبقوا المخاطبين ، لأخذ العبرة ، في قوله تعالى :

---

[٥٤٦] خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ٣٢٠/١١.

[٥٤٧] كتاب سيبويه ٢٣٥/٤، أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ٥٥.

[٥٤٨] تفسير الرازي ١٧ / ١٨٤ ، وأنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ٤٤ . ٤٥ .

١ . (أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ . هُودٍ ٦٠) .

٢ . (أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ . هود ٦٨) .

٣ . (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ . هود ٩٥) .

وقد لحظ الدكتور انتظام التكرار في افتتاح القصص واختتامها، فعلى سبيل المثال وجد:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ . هود ٢٥) .

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ . هود ٦٩) ، جيء بالملائكة لإبراهيم ، لا إرساله .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . هود ٩٦) .

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا . هود ٥٠) .

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا . هود ٦١) .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . هود ٨٤) .

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ . هود ٧٧)

ففي افتتاح قصة نوح وإبراهيم وموسى بـ (لقد) ، ولم يكن خطاب إبراهيم بـ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا)، بل (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم)[٥٤٩] ، لأنّه لم يُرسَلْ بل مُرسلٌ إليه ، وأما قصة عاد وثمود ومدين فبـ (إلى ... أخاهم) ، لكن قصة لوط بـ(لمّا جاءت رسلنا لوطًا...) ، لمناسبةِ التوقيتِ بـ (لمّا) الحينيّة لوصولِ رسلِ العذاب[٥٥٠] .

وجاء تكرار اسم الإشارة بـ(أولئك) سبع مرات في السورة ، في ثلاث منها إلى المؤمنين ، وأربعة منها إلى الكافرين ، ثم ذكر الجمع بينهما في قوله : (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . هود ٢٤).

ختام السورة :

جاءت خاتمة سور هود بعدد يقارب عدد آيات افتتاحها ، وذكر أن المضمون العام لها جاء مخالفًا لآيات الافتتاح ، وأنَّه جاء بأسلوب الشرط أيضًا ، في حين ورد التنبيه على العذاب

---

[٥٤٩] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ٧٦.

[٥٥٠] المصدر نفسه .

في خاتمتها ، وأشار إلى أنَّ الله ﷻ ذكر عذابين ، عذاب قوم عاد وعذاب فرعون ومن تبعه، والجمع بينهما فيه رمزية لاستمرار عذاب الدنيا ، بما هو أشد ، أي بعذاب الآخرة ، مستدلاً بقوله تعالى : (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ . هود ٦٠)؛ وذكر أنّ تكرار الإتباع كان دليلاً على ارتباط العذابين في الدنيا والآخرة ، في حين تكرّر تأخير العذاب للدلالة على فسحة التفكير[٥٥١] ؛ وعلى هذا النحو تتبّع باحثا الدكتور مهدي في سورة هود ، فوجد فيه التوكيد والتذكير والترابط . فضلاً عن ربط الخطاب برسول الله ص في الأواخر، ومنها قوله تعالى : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ . هود ٤٩) وقوله تعالى : (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ . هود ٩٩ . ١٠٠) فوجد تنويعًا في الخطاب الموجه لرسول الله ، مع تكرار (ذلك من أنباء القرى) ، و(كلاً من أنباء الرسل) ، و(تلك أنباء الغيب)[٥٥٢] ؛ ويمكن القول أن تكرار ذكر أنباء الأقوام ، كان تأكيدًا على تحذير الناس من الكفر والإلحاد ، وعدم تصديق النبي ﷺ .

محاور السورة :

أشار الباحث إلى أهمّ محاور السورة إذ وجد أنَّها تنقسم على ثلاثة محاور:

المحور الأول : ذكرُ الكتابِ: وهو المحور الأساس في السورة، وكان على النحو الآتي:

١ طلب المشركين غير الكتب التي أرسلت إليهم : فقد بيّن الدكتور أنّ المشركين طلبوا من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، غير الكتاب وذلك في قوله تعالى : (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . هود ١٢)، وأشار إلى ما هو أشد وأنكر مما فعلوا ، وظاهره في قوله تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . هود ١٣) ، وقد ذكر أن هذه الآية تكررت في سورة

---

[٥٥١] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ٥٩.

[٥٥٢] المصدر نفسه ٦٠ .

هود ، بعد أن يَئِسَ نوح عليه السلام من قومه ، مرة أخرى قال تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ . هود ٣٥) ، (فالتكرار غريب لو لم يتصل بالإحكام المنصوص عليها في أول السورة ، فذلك مما تنامى وانتقل إلى تنبيه المخاطبين ، إذ إنَّ المضمون هو تهديد هؤلاء بما حصل لأولئك بمعنى : (أيؤمن كفار محمد ﷺ بما أخبرهم محمد من نبأ قوم نوح عليه السلام)[٥٥٣] .

٢ الإشارة إلى مضامين القصص في القرآن : وقد اكتفى بإيراد الشواهد القرآنية ومنها قوله تعالى : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ . هود ١٠٠) .

٣ الاستشهاد بكتاب موسى عليه السلام ، وقد استشهد بقوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . هود ١١٠)، وبيّن أن الشبه في تأجيل عذاب المخاطبين بالآية مثل تأجيل عقاب قوم موسى لما شكّكوا بالتوراة ، وقد أشار إلى التأكيد بـ(إن) و(اللام) للتخفيف عن النبي محمد ﷺ؛ لأنّ قومه كقوم موسى، منهم المؤمنون ومنهم الكافرون[٥٥٤] .

المحور الثاني : دعوة الأنبياء لأقوامهم:

ذكر الدكتور أنّ هذه الدعوة تكررت بعدة أساليب ، كان أولها : نهي قوم نوح عن عبادة غير الله ، قال تعالى : (أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ . هود ٢٦) وثانيها : أمر قوم هود وصالح وشعيب بعبادة الله ، بالعبارة نفسها ثلاث مرات الآية ٥٠ ، ٦١، ٨٤ ، في قوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... . هود ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤).

---

[٥٥٣] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ٦٤ .

[٥٥٤] المصدر نفسه ٦٤ . ٦٥ .

المبحث الرابع : التكرار في سورة النجم :

سورة النجم من السور المكية ، التي كانت مؤلّفة من اثنتين وستين آية[٥٥٥] ، وهي (السورة التي قُرِئتْ في المحفل العام في الحرم المكي الشريف ، وأعلنت بها الدعوة المباركة ، وكان سبب نزولها قولَ المشركين : "إنَّ محمدًا يتقوّل القرآن ويختلق أقواله")[٥٥٦] .

وقد وجد الدكتور انتظام التكرار بالعدد ثمانية لإبراز مضامين السورة ، وهي علم النبي من الله ، ورؤيته براهين ربّه ، ونفي نطقه عن الهوى ، والعجب من إنكار المخاطبين الدعوة ، ويوبخهم على الصدود والإنكار... إلخ ؛ فيما يظهر قدرة الباري ﷻ ، وعجائب خلقه ، ويختتم بنذيرهم، وأمرهم بالسجود لله؛ وكان قد عرض التكرار الوارد في السورة على النحو الآتي:

التكرار الأوّل : تكرار صِيَغِ العِلمِ ثماني مرات : في قوله تعالى :

١(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . النجم ٥) ، يعني جبريل[٥٥٧] .

٢(وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ . النجم ٢٨) .

٣(ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ... . النجم ٣٠) .

٤(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ . النجم ٣٠) .

٥(وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى . النجم ٣٠)[٥٥٨] ؛ لقصور علم المخاطبين على الظن[٥٥٩] .

٦(هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ . النجم ٣٢) .

٧(هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى النجم ٣٢) .

٨(أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى . النجم ٣٥) .

التكرار الثاني : تكرار صيغ فعل الرؤية ثماني مرات ، وهي قوله تعالى :

---

[٥٥٥] تفسير مقاتل بن سليمان ١٥٧/٤.

[٥٥٦] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ٩٨ .

[٥٥٧] تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ١٥٩.

[٥٥٨] قال الزمخشري : (قوله تعالى ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ اعتراض أو فأعرض عنه ولا تقابله ، إنّ ربك هو أعلم بالضال والمهتدى، وهو مجازيهما بما يستحقان من الجزاء) ، الكشاف ٤ / ٤٢٥ .

[٥٥٩] فلا يتجاوز ما ألفوه في الدنيا واعتادوه ، أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٠١.

١(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . النجم ١١) .

٢(أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . النجم ١٢) .

٣(وَلَقَدْ رَآَهُ نَزْلَةً أُخْرَى . النجم ١٣) .

٤(لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى . النجم ١٨) .

٥(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . النجم ٢٠) .

٦(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . النجم ٣٣) .

٧(أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى . النجم ٣٥) .

٨(وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . النجم ٤٠) .

وقد قسّم الدكتور فعل الرؤية على ثلاثة أقسام[٥٦٠] : رؤية النبي ص الآيات الكبرى بالتكرار أربع مرات ، أولاً : بمعنى تصديق القلب لما رأت العين ، ثانيًا : السؤال الإنكاري أتجادلونه فيما رأت العين وصدق القلب ، ثالثًا : تأكيد الرؤية مرة ثانية ، رابعًا : تأكيد الرؤيا للآيات الكبرى بقوله تعالى : (لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى . النجم ١٨) قال النّسفي : (الآيات التي هي كبراها وعظماها يعني حين رقي به إلى السماء فأرى عجائب الملكوت)[٥٦١] .

وذكر أنّ تكرار أسلوب الاستفهام مع الفعل (رأيت) جاء لتبصير المخاطبين وطلب الجواب، قال تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . النجم ١٩ . ٢٠) ، وقوله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى . النجم ٣٣ . ٣٤)، والمراد طلب الجواب ، قال الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة : (أفرأيت) هنا بمعنى أخبرني ، ومفعولها الأول الموصول ، والثاني الجملة الاستفهامية (أعنده علم الغيب)[٥٦٢] .

ووجد الدكتور في قوله تعالى : (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى . النجم ٣٥) ، (أَيْ أَعِنْدَ هذا الذي أَمْسَكَ يَدَهُ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ ، وَقَطَعَ مَعْرُوفَهُ ، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ أَنَّهُ سَيَنْفَدُ مَا فِي يَدِهِ حتى

---

[٥٦٠] المصدر نفسه ١٠٢– ١٠٣.

[٥٦١] تفسير النسفي م ٣٩٢/٣ .

[٥٦٢] دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٥٢٧/١.

أَمْسَكَ عَنْ مَعْرُوفِهِ فَهُوَ يَرَى ذَلِكَ عَيَانًا؟ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَنِ الصدقة وَالْبَرِّ وَالصِّلَةِ بُخْلاً)[٥٦٣] ، وقوله تعالى : (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . النجم ٤٠) ، أن الرؤية جاءت للرد على التهديد والوعيد .

التكرار الثالث : تكرار النفي بـ(ما) متلوة بفعل ثماني مرات : في قوله تعالى :

١(**مَا ضَلَّ** صَاحِبُكُمْ . النجم ٢)[٥٦٤] .

٢(**وَمَا غَوَى** . النجم ٢) .

٣(**وَمَا يَنْطِقُ** عَنِ الْهَوَى . النجم ٣) [٥٦٥] .

٤(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ **مَا رَأَى** . النجم ١١) .

٥(**مَا زَاغَ** الْبَصَرُ . النجم ١٧) .

٦(**وَمَا طَغَى** . النجم ١٧) .

٧(**مَا أَنْزَلَ** اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . النجم ٢٣) .

٨(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ **فَمَا أَبْقَى** . النجم ٥٠ . ٥١) .

وقد لحظ باحثنا الدكتور أنّ النفي المسبوق بـ (ما) في ردّ ادّعاءات المخاطبين بما يناسبها كان في ستة من مواضع السورة الأولى ، لردّ اتهاماتهم الباطلة للنبيّ ﷺ بما ينفيها ، أمّا في الموضع السابع ن فـ (ما) لنفيٍ صفة الألوهيّة عن آلهتهم ، والموضع الثامن في نفي بقاء أحدٍ من قوم وثمود الذين أهلكهم الله ، ولم يعتد النفي بـ (إن) لأنها تركبت مع إلّا من ضمن الاستثناء.

التكرار الرابع : التكرار بالاستثناء بـ(إلّا) ثماني مرات : في قوله تعالى :

١(إِنْ هُوَ **إِلَّا وَحْيٌ** يُوحَى . النجم ٤)[٥٦٦] .

---

[٥٦٣] مختصر تفسير ابن كثير ٤٠٣/٢.

[٥٦٤] نفي الضلالة والغواية معًا ، أو كل منهما على حدة .

[٥٦٥] (وَالْهَوَى : مَيْلُ النَّفْسِ إِلَى مَا تُحِبُّهُ أَوْ تُحِبُّ أَنْ تَفْعَلَهُ دُونَ أَنْ يَقْتَضِيَهُ الْعَقْلُ السَّلِيمُ الْحَكِيمُ) التحرير والتنوير ٩٣/٢٧.

[٥٦٦] (أي: ليس ينطق محمد ص بهذا القرآن عن هواه ، بل هو وحي أوحي إليه ، وقيل : هو خبر عن القرآن، أي: ما ينطق القرآن عن الهوى الهداية إلى بلوغ النهاية) ، مشكل إعراب القرآن ١١/ ٧١٤٢.

٢(إِنْ هِيَ **إِلَّا أَسْمَاءٌ** سَمَّيْتُمُوهَا . النجم ٢٣)[٥٦٧] .

٣(إِنْ يَتَّبِعُونَ **إِلَّا الظَّنَّ** وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ . النجم ٢٣) .

٤(لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا **إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ** . النجم ٢٦) .

٥(إِنْ يَتَّبِعُونَ **إِلَّا الظَّنَّ** وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . النجم ٢٨)[٥٦٨] .

٦(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ **إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** . النجم ٢٩) .

٧(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ **إِلَّا اللَّمَمَ** . النجم ٣٢)[٥٦٩] .

٨(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ **إِلَّا مَا سَعَى** . النجم ٣٩)[٥٧٠] .

التكرار الخامس : تكرار الاستفهام بالهمزة ثماني مرات : في قوله تعالى :

١ . (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . النجم ١٢) .

٢ . (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . النجم ١٩) .

٣ . (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . النجم ٢١)[٥٧١] .

٤ . (أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى . النجم ٢٤)[٥٧٢] .

٥ . (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . النجم ٣٣)[٥٧٣] .

٦ . (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى . النجم ٣٥)[٥٧٤] .

٧ . (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . النجم ٣٦)[٥٧٥] .

---

[٥٦٧] ليس وراء الأسماء شيء ، وقد (سُلِبَ عنها مطلق الوجود إلّا ... وجودًا من الموجودات إلّا أسماء) ، الاستغناء في أحكام الاستثناء ٦٥٦ .

[٥٦٨] أكّد (الظنّ) الذي يتبعونه باللفظ نفسه مرة أخرى ، بـ (إنْ) و(إلّا) .

[٥٦٩] اللَّممُ ما كان من غير الكبائر والفواحش، وهو ما قلَّ وصغُر من الذنوب، وقد عفا الله عنه، البحر المحيط، غ.م ١٥٤/٨.

[٥٧٠] قيل أن السعي سعي القلوب وسعي النيّات والرغبات لا سعي الأقدام. التفسير البسيط ٤٥٥/٢١ .

[٥٧١] ألكم النوع المُستحسن وله المذموم بزعمكم ، البحر المحيط، غ . م ٨ / ١٥٦ .

[٥٧٢] استفهام بالهمزة المحذوفة للإنكار بوجود أم المنقطعة ، أي ليس للإنسان ما تمنى ، الكشاف ٣ / ١٧٨ .

[٥٧٣] يعطي ثم يتوقف لقول أحدهم (اعطني ناقتك برحلها ، وأنا أحمّل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه و أشهد ، وأمسك عن العطاء) الكشاف ٣ / ١٧٨ .

[٥٧٤] (أعند هذا الذي ضمن صاحبه أن يتحمّل عنه عذاب الله في الآخرة؟) جامع البيان ٢٧ / ٧٤ .

٨ . (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . النجم ٥٩)[٥٧٦] .

وقد وجد الدكتور أنَّ الاستفهام ورد للدلالة على الإنكار، أو التوبيخ ، أو التعجب . وقد علق عليه بقوله : (يبدو أن الاستفهام الذي تكرر ثماني مرات ناسب النفي المتكرر بالعدد نفسه، في بدء السورة وختامها)[٥٧٧] .

التكرار السادس : تكرار توكيد (ربَّك) أو ضميره مسبوقًا بـ(إنّ) أو (أنّ) ثماني مرات : في قوله تعالى :

١ (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى . النجم ٣٠) صدق الله

٢ (إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ... . النجم ٣٢) .

٣ (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . النجم ٤٣) .

٤ (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . النجم ٤٤) .

٥ (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى . النجم ٤٨) .

٦ (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . النجم ٤٥) .

٧ (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى . النجم ٤٩) .

٨ (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى . النجم ٥٠) .

لم يأتِ بضمير الفصل (هو) ، لأنه لم يحتج إلى توكيد الخبر بها ، إذ لم يدّعِ أحدٌ غيره جّلَّ وعلا هذا الإهلاك ؛ والتوكيد لما يناسب موضوعات السورة :

أ . عِلمُه عز وجلّ بالضال والمهتدي .

ب . علمه بالمتقي من المخاطبين .

ج . قدرته جل وعلا على الإحياء والإماتة والإغناء الإفقار والإضحاك والإبكاء .

---

[٥٧٥] ألم يجد ذلك في صحف إبراهيم وموسى ، الميزان ١٩ / ٤٧ .

[٥٧٦] (كان عليكم أن تبكوا لما فرطتم في جنب الله، أفمن هذا البيان الذي يدعوكم إلى النجاة تعجبون إنكارًا، وتضحكون استهزاءً ، ولا تبكون) الميزان ١٩ / ٥٣ .

[٥٧٧] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٠٩.

د . خلقه الذكور والأناث ، ليناسب (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى) .

هـ . ربوبيته لما يدّعون من شركاء، والتهديد بسوء مصير المعاندين من الذين سبقوا المخاطبين .

التكرار السابع : تكرار الضمير(هو) العائد على الله ﷻ ثماني مرّات : في قوله تعالى:

١ (هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ . النجم ٣٠) .

٢ (وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى . النجم ٣٠) .

٣ (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ . النجم ٣٢) .

٤ (هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى . النجم ٣٢) .

٥ (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . النجم ٤٣) .

٦ (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . النجم ٤٤) .

٧(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى . النجم ٤٨) .

٨ (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى . النجم ٤٩) .

والتوكيد بـ(هو) الدالة على قدرة الله ثلاث مرات و(هو أعلم) خمس مرات، ولعل هذا التكرار بهذا الصدد وهذا الانتظام وهذا التناسق الدقيق المحسوب قد كان مقصودًا ووحدة فنية متكاملة فرضت نفسها على الباحث .

وقد توثّق بالتكرار بالعدد ثمانية (العِلم) برؤيةِ الآيات الكبرى ، ثمّ ظاهَرَ (العِلم) و(الرؤية) التناظر يتناوب التكرار بثماني مرّات لأساليب ومفردات وُضعت وضعًا دقيقًا عجيبًا ناسب مضمون السورة ، وبهذا شدَّ أجزاء بعضها إلى بعض ، وهي العنوانات التي قسّم بحسبها هذا البحث .

ويختم باحثنا الدكتور بأنّ التكرار بـ هذا العدد وهذا الانتظام والتناسق الدقيق المحسوب مقصودٌ قرآنيًّا ، وهي النتيجة التي دُوِّنَت من دون أن يقصدها الباحث قصدًا ، وقد اقتنع بتثبيتها ووصفها كما هي .

المبحث الخامس

الجدل والنجوى في سورة المجادلة

المقدمة

ناجيته : سارررته ، وناجى الرجل مُنَاجَاة ونِجَاءً : سارّه[٥٧٨] ، والنَّجِيُّ : المتسارُّون ، وَفِي التَّنْزِيل: (إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى . الإسراء ٣٧) ، أي الله أعلم بآذانهم التي يستمعون بها إليك ، وأعلم بقلوبهم إذ هم نجوى ، إذ يناجي بعضهم بعضًا ، والنَّجْوى : مصدر يوصفُ به الواحد والمثنى والجمع؛ وَقَوله : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ . المجادلة ٧) ، لأنّ الله أعلم بمناجاتهم فيما يتسارّون .

وفي دراسة خصّها باحثنا الدكتور لسورة المجادلة ، لاحظ تكرار صيغ النجوى فيها عشر مرات، من ستّ عشرة مرة في جميع سورِ القرآن الكريم ، في حين تكرّرت صيغ (الجدال) تسعًا وعشرين مرة في سور القرآن الكريم ، لكنّ السورة المباركة سميت بسورة المجادلة لا النجوى ؛ لافتتاحها بقوله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا . المجادلة ١) ؛ وقد وردت النجوى إلى جانب الظهار، ومنها نجوى المنافقين الذين يريدون تفريق المسلمين والقضاء عليهم، وقد ذُكِرَ أنّ السورة جمعت بين الكلام الظاهر، والخفي، وقد بيّنَ أنّ لسورة المجادلة موضوعين أساسين ، هما سماع قول المجادلة ، والعلم بنجوى الإثم والعدوان[٥٧٩] ، وقد عرض باحثنا ، سماع الجدال ، وضروب النجوى وما يستتبعها في نقاط ، هي :

سماع جدال المرأة :

ربطت السورة الكريمة بين موضوعيها الرئيسين : السماع والنجوى ، وكان التّكرار بعشر مرّات :

أ . لصيغ النجوى .

ب . لألفاظ السماع والقول .

---

[٥٧٨] المحكم والمحيط الأعظم ٧/ ٥٥٩.

[٥٧٩] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٢٠.

ت . لألفاظ العلم والعمل والرؤية .

ث . لتكرار نجوى الإمام بعد سَنِّ الصدقة للرسول الأعظم[٥٨٠] .

بدأت السورة بتحقّقِ السماع للحديث في قوله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ـ المجادلة ١) ، عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ تَشْتَكِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ص ، وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا...)[٥٨١] .

وأشار الدكتور إلى تكرار الأفعال (سَمِعَ، يَسْمَعُ، سَمِيعٌ) ، وذكر أنّ في هذا التكرار توكيدًا لحصول السماع ، وذكر أيضًا أنّ هذا التوكيد بهذا المعنى جاء استجابةً لما كان من جدال وشكوى وحوار، وأنّ السماع بهذه الصيغ جاء مناسبًا ، ولو جاء لفظ الاستجابة بدلاً عن السماع لخلا النظم من الإعجاز ولما بلغ مراتب البلاغة ، وقد انقسم الحوار على ثلاثة أقسام ، الأول: جدالها مع زوجها الذي ظاهر منها، والثاني: شكواها إلى الله في قوله تعالى: (وتشتكي إلى الله)، ومراجعتها فيما يترتب على الظهار من الحرمة ، ثم استنزال الرحمة بالدعاء إلى الله[٥٨٢] .

وذكر الدكتور في بحثه أن الله ﷻ وصف نفسه بالسميع إحدى وأربعون مرة ووصف نفسه بالبصير اثنتان وأربعون مرة في القرآن الكريم ، ليعلم الإنسان أن الله ﷻ سميع بصير لكل أفعاله . وقد لاحظ تأكيد ألفاظ السمع مع لفظ الجلالة في سورة المجادلة من دون نيابة الضمير أربع مرات مع اختلاف التركيب وما كان ذلك كله إلَّا لتوكيد التمكن لله وحده واستجابته وحده[٥٨٣] . وقد جاء رد الظهار في قوله تعالى : (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ

---

[٥٨٠] المصدر نفسه ١٦٣ .

[٥٨١] السنن الصغير للبيهقي ٣/ ١٣٨.

[٥٨٢] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٢١-١٢٤.

[٥٨٣] المصدر نفسه ١٢٥.

وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . النجم ٢ . ٣) .

وكان (وَجْهُ هذَا القَوْلِ : إنَّ الظِّهَارَ هُوَ تَحْرِيمُ الوَطْءِ ، فَمَتَى عَادَ المُتَظَاهِرُ إلى الوَطْءِ ، الذي كَانَ قَدْ حَرَّمَهُ على نَفْسِهِ فَقَدْ لَزِمَتْهُ الكَفَّارَةُ)[٥٨٤] .

نجوى المعصية، ونجوى البر والتقوى:

(النجوى : كلام بين اثنين ... تقول ناجيتهم وتناجوا فيما بينهم، وكذلك انتجوا، والقوم نجوى)[٥٨٥] ، وقد ذكر ما جاء في سورة يوسف من النجوى ، في قوله تعالى : (فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا . يوسف ٨٠) ، وقد بيَّن معنى هذ الآية أنهم لما استيئسوا من يوسف أن يخلي عن سبيل أخيه ، ولم يقبل بأن يأخذ واحدًا من أخوته مكانه، خرجوا إلى خلوة ؛ ليتناجوا بينهم ؛ ليروا ما يكون من أمرهم ، وقد وجد الدكتور أن مضامين النجوى وأطرافها ، تختلف في سورة المجادلة ، وقد فرّق بين أنواع هذه النجوى فكانت على النحو الآتي[٥٨٦] :

١-نجوى المنافقين :

لا شك أنّ المنافقين لا تكون نجواهم إلَّا لإحداث الضرر بالمسلمين ، وقد ذكر الدكتور أن هذا النوع من النجوى منهيٌّ عنه ، ومع وجود النهي تكررت نجواهم وهو دليل على إصرارهم على المعصية[٥٨٧] ، وبيَّن أنَّ اليهود كانوا السبب الذي أوجد صورة النفاق أو زادها في المجتمع الإسلامي ؛ لما لهم من خبرة وقدم في محاربة الرسالات السماوية وقد استدل بقوله تعالى : (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . البقرة ٨٧) ، ومما جاء في تفسير هذه الآية قول أبي اسحاق الثعلبي (٤٢٧هـ) : (فلما سمعت اليهود بذكر عيسى قالوا : يا محمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت ، ولا كما تقصّ علينا من الأنبياء فعلتَ ، فأتنا

---

[٥٨٤] تفسير الموطأ ٣٦٨/١.

[٥٨٥] كتاب العين ١٨٧/٦ ، وأنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٣٠ .

[٥٨٦] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٣٠-١٣٣.

[٥٨٧] المصدر نفسه ١٣٣.

بما أتى به عيسى إن كنت صادقًا ، فقال الله تعالى : (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ) يا معشر اليهود (بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ) أي: بما لا تُحب ولا توافق أنفسكم، (اسْتَكْبَرْتُمْ) تكبرتم وتعظمتم عن الإيمان به ، (فَفَرِيقًا) أي : طائفة ، سميت بذلك لأنها فُرِّقت من الجملة (كَذَّبْتُمْ) عيسى ومحمدًا (وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) أي: قتلتم زكريّا ويحيى وشعيبًا وسائر من قُتلوا من الأنبياء)[٥٨٨] .

٢-نجوى البرّ والتقوى:

تختلف هذه النجوى في ما تحمله من مضمون، إذ لا يكفي أن يتصف المناجي بالإيمان ليكون له الحق في المناجاة ، بل لا بُدَّ من أن يلتزم الشرط الذي ورد في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . المجادلة ٩)؛ وأشار إلى ما يجري من نجوى بين اثنين بوجود ثالث ، فقد نقل الحديث الشريف : (إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد)[٥٨٩] ، وذكر أنّ في هذا الحديث وما شابهه إشارة إلى ما كان من فعل اليهود ، وهم يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم ليغيضوا المؤمنين بفعلهم هذا[٥٩٠] .

٣-نجوى الاختصاص المسبوق بصدقة:

وقد خُصَّصَت هذه النجوى برسول الله ﷺ ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً . المجادلة ١٢)، وقد عمل الدكتور على بيان مفاهيم هذه الآية، وذكر أن الصدقة دليل على الصدق في الإيمان ، وبعد بيان سبب هذا الأمر الإلهي في أن الناس شقت على الرسول ، وأراد الله أن يخفّفَ عليه من كثرة مناجاتهم فجعل شرط المناجاة الصدقة، قال قتادة : (كَانَ الناسُ أحفوا رَسُول الله بِالْمَسْأَلَة حَتَّى آذَوْه ؛ فقطعهم اللَّه عَنهُ بِهَذِهِ الآيَة)[٥٩١] ، ويبدو أن هذه الآية لم تنفذ مضمونًا إلاّ علي ابن أبي طالب ، فقد نقل الدكتور عن

---

[٥٨٨] الكشاف والبيان عن تفسير القرآن ٤٣٩/٣ .

[٥٨٩] صحيح مسلم ١٢/٧.

[٥٩٠] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية: ١٤٠ .

[٥٩١] تفسير الكتاب العزيز، ابن أبي زمنين ٣٦٢/٤.

صاحب زاد المسير قوله : (ولم يقدم من أهل الميسرة صدقة غير علي بن أبي طالب)[٥٩٢] ، وقد ذكر أن عليًا عليه السلام تفرّد بتقديم الصدقة وكرّر تقديمها عشر مرات في حين تقاعس عنها الآخرون، وذكر اعتراض بعض المفسرين لمن امتنع عن تقديم الصدقة وكأن لهم الحق بالاجتهاد أمام الأمر الإلهي، ثم رتب عرض الآراء وهي على النحو الآتي بإيجاز[٥٩٣] :

١-إن الصدقة متروكة بالنسبة للمتمكن الممتنع بالوحشة، ولغير المتمكن بالضيق[٥٩٤] .

٢-إن الصدقة مندوبة، إي ليست من الواجبات، فلا معصية ولا عقوبة[٥٩٥].

٣-أن الصدقة واجبة إلا أن الوقت لم يتسع للعمل بها، لأنها نسخت[٥٩٦].

٤-إن الصدقة اختبارية وخففت بمراحل[٥٩٧]:

أ- اختبار من ناجى النبي، وقد تفرد بها علي بن أبي طالب عليه السلام.

ب- مرحلة تخفيف مقدار الصدقة، وقد نسب التخفيف لعلي عليه السلام أيضًا.

ت- إن شدة عناية الرسول بالأمة دليل على لطفه بنسخ الآية بعد فرضها.

وبعد عرض حجج المعتذرين . التي تقدم ذكرها . قال باحثنا الدكتور: (لم يرد في الآية نهي عن المناجاة ، وإنمَّا ورد تقديم الصدقة على المناجاة ، فمن عمل بالآية حصل له الفضيلة من جهتين، سدّ خلَّة بعض الفقراء ، وأخرى محبة نجوى رسول الله ص ففيها القرب منه وحلّ المسائل العويصة وإظهار أن نجواه أحب إلى المناجي من المال)[٥٩٨] .

أطراف النجوى ومضامينها :

---

[٥٩٢] زاد المسير ٨/ ١٩٥، وأنظار لسانية ١٤٢.

[٥٩٣] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٤٥-١٤٧.

[٥٩٤] تفسير الرازي ١٦٧/٨.

[٥٩٥] نظم الدرر ٣٨٤/١٩.

[٥٩٦] زاد المسير ١٩٥/٨.

[٥٩٧] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٤٧-١٤٨.

[٥٩٨] المصدر نفسه ١٤٩.

يمكن أيجاز أطراف النجوى ومضامينها بموجز قصير، إذ جعلها الدكتور أشبه بنتائج لما قدمه في بحثه عن النجوى ، فوجد أن أطراف النجوى كانت على النحو الآتي[٥٩٩] :

١-نجوى المنافقين : نجوى الإثم والعدوان، وذكر أن هذه النجوى قد تكون مع اليهود، أو فيما بين مجتمع المسلمين ، أو مع الرسول ص للإيحاء بوجود أمور غير معروفة لبلبلة صفوف المؤمنين .

٢-نجوى المؤمنين: بالبر والتقوى : فيما بينهم أو مع النبي للاستشارة أو الموعظة.

٣- نجوى النبي بعد الأمر بالصدقة : وقد تفرد بها الإمام علي عليه السلام.

[٥٩٩] المصدر نفسه ١٤٩ . ١٥٠.

المبحث السادس : الزمن في سورة الحاقة

المقدمة

(الحاقّة : يوم الجزاء والنتيجة ، ويوم استحقاق الحقّ الموعود ، الذي سيكون في المستقبل، فزمان الحاقّة زمان الحساب الأخرَويّ بعد أن ضُرِبَ للناس في حياتهم الدنيويّة ، وامتدّ زمان نصّ سورة الحاقّة ما بين الحاضر ، حاضر المخاطبين بين أهل مكة ، وزمان المستقبل ، زمان وعدهم ووعيدهم ، ولم يَخلُ من ضربِ المثل بالماضي ، ماضي الأقوام الذين أهلكوا بسبب تكذيبهم بهذا اليوم ، يوم الحاقة ، فالحاقّة دالّة على حدث وزمان مصيريّ ، فيه ما فيه من وقت ، يحقّ فيه الحقّ ، إذ يرى فيه الناس ما وُعِدوا ، وما قدّموا ، وقد أدّى هذا المعنى قرائن زمنيّة تضافرت مع اللفظ المحوريّ ، لفظ الحاقّة)[٦٠٠] .

وتكرار كلمة (الحاقّة) في أوّل السورة مع وجود المرادف (القارعة) ، أو الضمير الذي يعود على (الحاقّة) يحوج إلى تأمّل ، وكان باحثنا الدكتور قد تساءل عن سبب هذا التكرار المتلاحق للفظ نفسه ، ولأربع مرات متتابعة ، ورجح أنّ الضمير لا يعطي ما يعطيه التكرار، لأنّه يُبدِّدُ قوة الإيقاع بهذا التكرار، ويضعفُ التأثير في المخاطبين[٦٠١].

أمّا التهديد بسوء العاقبة فكان بالأفعال الماضية (كذبت، وأهلكوا، وسخرها، وجاء، فعصوا، وأخذهم، وطغى، وحملناكم) ، التي وردت في قوله تعالى : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . الحاقة ٣ . ١١) .

وكان أسلوب الالتفات بربط الخطاب في السورة بين المكذّبين السابقين المشار إليهم بضمير الغائب (لهم) ، للإشارة إلى الزمن الماضي ، وللمخاطبين بكاف الخطاب (حملناكم)

---

[٦٠٠] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٦٧ .

[٦٠١] المصدر نفسه ١٦٨-١٦٩ .

و(لكم) ، للإشارة إلى الزمن الحاضر، وكأنّ النّص يريد أن يشرك هؤلاء المخاطبين في تأمّل ما كان يجري ، وأنّهم معنيّون بما جرى للمكذبين السابقين ، وهذه هي قصتهم ، وأنّ ما جرى كان السبب في وجودهم ، ليأخذوا العظة والعبرة ، في قوله تعالى : (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ـ الحاقة ٧ . ١٢) ؛ وقد ربط الماضي بحاضر المخاطبين ، (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) الآية ، وفيه أنتم يا أبناء أولئك الناجين من الطوفان ، أيليق بكم أن تكفروا ؟ وكان الأجدر بكم أن تكونوا إلى جانب النبيّ ﷺ ، وبهذا يتأكّد معنى الحاضر ؛ حاضر المخاطبين ؛ ثمّ يتحوّل النصّ إلى المستقبل بإذا الشرطيّة، في تتابع زمني سريع لأحداث تنقضي بها أسباب الحياة الدنيا ، لتغيّر الأرض والجبال والسماء، ليتحوّل كلّ الوجود الدنيوي باتجاه يوم الحاقة ، فينسجم ما في النصّ مع التحوّل الكبير، والتغيّر الهائل والخطير، تنبيهًا للمخاطبين على ما سيكون عليه مصيرهم ، في ذلك اليوم العصيب ، يوم العرض ، الذي تنكشف فيه جميع الخفايا ، في قوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ـ الحاقة ١٨)[٦٠٢] ، و(يَوْمَئِذٍ) يوم الحاقّة ، ويؤكّد هذا بالقسم في قوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ـ الحاقة ٣٨ . ٤٢) ، ونزّه بهذا القسم ما ينسبونه إلى النبيّ ﷺ من ادّعاءات ، بما مكّنه الله به من البصر الذي يرونه بها ، ليتوصّلوا إلى امتناع أن يصدر منه ما يتقوّلون به ، بـ (لو) الامتناعيّة[٦٠٣] ، في قوله تعالى : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ـ الحاقة ٤٤ . ٤٥) .

أمّا ما تضمنته السورة من الأزمنة : فزمان الماضي ، والحال ، والمستقبل الدال على ما ستؤول إليه الأحداث ، ذلك ما جاء في قوله تعالى : (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ

---

[٦٠٢] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٧٠ .

[٦٠٣] المصدر نفسه ١٧٠ . ١٧١ .

الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ . الحاقة ١٧) ، وقد وجد أنّ الزمن توزّع على محاور السورة :

١- الزمن الماضي : هو زمن الأقوام الذين سبقوا المخاطبين ، لتوكيد الحصول[٦٠٤].

٢- الزمن الحاضر: زمان المخاطبين بدلالة الكاف وتاء المضارعة ، (ما أدراك، وترى القوم) جرت مجرى المثل ، وعلى سبيل الفرض بمعنى أن المخاطب لو كان حاضرًا لرأى[٦٠٥] .

٣- زمن المستقبل : زمن الحاقة الموعود به ، ووجد باحثنا الدكتور أنّ أفعالَ المستقبل أكثر من أفعال الحاضر، وأفعال الماضي أقل تكرارًا من المستقبل والحال[٦٠٦].

وكان الزمان التقويمي المستند إلى انتظام دوران الأرض وحركة الأفلاك ؛ بدءًا من اليوم والشهر والفصل والسنة ... الخ ، تعبيرًا عن قدرة الله على إنهاء هذا الزمن (فإذا نُفِخَ...) إذ تنعدم أجزاء الكون ويكون التحوّل إلى زمن الآخرة زمن الحاقة بإرادة الله تعالى، خالق الكون ونظامه كما يشاء ومتى يشاء وهو على كل شيء قدير.

---

[٦٠٤] المصدر نفسه ١٧٢-١٧٣.

[٦٠٥] التيسير في التفسير، النسفي ٢٨٥/٣، والتحرير والتنوير ١١٣/٢٩، وأنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٧٤.

[٦٠٦] أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٧٤.

الفصل السابع
الأفعال الناسخة

المبحث الأول : دواعي التأليف

يبدو لمن يتابع السيرة العلميّة للدكتور مهدي صالح ، أنّه اعتنى بالنحو ولاسيّما في مرحلة تأسيسه ، مثلما عرضنا ، وتَعَزّزَ ذلك حين فكّر في سنة ١٩٨٨ في رسالته للماجستير؛ وقد اختار في هذه الرسالة الجمع بين قديم النحو وجديده ، تحت عنوان : (الأفعال الناسخة ، في دراسات المحدثين) ، وكانت هذه الرسالة قد طبعت في كتاب في بيروت عام ٢٠١١ عن دار الكتب العلميّة ، وكان في ذهنه التفكير في عرض أهميّة آراء القدماء لكن من دون تحيّز ولا إلغاء لآراء المحدثين ، وقد تضمن هذا الكتاب نظرة فاحصة للأفعال الناسخة عند المحدثين ، تقدمها أولاً : منطلقات التفكير النحوي وأركان بنائه ، والأسس التي استُنِد إليها في دراسة هذه الأفعال ، ثم تلاها جملة الأفعال الناسخة وإسناد أركانها ، ثم الدلالة التي تحققها هذه الأفعال ، ثم زاد فصلاً اختص بدلالتها على الزمان ، وترى الباحثة أنَّ تتبع تفاصيل هذا الكتاب أو هذه الرسالة ، يوجبُ التعرف على المنهج الذي اتّخذه ، وإلى ما أراد تحقيقه ، وما كان يفكّر فيه .

إذ قال في مقدّمته لكتابه : (آثرتُ النحو على غيره ، وزادت مهنة التعليم الألفة بيننا، فاستولى علَيّ وأخذني ، ولم يُغرِني غيره ، ووجدتُني أبحث في أوسع باب من أبوابه وأكثرها دورانًا على الألسنة ، باب الأفعال الناسخة التي تؤلّف ربع العربيّة في الاستعمال[٦٠٧] ، وكانت جملها وسطًا بين جمل العربيّة ، فهي أفعال دخلت الجملة الاسميّة ، عوامل ومعاني أثّرت فيها وغيّرت إعرابها ، وكذلك في تركيبها ودلالتها ؛ وقد اعترض سبيلي أساتذة أجلّاء وزملاء أفاضل، وحجّتهم أن لا أجد جديدًا في مثلِ هذا الموضوع ، فيما شجّع الآخرون الباحث ، لأهميّة آراء المحدثين ، وأنّهم نزعوا لإنشاء جديد ، كان في مجمله ينحو إلى إلغاء القديم ، أو التشكيك في الأصول التي بُنِيَ على وفقها ، ولاسيّما في الأفعال الناسخة ، إذ أثاروا أوهامًا وشبهات ، ودعا بعضهم إلى إلغاء هذا الباب ، وإلحاق ما يخصّه بأبواب الفعل العام)[٦٠٨] .

---

[٦٠٧] في علم النحو ٧ .

[٦٠٨] الأفعال الناسخة ، في دراسات المحدثين ٣ .

ويقولُ أيضًا : كنتُ مع من يرى إمكان مراجعة القديم بموازاة الحديث أو إلى جانبه ، إذ تتضاءل فيما نقله عن الدكتور عبد السلام المسدّي (الحواجز التي كانت بين البحث النحوي في مفهومه الفيلولوجي والبحث اللغويّ الحديث كما سَنّتهُ اللسانيّات بمختلف تيّاراتها ... وإنّ النحو واللسانيّات يقفان على مصادرتين لا تتماهيان ولا تترافضان ، فليس الإقرار بإحداهما بمقتضٍ إلغاء الأخرى ، وبناء على ذلك تيَسّر تناول مسائل اللغة بدرسها من خلال المنظورين سواء بالتعاقب أو بالتواقت)[٦٠٩] .

وكان من جملة ما فكّر فيه ، ليكونَ الكتابُ أكثرَ مطابقةً لمضمونه ، وأكثر قربًا من منهجه ، الذي ربما يتساوق مع ما دعاه الأستاذ مصطفى غلفان : (لسانيّات التراث) ، الذي يقول : إنّ (من غايات لسانيّات التراث وأهدافها قراءة التصوّرات اللغويّة القديمة وتأويلها وفق ما وصل إليه البحث اللسانيّ الحديث ، والتوفيق بين نتائج الفكر اللغويّ القديم والنظريّات اللسانيّة الحديثة ، وبالتالي إخراجُها في حِلّةٍ جديدة تبيّنُ قيمتها التاريخيّة والحضاريّة)[٦١٠] ، وربّما راجع هذا الفهم أو حدّده ، أو منع من المبالغة فيه ما ذكر الأستاذ حافظ إسماعيلي علوي ، الذي يقول : (إنّنا نميّز في هذا بين توجيهين مختلفين اختلافًا جليًّا : توجّه علميّ يقيّم المقارنة على أسس علميّة دقيقة ويعِي حدودها ، وبذلك لا يدّعي سبقًا أو تميّزًا أو مفاضلة بين التراث اللغويّ العربي والنظريّات اللسانيّة الحديثة ، وتوجيه أيديولوجي يسعى إلى المفاضلة وادّعاء السبق ... وهذا ينأى عن أصول العلم ومبادئه ...)[٦١١] .

لكنّ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح يَذكُرُ أنّ (المقصود من هذا ليس أن نأخذ كلّ ما يقوله المحدثون من علماء اللسانيّات وننطلق منه كأصول ثمّ ننظر ما الذي يوافق ذلك فيما جاء به العلماء القدامى من أقوال فنحكم عليها بالصحة لموافقتها لها وبعضها بالخطأ ... لمخالفتها ... لا نريد النظر فيما أخرجه القدامى وفي أعيننا نظارات خاصة بالعصر الذي

---

[٦٠٩] العربية والإعراب ٥ .

[٦١٠] اللسانيّات العربيّة الحديثة ٩٢ .

[٦١١] اللسانيّات في الثقافة العربيّة المعاصرة ١٤٨ .

نعيش فيه فنطمس الرؤية القديمة بالرؤية الجديدة ... إنّ لكلِّ عصر نظرة خاصة وتصوّرًا خاصًّا للظواهر وكيفيّة خاصّة للكشف عن أسرارها ؛ والمنظور العربيّ يتميّز بلا شكّ في هذه العلوم اللسانيّة عن المنظور الغربي الحديث ثمّ لا بدّ أن نعرف أنّ الكثير مما هو موجود عند الغربيين وَرِثوه عن الحضارة اليونانية ...)[٦١٢] .

أمّا ما يخصّ موضوع البحث ، أي الأفعال الناسخة فقد وجد باحثنا الدكتور مهدي صالح أنّ الذي يفرّق بينها وبين غيرها كان قد نشأ من التفكير في مكوّنات الجملة العربيّة في تمامها ونقصانها ، فالنقصان : (عدم اكتفاء الفعل بالاسم المرفوع بعده ، بل يبقى المعنى ناقصًا محتاجًا إلى الإكمال ، حتى يأتي الاسم المنصوب ، فتكمل الجملة ، ويكون معناها تعليق الخبر على المبتدأ بوساطة الفعل الناقص ، أو بعبارة أخرى : نسبة الخبر للاسم بوساطة الفعل الناقص ، في مثل ما جاء في القرآن : "وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ـ الإسراء ٢٧" ، وقوله : "فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ـ الواقعة ٦")[٦١٣] .

أمّا مصطلح الناسخ فلأنه العامل الذي ينسخ الأحكام النحويّة ويغيّرها ، ويؤدّي عمل الرفع والنصب ، ويزيل أثر ما قبله من العوامل[٦١٤] ، والنسخ إبطالُ الشيء وإزالته ، وإقامة آخر مقامه ، وفي القرآن الكريم ، قولهُ تعالى : (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ـ البقرة ١٠٦) ، كلِّ الآياتِ خيرٌ، وإنَّما المعنَى : نأتِ بخيرٍ منْها لكمْ ، وأخفَّ عليكُم . ومنهُ قولهُم: نسختِ الشَّمسُ الظِّلّ ، أيْ أذهبتهُ ، وحلَّتْ مكانهُ . والمعنَى الآخرُ أنَّ نسخَ الشَّيءِ هوَ الإتيانُ بمثلهِ)[٦١٥] .

وقد فرّق باحثنا الدكتور بين الأفعال الناسخة وغيرها من الأفعال ، متخذًا من قول سيبويه سندًا له ، إذ يرى سيبويه أنَّ المرفوع والمنصوب بعد الناسخ لشيء واحد وقد ربط ظاهرة

---

[٦١٢] السماع اللغويّ العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ٨ .

[٦١٣] النحو المصفى ٢٥٠.

[٦١٤] النواسخ في كتاب سيبويه ٢١.

[٦١٥] التلخيص في معرفة أسماء الأشياء ٤١٧.

كان وأخواتها بظن وأخواتها بقوله : (لا يجوز فيه الاقتصار على الفاعل كما لم يَجَزْ في ظننت الاقتصار على المفعول الأول)[٦١٦] ، وعلى هذا الأساس اتضح (اختلاف معنى المفعولية في ضربت وأعطيت عنها في الأفعال الناسخة ، وأنَّ سيبويه وإن أورد (ظننت وأخواتها) في باب الفاعل وفي تسلسل الفعل الذي يتعدى إلى مفعولين ، وكذلك (كان وأخواتها) في التسلسل المتعدي مفعول واحد ، لكنَّه في كلامه وتمثيله يتجاوز الرفع والنصب "فيما سميت بالعوامل" إلى الصلة بين أجزاء التركيب من تشابه وإلى ما سمي فيما بعد بنسخ حكم المبتدأ والخبر)[٦١٧].

---

[٦١٦] كتاب سيبويه ٤٥/١ .

[٦١٧] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٦.

المبحث الثاني : الأفعال الناسخة في كتاب سيبويه

تعامل النحاة مع اللغة كأيّة مادة فكريّة ، بعد تدوين المدوّنات الأولى لعلوم اللغة العربيّة، واستقرَّ النحو بعد ظهور كتاب سيبويه ، الذي ميّز هذه الأفعال بأبواب خاصّة ، وقد وجد أنّ (كان وأخواتها) تختلف عن غيرها من الأفعال في التأثير بما بعدها ، إذ إنّ المتلازمين، وهما (المرفوع والمنصوب) بعدها لشيء واحد ، في قوله : (هذا باب الفعل الذي يتعدّى اسم الفاعل إلى اسم المفعول واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد)[٦١٨] ؛ مثل : كان زيدٌ قائمًا ، فزيدٌ القائم ، والقائم هو زيد ، فيما ضرب زيدٌ عمرًا ، أنّ زيدًا غيرُ عَمرٍو ، وعمرٌو غيرُ زيدٍ ، ويربط ظاهرة عدم الاقتصار على الأوّل في (كان) مع (ظننت) ، بقوله : (لا يجوز فيه الاقتصار على الفاعل كما لم يجز في ظننت الاقتصار على المفعول الأوّل ، لأنّ حالك في الاحتياج إلى الآخر ههنا كحالك في الاحتياج إليه ثمّة ... ألا ترى أنّك لا تقتصر على الاسم الذي يقع بعدهما كما لا تقتصر عليه مبتدأً ، والمنصوبان بعد حسبت بمنزلة المرفوع والمنصوب بعد ليس وكان، وكذلك الحروف التي بمنزلة كان ؛ لأنهما يجعلان المبتدأ والمبنيّ عليه فيما مضى يقينًا أو شكًّا أو علمًا ، وليس بفعل أحدثته منك إلى غيرك كضربتُ وأعطيتُ، إنّما يجعلان الأمر في علمك يقينًا فيما مضى)[٦١٩] .

وأوضح سيبويه الاختلاف بين الجملتين من دون استعمال مصطلح النقص الذي شاع ، أو مثلما ادُّعِيَ لاحقًا من نقص حدثها ، أو نسخ الوظائف وما يتركه من تأثير في المعمولين ، أو أنّها أدوات أو حروف ، أو أفعال لفظيّة ، أو أفعال عبارة ، أو أفعال في دلالة الوضع من دلالة المعنى... إلخ[٦٢٠] .

---

[٦١٨] كتاب سيبويه ١/٤٥ .

[٦١٩] المصدر نفسه ١/٤٥ ، و٢/ ٣٦٥ . ٣٦٦ .

[٦٢٠] مسائل خلافيّة في النحو ٦٧ ، والإيضاح في شرح المفصل ٢/ ٧٢، الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٧.

ووجد أنّ وظيفة الأفعال الناسخة لا تنحصر في مجرّد أثرها الإعرابيّ ، بل تتعدّاه إلى تغيير نظام التركيب ودلالته فجملها تختلف عن جمل الأفعال الأخرى ، وأنّ ما تدخل عليه هذه الأفعال جملة لا إلى اسم مفرد ، وصلتها بما بعدها صلة مختلفة ، ولم تخدعه الحركات الإعرابيّة التي تبدو أنها تشبه غيرها من الأفعال ، فصلتها صلة إسناد إلى جملة لا إلى مفرد ، وكان قد نظر إلى اختلاف التركيب ومشابهته ، (تقول : كان عبد الله أخاك ، فإنّما أردت أن تخبر عن الأخوّة ، وأدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى ؛ وذكرت الأوّل كما ذكرت المفعول الأوّل في ظننت ؛ وإن شئت قلت : كان أخاك عبدُ الله ، فقدمت وأخرت كما فعلت ذلك في ضرب لأنه فِعلٌ مثله ، وحال التقديم والتأخير فيه كحاله في ضرب ، إلّا أنّ اسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد)[٦٢١] ؛ فالإسناد قد تمّ والإخبار قد كمل قبل دخول الفعل الناسخ .

ويتأكّد تمييزها في تبويب كتاب سيبويه ، ومن هذا أنّه وضعها موزّعة على :

١ . (هذا باب المسند والمسند إليه ومما لا يغني واحدٌ منهما عن الآخر ... وممّا يكون بمنزلة الابتداء ، قولك : كان عبد الله منطلقًا ... ألا ترى أنّ ما كان مبتدأً قد تدخل عليه هذه الأشياء حتى يكون غير مبتدأ ...)[٦٢٢] .

٢ . (هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين ، وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر)[٦٢٣] .

٣ . (هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى ثلاثة مفعولين ولا يجوز أن تقتصر على واحد دون الثلاثة)[٦٢٤] .

٤ . (هذا باب المفعول الذي يتعداه فعله إلى مفعولينِ ، وليس لك أن تقتصِر على أحجهما دون الآخر)[٦٢٥] .

---

[٦٢١] كتاب سيبويه ٤٥/١ .
[٦٢٢] المصدر نفسه ٢٣/١ .
[٦٢٣] المصدر نفسه ٣٩/١ .
[٦٢٤] المصدر نفسه ٤١/١ .
[٦٢٥] المصدر نفسه ٤٣/١ .

٥ . (هذا باب الفعل الذي يتعدّى اسم الفاعل إلى اسم المفعول ، واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد)[٦٢٦] .

٦ . ينثر ما يخصّ هذه الأفعال من أحكام وملاحظات على عدّة أبواب من أبواب كتابه الذي قيل عنه : (إنّه لم يكن مرتّبًا على أساس منطقي واضح)[٦٢٧] ، من مثل (هذا باب الأفعال التي تستعمل وتلغى فهي ظننت ... وهذا باب ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره ...)[٦٢٨] .

ومن هذا المنثور ما ذكر سيبويه في (باب ما يُضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرفٍ)[٦٢٩] ، فالحذف والثبوت يشتركان في أداء المعنى ، يكون الحذف للمعنى لا للإعراب ، في مثل قولهم : (الناس مجزيّون بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشرٌّ، والمرء مقتول بما قُتِلَ به ، إنْ خنجرًا فخنجرٌ، وإن سيفًا فسيفٌ ، وإن شئت أظهرت الفعل ، فقلت : إن كان خنجرًا فخنجرٌ وإن كان شرًّا فشرٌّ ... كأنّه قال : إن كان الذي عَمل خيرًا جُزِيَ خيرًا ، وإن كان شرًّا جزي شرًّا)[٦٣٠] ، وقد نقل الدكتور عن سيبويه أنَّ التقدير (إنْ كان الذي عمل خيرًا جزي خيرًا وإن كان شرًا جزي شرًا) ، وقال : (وليس النصب في (خيرًا وشرًا) هو الذي جلب (كان) كما زُعِمَ في مثل هذا التقدير، بل المعنى هو الذي جاء بها بدليل أنَّهم قدروها في الرفع كذلك)[٦٣١] ، مستدلاً بقول سيبويه : (وإن أظهرتَ الرافع كما أظهرتَ الناصب فهو عربي حسن ، وذلك قولك إن خير فخير... كأنَّهُ قال ... وإنْ كان في أعمالهم خيرٌ، فالذي يجزون به خير، ويجوز أنْ تجعل إنْ كان خيرٌ على إن وقع خير كأنه قال : إن كان خيرٌ فالذي يجزون به خير)[٦٣٢] ، ثم

---

[٦٢٦] المصدر نفسه ٤٥/١ .

[٦٢٧] الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ٣٢ .

[٦٢٨] كتاب سيبويه ١/ ٢٥٨ .

[٦٢٩] كتاب سيبويه ١/ ١١٨ ، ١/ ٢٩٠ ، ٢٩٣ .

[٦٣٠] المصدر نفسه .

[٦٣١] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٠٩.

[٦٣٢] كتاب سيبويه ٢٥٩/١، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٠٩-١١٠ .

ذكر أنّ سيبويه أوضح أنَّ (كان) جاءت تامة باستبدالها بـ(وقع) ، في تقدير (كان) التامة مع الاستغناء معها عن تقدير المنصوب ، وهو بذلك يقف مع القدماء في ما قدموه من تقدير[٦٣٣] . (ومن ذلك قوله عز وجل : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ـ البقرة ٢٨٠" ، ومثل ذلك قول العرب في مثلٍ من أمثالها : "إن لا حظِيَّة فلا أليَّة" ، أي إن لا تكن له في الناس حظِيَّة فإنّي غير أليَّة ... ومن ذلك قول العرب :

من لدُ شولًا فإلى إتلائها

نصب لأنه أراد زمانًا ... كأنّك قلت : من لَدُ أن كانت شولًا فإلى إتلائها)[٦٣٤] .

فالأفعال الناسخة تُستوفَى عند سيبويه في أبواب أخرى ، فكأنّه ثبّت موضوع إسنادها فيما سمّاه من أبواب ، ثم استكمل أحكامها في أماكن متفرقة وأبواب مختلفة ، لأنّ تأليف الجملة والعناية بطرفي إسنادها هو مدار اهتمامه وعنايته ، وقد وجد ارتفاع الطرف الأول وانتصاب الطرف الثاني بعد (كان وأخواتها) ، وانتصابهما بعد (ظن وأخواتها) ، ووجد عدم الاكتفاء بالأوّل إلّا بوجود الثاني ، وظهر هذا في شرحه وتمثيله[٦٣٥] .

---

[٦٣٣] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١١٠ .

[٦٣٤] كتاب سيبويه ١/ ٢٦٠ ، ٢٦٤ . ٢٦٥ .

[٦٣٥] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٩ .

المبحث الثالث : الأفعال الناسخة بعد سيبويه

ينبّه المبرّد فيما ينقل باحثنا على تبعيّة الأفعال الناسخة للمبتدأ والخبر، فيقول (اعلم أنّ هذا الباب معناه: الابتداء والخبر، وإنّما دخلت "كان" لتخبر أنّ ذلك وقع فيما مضى ، وليس بفعلٍ وصل منك إلى غيرك ... وكذلك باب ظننت وعلمت)[٦٣٦] ، لأنه لا يجدها أفعالًا على الحقيقة ، لكنها في وزن الأفعال ، وأدخلت لمعانٍ على الابتداء والخبر، كما أنّ مفعولي ظننت إنما هما ابتداء وخبر، وذلك قولك : كان زيد أخاك ، وأمسى عبد الله ظريفًا يا فتى ؛ وكذلك ليس ، وما دام ...)[٦٣٧] .

أمّا ابن السرّاج فيميّزُ هذه الأفعال بكون (المنصوب هو المرفوع في المعنى : هذا الضرب العامل فيه ما كان على لفظ الفعل ، وتصرّف تصرّفه ، وجرى مجراه وليس به ، فهو خبر ، "كان وأخواتها" ، ألا ترى أنّك إذا قلت : كان عبد الله منطلقًا ، فالمنطلق هو عبد الله ... أفعال في اللفظ وليست بأفعالٍ حقيقة ، وإنّما تدلّ على الزمان فقط ، وذلك قولك كان عبد الله أخاك ، وأصبح عبد الله عاقلًا ، لست تخبر بفعلٍ فَعَله ، إنما تخبر أنّ عبد الله أخوك فيما مضى ، وأنّ الصباح أتى عليه وهو عاقل)[٦٣٨] ، ويقول أيضًا : (الفعل الذي يتعدّى إلى مفعولين ، وليس لك أن تقتصر على أحدهما ، وذلك قولك : "ظننتُ زيدًا أخاك ، وعلمت زيدًا صاحبَك ، وحسبت زيدًا أبا عبد الله")[٦٣٩] .

أمّا ابن جنّي فيتابع شيخه أبا عليّ الفارسيّ في وضع الأفعال الناسخة في التبويب بعد المبتدأ والخبر، ومن بعدهما باب الفاعل ، ومن بعد ذلك باب المفعول ، ثمّ باب كان وأخواتها، فيقول: (فهذه الأفعال كلّها ، تدخل على المبتدأ والخبر، فترفع المبتدأ ويصير اسمها، وتنصب الخبر، ويصير خبرها ، واسمها مشبه بالفاعل ، وخبرها مشبّه بالمفعول ؛ تقول كان زيدٌ قائمًا ، وصار محمدٌ كاتبًا ، وأصبح الأمير مسرورًا ، وظلّ جعفرُ جالسًا، وبات أخوك لاهيًا ، وما دام

---

[٦٣٦] المقتضب ٣/٩٧ .

[٦٣٧] المقتضب ٣ / ١٨٩ ، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٩ .

[٦٣٨] الأصول ، لابن السراج ١ /٧٤ ، ٢٢٨ .

[٦٣٩] المصدر نفسه ٣ / ٢٨٤ .

سعيدٌ كريمًا ، وما زال أبوك عاقلًا ، وما انفكَّ قاسمُ مقيمًا ، وما فَتِئَ عمرٌو جاهلًا ، وليس الرجلُ حاضرًا ؛ وكذلك ما تصرّف منها ، تقول : يكون أخوك منطلقًا ولِيصبِحَنّ الحديثُ شائعًا)[٦٤٠] ، ويستمرّ في عرض ما يخصّها من أحكام ، ويبقي ظنّ وأخواتها ضمن الفعل المتعدّي إلى مفعولين[٦٤١] .

ويذكر ابن جنّي نفسه أنَّ (كان وأخواتها) ثلاثة عشر فعلاً ناقصًا ، (وَهِي : كَانَ وَصَارَ وَأمسى وَأَصْبح وظل وَبَات وأضحى وَمَا دَامَ وَمَا زَالَ وَمَا انْفَكَّ وَمَا فتئ وَمَا برح وَلَيْسَ وَمَا تصرف مِنْهُنَّ وَمَا كَانَ فِي معناهن مِمَّا يدل على الزَّمَان الْمُجَرّد من الْحَدث)[٦٤٢] .

أمّا ابن الأنباري فكان الباب السابع عشر من أبواب كتابه ، هو باب كان وأخواتها والباب العشرون باب ظن وأخواتها ، في قوله : (إن قيل : أيّ شيء كان وأخواتها ؟ قيل : أفعال ، وذهب بعض النحويين إلى أنّها حروف وليست أفعالًا ... تكون ناقصةً فتدلُّ على الزمان المجرّد عن الحدث)[٦٤٣] .

ويستوي الترتيب ويستقرّ عند ابن مالك الذي يضع النواسخ بعد المبتدأ والخبر، فكان وأخواتها ، فالحروف المشبهة بليس ، فإنّ وأخواتها ، فلا التي لنفي الجنس ، فظنّ وأخواتها ، فأعلم وأرى ، ثم الفاعل ... إلخ ، وهذا هو ما ثبت عليه من جاء من بعد ابن مالك[٦٤٤] .

أمّا السيوطي فيذكر اختصاص كان بمرادفة : لم يزل كثيرًا ، أي أنّها دالّة على الدوام (وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ـ النساء ١٣٤) ، أي لم يزل متّصفًا بذلك ، دالًا على استمرار مضمون الخبر ومن وجوب كون الله سميعًا بصيرًا لا من لفظ "كان" ، ودخلت لتوكيد المعنى ، وإفادة التحقّق واليقين في ثبوت صفات الله في الحاضر والمستقبل مثلما هي ثابتة في الماضي وقد

---

[٦٤٠] اللمع في العربيّة لابن جني ٩٥ . ٩٦ .

[٦٤١] المصدر نفسه ٩٤ . ١٠١ .

[٦٤٢] المصدر نفسه ٩٥ .

[٦٤٣] أسرار العربية ١٣٢ . ١٣٤ .

[٦٤٤] فهارس شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك .

استعملت "كان" بصيغة الماضي في هذا المجال لإفادة هذه المعاني البلاغيّة[٦٤٥] ؛ وإن كان الأصل فيها حصول ما دخلت عليه فيما مضى ، مع انقطاعه عند قوم وعليه الأكثر.

ويذكر جواز زيادة كان بلفظ المضارع :

أنت تكونُ ماجدٌ نبيل

ويقول بشذوذ زيادتها بين الجار والمجرور في قول الشاعر :

سراةُ بني أبي بكرٍ تسامى على كان المسوّمةِ العراب

وجوّز الكوفيّون : زيادة أصبح وأمسى ، وحكوا : (ما أصبح أبردها) ، و(ما أمسى أدفأها) ، لكنّ القلّة واحتمال التأويل يجعله السيوطي غير صحيح[٦٤٦] .

---

[٦٤٥] التعبير الزمني ٢/ ١٢٧ .

[٦٤٦] همع الهوامع ٢ / ٩٩ . ١٠٠ .

المبحث الرابع : الإسناد بين أجزاء جملة الأفعال الناسخة :

الإسناد هو الرابط بين أجزاء الجملة العربية ، وقد عرّفه الشاطبي بقوله : (كل لفظ أسند إليه إنما أسند على معناه إذا قلت: زيد قائم، فإسناد القيام إنَّما هو لمدلول زيد، لا لمجرد لفظه، والتقدير: عندهم ذو زيد قائم، أي مدلول هذا اللفظ قائم، ثم يتسعون فينسبون الإسناد إلى اللفظ مجازًا، وكذلك الحال إذا قلت: قام فعل ماض، فعبارتك لفظ مدلوله الفعل المعلوم الذي قام، الدال على الحدث والزمان الماضي، وليس الفعل هو نفس عبارتك ، بل هو مدلولها)[٦٤٧] .

فالإسناد نسبة الشيء إلى شيء آخر بلفظين مترابطين ذهنيًا، وقد فصَّل القول في الإسناد الناقص الذي قال به بعض الباحثين قاصدين النقص في التطابق الشكلي وهو الذي قصده القدماء بالتقدير وتطرق بما يراه بعض المحدثين من عدم التقدير وأنَّ الاسناد ليس شرطًا ضروريًا وقد اعترض هذا الرأي بقوله : (إنَّ القبول بجملة من طرف واحد يواجه باعتراضات متعددة ، منها: أنَّه قد يستقل بالفهم الاسم أو الفعل أو الحرف، واستقلاله يكون استقلالاً ظاهرًا؛ لأنَّه استقلال شكلي مفتقر إلى ما يكمله وما يتعلق به، وانتزاعه من مناسبة معينة أو معنى سابق، ومعرفته والتعارف باستعماله لا يمنع ألبتَّة من معرفة هذا الصلة التي هو بها والعلاقة التي ينتسب إليها، والأطراف التي تختفي وراءه)[٦٤٨] ، وقد قصد بذلك ضرورة التقدير في حال وجود ما يسمى بالإسناد الناقص فالمقام أو البيئة والخبرات السابقة والعادات الكلامية ، وعملية التواصل بين المتكلم والمخاطب كلها تغني عن التكرار وتؤيد القول بالتقدير[٦٤٩].

وذكر باحثنا الدكتور أنَّ بعض المحدثين صنفوا جملة الأفعال الناقصة جملة اسمية، لأنَّهم عدَّوا هذه الأفعال ضمن الأدوات[٦٥٠] ، وقد خالفهم في هذا الرأي، وقال: (وأغلب الظن أن الذي دعا بعض المحدثين إلى وصف جملة الأفعال الناقصة جملة اسمية هو تأثرهم

---

[٦٤٧] المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية ٤٩/١.

[٦٤٨] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين٤٤-٤٨.

[٦٤٩] المصدر نفسه ٤٩.

[٦٥٠] العلامة الإعرابية ٨٠، واللغة معناها ومبناها ١٣٠. ١٣٢.

بالمباحث الغربية التي تفرَّغ فعل الكون من فاعليته ليتحول إلى أداة رابطة بين طرفي الإسناد، وكذلك توجههم لتحديد نوع الجملة بنوع إسنادها)[٦٥١].

وذكر أنَّ جملة الأفعال الناقصة جملة اسمية في الأصل دخل الفعل الناسخ ليحولها إلى جملة فعلية ثم بَيَّنَ معنى النسخ بقوله : (لأنَّ هذا الفعل لن يفقد خاصيته الفعلية ، لكن الذي فقده هو أنَّ الفاعلية له لم تكن اسمًا مفردًا وإنَّما أسند إلى النسبة القائمة بين المبتدأ والخبر، وهذا هو معنى النسخ)[٦٥٢] .

وفي بيان معنى الإسناد ذهب إلى ما ذكره النحاة أنَّ الإسناد هو الرابطة الذهنية بين المبتدأ والخبر، واعترض هذا الرأي بأنَّ القدماء (لم يدرسوا الربط مستقلاً ولم ينظروا إلى وقوع مختلف الروابط كموضوع في حد ذاته ولم يُدرس في جميع الحالات بالرجوع إلى الجملة من حيث هي وحدة الكلام وقاعدته ، ومن حيث إن هذه الروابط لا تتجلى قيمتها إلاَ داخل الجملة، فبعضها دُرس في نطاق دراسة عدد من الجمل كالضمائر والفاء التي تعرف بالرابطة للجواب والبعض الآخر دُرس باعتباره عوامل لها تأثير في حركات الكلمات الموالية لها كأدوات النصب)[٦٥٣] ، وقد نسب التوهم للمحدثين في ما ذهبوا إليه من وجود رابط لفظي في الجملة الاسمية العربية ، في موازنة بين الأفعال الناسخة في الجملة العربية والأفعال المساعدة في اللغات الأوربية، مستدلين بظهور هذه الأفعال عند نفي الجملة الاسمية العربية، دليل على ذلك قولهم: (زيد واقف، لم يكن زيد واقفًا) على أنَّ افتراض (يكون) يجعل الجملة أكثر تناسقًا[٦٥٤] ، وقد رفض الدكتور هذا الفرض ؛ لأنَّه يشوه الجملة العربية[٦٥٥] .

---

[٦٥١] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٦٠.

[٦٥٢] المصدر نفسه ٦١.

[٦٥٣] حوليات الجامعة التونسية ٦٤.

[٦٥٤] قواعد تحويلية للغة العربية ١١٨، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٦٦.

[٦٥٥] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٦٧.

وفي الحديث عن الأفعال المساعدة واستعارة المحدثين مصطلح المساعد الرابط ، ذكر باحثنا الدكتور أنَّ (يكون) عند النحاة زائدة أو هو فعل الكينونة الذي يدل على الإسناد[٦٥٦] ، أو إنَّها تطورت في الاستعمال حتى صارت لا تكتفي بفاعلها[٦٥٧] ، وقال: (أقول تطورت في الاستعمال فانتقلت من هذه الصورة القاصرة المكتفية بفاعلها إلى شيء آخر يفتقر إلى المنصوب المكمل للمعنى الذي يقتضيه المعنى الجديد ، وبسبب من هذا الافتقار أرادوا أن يجعلوها مخالفة لمجموع أفعال العربية فاخترعوا هذه التسمية)[٦٥٨] .

وفي موضوع الإسناد والإعراب عرض الدكتور موضوع الحدث ونقصه فوجد أنَّ القدماء ميزوا جملة الأفعال الناقصة عن الجملتين الفعلية والاسمية، فهي تبدأ بفعل، إلاَ أنَّ إسناد الفعل فيها للجملة لا إلى المفرد وعلى اختلاف الجملة العربية مع الجملة في توجيه أقوال الغربيين وأثبت أنَّ الرابط في الجملة العربية لا تؤدّيه الأفعال الناسخة ، بل يؤدّيه الأسناد ورابطته ذهنية[٦٥٩] وذكر أنَّ (عامتها يستخدم ناقصًا وتامًا ، ونجد أنَّ تصنيف جمل هذه الأفعال ضمن الجمل الفعلية ؛ لأنَّها وإن اختلفت عن الأفعال الأخرى لكنها تبقى تحمل تصرف الفعل وصيغته وقبول عوارضه إلاَ ما شذَّ منها ، واجتمع مع كان ما دلَّ على حالة الصيرورة والتحول والاستمرار والمقاربة والرجاء والشروع ، إلاَ أنَّ الأفعال القلبية تكون تامَّةً وتلتقي بالناقصة في الإسناد وإلقاء معنى الشك واليقين إلى الجملة الاسمية وتغيير الحكم الإعرابي لطرفي الإسناد)[٦٦٠] .

أمَّا في موضوع التكملة والفضلة فقد ذكر الدكتور أنَّ بعض المحدثين استعاروا هذا من اللغات الأخرى ، وأطلقوه على المنصوب في جملة الأفعال الناسخة ، ومثل لها بـ(ظننتُ زيدًا ذاهبًا) ، وأنهم يرون أن تمام الجملة في (ظننتُ) وما تعلق بالظن (زيدًا ذاهبًا) ، فتكون (زيدًا)

---

[٦٥٦] في النحو العربي – نقد وتوجيه ٣٢.

[٦٥٧] تنمية اللغة العربية في العصر الحديث ٢٣٥.

[٦٥٨] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٧٧ .

[٦٥٨] المصدر نفسه ٧٨ . ٧٩ .

[٦٦٠] المصدر نفسه ٧٨ . ٨٠ .

تكملة أولى، و(ذاهبًا) تكملة ثانية ، وقد عرض آراء مختلفة في هذه الجملة منها إنكار الدكتور أيوب الإسناد بين المنصوبين في جملة (ظننت وأخواتها) وردَّ عليه بقول الأشموني الذي يرى (أن هذه الأفعال لا تؤثر فيما دخلت عليه تأثير الفعل في المفعول ؛ لأنَّ متناولها في الحقيقة ليس الأشخاص ، وإنما متناولها الأحداث التي تدل عليها أسامي الفاعلين والمفعولين)[٦٦١] .

فقد خالف المحدثون القدماء في ما يراه القدماء من أن الفضلة لا تعني المنصوب في الأفعال الناسخة ، قال أبو سعيد السيرافي : (اعلم أن الأسماء التي لا بد لها من أخبار هي أربعة : المبتدأ الذي لا بدّ له من خبر وهو أصل هذه الأربعة . واسم كان وأخواتها ، كقولك : كان زيد منطلقًا ، وأصبح زيد ذاهبًا ، وليس عمرو عندنا ، واسم إنّ وأخواتها ، كقولك : إن زيدًا منطلق، وليت أباك قائم ، والمفعول الثاني من مفعولي ظننت وأخواتها كقولك : ظننت عبدك ذاهبًا ، وحسبت أباك منطلقا)[٦٦٢] .

وفي الحديث عن الحال والخبر في هذا الباب ، فالحال ليس ببعيد عن الخبر[٦٦٣] ، وأنّ الخبر ينقسم على خبر هو جزء من الجملة لا تتم الفائدة دونه ، وخبر ليس بجزء من الجملة ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له وذكر أن الأساس في الجملة هو(جاء زيد وهو مسرع) ، وذكر باحثنا أنّ المتكلم يبدأ بإثبات المجيء لزيد ثم يستأنف خبرًا ويبدأ إثباتًا[٦٦٤] . وقد خالف أبو علي الفارسي هذا الرأي ، في قوله : "فليس الحال بخبر محض إنما هو زيادة في الخبر، فيجوز أن تُصرَف هذه الزيادة إلى التأكيد دون غيره مما فيه الفائدة لأنه يبقى مما يستفاد ما الحال زيادة عليه فإذا صرفت الخبر بأسره إلى هذه الجهة لم يَصْلُحْ ؛ لأنَّه لا يبقى شيء مما يُستفاد ، فيصير ذلك خروجًا عما وُضِعت له الأخبار من الإفادة بها ، وليس الحمل على الحال

---

[٦٦١] شرح الأشموني٢/٢٦ . ٢٧، ودراسات نقدية في النحو العربي٢٢٥، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٨٥.

[٦٦٢] شرح كتاب سيبويه ، للسيرافي ١/١٧٤.

[٦٦٣] دلائل الإعجاز ١٧٣، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٨٧ .

[٦٦٤] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٨٧.

كذلك عندهم؛ لأنَّ من الحال ما يكون لازمًا مؤكدًا، نحو ما ذكرنا من قوله تعالى: "وهو الحقُّ مصدقًا . البقرة ٩١" ونحوه ، وهذا بَيِّنٌ)[٦٦٥] .

فالأفعال الناسخة لا تكون طرفًا في الإسناد المتحقق بين معموليها لكنَّها تزيد لهذا الإسناد معنى ، وتغير الحكم الإعرابي[٦٦٦] ، فالإسناد (عبارة عن تعليق خبر بمخبر عنه أو طلب بمطلوب منه)[٦٦٧] .

---

[٦٦٥] التعليقة على كتاب سيبويه ٨٢/١ .

[٦٦٦] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين :٢٢ .

[٦٦٧] شرح التسهيل، لناظر الجيش ٩/١.

المبحث الخامس : الحذف والرتبة والتمام والدلالة :

١ . ما جاء في حذف الأفعال الناسخة وزيادتها ، من مثل تقدير النحاة تدبيرًا لما جاء منصوبًا وقد اتسق المنصوب معها عند الإظهار، ومن ذلك قوله تعالى : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ـ الإنسان ٣) ، واطّراد حذفها بعد (أن، ولو) الشرطيتين، واستشهد بقول الشاعر[٦٦٨] :

لا يأمَنِ الدَّهرَ ذو بَغْيٍ ولو مَلِكًا جُنُودهُ ضاقَ عَنْهَا السَّهْلُ والجَبَلُ

التقدير في لو: ولو كان ملكًا ، أي: ولو كان ذو البغي ملكا[٦٦٩] .

قال الشاطبي : (وقولُه : (وَبَعْدَ إِنْ وَلَوْ كثيرًا ذا اشتهَرْ) ، ذا : إشارة إلى الحذف المفهوم من قوله: (وَيَحْذِفُونَها) ؛ يريد أنّ كثرة هذا الحذفِ إنّما جاءت بعد (إِنْ) المكسورة الخفيفة . وهى الشرطية . و(لو) الشرطية أيضًا . فأمَّا بعد (إِنْ) فقد تقدم تمثيله ، وأما بعد (لو) فنحو قولك : ألاَ طعامَ ولو تمرًا؟ قال سيبويه : (كأنّك قُلْتَ : ولو كان تمرًا) . وَأْتِنِي بِدَابّةٍ ولو حَمَارًا ، وادفع الشرّ ولو إِصْبَعًا ، وَأْتِنِي بِمَاءٍ ولو باردًا"[٦٧٠] ، كما ذكر إمكان حذفها وتعويضها بـ(ما) نقلاً عما جاء في ألفية ابن مالك، إذ يمكن حذف كان وتعويض (ما) عنها وإبقاء اسمها وخبرها إذا كان اسمها ضميرَ مخاطبٍ ، ولا يمكن مع ضمير المتكلم ، نحو: أمَّا أنا منطلقًا انطلقت . والأصل: إنْ كنت منطلقًا، ولا مع الظاهر، نحو: أمَّا زيد ذاهبًا انطلقت . والقياس جوازهما كما جاز مع المخاطب ، والأصل : إنْ كان زيدٌ ذاهبًا انطلقتْ ، وقد مثل سيبويه في كتابه بـ (أمَّا زيد ذاهبًا)[٦٧١] ، ثم ذكر زيادتها أو أحد معموليها ، فوجد أنَّها يمكن أن تزاد بين المتلازمين ، بين حرف الجر ومجروره ، والصفة وموصوفها ، والفعل ومرفوعه ، والمبتدأ والخبر[٦٧٢] ، ووجد أنَّ زيادتها تطَّرد في باب التعجب للدلالة على الزمن المفقود ، ثم وجد أنَّ بعض المحدثين رفضوا

---

[٦٦٨] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٢٧ .

[٦٦٩] التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل ٢٢٣/٤.

[٦٧٠] المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية ٢٠٤/٢.

[٦٧١] شرح ابن عقيل ٢٩٨/١، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٧٨.

[٦٧٢] المصدر نفسه ٢٨٨/١-٢٩١، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٣٠.

القول بزيادتها؛ بحجة أنَّ الأفعال لا تزاد ولأنَّ الزيادة لا تكون إلاَ للحروف[٦٧٣] ؛ في حين قال القدماء بزيادتها واطرادها في باب التعجب (وأجاز الفراء زيادة "تكون" بين (ما) وفعل التعجب، نحو: ما يكون أطولَ هذا الغلام، ويشهد لقوله قول رجل من طيّئ[٦٧٤] :

صَدّقتَ قائلَ مَا يَكُونُ أحقَّ ذا طفلا يَبُذُّ ذوي السِيَادَة يَافِعًا) .

٢ . نقل باحثنا الدكتور عن غيره ، أنَّ الترتيب مظهر من مظاهر السلوك الإنساني ، وموقع أجزاء الجملة قد يكون ثابتًا ، وقد يكون متغيرًا ، وذكر أنَّ الوظيفة النحوية خانة أو موضع في التركيب ، يتعيّن به دور كلِّ مفردة بإزاء المفردات الأخرى لما في ذلك التركيب ، وخالف الرأي القائل : (إذا جعلنا الأفعال الناسخة أدوات فعليّة فدخول الأدوات على الجملة الاسمية يتطلب المخالفة في الحالة بين طرفي الاسناد فيبدو أحدهما في حالة الرفع ، والآخر في حالة النصب)[٦٧٥] ؛ وذكر أنَّ الأحسن من هذا إنَّها رفعت ونصبت ؛ لأنَّها أفعال من دون النظر في المخالفة التي ذكرها الدكتور تمام حسان تأثرًا بمنهج الكوفيين ؛ وأنّ الموقع والعلامة الإعرابية ساعدا المفردات لتثمر المعاني التي هي مقاصد الجمل ، فالحرية في ترتيب تسلسل الاسم والخبر باعتبار أيُّهما يكون مرفوعًا ، والآخر منصوبًا لدخول الأفعال الناسخة وقبولهما التقديم والتأخير، وما يتبع ذلك من إلغاء وإعمال)[٦٧٦] ، وأشار إلى سكوت بعض النحويين عن الربط بين الموقعيّة والمعنى ، وأنَّهم تركوا المعنى لأهل البلاغة ، وذكر أنَّه لا يعني بذلك الإهمال الذي ادّعاه بعض المحدثين ، في عدم مساواتهم بين العمل والمعنى بل قدّموا الأول وأخّروا الثاني ، إذ يرى أنَّ المعنى جدير بالعناية والدراسة واستشهد بقول سيبويه (كأنَّهم إنَّما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى ، وإنْ كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم)[٦٧٧] .

---

[٦٧٣] دراسات نقدية في النحو العربي ١/١٩٠.

[٦٧٤] شرح تسهيل الفوائد ١/٣٦٢.

[٦٧٥] مناهج البحث في اللغة ، تمام حسان ٢٤٣، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٠٤.

[٦٧٦] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٠٤.

[٦٧٧] كتاب سيبويه ١/٣٤.

٣ ـ فرق النحاة القدماء بين استعمالين للأفعال الناقصة ، فوجدوها تامة تقتصر على الفاعل ومنها : قوله تعالى : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ـ البقرة ٢٨٠) ، وقوله تعالى : (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ـ الروم ١٧) فضلاً عن قولهم بوجود الزائدة التي لم يؤتَ بها للإسناد[٦٧٨] ، وأورد ما يراه بعض المحدثين من أنّ (العمل ذو تأثير كامل في شكل الإسناد بعد دخول الناسخ على الجملة ، ولا يمكن الفصل بين العمل والإسناد)[٦٧٩] ، ورد عليه بقوله : (ونظن أنَّ هذا التمسك هو الذي منعه من فهم النقص ومن فهم الإسناد على حقيقته، وجعله لا يفرق بين النقص والتمام ، فهو يرى في جملة (كان محمد قائمًا) ، أنَّ قائمًا فضلة وهي خارجة عن طرفي الإسناد)[٦٨٠] .

٤ ـ دلالة نفي جملة الأفعال الناسخة : فرق النحاة بين جمل الأفعال الناسخة المنفية، ولاسيما في عرضهم لآراء البصريين والكوفيين ، فجملة (ما كان يفعل ، وكان لا يفعل) نفي لوقوع الحدث ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم ، قوله تعالى : (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ . القصص ٨٦) ، وقوله تعالى : (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا . النبأ ٢٧) ، أمَّا (ما كان ليفعل) ، فقد ذكروا أنَّ اثباته (كان سيفعل) وأن اللام زائدة عند الكوفيين لتقوية النفي، وعند البصريين بمعنى ما كان قاصدًا للفعل .

فالمعنى في(ما كان له أن يفعل) ما ينبغي له أن يفعل ، ومنها قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ـ الأنفال ١٦١) وقالوا عن تركيب (ما كان له أنْ يفعل) : (التركيب أفاد المبالغة بالنفي، بوجود اللام و(أن يفعل) المسبوقين بكان المنفية ، وفيه ردٌّ لكلام سابق مفترى ومختلق، وتنزيه عن قول أو فعل ، وإبطال لادّعاء، واستحالة حدوث)[٦٨١] . ووجدوا أنَّ النفي الذي يفيد الثبات والاستمرار يكون في (مازال يفعل) ، ونقل باحثنا الدكتور عن النحاة أنَّ في دخول النفي

---

[٦٧٨] معاني النحو ٢٣٦/١.

[٦٧٩] النواسخ الفعلية والحرفية ٦٦ ، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٩٥.

[٦٨٠] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٩٥.

[٦٨١] المصدر نفسه ١١٣.

على النفي يكون الإثبات[٦٨٢] ، وكان رأيهُ في هذا القول : (لا يمكن التسليم لهذا القول إلاَ في أفعال محددة ؛ لأنَّ الإطلاق لا يكون صحيحًا ، فنفي النفي إذا أريد به العموم لا يكون إلاَ توكيد النفي ولا إثبات فيه إلاَ في ذهن المنطقي والرياضي)[٦٨٣] ، وبيَّن أنَّ النفي في (مازال وأخواتها) نفي مفارقة الفعل ، أي نفي الترك والزوال ؛ لأنَّ معانيها تامة[٦٨٤] .

وفي (لم يكد يفعل وما كاد يفعل) كان المعنى إنَّه لم يفعل إلاَ بعد الجهد ، وبعد أن كان بعيدًا في الظن أن يفعلوه ، ومن ذلك قوله تعالى : (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ . البقرة ٧١) ، وقد أورد آراء العلماء في (كاد) التي اختلفت بين نفي وإثبات ، ورجح أنّ (الذي يبدو أنَّها قد تفيد الفعل بعدها وهو خبرها إذا كانت منفية ، كما في قوله تعالى : (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا . النور ٤٠) أو تدل على إثبات الفعل ودور "كاد" يكون في إبطاء تنفيذ الفعل)[٦٨٥] . وقد أورد باحثنا الدكتور الاستثناء بـ(ليس) و(لا يكون) في موضوع النفي ، وذكر أنَّ بعض العلماء عدَّهما حرفين ناصبين للمستثنى ، وقال : (الصحيح أنَّهما من الأفعال الناسخة)[٦٨٦] ، مستشهدًا بما يراه الدكتور نهاد الموسى في أنَّهما (يكونان فعلين ناقصين ينفيان علاقة الإسناد في الجملة الاسمية ويرفعان المبتدأ وينصبان الخبر، ثم خرجا عن هذه الوظيفة في تراكيب محدودة معلومة إلى وظيفة يفيدان فيها ما تفيده "إلا" الاستثنائية وأصبح لهما بذلك وظيفتان نحويتان)[٦٨٧] .

وفرَّق في صياغة جملة (ظن) في بيانه للفرق بين قوله تعالى : (وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ . فصلت ٤٨) ، وقوله تعالى : (مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا . الحشر ٢) ، (والفرق بين التعبيرين إثبات الظن في التعبير الأوَّل ، ونفي له في الثاني ، وما ظننت محمدًا خصمًا ؛ فقد نفي أن يكون ظننت ذاك ، وظننت ما محمد خصم ، فإنه يثبت الظنّ ، وقد أخبر ودار الأمر في

---

[٦٨٢] الإيضاح في شرح المفصل ٨٣/٢ ، وهمع الهوامع ٩٧/٢، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١١٣.

[٦٨٣] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١١٣.

[٦٨٤] المصدر نفسه .

[٦٨٥] المصدر نفسه ١١٧.

[٦٨٦] المصدر نفسه ١١٨.

[٦٨٧] في تاريخ اللغة العربية ١٩٥ ، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١١٩ .

الذهن ، وترجح أنه ليس خصمًا ؛ (ومما يوضّحُ ذلك أنّك تقول : ما زعمتُ محمدًا شاعِرًا ، وتقول زعمت ما محمد شاعرٌ ، فالأولى نفي للزعم ، أي لم تزعم هذا الأمر ولم تقله ؛ أمّا الثانية فهي إثبات للزعم ، وإثبات أنك عرضت لهذا الأمر ، وذكرت أنه ليس بشاعر) [٦٨٨] .

ولهذا (اختلف المعنى بنفي الظنّ أي الفعل الناسخ ، أو نفي المظنون الجملة المنسوخة أي نفي اتّصاف الخبر بالمبتدأ أو معموليها بعدها)[٦٨٩] .

---

[٦٨٨] معاني النحو ٢ / ٤٦٠ ، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١١٩ .

[٦٨٩] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١١٩ .

المبحث السادس : زمان الأفعال الناسخة :

تدلّ كان وأخواتها على أزمنة معينة ، وفي ظن وأخواتها دلالة على الزمن مع الحدث ، وفي كاد المقاربة ، وقد عرض باحثنا الدكتور عرضًا وافيًا للفعل الناسخ في صيغته وزمانه ، ولاسيما لكان وأخواتها ، بدءًا بقول سيبويه : إنّها (أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى ، ولما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع)[٦٩٠] .

ونقل باحثنا أنّ النقص والتمام لا يتّضح خارج تأليف الجمل ، فالجملة المؤلفة من اسمين تضيف لها هذه الأفعال معنى الزمن الذي ربما لم يكن قد تضمنته قبل دخولها ، (تقول: كان عبد الله أخاك) ، فإنما أردت أن تخبر عن الأخوّة ، وأدخلت "كان" لتجعل ذلك فيما مضى[٦٩١] .

وربّما دخلت "كان" على خبر ماضٍ ، في مثل قوله : (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ . يوسف ٢٦) ، وقوله تعالى : (إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ . المائدة ١١٦) ، وقوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ . الأنفال ٤١ ، ويونس ٨٤)، وقوله تعالى : (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ . إبراهيم ٤٤) .

وثبوت مضمون خبر الأفعال التي سُمّيت ناقصة ماضيًا دائمًا أو منقطعًا أو بمعنى ، لاقتران مضمون الجملة بوقت من أوقات هذه الأفعال ، وبمعنى صار لأنها ظاهرة في الانتقال في الزمان الماضي إلى حالة مستمرة وهذا هو مضمون خبرها ، نحو : كنت فقيرًا فصرت غنيًّا، وكنت مريضًا وصرت متماثلًا ، ثمّ نُكِست ، وكذلك ما زال وأخواتها موضوعة لاستمرار مضمون أخبارها في الماضي إلّا أن تمنع قرينة[٦٩٢] .

وميّز النحاة الدلالة الزمنية إذا اقترن خبر هذه الأفعال بفعل آخر في مجموعة كاد وأخواتها فيذكر أحد المحدثين أنّ تركيبها يشبه (الأفعال المساعدة في اللغة الإنكليزيّة : لأنها تساعد المضارع على الاتّصاف بالدلالة الزمنيّة المعيّنة .

---

[٦٩٠] كتاب سبويه ١٢/١، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٢٣.

[٦٩١] كتاب سيبويه ٤٥/١ ، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٣٦.

[٦٩٢] شرح الرضي على الكافية ٢ / ٢٠٠ .

طفق + الفعل المضارع = الدلالة على الماضي .

كاد + الفعل المضارع = الدلالة على الحاضر.

عسى + الفعل المضارع = الدلالة على المستقبل .

وهكذا نرى أنَّ أفعال المقاربة بأنواعها الثلاثة (المقاربة والشروع والرجاء تعتبر من أدوات الجهة ، كما كانت "كان" ، فمثلها في ذلك السين وسوف كأداتي مستقبل)[٦٩٣] .

ولا نقصَ في هذه الأفعال مثلما لا نقص في ظنّ وأخواتها ، ونسب النقص إلى كان وأخواتها، لأنّ معنى الجملة مكتمل قبل دخول الفعل الناسخ ، لذلك كان الناسخ أشمل من المصطلح الناقص ، لأنّ الناسخ يجمع كان وأخواتها وظنّ وأخواتها ، وكاد وأخواتها[٦٩٤] .

وذكر الدكتور اختلاف الآراء في بعض أزمنة الأفعال[٦٩٥] ، إلى زمن الأفعال الناسخة التي تختلف فيها دلالة الزمن عن الأفعال التامة (كتب وضرب وغيرها) فهي (مما يجيء عبارة عن الزمان فقط ... وتصاريفه تصاريف الفعل ... فأمَّا مفارقتها للفعل الحقيقي فإن الفعل الحقيقي يدل على المعنى وزمان ، نحو ذلك : ضرب ، يدل على ما مضى من الزمان وعلى الضرب الواقع فيه ، والفعل "كان" إنَّما يدل على ما مضى من الزمان فقط)[٦٩٦] ، وذكر التركيب المطرد في أفعال المقاربة ؛ لأنَّ خبرها يكون فعلاً مضارعًا ، ونقصها كان على رأي أحد المحدثين في شبهها الأفعال المساعدة في اللغة الإنكليزية ؛ لأنَّها تساعد المضارع على الاتصاف بالدلالة الزمنية المعينة)[٦٩٧] .

---

[٦٩٣] دراسات في الأدوات النحوية ٤٣ .

[٦٩٤] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٣٨ .

[٦٩٥] المصدر نفسه ١٢٦ . ١٣٢.

[٦٩٦] الأصول في النحو، لابن السراج ٩٢/١ . ٩٣.

[٦٩٧] دراسات في الأدوات النحوية ٤٣، الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٣٧.

وذكر باحثنا اتفاق جمهور النحاة على أنَّ دلالة الأفعال الناقصة على الزمان المجرد من الحدث، وأنّ الجملة التي تحتوي على الزمن لا تحتاج إلى دخول كان وأخواتها، لأنَّها لا تدخل إلاَ لإفادة الزمن[٦٩٨] .

وترى الباحثة أن الدكتور كان ميّالاً بآرائه وتوجهاته إلى تأييد آراء القدماء ، وقد ذهب إلى مخالفة المحدثين في كثير من آرائه ، من مثل تأثر هؤلاء المحدثين بالغربيين الذين يدعو بعضهم إلى إخراج الأفعال الناسخة من الأفعال إلى مجرّد أدوات ، أو عدّ بعضها من الأفعال الشاذة ، أو عدّ بعض هذه الأفعال أفعال مساعدة ... الخ ، إلاَ أنَّه استطاع أن يثبت استقلاله في البحث عن الحجة والدليل المنطقي ، والأخذ بإجماع النحاة في بعض الآراء مع أنه لم يترك الآراء من دون مناقشة ، وقد استطاع أن يزاحم آراء القدماء والمحدثين، بآراء يعتدّ بها في مجال بحثه في موضوع الأفعال الناسخة ممّا عرضناه وما سنعرضه ؛ فيرى باحثنا أنّ وضع الأفعال الناسخة هذا الترتيب لم يكن لمجرّد تحكيم العامل ، بل النظر إلى كون الجملة اسميّة تامّة الإسناد ، وهذه النواسخ لم تؤثّر فيه من حيث الأصل ، وأنّ هذا الترتيب كان قد تطوّر بعد المراجعة وإدامة النظر إلى وظيفتها ودلالتها واختلاف جملها ، في مراحل متتابعة ، ذلك بعد الفرز والتمييز المبكّر والنضج والاكتمال وسداد الرأي .

ثم ذكر أنَّهم ألحقوا بها أفعالاً تدل دلالتها ومنها : (أسحر ، وأفجر، وأظهر)[٦٩٩] ، وزاد الكوفيون (مررت) ، وكان اعتراضه على عدّها منها بيّنا معتمدًا على الحجة والدليل ، وربما ردّ جمل بعض هذه الأفعال ؛ لأنَّ المنصوب بعدها يكون نكرة ويعرب حالاً أو معرفة فيعرب صفةً، ولا يجوز فيها القطع إذ ذاك بفعل مضمر، نحو: (مررت بزيد المسكين)[٧٠٠] . وعرض إلحاقهم للفعل المكرر بالأفعال الناسخة ، نحو: (لئن ضربته لتضربنّه الكريمَ) وما خرج على

---

[٦٩٨] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ١٣٨ .

[٧٠٠] ألحقها الفراء ، همع الهوامع ٦٣/٢، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٣٩.

[٧٠٠] معاني القرآن، للفراء ١٢/١. ١٣، وشرح جمل الزجاجي ٣٧٦/١، وشرح الرضي على الكافية ٢٩٠/٢، والأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٣٩.

التقريب ، نحو قوله تعالى : (وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا . هود ٧٢) وذكر أنَّ البصريين حصروها بأفعال بعينها ، وغيرهم توسعوا فيها ، في حين ذكر أنّ المحدثين لم يخالفوا القدماء في موضوع التضمين ، مع أن بعضهم زاد أفعالًا أخرى مثل : (استمر، ووجد، وما وجد، واستقر وما استقر، وحصل وما حصل، وحدث وما حدث، وغيرها) ، وذكر أنَّ بعضهم أهمل فكرة النقص أو النسخ[٧٠١] .

[٧٠١] الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين ٤٠-٤١.

الفصل الثامن

الخلاف النحوي بين الكوفيين

المقدمة

ظهر خلاف كبار علماء الكوفيين لأساتذتهم البصريين ، ولاسيّما خلاف الكسائيّ ظهورًا مبكّرًا، وكانت مضامين مسائل الخلاف مادة علمية ، انشغل بها علماء النحو، ربما كان من ضمن هذه المسائل ، التي عُقِدَت من أجلها المناظرات وكان من أشهرها المسألة المسماة بحسب ما رُوِيَ : (المسألة الزنبورية)[٧٠٢] ، ثم كان موضوع الخلاف النحوي سببًا من أسباب التأليف النحويّ في الزمن المتقدّم ، ومنها : (اختلاف النحويين لأبي العباس ثعلب) (ت٢٩١هـ) ، و(المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين) ، لأبي جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ) ، و(الخلاف بين النحويين) ، لأبي الحسن الرماني ، لأبي الحسن الرماني (ت٣٨٤هـ) و(كفاية المتعلمين في اختلاف النحويين)، لابن فارس (ت٣٩٥هـ)[٧٠٣] .

وقد كان (الخلاف النحوي بين الكوفيين) أطروحةَ باحثِنا للدكتوراه ، وذكر أنَّه لم يجد دراسة مستقلة بهذا المضمون ، وأنَّ ما ذُكِرَ من خلاف في بعضِ الكتبِ اقتصر على الموازنة بين أفراد منهم ، أو بينهم وبين بعض البصريين ، وأنّ عبارات المتصدّين عامة لا تستند إلى منهج ، وذكر أنَّ بعضهم تعجَّل في القول بقلة مسائل الخلاف بين الكوفيين ، وكان إصراره واطمئنانه دافعين له في المواصلة ، إذ تمكن من الوصول إلى مئة وسبع وثلاثين مسألة خلاف بين النحويين الكوفيين[٧٠٤] ، وترى الباحثة أن الدكتور أسّس كتابه على ما وجده من الاختلاف في الآراء بين العلماء الكوفيين .

---

[٧٠٢] الإنصاف في مسائل الخلاف ٥٧٦/٢.

[٧٠٣] أسس الترجيح في كتب الخلاف النحوي ٢ .

[٧٠٤] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٦ .

المبحث الأول : المدرسة الكوفية

أجمع القدماء على أنَّ نحوَ الكوفيين يؤلف مذهبًا مستقلاً ، أو بتعبير أدق أنّهم يؤلّفون مدرسة مستقلة[٧٠٥] ، وهذا ما رجّحه باحثنا الدكتور، وسعى إلى مواجهة المشكِّكين ، وكان قد مَهَّدَ لأطروحته (الخلاف النحويّ بين الكوفيين) بالدفاع عن وجود مدرسة كوفية ، وتوكيد استقلالها ؛ ليصح بعد ذلك الحديث عن وجود علماء في هذه المدرسة ، اختلفوا في ما بينهم في الآراء مستقلين عن المدرسة البصرية ، ومن ثم يمكن بعد ذلك إثبات ميول بعضهم للمدرسة البصرية من عدمه ، وقد نقل الدكتور زعمَ بعضِ المحدثين ، اعتماد الكوفيين مصادر البصريين نفسها ، وأنَّ المنهج نفسه ، وأصول الطرفين واحدة ... إلخ[٧٠٦] ؛ مع أنّه ميّزَ مصادر الكوفيين وأصولهم فيما عرض .

وعرض أيضًا بعض الآراء التي هوّنت من مكانة المدرسة الكوفية ، فكان من هذا الزعم : أنَّها بُنِيَت على أشياء مفتعلة ، وأريد لها أن تكون شيئًا ، وأنَّ الخلاف يستند إلى العصبية البلدية ؛ لوجود منافسة بين البلدين ، وأنَّ الكوفيين أرادوا التقرب من الحكام فبادروا إلى هذا السبيل وقطعوا الطريق على البصريين[٧٠٧] ، وذَكَرَ الدكتور أنَّ بعضهم يعترف بوجود الكوفيين وتميّزهم ، لكنَّه لا يعترف بوجود مدرسة ومذهب مكتمل لنحاة الكوفة ، وأنَّ مسائل الخلاف بدأت على استحياء ، وما أصبحت ثورة على المنهج البصري إلاَ على يد ابن مضاء القرطبي ، وقد رجَّح الدكتور أن نفي وجود المدرسة الكوفية ربّما جاء من الغرب ، إذ وجد أنَّ جوتولد فايل ينكر وجود مدرسة كوفية[٧٠٨] ، وبروكلمان يرى أنَّ الخلافات بين المدرستين قد بُولِغ فيها إلى حدٍّ لا مسوغ له[٧٠٩] ؛ (على أن فايل نفسه يعود فيثبت للفراء مذهبًا في النحو خالف به الكسائي ومعاصريه ، وليس هذا المذهب إلا مذهب المدرسة الكوفية التي أنكرها ،

---

[٧٠٥] المدارس النحوية، شوقي ضيف ١٥٥ .

[٧٠٦] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ١١.

[٧٠٧] المدارس النحوية ، إبراهيم السامرائي ٥٤.

[٧٠٨] مقدمة الإنصاف عن مدرسة الكوفة ٤٠١.

[٧٠٩] المصدر نفسه ٤٠١، والدرس النحوي في بغداد ٩٧، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ١١.

تكامل تشكّله عنده . أما أنّه خالف أستاذه الكسائي في بعض المسائل فهذا من حقه ، على نحو ما خالف سيبويه أستاذه الخليل ، وعلى نحو ما خالفهما معًا تلميذهما الأخفش الأوسط في كثير من المسائل ، وهم من أئمة المدرسة البصرية . وسنرى في غير هذا الموضع أن الفراء يقوم في الكوفة مقام سيبويه في البصرة ، فهو الذي أعطى المدرسة الكوفية تشكلها النهائي إلا بعض إضافات زادها الكوفيون بعده وفي مقدمتهم ثعلب)[٧١٠] ؛ وذهب بعض المحدثين إلى أنّ مذهب الكوفيين لا يقل شأنًا عن المذهب البصري ، قال محمد عبد العزيز النجار: (وقد اتخذ الكوفيون لهم مذهبًا خاصًا يضاهي مذهب البصريين وينافسه ، واختلفوا معهم في كثير من المسائل ؛ لأنَّ بعض القواعد التي قعّدها البصريون جاءت نتيجة استقراء ناقص ؛ فقد كان الكوفيون أكثر رواية للشعر من البصريين ؛ وعلى رأس المذهب الكوفي : أبو جعفر الرؤاسي ، وتلميذاه : الكسائي والفراء، واشتهر من علمائهم : هشام بن معاوية الضرير، وابن السكيت ، وابن الأعرابي، والطوال ، وابن سعدان ، وثعلب ، وابن كيسان ، والأنباري ، ونفطويه ... إلخ . وينقسم نحاة الكوفة على ست طبقات)[٧١١] .

وقد ذهب باحثنا الدكتور إلى أنَّ المدرسة الكوفية لم تكن بالمستوى الذي يمكن موازنتها بالمدرسة البصرية قبل الكسائي والفراء ، وإنْ زُعِمَ استفادة الخليل من كتاب الرؤاسي ، أمَّا أوَّل من وضع التصريف فمعاذ الهرَّاء فيه مبالغات ، وأنَّ أهمية نحو الكوفيين تبدأ بالكسائي الذي أرسى القواعد الأساسية لهذا النحو، لذلك بدأ بمصادره ، وقد ذهب الدكتور مهدي المخزومي إلى أن مدرسة البصرة كانت هي السبّاقة في إرساء علوم اللغة العربية ، قال : (فالواقع أنَّ البصرة هي التي قامت بعبء هذا العمل منذ نشأته ، حتى أصبح خلقًا سويًا ، ومرَّ زمن طويل قبل أن تشارك الكوفة فيه ، وهي إنَّما أخذته عن البصرة ، وقد أخذته تامًا ناضجًا)[٧١٢] .

---

[٧١٠] المدارس النحوية، شوقي ضيف ١٥٦.

[٧١١] المصدر نفسه .

[٧١٢] مدرسة الكوفة ٣٦.

فالبصرة والكوفة أقدم مدرستين لغويتين[٧١٣] ؛ وكان الدكتور قد استدلّ على وجود المدرسة الكوفيّة استنادًا إلى اختلاف المصادر، والأصول ، والمصطلحات .

[٧١٣] البحث اللغوي عند العرب ١٢٩.

المبحث الثاني : مصادر الكوفيين

لا بُدَّ للمدرسة اللغوية من مصادر تعتمد عليها في جمع اللغة وفي تقعيد القواعد ، وكانت المدرسة البصرية قد سبقت إلى جمع اللغة وتقعيد قواعدها ، فكان القرآن الكريم من أهم مصادر هذا التقعيد ، وهو المصدر الأصدق والأفصح في تقنين القواعد[٧١٤] ، ثم يأتي الشعر الجاهلي والإسلامي مصدرًا مهمًّا ثانيًا ، وكذلك كان فصحاء العرب من سكان البادية والأمثال وغيرهما من المصادر[٧١٥] ، فقد اعتمد البصريون هذه المصادر واعتمدها الكوفيون أيضًا ، واعتمدوا غيرها مثلما سنعرض .

وقد التقى الكسائيّ الخليل وتلمذ عليه وجلس في حلقته ، وسأله من أين علمك هذا ؟ فقال : من بوادي نجد والحجاز فخرج إليها ورجع ، وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفِظ[٧١٦] .

ويقول الكسائي في شأن مصادره في النحو: (حداني على النظر في النحو أنّي كنت أقرأ على حمزة بن حبيب الزيّات فتمرّ بي الحجة ، ولا أتّجه لها ، ولا أدري ما الجواب فيها ، فأرجع إلى المختصر الذي عمله أهل الكوفة ، وكان يُسمّى هذا المُختصر "الفيصل" فلا أتبيّن فيه حجة وكانت قبائل العرب متّصلة بالكوفة ... فلما ... لقيت القبائل ، وجعلت أسألهم فيخبروني مشافهة ، وينشدوني الأشعار، فأنظر إلى ما في يدي وإلى ما أسمعه منهم ، فأجد الحجة تلزم ما عندي ...)[٧١٧] .

ومن هذا ما اغتَمَّ الكسائي لقراءته (يَسْرِ) بلا ياء فقد نقص ممّا في المصحف فما يدري ما يصنع ؟ فأتاه أعرابي يُكَنّى أبو الدينار، فابتدأ يقرأ : (وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ـ الفجر ١ ـ ٣) ، فَسُرِّيَ عن الكسائي ما كان فيه من الغمّ[٧١٨] ، لأنّه سَمِع دليلًا يؤيّده في المخالفة ،

---

[٧١٤] الاقتراح في أصول النحو ٢٧ .

[٧١٥] ضياء السالك إلى أوضح المسالك ١٢/١ .

[٧١٦] نزهة الألباء ٣٤ ، وإنباه الرواة ٢/ ٢٥٦ ، ومسائل الخلاف النحوي ١٩ ـ ٢٠.

[٧١٧] مجالس ثعلب ٢٦٦ ، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٢٠ .

[٧١٨] مجالس العلماء ٢٦٤ .

وكان هذا الدليل من المشافهة التي رجحها ، كان مصدرها من العرب المحيطين بالكوفة ، وقد سمع منهم واطمأنّ إليهم ، وبهذا خالف منهج البصريين في تأسيسه نحو الكوفيين .

ومعنى ذلك أنَّ مصادر الكوفيين يمكن تحديدها بمصادر شيخ المدرسة الكسائي ، وأنَّها كانت عن العرب أولاً مشافهة ، وعن النحو البصري بوجود كتاب سيبويه ، فضلاً عن تلمذة الكسائي للخليل وإنْ كانت قصيرة الأمد ؛ ولم يذكر ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف مع أنَّه يؤيد اتصال المدرسة البصرية بالمدرسة الكوفية في قوله : (والحق أننا إذا أردنا أن نبحث بين البصريين عن موجِّه للكسائي والفراء في إنشاء المذهب الكوفي مَثل تَوًّا أمامنا الأخفش الأوسط الذي روى عنه الكسائي إمام الكوفة الأول كتاب سيبويه ، فهو الذي فتح له وللفراء أبواب الخلاف مع سيبويه والخليل على مصاريعها ، وبذلك أعدهما للخلاف عليهما وتنمية هذا الخلاف بحيث نفذا إلى مذهبهما النحوي الجديد)[٧١٩] .

وذهب الدكتور إلى أنَّ الكوفيين وأولهم الكسائي في الوصول إلى الحجة في التقعيد ، باعتماد المصادر ممّا يسمعه عن القبائل العربية المحيطين بالكوفة ومشافهتهم ، ولم يلتزم تحديد البصريين الذين توقّفوا عند أقوامهم بأعيانهم وأماكن معيّنة وزمن محدّد ، إذ احتجّ بإعراب سواد الكوفة من قبائل تميم وأسد ، وإعراب الحطميّة ، من الذين خطّأهم البصريون ، ومنعوا من الاستشهاد بلغتهم ، ووصفوها بالقلة والندرة والشذوذ واللحن[٧٢٠] .

ويقول الدكتور: إنّ الكوفيين أعادوا وصف اللغة استنادًا إلى مصادر أخرى وتحديدات جديدة ، وقد أجازوا السماع من بيئة إعراب الكوفة ، وكان الكوفيون قد عُرفوا باهتمامهم بالقراءات القرآنية والحديث النبوي الشريف ورواية الشعر والأخبار وعلماؤهم حفاظ لغويون[٧٢١] ، فضلاً عمَّا نقله عن الكسائي من أنَّه لم يتأثر بالفلسفة الكلامية تأثرًا مباشرًا ، وأنَّه لم يتصل

---

[٧١٩] المدارس النحوية، شوقي ضيف ١٥٥،١٥٦.

[٧٢٠] تاريخ النحو وأصوله ٢٠٤ ، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٢٥ .

[٧٢١] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٢٠ –٢٢.

بآراء المتكلمين أو يقف على شيء من الثقافة الأجنبية كما ينسب إلى نحاة البصرة ، واستثنى منهم الفرَّاء في احتمال اطِّلاعه على شيء من علم الكلام[٧٢٢] .

[٧٢٢] الفهرست ٩٩، وبغية الوعاة ٣٣٣/٢، وأبو زكريا الفرَّاء ٣٢٢ ، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٢٢ .

المبحث الثالث : الأصول بين البصرين والكوفيين

ذهب بعض المحدثين إلى أنَّ البصرة كانت أبعد ما تكون عن الاختلاط بالأعاجم ، وأن علماء البصرة دائمي الترحال إلى البادية والجزيرة ، منهم : الأصمعي وأبو عبيدة ويونس وأبو زيد والخليل ، في حين كانت الكوفة أدخل في العراق وأقرب إلى الاختلاط بالأعاجم[٧٢٣] ، وقد ذهب الدكتور مهدي المخزومي إلى خلاف هذا الرأي فقال : (أكثر أهل الكوفة من اليمانيين، وأكثر أهل البصرة من المضريَّين ؛ ومن الناحية العلمية ، فأهل الكوفة أصحاب فقه وحديث وقراءة، وأهل البصرة أصحاب علوم وفلسفات ؛ لأنَّهم أكثر اختلاطًا بالأجانب من أهل الكوفة، وأكثر حرية في اعتناق المذاهب المختلفة ، وأسرع إلى الأخذ من الثقافات الأجنبية ؛ لتوافر مصادرها عندهم ؛ وكثرة انتقالهم للكسب والتجارة[٧٢٤] .

وقيل (إنَّ البصرة هي صاحبة الأصول النظرية التي قام عليها الدرس النحوي واللغوي عند العرب ممثلة في السماع والقياس والعامل ، وهي الأصول نفسها التي يسلِّم بها علماء العربية جميعًا ، سواء في الكوفة وغيرها)[٧٢٥] .

وردَّ باحثا الدكتور هذا الرأي بقوله : (لا شكَّ في أنَّ هذا الرأي متعجل إنْ لم يكن متعصِّبًا، إذ فاته أنْ يتأمل ما وصل إلينا عنهم بروية وإنصاف ، وفاته كذلك الالتفات إلى إعجاب خصوم الكوفيين ببعض أصولهم ، فقد عُرِضَت باهتمام إلى جانب أصول البصريين، وما كان تنظيم الأنباري للخلاف في كتابه الإنصاف إلاَ جمعًا لأصول متعارضة عرضت من الطرفين على لسانه)[٧٢٦] .

---

[٧٢٣] من تاريخ النحو العربي ٦٥.

[٧٢٤] مدرسة الكوفة ٦٦.

[٧٢٥] العربية وعلم اللغة البنيوي ٣٤، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٣٢ .

[٧٢٦] مسائل الخلاف النحو بين الكوفيين ٣٢.

وكان باحثنا الدكتور قد عرض الأصول المشتركة بين المدرستين نقلاً عمَّا أورده الدكتور تمام حسان[٧٢٧] ، وزاد عليها أربعة أصول ، هي[٧٢٨] :

أ- النداء والتصغير من خصائص الأسماء .

ب- الأصل في الإعراب أن يكون للأسماء .

ت- العرب قد تكنِّي عن الشيء وإنْ لم يأتِ ذكره إذا كان المعنى مفهومًا.

ث- الفعل الواحد لا يرفع اسمين .

أمّا الأصول التي رفضها البصريون : فكانت عشرة أصول ذكرها باحثنا الدكتور مهدي نقلاً عن الدكتور تمام حسان[٧٢٩] ، وزاد عليها سبعة عشر أصلًا ، كانت على النحو الآتي[٧٣٠] :

أ- رتبة العامل قبل رتبة المعمول أوجبت أنْ يكون المصدر فرعًا على الفعل كما في ضربت ضربًا، والمصادر هنا توكيد للأفعال ، والتوكيد تابع للمؤكد بعده والمؤكد سابق لهنّ، فدل ذلك على أنَّ المصدر تابع للفعل، مأخوذ منه، وأنَّ الفعل هو الأصل الذي أخذ منه[٧٣١] .

ب- ليس في كلام العرب حرف يعمل الخفض في المكني (الضمير) دون الظاهر، فقالوا : إنَّ الضمير المتصل بـ(لولا) لا يمكن أنْ يكون مجرورًا[٧٣٢] .

ت- لا يجوز تقديم المضمر على المظهر، فـ(راكبًا جاء زيد) ، لا يجوز[٧٣٣] .

ث- مالا يقبل التنكير أعرف مما يقبل التنكير، فاسم الإشارة أعرَفُ من العلم[٧٣٤].

---

[٧٢٧] الأصول ٤٢-٤٣.

[٧٢٨] الإنصاف في مسائل الخلاف١٤/١٥، والأصول في النحو١/٥٠. ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٣٥.

[٧٢٩] الأصول ٤٣.

[٧٣٠] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٣٨-٤٠.

[٧٣١] إيضاح الوقف والابتداء١/٦٦١، والإنصاف في مسائل الخلاف ٢٨.

[٧٣٢] الإنصاف في مسائل الخلاف ٩٧.

[٧٣٣] المصدر نفسه ٣١، وأسرار العربية ١٩٢.

[٧٣٤] الإنصاف في مسائل الخلاف ١٠١، وشرح الرضي على الكافية ٣١٢/١، وارتشاف الضرب١/٤٦٠.

ج . النصب بحذف الخافض، في خبر(ما) المشبه بليس، مثل: (ما زيدٌ قائمًا)؛ لأنَّ الأصل (ما زيدٌ بقائم)، فلما حُذف حرف الخفض وجب أنْ يكون منصوبًا[٧٣٥] .

ح . لا يمتنع أنْ يكون كلٌّ واحدٍ من المبتدأ والخبر عاملاً ومعمولاً[٧٣٦] .

خ . المنصوب على الصرف يجيز عمل حرف النسق[٧٣٧] .

د . ألفاظ الإشارة أسماء موصولة ، و(الذي) أصلها الذال وحدها كأصل اسم الإشارة (ذا) فجوهرها واحد[٧٣٨] .

ذ . جواز أنْ تحلَّ الجملةُ محلَّ الفاعلِ ونائبه[٧٣٩] .

ر . (كِلا) مثنى لفظا ومعنى[٧٤٠] .

ز . العرب قد تنسق الشيء نفسه وتخصّه بالذكر تفصيلاً[٧٤١] ، كقوله تعالى: (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . الرحمن ٦٨) .

س . الأمر مقتطع من المضارع ، فأُعرِبَ كأصله[٧٤٢] .

ش . أُعرب المضارع لتعاور المعاني والدلالات والأوقات الطويلة وهو يصلح للأزمنة المختلفة من الحال والاستقبال والماضي[٧٤٣].

ص . ليس شاذًا أنْ تنوب بعض الحروف عن بعض[٧٤٤] .

ض . نون التوكيد الثقيلة أصلٌ للخفيفة[٧٤٥] .

---

[٧٣٥] الإنصاف في مسائل الخلاف ١٩١.

[٧٣٦] المصدر نفسه ٥ .

[٧٣٧] الإنصاف في مسائل الخلاف ٧٦، وشرح المفصل ١٠٨/١، وشرح الرضي على الكافية ١٩٠/٢.

[٧٣٨] شرح المفصل ١٣٩/٣.

[٧٣٩] المغني اللبيب ٤٤٩.

[٧٤٠] ليس في كلام العرب ٢٣،٢٦، وأسرار العربية: ٢٨٧،وارتشاف الضرب: ٢/ ٦٠٨، وهمع الهوامع: ٢٧/١.

[٧٤١] إعراب ثلاثين سورة ٥٤.

[٧٤٢] معاني القرآن، للفرَّاء ٤٧٠/١، ومجالس ثعلب ٤٥٦، وشرح القصائد السبع ٣٨، وهمع الهوامع ٣٩/١.

[٧٤٣] معاني القرآن، للفرَّاء ٤٧٠/١، وشرح المقدمة المحسبة١٤٤/١، وأسرار العربية٣١٨، وهمع الهوامع ٣٠٨/٤.

[٧٤٤] همع الهوامع ٥٤/١.

ط . اسم الفاعل واسم المفعول العاملان عمل فعليهما فعلان دائمان[٧٤٦] .

أمّا الأصول البصرية التي لا يرضاها الكوفيون فكثيرة[٧٤٧] ، ومنها :

أ . لا يعمل الشيءُ في نفسهِ كادعاء عمل أحرف المضارعة[٧٤٨] .

ب . (المكني لا يكون توكيدًا للمظهر) ؛ لذلك لا يكون الفصل توكيدًا لما قبله[٧٤٩] .

ت . (الذي) أصلها (لَذِيَ)، اللام فاء الكلمة والذال عينها والياء لامها، ولا يجوز أن يكون اسم في كلام العرب على حرف واحد، إلا أنْ يكون ضميرًا متصلاً[٧٥٠].

ث . الرفع سابق على النصب؛ لذلك لا يجوز الرفع للتجرد من الناصب والجازم[٧٥١].

ج . لا يجوز تقديم ما يرتفع بالفعل عليه ، بل بمضمر؛ لأنَّ الفعل لا يرفع ما قبله[٧٥٢].

ح . الأصل في كل حرف ألاَ يدل إلاَ على ما وضعَ له، ولا يدل على معنى حرف آخر، كـ(إن) بدل (إذ) و(أو) بدل الواو أو (بل)[٧٥٣].

خ . الأصل في أسماء الإشارة أنْ لا تحل محل (الذي)[٧٥٤] .

د . لا يجوز عطف الظاهر المجرور على المضمر المجرور إلاَ بإعادة الجار[٧٥٥].

ذ . الجملة لا تكون فاعلاً ولا نائبًا عنه[٧٥٦] .

ص . لا يصلح دليل الحرفية في (ليس و عسى) مع قيام دليل الفعلية[٧٥٧] .

---

[٧٤٥] مغني اللبيب ١١٩.

[٧٤٦] المصدر نفسه ٣٧٤.

[٧٤٧] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٤٢-٤٤.

[٧٤٨] معاني القرآن للفرَّاء ٢٠٣/١، والإنصاف في مسائل الخلاف ٤٧، وائتلاف النصرة ٤٥.

[٧٤٩] الإنصاف في مسائل الخلاف ٧٤.

[٧٥٠] الإنصاف في مسائل الخلاف ١٠٠.

[٧٥١] شرح المفصل ٣/ ١٤، ٣٤.

[٧٥٢] الإنصاف في مسائل الخلاف: ٧٢.

[٧٥٣] المصدر نفسه: ١٢٨، وائتلاف النصرة: ١٣.

[٧٥٤] شرح المفصل ١٤/٣، ٣٤.

[٧٥٥] الإنصاف في مسائل الخلاف ٣٩.

[٧٥٦] مغني اللبيب ٤٤٨ . ٤٤٩.

ر . فعل الأمر أصلٌ برأسه[٧٥٨] .

ز . الفعل المضارع يرتفع لقيامه مقام الاسم وهو عامل معنوي لا لفظي فأشبه الابتداء، فمثلما أن الابتداء يوجب الرفع فكذلك ما أشبهه[٧٥٩] .

س . لا تنوب الألف واللام عن الهاء في تخريج مثل قوله تعالى : (جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ـ سورة ص ٥٠) على تقدير أبوابها ؛ لأنَّ الألف واللام من حروف المعاني والهاء اسم، فلا يقوم أحدهما مقام صاحبه[٧٦٠] .

ش . نونا التوكيد ثقيلة وخفيفة وهما أصلان[٧٦١] .

ص . أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض لقياس، كما أنَّ أحرف الجزم وأحرف النصب كذلك[٧٦٢] .

ض . الحذف لكثرة الاستعمال ليس بقياس[٧٦٣] .

ط . التمييز والحال والمستثنى أصول في النصب كالمفعول وليست محمولة عليه[٧٦٤] .

---

[٧٥٧] همع الهوامع ١/٢٨٠.

[٧٥٨] المصدر نفسه ١/٤٧.

[٧٥٩] أسرار العربية ٢٨.

[٧٦٠] معاني القرآن، للفراء ٢/٤٠٨-٤٠٩، شرح القصائد السبع ٧٠-٧١، وشرح الرضي على الكافية ٢/٣٩٠،.

[٧٦١] مغني اللبيب ٣٧٤.

[٧٦٢] مغني اللبيب ١١٨، ١٥٣، وهمع الهوامع ٤/١٩٢.

[٧٦٣] ائتلاف النصرة ١٥٦.

[٧٦٤] شرح الرضي على الكافية ١/٦٧.

المبحث الرابع : المصطلح الكوفي

مرّت المصطلحات اللغوية والنحوية بمراحل زمنية متباينة وتعرّضت لمؤثرات كثيرة بدءًا بالمدرسة البصرية ، وقد اشترك مجموعة من النحاة في تطويره ، وقد ظهر المصطلح النحوي مع الانطلاقة الأولى لعلم النحو، وقد أسهم البصريون إسهامًا كبيرًا في بناء المصطلح اللغوي عامةً، والنحويّ خاصةً ، وجاء بعدهم الكوفيون وقد عملوا على بناء صرح لغوي ونحوي وكان لهم مصطلحاتهم الخاصة ، فضلاً عن المصطلحات المشتركة بين المدرستين[٧٦٥] .

وقد عرَّج باحثنا الدكتور على المصطلح الكوفي والمصطلحات المشتركة لإثبات وجود مدرسة كوفية مقابل المدرسة البصرية ، فوجد من يرى أنَّ المصطلح الكوفي لا يتصف بالشمول والسَّعة ، وأنَّه لا يفي بحاجة النحوي المتخصص، وأنَّ الكوفيين استعملوا مصطلح البصريين ، وأنَّ المصطلحات هي الجانب السطحي للنظرية العلمية وليست الجانب الأصيل فيها[٧٦٦] . فكان رَدَّهُ على هذا الرأي (إنَّ الاستعمال المشترك يرجع إلى النشأة الأولى للنحو، وإلى المرحلة التي سبقت تمايز المدرستين ، فقد استقرَّ استعمال بعض المصطلحات على ألسنة علماء العربية، ولذلك استعملت "الضمة والفتحة والكسرة والفاعل والمفعول ... إلخ" عند البصريين والكوفيين على السواء)[٧٦٧] ، وقد عزا الخلاف بين البصريين والكوفيين إلى الخلاف الذي بدأ بين سيبويه والكسائي (وكان الخلاف بين البصريين والكوفيين يضرب أطنابه بين بيوتات العلم ويترك أثره في مسيرة النحو العربي حتى أصبح للكوفيين نحو يختصون به لا يستطيع أن يفهمه من درس النحو على البصريين)[٧٦٨] ؛ وقد أورد الدكتور آراء مهمة ، وردَّ عليها وكان منها : إنَّهم اتهموا المصطلح النحوي بالتّشتّت ، وعزا ذلك إلى البدايات الأولى للمصطلح النحوي ، إلى ما يسمى بـ (طفولة المصلح النحوي) وأوضح أنَّها مرحلة ما قبل النضج والاستقرار. كما عزا

---

[٧٦٥] أصول علم العربية في المدينة ٣٥٩ .

[٧٦٦] مجلة التربية والعلم، العدد١، لعام ١٩٧٩م، المصلح الكوفي، محيي الدين توفيق ١٥.

[٧٦٧] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٤٥.

[٧٦٨] المصدر نفسه ٤٥.

الاختلاف في استعمال المصطلح بين الكوفيين إلى مرحلة التلمذة على البصريين أو المشترك أو الترادف الذي يرى أنَّه لا يتعدى أنْ يكون توضيحًا للمصطلح الأساس وبعضه يعود لفوضى المصطلح عن علماء المدرستين آنذاك[٧٦٩] ؛ وبعض هذه الأسباب مؤيدة بما ذهب إليه الدكتور مهدي المخزومي في قوله : (وعن الخليل أخذ النحاة الذين تلمذوا له فكرة وضع المصطلحات، وإذا افترق تلاميذه فريقين ، تأثر كلّ فريق بمنهج دراسي خاص ، وكان لكل فريق منهما مصطلحات خاصة به ، تخضع في الغالب لمزايا منهجه ، وتبدو فيه خصائصه)[٧٧٠] .

وقد قسم الدكتور مهدي صالح المصطلح الكوفي على قسمين : المصطلحات الكوفية التي لم يكتب لها الاستمرار؛ لأسباب ، منها : ما لم يُجمِعُ عليها علماء الكوفة ، أو لأنَّها كانت في أوَّل وضعها ، وفي طور التجريب ، وذكر منها : (الاستيتاء وهو الإغراء[٧٧١] ، والإلقاء وهو الحذف[٧٧٢] ، والمحققة ، أيّ الملغاة في الاستثناء المفرغ[٧٧٣] ، والأيمان ، أيّ القسم[٧٧٤] ، والتشديد، أيّ التوكيد، والتكرير، أيّ التشديد والتوكيد[٧٧٥] ، والرد ، أيّ العطف[٧٧٦] ، وغيرها[٧٧٧] .

أمّا المصطلحات المشتركة فكانت خمسة وثلاثين مصطلحًا ، منها : (الأداة، والفعل التام، والتبرئة، والتبيين، والترجمة، والتفسير، والتقريب، والجحد والإقرار، والخالفة، والخفض، والخلاف، والفعل الدائم، والدعاء، والدعامة، والشبيه بالمفعول، والصفة، والصلة، والعماد... وغيرها)[٧٧٨] ؛ وقد اكتفى الدكتور ببيان وجود هذه المصطلحات الكوفية في كتب البصريين،

---

[٧٦٩] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٤٦.

[٧٧٠] مدرسة الكوفة ٣٠٤.

[٧٧١] مقدمة في النحو ٥٣، والمدارس النحوية، د. السامرائي :١٢٥.

[٧٧٢] مجلة التربية والعلم ٤٧-٤٨.

[٧٧٣] إيضاح الوقف والابتداء ١١٩/١، ومجلة العلم والتربية ٤٠. ٤٨.

[٧٧٤] إيضاح الوقف والابتداء ١١٨/١، ١٣٧.

[٧٧٥] معاني القرآن، للفرَّاء ٢٢/٣، ١/ ١٧٧ ،١٨٦.

[٧٧٦] المصدر نفسه ٧/١، ١٧٧.

[٧٧٧] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٤٨-٤٩ .

[٧٧٨] المصدر نفسه ٤٧-٥٦.

ومن ذلك ما ذكره في مصطلح (التام) ، قال : (الفعل التام مقابل الفعل الناقص، الذي استقر فيما بعد مصطلحًا يدلُّ على باب من أبواب النحو، وكان الكوفيون أسبق في تداول النقص مصطلحًا دالاً الدلالة المعروفة ؛ لأنَّهم تنبّهوا وعبروا بمصطلح عن ظاهرة إمكان إدخال الناسخ وإخراجه على الجملة الاسمية)[٧٧٩] ، ويؤكد أنَّ الكوفيين أول من استعمل هذه المصطلح ويرد على من ذهب إلى تأثر الكوفيين بالمصطلح البصري في مسألة التمام والنقص[٧٨٠] .

وكان الدكتور مهدي المخزومي قد ذكر أنّ (المصطلحات النحوية التي اصطنعتها المدرستان ثلاث طوائف :

١-طائفة كوفيَّة ، لم يعرفها البصريون.

٢- طائفة بصرية ، لم يعرفها الكوفيون.

٣-وطائفة كوفية بصرية ، إلاَ أنّ لها عند الكوفيين اسمًا، وعند البصريين اسمًا آخر)[٧٨١].

---

[٧٧٩] المدارس النحوية ٤٩.

[٧٨٠] المصدر نفسه ٤٩.

[٧٨١] مدرسة الكوفة ٣٠٥.

المبحث الخامس : توزيع الخلاف بين الكوفيين

ذكر باحثنا الدكتور أنّ النحويّ الكوفيَّ قد ينضَمُّ إلى رأيٍ بصريٍّ[٧٨٢] ؛ وقد ينتقل العالم من صف الكوفيين إلى صف البصريين ، مثلما حصل لأبي إسحاق الزجاج (٣١١هـ)، إذ فارق أستاذه ثعلبًا الكوفيّ ، ليلازم المبرد شيخ البصريين في بغداد ، ثم يترأسهم فيها[٧٨٣] .

وقد قسّم الدكتور الخلاف النحويّ بين الكوفيين على أربعة أقسام ، الخلاف الذي اتصل بالبصريين ، أو بين الكسائي والفراء ، أو حين لا يقابل الكسائي الفراء ، وعلى النحو الآتي :

١-الخلاف النحوي المتصل بالبصريين

أثبت الدكتور هذا النوع من الخلاف ؛ وذكر ستًّا وأربعين مسألة خلافية على أنَّها متصلة بأفراد من البصريين ، عرض مضامينها ثم ميّز ما يراه راجحًا ، ومن هذا النوع من المسائل الخلافية : (إعراب الأسماء الستة ، ورافع المبتدأ ، وإعراب الأحرف في فواتح السور، وتأنيث ضمير أظنُّ الظنَّة ، المرفوع بعد لولا ، وتقدير ناصب الاسم ، وإعمال "إنَّ" عمل "ليس"، ونصب المعمولين بالأحرف الناسخة ، وإلغاء "ظنَّ" متصدرة ، و"أنَّ" و"أنْ" بعد حذف الخافض، وموضع "أنَّ" بعد "لا جرم" ، وغيرها)[٧٨٤] ، ومن الجدير بالذكر أنّ الدكتور عمل على عرض آراء القدماء في المسألة ، وألحق بها آراء المحدثين وأفاد من بعضها في الردَّ وربما أيدها، ومن ذلك ما جاء في (المسألة الأربعون) من كتابه قال : (الوقف على التاء هاء: عند الكسائي في قوله تعالى : ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ . المؤمنون ٣٦) ، و(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . سورة ص ٣) ، و(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . النجم ١٩) ، وقد أخذ في هذه المسألة من صاحب كتاب مشكل إعراب القرآن ، مكي بن أبي طالب إذ وجد أنه ينسب للمبرد متابعة الكسائي في (لات) وهي بمنزلة (رُبَّه)[٧٨٥] ، وأخذ من ابن الأنباري قول الفرَّاء : (رأيت الكسائي سأل أبا فقعس

---

[٧٨٢] البحث اللغوي عند العرب ١٢٩.

[٧٨٣] طبقات النحويين ١٠٩-١١٠، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٥٩.

[٧٨٤] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٦٠-٩٦.

[٧٨٥] معاني القرآن، للفرَّاء ٣٩٨/٢، ٢٣٥/٣، ومشكل إعراب القرآن ٦٢٣/٢.

الأسدي عن "وَلاتَ" فوقف: ولاه بالهاء)[٧٨٦] ، وأخذ تصريح الفرَّاء من كتابه معاني القرآن من أكثر من موضع ، قال : (أقف على "لاتَ" بالتاء والكسائي يقف بالهاء)[٧٨٧] ، وفي موضع آخر قال في "اللات" : الكسائي يقف عليها بالهاء وأنا أقف عليها بالتاء[٧٨٨] ، ثم ذكر ما وجده عند أبي بكر ابن الأنباري ، إذ نسب قراءة هيهات : هيهاه إلى عيسى بن عمرو وأبي عمر بن العلاء ، في حين وجد في تفسير القرطبي إنَّه نسب إلى مجاهد وعيسى بن عمرو وأبي عمرو بن العلاء والكسائي وابن كثير أنَّهم يقفون عليها "هيهاه" بالهاء ، ثمَّ أورد رأي الدكتور إبراهيم أنيس من المحدثين (إنَّ ظاهرة الوقوف على الهاء ليست في الحقيقة قلب صوت إلى آخر بل هي حذف الآخر من الكلمة وما ظنَّهُ القدماء "هاء" متطرفة هو في الواقع امتداد في التنفس حين الوقوف على صوت اللين الطويل ، أو كما يسمى عند القدماء ألف المد ، وهي الظاهرة نفسها التي شاعت في الأسماء المؤنثة المفردة التي تنتهي بما يسمى بالتاء المربوطة ، فليس يوقف عليها بالهاء كما ظنَّ النحاة ، بل يحذف آخرها ، وعند التنفس بما قبلها من صوت لِين قصير "الفتحة" فيخيل للسامع أنَّها تنتهي بالهاء)[٧٨٩] ، فهو بذلك يَرُدُّ على آراء القدماء بالرأي الحديث ويكتفي به .

وثمة خلاف نحوي كوفي يتصل بعامة البصريين ، وهو خلاف ناتج عن أثر المدرسة البصرية ببعض علماء الكوفة ، وقد وجد الدكتور ثلاثين مسألة خلافية ، منها : (التركيب بين "من" و"ذا" ، وزيادة "مَنْ" ، وتقدير معمول الخبر في أسلوب الحصر، وتحمُّل الحال السادة مسد الخبر ضمير المصدر، وزيادة "الباء" و"كان" معًا، وتقديم معمول خبر "ما" عليها، ودخول الباء على خبر "ما" إذا كان لفظه "مثل" ، وإن التي يقترن الخبر بعدها باللام... وغيرها)[٧٩٠] . ومن هذه المسائل التي عرضها الدكتور مسألة (إن) التي يقترن الخبر بعدها باللام ، إذ وجد عند

---

[٧٨٦] المذكر والمؤنث لابن الأنباري ٢١١/١.

[٧٨٧] معاني القرآن، للفرَّاء ٢/ ٣٩٨.

[٧٨٨] المصدر نفسه ٣/ ٩٧.

[٧٨٩] في اللهجات العربية ١٣٦، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٩١.

[٧٩٠] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين: ٩٩-١١٤.

الكوفيين (أنَّ "إن" تجاب باللام تكون بمنزلة "ما" و"إلاَ")[٧٩١] ، وذكر أنَّ (إنَّ) المشددة عند الكوفيين لا تخفف و(إنْ) المخففة إنَّما هي حرف ثنائي الوضع ، وهي نافية فلا عمل لها ألبَتّة، ولا توكيد فيها واللام بعدها للإيجاب بمعنى (إلاَ)[٧٩٢] ؛ ثم ذكر رأي الفرَّاء : (إنْ ضربت لزيدًا ، كمعنى قولك : ما ضربت إلاَ زيدًا .. إنّها لغة في هذيل يجعلون "إلاَ" مع إنْ المخففة "لمَّا" ولا يجاوزون ذلك ...)[٧٩٣] ، ثم عرض قول الدكتور محيي الدين توفيق : (مذهب الفرَّاء وما تبعه أحد من الكوفيين)[٧٩٤] وردَّ عليه بقوله : (نقول بل تبعه ابن خالويه ، حين أورد الحديث الشريف: (وإن وجدناه لبحرًا)[٧٩٥] ، (إن بمعنى ما ، واللام بمعنى إلاَ، والتقدير ما وجدناه إلاَ بحرا)[٧٩٦] .

٢-الخلاف النحوي بين الكسائي والفراء

يُعَدُّ الخلاف بين الكسائي والفراء من أبرز الخلافات بين النحويين الكوفيين ، وقد وجد باحثنا تسعًا وثلاثين مسألة خلافيّة ، ومنها : (علامات الاسم وحدِّه ، وتاء التأنيث ، وإظهار لام الأمر مع المخاطب ، وحكم العماد حكم ما بعده ، وتقديم العماد ، وتقديم الحال السادَّة مسد الخبر على المبتدأ ، ووقوع الحال جملة اسمية سادَّة مسدِّ الخبر، وإعراب خبر كان المشتق إذا تقدم على اسمها... وغيرها)[٧٩٧] ؛ ومن المسائل الأخرى التي عرضها باحثنا الدكتور مسألة إعراب النكرة الموصوفة إذ ذهب البصريون إلى أنّ النكرة المناداة إذا وصفت وجب نصبها ، في حين ذهب الكسائي والفراء إلى جواز الرفع والنصب ، ثُمَّ عرض رأي الفراء الذي فصل بين أن

---

[٧٩١] الأصول في النحو ٣١٦/١، والانصاف في مسائل الخلاف ٩٠، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ١٠٣ .

[٧٩٢] التبيين عن مذاهب النحويين ٣٤٧، وهمع الهوامع: ٢/ ١٨٣، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ١٠٣.

[٧٩٣] معاني القرآن، للفرَّاء ٣٩٥/٢، ٢٥٤/٣.

[٧٩٤] ابن الأنباري ٢٢.

[٧٩٥] سنن أبي داود ٥٣٩/٢، وغريب الحديث ٩٩/١، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ١٠٣.

[٧٩٦] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ١٠٣.

[٧٩٧] المصدر نفسه ١١٧- ١٤٨.

يكون فيه ضمير الغيبة فيجب النصب نحو: يا رجلا ضرب زيد ، أو ضمير خطاب فيجب الرفع ، نحو: يا رجلُ ضربت زيدًا[٧٩٨] ، وذكر أنّ مذهبه أقرب إلى البصريين[٧٩٩] .

٣-الخلاف بين الكوفيين حينما لا يقابل الكسائي الفراء

وقد تضمن هذا النوع من الخلاف عشرين مسألة خلافية ، كان منها : (نصب جمع المؤنث بالفتحة ، والضمير من "إيَّاك" ، وحذف "مَنْ" الموصولة ، وما فيه الألف واللام وقد يوصل بصلة كاسم الموصول ، وناصب الظرف الواقع خبرًا، وإلغاء "كان" أول الكلام ، واللام في خبر "إنْ" ، وتركيب "لكن" ، واتصال الضمير بـ"إلاَ" ، ورافع الفاعل... وغيرها)[٨٠٠] ، ومن هذه المسائل الخلافية التي عرضها الدكتور (كسر النون في (شتَّانِ) تشبيهًا بـ (سيَّانِ) ، وقد قدم باحثنا الدكتور آراء العلماء في هذه المسألة، وهذا ما أجازه الفراء وتابعه ثعلب[٨٠١] ، ومنع ابن خالويه هذا الجواز، بقوله : (فإن قيل الفراء ثقة ولعلَّه سَمِعَهُ فالجواب إنْ كان سمِعه من عربيّ فإنَّ الغلط على ذلك العربي ؛ لأنَّه خالف سائر العرب ، وأتى بلغة مرغوب عنها)[٨٠٢] .

---

[٧٩٨] معاني القرآن، للفراء ٣٧٥/٢، وارتشاف الضرب ١٢٠/٣، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ١٤٣ .

[٧٩٩] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ١٤٣.

[٨٠٠] المصدر نفسه ١٥٩-١٦٦.

[٨٠١] الفصيح ٣١٢، وإصلاح المنطق ٣١٣، وشرح الفصيح لابن الجبان ٢٨٨، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ١٦٣.

[٨٠٢] المزهر ٢/ ٣١٤ ، ومسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ١٦٣.

المبحث السادس : تقويم مسائل الخلاف

قدم الدكتور تقويمًا لمسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ، فكانت على النحو الآتي : وجد أنَّ المسائل التي اتصلت بالبصريين ستًا وسبعين مسألة ، وهي أكثر من نصف المسائل ، وأنَّ الفراء خالف الكسائي في ثمانين مسألة ، ووافقه في عشر مسائل ، ولم يختلفوا في عشر مسائل ، واستنتج أنَّ الخلاف الكوفي تركز بين الكسائي والفراء ، واستنتج ميل الفراء للبصريين، لأنَّه وافق عامتهم في سبع عشرة مسألة وخالفهم في ست عشرة مسألة ، في حين وافقهم الكسائي في ثلاث عشرة مسألة ، ثم ذكر أنَّ الفراء وافق أفرادًا من البصريين أو وافقوه في خمس وثلاثين مسألة ، وخالفهم أو خالفوه في اثنتين وثلاثين مسألة ، في حين وافقهم الكسائي أو وافقوه في سبع عشرة مسألة ، وخالفهم أو خالفوه في اثنتين وثلاثين مسألة ، ووافق الفراء عامتهم في أربع مسائل ، وخالفهم في ثلاث مسائل ، ووافق أفراد منهم في أربع مسائل، وخالفهم في مسألتين[٨٠٣] ، وعلى هذا النحو تركزت جهود باحثنا الدكتور في بيان مخالفات الكوفيين البصريين ، فقد توسع في متابعة هشام للكسائي في موافقاته ومخالفاته لعامة الكوفيين ولأفراد منهم ، إذ يمكن القول إنَّ الدكتور اختصر على الباحثين جهدًا كبيرًا في بيان المخالفات والموافقات، مصنفة بين عامة الكوفيين وعامة البصريين، ومفصلة بين علماء المدرستين ، وقد ذكر عدد المسائل التي خالف فيها الكسائي سيبويه ، والتي وافقه فيها ، وذكر مخالفات الكسائي، وموافقاته للأخفش ، وكذلك فعل مع الفراء وموافقاته ومخالفاته لآراء الأخفش ، ثم ذكر عدد الآراء الكوفية التي اتصلت بالخليل ويونس موافقةً ومخالفةً ، وعلى هذا النحو وصل إلى ما اتصل من آراء الكوفيين بالمبرد ، حتى وصل في جهوده هذه إلى عرض مخالفات هشام بن معاوية الضرير وثعلب ، ثم ابن الأنباري وابن خالويه وصولاً إلى بقية الكوفيين[٨٠٤] ، وقد أجمل عددًا من الآراء بقوله : (كان قسم من النحويين الكوفيين في المراتب الأخيرة من

---

[٨٠٣] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين المصدر نفسه ١٦٩.

[٨٠٤] المصدر نفسه ١٦٩-١٧٢.

الخلاف النحوي بينهم القاسم بن معن ، ومعاذ الهراء (١٨٧هـ) والطوال (٣٤٣هـ) والحامض (٣٠٥هـ) ، وابن فارس (٣٩٥هـ) في مسألة واحدة لكل منهم)[٨٠٥] .

وقد تضمن الخلاف في عشرة موضوعات هي (تمييز الاسم، وترتيب الأبواب النحوية، وبعض أقسام الكلام، وتقدير أحد المترافعين المبتدأ أو الخبر، ورافع الفاعل ، والكاف في اسم الفعل، والعلَّة المعنوية، وتعليل نصب المنصوبات، والجار والمجرور، وتجاور الشرط والجزاء)[٨٠٦] .

وكانت أكثر الإجازات الكوفية في التقديم للكسائي ، وقد ذكر منها : (تقديم التمييز، وتقديم المفعول، وتقديم الحال، وتقديم معمول اسم الفعل، وتقديم معمول الشرط على أداته، وتقديم معمول المضاف إليه على المضاف، وتقديم معمول اسم الفاعل على المبتدأ...)[٨٠٧] ، وبعد أن ذكر الدكتور جوازات الكسائي في التقديم ، ذكر (أنّ المنع كان من مذاهب الفراء، فذكر أنه منع تقديم التمييز والحال من المضمر...)[٨٠٨] ؛ وكان الكتاب قد خلص (إلى أنَّ التوسع كان من مذاهب الكسائي ، والمنع من مذاهب الفراء)[٨٠٩] ، ثم أورد موافقة بعض العلماء للكسائي في بعض المسائل التي أجاز فيها التقديم خاصة وما وافق به البصريين عامةً ، فضلاً عن بيانه في موضوع الزيادة التي ذكر أن أكثرها كانت تنسب إلى الكسائي وقد خالفه الفراء في بعضها[٨١٠] .

---

[٨٠٥] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ١٧٢.

[٨٠٦] المصدر نفسه ١٧٣ .

[٨٠٧] المصدر نفسه ١٧٧-١٧٨.

[٨٠٨] المصدر نفسه .

[٨٠٩] المصدر نفسه ١٧٨.

[٨١٠] المصدر نفسه ١٧٨ . ١٧٩ .

وقد تضمنت الخلافات في (القراءات القرآنية، واللهجات، والضرورة الشعرية، وتحديد المطلق، وعمل الأدوات النحوية ، والخلاف الذي خلا من فائدة ، والخلاف الذي لم يكن نحوًا محضًا)[٨١١] .

وأخيرًا نقول : اتصف منهج الدكتور بالتدرج ، بدءًا من إثبات وجود المدرسة الكوفية والرد على منكريها مرورًا بموازنة الآراء ومقابلتها مع المدرسة البصرية عامة ، وصولاً إلى المسائل الخلافية بين علماء الكوفة ، وقد راجع في بعض مباحثه آراء الدكتور تمام حسان مؤيّدًا ما جاء به ، وزاد عليه ما استطاع إليه سبيلاً في بحثه عن الأصول .

وكان رأي باحثنا الدكتور: (أنَّ الكوفيين قد اطَّلعوا على نحو البصريين مشافهةً ومناقلةً باطلاعهم على كتاب سيبويه ، وكان هذا النحو أحد أسس بناء نحوهم الجديد، ولهذا لم يأنف علماؤهم من موافقة البصريين في كثير من المسائل سواء أكان الرأي البصري الوارد عامًا أم لأفراد منهم ، وهو ما عنيناه بالمشترك بين المدرستين)[٨١٢] .

---

[٨١١] المصدر نفسه ١٨٢ . ١٨٦.

[٨١٢] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٢١ .

الفصل التاسع
جذور اللغات العراقيّة القديمة

المقدمة

ينقل باحثنا الدكتور في كتابه الموسوم : (موجز تاريخ اللغات الساميّة) ، أنّ قدماء الباحثين العرب لم يغفلوا الإشارة إلى اللغات المجاورة للّغة العربيّة ، ومنهم الخليل بن أحمد الفراهيدي ، الذي شبّه لغةَ الكنعانيين باللغة العربية ، في قوله : (كنعان بن سام بن نوح يُنسب إليه الكنعانيون وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية)[٨١٣] ، وكانوا قد أدركوا ما بين العربية والسريانية والعبرية من قرابة ، وذكروا أنّ (من تدَبّرَ العربية والعبرانية والسريانية ، أيقن أنّ اختلافها ، إنما هو من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان ، واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة في الأصل)[٨١٤] ؛ وما زال البحث في أصل هذه اللغات جارٍ على الرغم ممّا قرّره عدد من المستشرقين والباحثين العرب .

وقد وجد الدكتور أنّ ريادة دراسة مجموعة هذه اللغات قد اقتصرت على المستشرقين الغربيين ، ومن ثمّ من تلامذتهم ، الذين فرضوا نظريّات ووجهات نظر، لغايات دينيّة وسياسيّة، تصبُّ في خدمة التبشير الديني والتوسّع الاستعماري ، لكنّ هؤلاء حاولوا أن يجعلوا طابع دراساتهم . والحق يقال . العلم والموضوعيّة ، لكنّ أهدافها البعيدة ، ظلّت تصبُّ في خدمة توجهاتهم[٨١٥] .

وكان البحث في أصول اللغات الجزرية (الساميّة) ، والتوسّع في التفكير في وراثة العربيّة للغات العراقيّة القديمة ، وتطوّرها عنها على المستوى الصوتيّ والصرفي والنحويّ والتركيبيّ والدلاليّ ، ومناقشة عدد من الآراء بالحجج والأدلة العقلية والنقلية ، وحاول الدكتور عرض فكرة المشروع الحضاري العراقي اللغوي القديم ومنجزاته الكبرى بالاعتماد على النصوص

---

[٨١٣] كتاب العين ٢٣٢/١، وفقه اللغة السامية ٦ .

[٨١٤] الإحكام في أصول الأحكام ٣٠/١، وفقه اللغة السامية ٦ .

[٨١٥] موجز تاريخ اللغات الساميّة ٧ . ٨ .

والآثار ومدونات سومر وأكد وبابل وآشور، وتشارك غيرها من اللغات في الأصول ، ثم التأكيد على أنَّ العراق بلد قيم حضارية تدعو إلى الفخر والتأمل والتفكير[٨١٦] .

[٨١٦] موجز تاريخ اللغات الساميّة ٩ . ١١ .

المبحث الأول : العربيّة وقراباتها اللغويّة

لاحظ عدد من الباحثين المستشرقين الأوربيين أوجه الشبه بين العربية والعبرية والسريانية، وأدرك المتخصصون باللغات الجزريّة (السامية) تقارب جميع هذه اللغات ، ولاسيّما حينما بدأ الاهتمام باللغة العربية في أوربا في القرن السادس عشر، بهدف قراءة العهد القديم في نصه العبري ، وقد أفاد علماء اللاهوت من اللغة العربية لفهم بعض الأمور الغامضة في النص العبري للعهد القديم[٨١٧] .

وتابع باحثنا الدكتور الذين اعترضوا على أصل تسمية اللغات السامية ، المنقول عن المستشرق النمساوي اليهودي (شلوترز) الذي أطلقه سنة ١٧٨١م مستندًا إلى التصنيف التوراتي، وقد وجد هؤلاء المعترضون أنَّ التوراة أدخلت غير الساميين معهم ، وأخّرت الكنعانيين عنهم ، وقد استنكروا أن يكون مثل هذه النصوص قد جاءت من الله ﷻ ، ولا من نبيه موسى عليه السلام ، وذكروا أنّ هذه النصوص تخالف الواقع والتاريخ واللغة والجغرافية[٨١٨] .

أمّا داعي التسمية فيقول محمود فهمي حجازي : (حاول شلوتسر Schlozer تسمية هذه اللغات : العبريّة والعربية والآرامية والحبشية باسم عام يجمعها ، ووجد في العهد القديم تقسيمًا للشعوب إلى أبناء حام وأبناء سام وأبناء يافث ، ولاحظ شلوتسر أن أسماء هذه اللغات ينطبق إلى حد كبير على أسماء أولاد سام ، فسمى هذه اللغات باسم اللغات السامية)[٨١٩] .

وذكر كارل بروكلمان أنّ شلوتسر كان يبحث عن تسمية مشاركة للعبريين والعرب والأحباش في نهاية القرن الثامن عشر، بعد أن وجد بين لغاتهم صلات قرابة ، وأطلق عليها اسم الساميين[٨٢٠] .

---

[٨١٧] علم اللغة العربية، د. محمود فهمي حجازي١٢٣.

[٨١٨] موجز تاريخ اللغات السامية ١٣-١٤.

[٨١٩] علم اللغة العربية، د. محمود فهمي حجازي ١٣٣.

[٨٢٠] فقه اللغات السامية ١١ .

ومن هذا ما ذكره المستشرق الألماني تيودور نولدكه في مخالفة النص التوراتي لوجهة النظر العلمية ، في قوله : (وطبيعي أن تقسيم سفر التكوين للشعوب . في الإصحاح العاشر منه . لا ينبني على وجهة نظر لغوية ، كما أنه غير مبني على علم بطبائع الشعوب ، ولكنه يعبّر أكثر ما يعبّر عن الحدود الجغرافية والعلاقات السياسية)[٨٢١] .

وقد نقل باحثنا الدكتور الاعتراض على حصر اختلاف البشر ولغاتهم في ثلاثة من أبناء نوح ، وأكد أنّ هذا الرأي لا يستند إلى دليل ، ولا إلى منطق صحيح ، مستندًا إلى ما جاء عن ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) ، الذي يقول : (بنسبةِ السّواد إلى حامٍ غفلة عن طبيعة الحَرِّ والبرد وأثرهما في الهواء ، وفيما يتكوّن فيه من الحيوانات ، ذلك أنّ هذا اللون شمل أهل الإقليم ... من مزاج هوائهم للحرارة المُتضاعفة بالجنوب ... ومن ملائمة اللون مع اختلاف درجات الحرارة، وتأثير هذا الاختلاف في ألوان البشرة ما بين الشعوب)[٨٢٢] .

وهذا أيضًا ما توصّل إليه الفيلسوف الهولندي اليهودي باروخ سبينوزا (ت ١٧٦٦م) ، أحد فقهاء اللغة العبريّة والتراث اليهوديّ ، بعد نحو ثلاثة قرون من وفاة ابن خلدون ، الذي يرى أنّ هذا التوجيه ، مما يجافي العقل والحقائق التاريخية والاجتماعية والإنسانيّة[٨٢٣] .

ويذكر باحثنا الدكتور أنّ الدراسات الاجتماعيّة تؤكّدُ استحالة ردّ شعب من الشعوب إلى جَدٍّ واحد ، ولا وجود لسلالة صافية تنتمي لعِرقٍ واضح ، أو عنصر بشري غير مختلط بعنصر آخر، وهذا هو ما اتخذته منظمة اليونسكو، فلا وجود لعرقٍ يهودي ، فأصل اليهود من عدّة أعراق ، منهم من أصحاب اللون الأصفر من الصين الآسيوية ، والسود من الحبشة في أفريقيا، ويهود اليمن بالبشرة الزيتونيّة الداكنة ، أما يهود الخزر فلا يَمُتّون بصلة إلى بني إسرائيل ، وهم أكبر الكتل المتهوّدة في أوربّا ، يسكنون جنوب روسيا ، ولا علاقة لهم بالجنس الساميّ[٨٢٤]

---

[٨٢١] اللغات السامية ٨ .

[٨٢٢] مقدمة ابن خلدون ٩٨–١٠٠، وموجز تاريخ اللغات السامية ١٦.

[٨٢٣] اللاهوت والسياسة ١٩٨.

[٨٢٤] مملكة الخزر اليهوديّة ٢٠٥، موجز تاريخ اللغات الساميّة ٢١ . ٢٢.

المفترض ؛ فـ (اليهودية ليست في حال من الأحوال علامة على أي عرق مهما كان ؛ ويرجع اليهود إلى أعراق مختلفة ومتباينة أكثر من أي جماعة أخرى في العالم ذلك لانتقالهم وهجراتهم الدائمة وتفرقهم في بقاع الأرض المختلفة)[٨٢٥] .

فالموجود في إسرائيل يهود الخزر (الاشكناز) بلون أشقر، ويهود الفلاشا بلونٍ أسود ، والباقي جاؤوا من أقطار الدنيا ؛ وذكر الدكتور أنّ اليهود كانوا قد تعرّضوا في التاريخ إلى السبي ثلاث مرات وأنهم تأثروا بثقافات من قاموا بسبيهم ، ونسبوا هذه الثقافات إلى أنفسهم ، وأنهم فيما بعد دوّنوا كتابهم المقدس في ظل المعارف السومرية والآشورية والبابلية ، وأنّهم تأثروا بأساطير هذه الحضارات[٨٢٦] .

ويتأكد ذلك عند الدكتور صبحي الصالح في قوله : (ويبدو أنّ اللغات السامية قبل تفرّقها كانت ترجع إلى أصل واحد، وتشكل شبه وحدة شعبية ، إلاّ أنّ من العسير جدًّا تعيين ذاك الأصل وتحديد هذه الوحدة ؛ لأنَّ المهد الأول للجزريين "الساميين" ما يزال غامضًا مجهولاً، رغم أبحاث العلماء الكثيرة الواسعة الآفاق)[٨٢٧] .

وقد حاول باحثنا الدكتور نفيَ ما أراده غلاة اليهود من ترسيخ بعض المفاهيم ؛ ومنها أنّ لغتهم العبرانية هي اللغة الأولى ، وهي التي تكلم بها النبي آدم عليه السلام ، وقد نفى ذلك بدليل أن المكتشفات الآثارية التي غيرت ما أشاعوه وكذبَّتهُ ؛ وقد حذَّر من الأخذ بالمصطلح الذي نشأ مع نشوء علم الأعراق ، وأريد له أن يجعل اللغة العبرية هي اللغة الأم ، وذكر أنّ هناك لغات أقدم من اللغة العبرية ، هي اللغة السومرية ، ومن بعدها الأكدية ، أو البابلية ، أو الآشورية ، أو الكنعانية والآرامية ، ونقل أنّ العبرية فرع من الكنعانية[٨٢٨] ، ومن الآراء التي سبقت ما ذهب إليه باحثنا الدكتور ما ذكره الدكتور رمضان عبد التواب في صعوبة تحديد اللغة الأم في قوله : (إنّ من يلج ميدان الدراسة السامية المقارنة ، يدرك على الفور مدى الصعوبة،

---

[٨٢٥] المصدر نفسه ٢١.

[٨٢٦] موجز تاريخ اللغات السامية ٢٢-٢٣.

[٨٢٧] دراسات في فقه اللغة ٤٨.

[٨٢٨] موجز تاريخ اللغات السامية ٢٤-٢٥.

التي تقابل الباحث ، عندما يريد الرجوع بظاهرة ما في هذه اللغات إلى أصلها ؛ ذلك لأنَّ هذه اللغات السامية ليست حلقات متصلة في سلسلة لغوية واحدة ، يمكن اعتبار إحداها أقدم اللغات، والثانية أحدث منها ... وهكذا ، بل هي على العكس من ذلك ، تعد خلفًا للغة واحدة، هي ما اصطلح العلماء على تسميته "بالسامية الأم" ، وهذه اللغة لا وجود لها الآن في صورة وثائق أو نقوش مكتوبة)[٨٢٩] .

وقد ذكر باحثنا أنّ التشكيك بنص من نصوص التوراة لا يعني سلب كل الثقة من هذا الكتاب ، لأنَّها رسالة سماوية سابقة للقرآن الكريم مستشهدًا بعدد من آيات الذكر الحكيم ، ومنها ما جاء في ذمّ اليهود الذين لم يحملوا التوراة كما يجب ، وأنَّ الله جل وعلا نبّه على ذلك في قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ . البقرة ٧٩) ، وقوله تعالى : (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ... النساء ٤٦) ؛ وقوله تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . التوبة ٣٠) .

وعُزَير هذا في لغة العرب ، وعزرا في استعمال لغة اليهود ، الذي يُنسبُ له جمع الأسفار فيما بعد ، وهو الذي جاء ذكره في نص القرآن الكريم .

وتوصل الدكتور استنادًا إلى ما تقدم ، إلى أنّ النّصوص التوراتية لا تصلح أن تكون المصدر الوحيد الذي يمكن اعتماده في أخذ المصطلح ، من دون مراجعة التوظيف الاستعماريّ والتبشير الدينيّ[٨٣٠] .

---

[٨٢٩] المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ٢٠٠ .

[٨٣٠] موجز تاريخ اللغات السامية ١٧، ٢٠.

المبحث الثاني : السومرية أقدم اللغات العراقية

ذكر الدكتور محمود فهمي حجازي في حديثه عن التوزيع الجغرافي والتاريخي للغات السامية ، قوله في الفرع الأكدي : إنّه (يضم الفرع الأكدي من اللغات السامية كل اللغات واللهجات التي نشأت عن اللغة السامية الأولى التي دخلت أرض العراق مع الوافدين إليها حوالى سنة ٢٥٠٠ ق. م ، وقد سُمِّيَت هذه اللغات واللهجات باسم شامل لها يميزها عن سواها، وتنسب الأكدية إلى "أكد" وهي أول مدينة سكنها الساميون الوافدون في شمال بابل ، وقد أطلق هؤلاء اسم الأكدية على لغتهم تمييزًا لها من اللغة السائدة في جنوب أرض الرافدين آنذاك ، وهي اللغة السومرية ، لقد وجد الساميون المهاجرون إلى أرض العراق شعبًا ذا حضارة زراعية سبقهم إلى الإقامة في هذه المنطقة ، وهو الشعب السومري)[٨٣١] .

ونقل باحثنا الدكتور أنّ السومريين أقدم من استوطن العراق ، وكان المستشرقون قد عدّوا اللغة السومرية غريبة عن لغات الحضارة العراقية القديمة ؛ بسبب ما تميّز به السومريّون من مزيّات ، وما تمتعوا به من حضارة ، وذكر أن هذا الجحود معروف من المستشرقين ؛ فهم يحاولون شطب ما يتصل بحضارات الأمم الأخرى ، ليقرّروا أن الحضارة غربية قديمًا وحديثًا[٨٣٢] .

ومعروف أنّ السومريين (أقدم من استوطن أرض العراق ، وحضارتهم من أقدم الحضارات، وهذه الحضارة هي المصدر الأوّل لحضارة الأقوام الذين جاؤوا من بعدهم ، لكنّ أخبار ورودهم المبكر في بلاد الرافدين شحيحة ، لهذا حاول المستشرقون التشكيك في أن يكون أصلهم من هذه المنطقة ، أو من يرجع انتساب جنسهم إليها ، للمزيّات التي يتميّزون بها ، والإنجازات الكبرى التي تنسب إليهم ، لذلك عدّوا اللغة السومريّة غريبة عن لغات الحضارات العراقيّة القديمة ، التي جاءت من بعدها ، على الرغم من أنّها أثّرت فيها ، من استعمال كتابتها

---

[٨٣١] علم اللغة العربية ، د. محمود فهمي حجازي ١٥١.

[٨٣٢] موجز تاريخ اللغات السامية ٣٨.

ومفرداتها وعباراتها المستعملة على نطاق واسع ، وكذلك مصطلحاتها الفنيّة والقانونيّة ، فضلًا عن أسلوب تركيب جملها ، ودلالات نصوصها)[٨٣٣] .

ويؤيد قدم السومريين وأسبقيتهم قول الدكتور عامر سليمان : (وفي النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد ، ابتدع العراقيون القدماء في القسم الجنوبي من العراق ، أوّل وسيلة للتدوين على ألواح الطين ، ويرقى تاريخ أقدم الألواح التي تحمل علامات صورية مفهومة اللغة إلى دور جمدة نصر، أي إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد ، وقد تبيّن أنّ لغة تلك العلامات هي اللغة السومرية)[٨٣٤] .

ويفيد باحثنا الدكتور من كتاب (أنبياء سومريون) للدكتور خزعل الماجدي ، في توجيه مصطلح الحكماء السبعة ، الذي كان حاضرًا عند أغلب الشعوب والأمم القديمة قبل الإغريق بعشرات القرون ، إذ وجد في حضارة الصين القديمة ، وحضارة الهند ، وحضارة بلاد فارس الحكماء السبعة الذين يعودون إلى سومر ومنها انطلق مفهوم الحكماء منذ ٥٠٠٠ ق . م ، ما يقترب من حقبة ظهور مدينة "أريدو" ، استنادًا إلى نص مكتوب باللغتين السومرية والأكدية الذي أظهر أسماء الحكماء السبعة الذين عاشوا قبل الطوفان ، واستدل أيضًا بذكر الحكماء السبعة في اللوح الأول من ملحمة كلكامش ، ثم عرض ما أراده بعض الباحثين من إلحاق اللغة السومرية باللغات . الهندو أوربية . على الرغم من البعد الجغرافي والبيئي والتاريخي والأنثربولوجي ، واعترض هذا التوجيه بوجود من يدحض هذا الفكر من الغرب نفسه ، وابتدأ بما ذهب إليه الأستاذ "باتريك رايان" المتخصص في القواعد السومرية واللغة العربية في دحض نظرية الاختلاف الصوتي بين اللغة السومرية واللغة العربية التي دعا إليه غيره من الباحثين ، ولاسيما الدكتور "نائل حنون" ، وبعد عرض بعض الآراء التي صحّحت ما وقع فيه بعض المترجمين القدماء ، ومنها تصحيح حرف الهاء في السومرية الصوت الموجود في اللغة العربية، بعد أن قرر القدماء أن السومرية خالية من الهاء ، وذكر أنَّ إبعادهم للهاء وغيرها من

---

[٨٣٣] الصلاة المشتركة ، الكتابة المسمارية ٥٨ ، وموجز تاريخ اللغات السامية ٣٧.

[٨٣٤] اللغة الأكدية (البابلية . الآشورية) ٢٢-٢٣.

الحروف كالعين والقاف الحاء والهمزة (الحروف التي تجتمع في اللغات الجزرية) ، و(كان هذا الفقدان دليلاً متعمدا لإبعاد السومرية عن العربية ذلك أن الكتَّاب السومريين كانوا قد اختزلوا هذه الحروف ، في أثناء الكتابة على ألواح الطين ...)[٨٣٥] .

[٨٣٥] موجز تاريخ اللغات السامية ٣٧ . ٤٠ .

المبحث الثالث : الأكدية والآشورية والبابلية

شاع استعمال مصطلح اللغة الأكدية وغيرها قبل أربعة آلاف عام[٨٣٦] ، في عدد من المدن والممالك السورية القديمة ، وقد كشفت الرسائل الملكية المكتشفة في عاصمة الملك المصري اخناتون (العمارنة) ، باللغة الأكدية والخط المسماري العراقي ، مع أنَّها لم تكن لغة رسمية في أي دولة من تلك الدول ، باستثناء بابل ، وأنّ استعمالها شائع في المكاتبات الرسمية الدولية ما هو إلّا دليل على أنها احتلت مركزًا مرموقًا في الألف الثاني قبل الميلاد بين لغات الشرق الأوسط[٨٣٧] .

وقد قدم باحثنا الدكتور لوجود دولتين كبيرتين ، إذ نقل أنّ الدولة البابليّة تقع على الفرات قرب الحلة ، وأنّ لغتهم مشتقة من الأكدية ، وكانت لغة الكلدانيين في زمن نبوخذ نصر، ونقل أنّ الآرامية حلّت بديلاً عنها فيما بعد ، أما الآشورية فتقع على دجلة في محافظة نينوى الحالية ، وذكر من ملوكها آشور بانيبال وسنحاريب وذكر أن الآرامية حلت بديلاً وأصبحت اللغة الرسمية بعد البابلية الأكدية في الشرق الأدنى القديم ، ثم ذكر أن الكلدانيين كانوا أعرق الناس وأن لغتهم هي السومرية الأكدية وقد استمرت وقتًا طويلاً تكلم بها سكان بلاد ما بين النهرين، ونقل عن فلاسفة اليونان (أن العقل البشري نما وترعرع على ضفاف الفرات قبل أن يولد على ضفاف نهر النيل ... وكان علماء بابل على علم بدقائق الحساب المعقد ، واعتاد الآشوريون أن يكتبوا باللغتين معًا)[٨٣٨] ، ثم نقل أن الآرامية حلت فيما بعد محل اللغة الأكدية، ليصل إلى قوله : (تُعَدُّ اللغة الأكدية أقدم اللغات الجزرية "السامية" من حيث التدوين الآثاري؛ لأنَّها أوَّل لغة دونت بالكتابة المسمارية التي أخذها الأكديون عن السومريين ، والسومريون هم أقدم الأقوام المعروفين الذي سكنوا جنوب بلاد الرافدين وبَنَوا فيه أول حضارة في تاريخ البشرية،

---

[٨٣٦] تعريب اللغة الأكدية ١١ .

[٨٣٧] اللغة الأكدية (البابلية. والسومرية) تاريخها وتدوينها وقواعدها ٤٥-٤٦.

[٨٣٨] حضارة بابل وآشور، غوستاف لوبون ٦٠، ٦٧، وموجز اللغات السامية ٥٥ . ٥٩.

واخترعوا الكتابة المسمارية وهي أول كتابة في التاريخ)[٨٣٩] ، وقد أيَّد "رينيه لابات" قدم اللغة الأكدية وتميزها ، في قوله : (في الواقع كان التفوّق الفكري في أرض الرافدين معترفًا به . وبقدر ما كانت شعوب الشرق الأدنى تتفتح للحضارة ، كانت توجه أنظارها إلى أرض الرافدين)[٨٤٠] ؛ وأن الكتابة الأولى تعود في أصلها إلى السومريين ، (ومن الأرجح أن هذه الطريقة الكتابية الأولى قد استنبطها في جنوب البلاد شعبٌ يدعو نفسه بالسومريين ، وما زال أصلهم وعرقهم غير معروفين بالتأكيد ، وحينما ينجلي التاريخ لنا ، نجدهم مستقرين في مدنهم الصغيرة التي هي دويلات في ما بين النهرين السفلى ، مكتفين بتربية الماشية والري والزراعة)[٨٤١] .

وأكد الدكتور عامر سليمان قدم اللغة الأكدية بقوله : (سميت اللغات الجزرية التي استقرت في أواسط العراق وأسّست أول دولة موحدة ضمت جميع أرجاء وادي الرافدين، باللغة الأكدية ليشان أكدي lisan akkadi ؛ أي اللسان الأكدي وذلك في النصف الأول من القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد)[٨٤٢] ، إلّا أنّه عَدَّ اللغة الأكدية اللغة الرئيسة الثانية بين لغات العراق القديم، وأنَّها أقدم اللغات العربية القديمة (الجزرية) من حيث التدوين[٨٤٣].

أمَّا سرجون الأكدي"٢٦٠٠ ق . م" ، فهو الذي قاد شعبه البدويّ الصحراويّ إلى النصر باستيلائه على دولة سومر المتحضّرة ، وإقام دولته على أنقاضها وفوق حضارتها[٨٤٤] . وقد ذكر ولفنسون غلبة البابليين وملكهم سرجون ، قال : (وكان سرجون الأول أول من أسس ملكًا ساميًا كبيرًا في أرض بابل وحارب الأمراء السومريين ثم خرج من تخوم بلاد العراق واتجه شطر الجزيرة العربية مع ابنه ، وقاتل قبائل عربية ذكرت في الآثار البابلية باسم عرب ملوكة أو

---

[٨٣٩] موجز اللغات السامية ٥٩ .

[٨٤٠] المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين ١٣ .

[٨٤١] المصدر نفسه ١٦.

[٨٤٢] تعريب اللغة الأكدية ١١ .

[٨٤٣] اللغة الأكدية، (البابلية، الآشورية) تاريخها وتدوينها، وقواعدها ٣٧.

[٨٤٤] المصدر نفسه ٥٦ . ٥٧.

عرب ملوقة وعرب مجان أو معان)[٨٤٥] ؛ وقد سُمِّيَت هذه اللغة التي كانت في العهد السرجوني (اللهجة الأكدية القديمة) وقال عنها الدكتور عامر سليمان : (وهي أقدم اللهجات الأكدية المدوّنة ، وعنها تفرعت جميع اللهجات الأخرى ... ومنذ عهد سلالة أور الثالثة تبدأ علامات الافتراق بين اللهجات التي استخدمت في القسم الوسطي والجنوبي من العراق أي في بلاد بابل واللهجات التي استخدمت في القسم الشمالي من العراق ، أي في بلاد آشور بالظهور)[٨٤٦] .

والأشورية على نهر دجلة قرب (نمرود) في محافظة نينوى وذكر باحثنا أنّ الآرامية أصبحت فيما بعد اللغة الرسمية بعد البابلية الأكدية[٨٤٧] ، وقد (انتشر استخدام اللغة الأكدية في بلاد آشور منذ الألف الثالث قبل الميلاد)[٨٤٨] ، وتعد اللهجة الآشورية فرع عنها وقد ميز الباحثون ثلاث لهجات أشورية بحسب العصور الآشورية التي مرت بها[٨٤٩] .

---

[٨٤٥] تاريخ اللغات السامية ٢٤ .

[٨٤٦] اللغة الأكدية (البابلية ، الآشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها٤٨.

[٨٤٧] تاريخ اللغات السامية ٢٤.

[٨٤٨] اللغة الأكدية (البابلية ، الآشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها ٥٠ .

[٨٤٩] المصدر نفسه ٥٠.

المبحث الرابع : الآرامية والسريانية

ذكر باحثنا الدكتور أنّ الآراميّة مسبوقة بالأكديّة ، وكانت قد انتشرت في الألف الثالث ق . م ، وفي المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط غربًا وحتى بلاد ما بين النهرين شرقًا ، وهي المنطقة التي سكنها الآراميون ، وذكر أنَّ لغتهم سُمِّيَت باللغة الآرامية وأن مصدرها اللغات الأكدية الكلدانية والكنعانية ، ثم ذكر أن لغتهم تحولت إلى السريانية التي كانت عند من اعتنق المسيحية تمييزًا لأنفسهم عن الآراميين الوثنيين ، إلَّا أنه أكد بقاء الآرامية ، فـ (أقدم الآثار المسيحية واليهودية كتبت بالآرامية أولاً، ولا سيما العهد التوراتي القديم، وكتبت بها القبائل النبطية العربية ، وكتب بها التلمود البابلي أيضًا ، وما زالت مستعملة في نواحي دمشق، وفي قرية اسمها "معلولة" ، التي احتفظت بعناصر كثيرة من الآراميّة الأصليّة ، وكذلك في العراق في بعض جهات الموصل)[٨٥٠] .

وذكر أنّ بني إسرائيل مع أنهم كانوا ألدّ أعداء الآراميين وبينهما حروب كثيرة ، ومع ذلك استعملوا اللغة الآرامية حتى في توراتهم ، ثم أخذت الكلمات الآرامية صبغة عبرية مشوبة بألفاظ يونانية ورومانية[٨٥١] .

وقد ذكر أن العهد الذهبي للسريانية كان ما بين القرن الرابع والسادس ، على الرغم من محاولات الامبراطورية البيزنطيّة فرض ثقافتها ، ثم قال في بيان السريانية والآرامية والآشورية: (والآثار الأشورية المكتشفة شواهد تاريخية على ما يجمع بين اللغات المتقاربة التي يطلق عليها مرَّة سريانية وهو نفسها آرامية وثالثة آشورية)[٨٥٢] .

أمّا النَّبَطُ فقد نقل أنّهم (اختاروا اللغة الآراميّة ضرورة حضاريّة ، ووسيلة عمليّة للتفاهم مع من حولهم ، ممن يستعملونها في مكاتباتهم ، ويستعملون لغتهم العربيّة في حياتهم اليوميّة فيما بينهم ، وهي تشترك مع العربيّة الشماليّة في ظواهر كثيرة ... وأنّ الآراميّة التي استعملوها

---

[٨٥٠] موجز تاريخ اللغات السامية ٦٤ .

[٨٥١] المصدر نفسه .

[٨٥٢] المصدر نفسه .

لم تكن دائمًا آراميّة خالصة ، ولاسيما ما ظهر في نقوشهم المتأخرة)[٨٥٣] ، فلا يكتب النبط باللغة التي ينطقون بها بل بالآراميّة[٨٥٤] .

أمّا أصل النبط فمن العرب وكانوا أهل حذق ومهارة ، وهم من سكّان العراق[٨٥٥] ، من عرب الحيرة وبادية السماوة ، وعلى رأي ابن حجر: هم قومٌ من العرب دخلوا في العجم والروم، فاختلفت أنسابهم ، وفسدت ألسنتهم[٨٥٦] ، وهناك من يرى أنّ أهل الحيرة يتقنون العربية ، لأنها لغتهم ، ويتعلمون الآراميّة وهي لغة بيعهم وصلواتهم ، وللحيرة منزلة تاريخية في آداب اللغة العربيّة بما أنجبته من شعراء كعُديّ بن زيد العبادي أو ما قصد ملوكها من كبار شعراء ذلك الزمان كامرئ القيس وأبي دؤاد الإيادي والمتلمس وغيرهم[٨٥٧] .

ويذكر الجاحظ ما علق بلسان أهل البصرة ، لأنهم نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب ، وكان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد النّبط وأقصى بلاد العرب ، وكان هذان المصران الباب إلى السواد لصلاة القرابة والمصاهرة والاندماج ، لذلك تتميّز لهجة النَّبطي وتظهر في كلامه ما يميّز السامع كلامه ومخارج حروفه التي تدلّ على أنّ نبطيّ[٨٥٨] .

و(قال محمد بن سيرين : سمعت عبيدة السلماني يقول : سمعت عليًّا ع يقول : من كان سائلًا عن نسبنا ، فإنّا نبطٌ من كوثى ، وروى ابن الأعرابيّ ، أنّه قال : سأل رجلٌ عليًّا عليه السلام ، فقال أخبرني ، يا أمير المؤمنين ، عن أصلكم ، معاشر قريش ، فقال : نحن نبطٌ من كوثى ... أراد عليه السلام أنّ أبانا إبراهيم كان من نبط كوثى ، وأنّ نسبنا انتهى إليه ، ونحو

---

[٨٥٣] تاريخ دولة الأنباط ٧١ ، ١٨ ، ٢٥ .

[٨٥٤] تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ١ / ٤٢١ .

[٨٥٥] تاج العروس ٢٠ / ١٣٢ .

[٨٥٦] مجلة المجمع العلمي العراقي ، النبط واللغات العراقية القديمة ، ٧٨ .

[٨٥٧] الحيرة المدينة والمملكة ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ .

[٨٥٨] البيان والتبيين ١/ ١٩ ، ٦٩ .

ذلك قال ابن عباس : نحن معاشر قريش حيٌّ من النبط ، من أهل كوثى ، والنبط من أهل العراق ، قال أبو منصور: وهذا من عليّ وابن عباس ...) [٨٥٩] .

وكوثى على ساحل الفرات الأيمن، بالقرب من مدينة بابل التاريخيّة ، وقد جاء ذكرها مرتين في كتاب العهد القديم ، وقيل : فيها ولد خليل الرحمن وبها طُرح بالنار، وكوثى من مدن أكد القديمة وتعرف أطلالها اليوم باسم "تل إبراهيم" ، وهي من المدن الدينية المقدسة[٨٦٠].

(ويُقال أيضًا : إنّ نبط أرض السواد هم الكلدانيّون ، أو أهل آشور وبابل والحضارات العراقيّة الأولى ، وهذا ما ذكره المفسرون ، إذ يجدون أنّ الله بعث على نبيّ إسرائيل ملك النبط الملك البابلي بخت نصر[٨٦١] ، الموصوف بحسب بعض المفسرين ، بقوله تعالى : "فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا . الإسراء ٥" ؛ أي من ذوي البطش والقوّة في الحروب[٨٦٢] ؛ وكان العرب كلّما ذكروا الكلدانيين ذكروهم باسم نبط العراق[٨٦٣] ؛ فالمسعودي على سبيل المثال عَنوَنَ الحديث عنهم بـ "ذكر ملوك بابل ، وهم ملوك النبط وغيرهم من المعروفين بالكلدانيين)[٨٦٤] ؛ وهم سكان أرض السواد الأصليّين ، الذين اختزنوا الخبرات الحضاريّة العراقيّة ، التي تنسب إلى وادي الرافدين ، قبل الفتح الإسلاميّ ، وهم الذين قصدهم الإخباريون ببقايا الشعوب القديمة من النازلين في البطائح، ومنهم ما بقي من الآراميين في العراق والشام ، وكانوا يتكلمون بلهجات عربيّة برطانة يصفونها بأعجميّة وبلكنة غريبة) [٨٦٥] .

---

[٨٥٩] لسان العرب ٥ / ٣٩٥١ ، وتهذيب اللغة ١٠ / ٣٤٨ .

[٨٦٠] تاج العروس ٥ / ٣٣٦ . ٣٣٧ .

[٨٦١] التحرير والتنوير ١٤ / ٢٧ .

[٨٦٢] الكشاف ٥٩٠ .

[٨٦٣] مجلة لغة العرب ، الأب أنستاس ماري الكرملي ، الكلدانيون ، المجلد الأول ، ١٩١١ م ، ، ص ٥٨ .

[٨٦٤] مروج الذهب ١ / ١٦٥ .

[٨٦٥] المفصل في تاريخ العربية قبل الإسلام ٥ / ١٣ .

وأثبتت الدراسات المعاصرة أنّ النبط بقسميهم العراقي والشامي هم من العرب ، وأنّهم أقرب إلى قريش والقبائل الحجازيّة الشماليّة "من العدنانيين" من العرب الجنوبيين "القحطانيين" ، فإذا كانت العربيّة اللسان فهم يشاركون قريشًا في أكثر أسماء الأشخاص ، كما يشاركونهم في عبادة الأصنام ، وخطّ النبط قريب جدًّا من خطّ كتبة الوحي ، وفي كلماتهم مفردات عربية خالصة ، من نوع عربية القرآن الكريم ، فمن المحتمل أن يكونوا من العدنانيين ، ولكن لا يُعرفُ زمن هجراتهم على وجه التحديد[٨٦٦] ؛ ويفصل بعض المستشرقين بين نبط البتراء ، ونبط سواد العراق ، ولا يجدون جامعًا بينهما سوى التسمية[٨٦٧] .

---

[٨٦٦] المصدر نفسه ٣ / ١٤ .

[٨٦٧] مجلة العوم الإنسانيّة ، المستشرقون وتجريد اللغة العربية من لهجاتها عبد الرحيم عزام ، علي زعل محمود ٤٤٢ .

المبحث الخامس : القرابة بين العربيّة والنبطيّة

إنّ اللغة النبطيّة وريثة اللغات العراقية القديمة ، وقد أفرغت من الآراميّة حين تحوّلت إلى اللغة العربية ومجتمعها الموحّد المُعبّر عنه في قول من نسب إلى الموالي ، حين سُئلَ أعربيٌّ أنت ؟ فأجاب : (إن كانت العربيّة لسانًا فقد نطقنا بها ، وإن كانت دينًا فقد دخلنا فيه)[٨٦٨] ، وفوجئ خالد بن الوليد بعربيّة النبط ، (حين نزل على الحيرة ، فتحصّن منه أهلها ، أرسل إليهم : ابعثوا إلَيَّ رجلًا عاقلًا من عقلائكم ... فبعثوا إليه بعبد المسيح بن بقيلة ... فقال: أعربٌ أنتم أم نبط ؟ فقال عرب استنبطنا ، ونبط استعربنا)[٨٦٩] .

ومن بين من أشار إلى القرابة اللغوية بين اللغة العربيّة وهذه اللغات ابن حزم الأندلسي، الذي وجد أنها أقرب ما تكون بقرابة لهجات اللغة الواحدة ، وأنّ الاختلاف من تبديل ألفاظ الناس على طول الزمان ، واختلاف البلدان ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة في الأصل[٨٧٠] .

أمّا انفصال الكتابة النبطيّة عن الآراميّة ، فيُؤرّخُ لأقدم نصٍّ عربيّ وصل إلينا هو نقش النمارة شرقيّ حوران المكتوب بحروف نبطيّة[٨٧١] .

ثم ذكر أن (الأبجدية المسمارية (الآشورية – البابلية) التي ظهرت قبل أربعة آلاف عام قبل الميلاد هي الأصل لجميع أبجديات هذه اللغات والتي تطورت على يد الآشوريين وتغيرت تغيرًا مهمًا تجاوزت المرحلة البدائية منتقلة إلى المقطعية التي تناظر المنطوق المستعمل والتي تمكن الإنسان من استعمالها)[٨٧٢] .

ونرصد بعض الإشارات التي ترفع مقام النبط من مثل ما يُنسب إلى أبي بكر أحمد بن علي المعروف بابن الوحشيّة العالم النبطيّ المسلم ، الذي عاش في نواحي الكوفة في القرن

---

[٨٦٨] أنساب الأشراف ٣ / ١١٨ .

[٨٦٩] أمالي المرتضى ١ / ٢٦٣ .

[٨٧٠] الإحكام في أصول الأحكام ١ / ٣٠ .

[٨٧١] تاريخ سوريا سورية ولبنان وفلسطين ١ / ٤٢٧ .

[٨٧٢] موجز تاريخ اللغات السامية ٦٧ .

الثالث الهجري[٨٧٣] ، والذي لفت النظر إلى أهميّة تراث النبط الكلدانيين البابليين ، إذ أسهم في نقله إلى الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، والذي يفخر بعرض إنجازات قومه ، فيما يُظهر من مآثرهم، ويبيّن صناعاتهم وعلومهم وقدراتهم العقلية ، وهي الإنجازات المعلومة للقاصي والداني، حتّى أنّ ابن الوحشيّة أظهر ما بين أقلام من نسب وقربى وما كان أصلًا وفرعًا ، ومنها ما كشفه لبعض رموز اللغة الهيروغليفية ، وكان هذا قد نشره المستشرق النمساوي جوزيف همّر، الذي نشر الترجمة الإنجليزية لمخطوطته في لندن عام ١٨٠٦ م ، أي قبل ستة عشر عامًا من فكّ عالم المصريّات الفرنسيّ جان فرانسوا شامبليون ١٨٢٢ م حجر رشيد الذي عثر عليه ، ولا ريب أنّه أفاد من المُتَرجم[٨٧٤] .

ويُقال : إنّ (أهلَ العراق أهلُ نظرٍ وذوو فطنة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح ...)[٨٧٥] .

ويشير أبو أحمد بن أبي بكر الكاتب إلى شخصيّة العراقيّ[٨٧٦] :

لا تعجبَنَّ من عراقيٍّ رأيت له بحرًا من العلم أو كنزًا من الأدبِ
واعجبْ لمن ببلاد الجهل منشؤه إن كان يفرقُ بين الرأسِ والذنبِ

وربما اختلف بعض أمراء العرب المسلمين مع النبط في العراق فساء ما أشاعوه عنهم أو تصرّفوا به معهم ، ومنه على سبيل المثال ما تصرّف به الحجاج ، فبعد أن فرغ من بناء واسط (٨٤ هـ) ، أمر بإخراج كلّ نبطي بها ، وقال : لا يدخلون مدينتي فإنهم مفسدة[٨٧٧] .

وعلى الرغم من ثقافة الجاحظ ومكانته العلمية العالية ينقل في كتابه الحيوان ثلب صفات النبط والسخرية منهم ، ربما لأنه يعيش حالة ثقافية يمالئ بها الحاكم ، فقد قال وهو يتحدّث عن القرد : (وقد خبرنا من لا يحصى من الناس : إنهم قد أدركوا رجالًا من نبط بيسان ، ولهم

---

[٨٧٣] الفهرست ٤٨٧ .

[٨٧٤] مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٧٤٧ .

[٨٧٥] شرح نهج البلاغة ١ / ٢٥١ . ٢٥٢ .

[٨٧٦] يتيمة الدهر ٤ / ٧٣ .

[٨٧٧] تاريخ واسط ٤١ .

أذناب ألّا تكن كأذناب التماسيح والأسد والبقر والخيل ، وإلا كأذناب السلاحف والجرذان ، فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب [العجب : أصل الذنب] ، وربما رأينا الملّاح النبطي في بعض الجعفريات [الأنهر الملأى بالماء] على وجهه شبه القرد[٨٧٨] ، وهذه الفِريَة إشارة إلى الإخراج من البشريّة ، وربما تداولوا أحاديث في بغض النبط ، ومنها (تعلموا النسب ، ولا تكونوا كنبيط السواد إذا سُئل أحدهم عن أصله ، قال من قرية كذا ...)[٨٧٩] ، أمّا القول : إنّ النبط لا يفخرون بالآباء ولا بأنساب ، فمظهر من مظاهر الصراع ونتائجه .

وغاية التشدد والتطرّف في قولهم : إذا تفقّهت الأنباط في الدين، ونطقت بالعربية، وتعلمت القرآن، فالهرب الهرب منهم[٨٨٠] ؛ ومن أغرب الأحاديث التي بها حاجة أكيدة إلى مراجعة وتفنيد : ثلاثة هم شرار الخلق : الشيطان ، وإمام يُخشى غشّه ، والنبطيّ إذا تعرّب[٨٨١].

لكن كيف يستقيم هذا الذم بإزاء المقامات الكبيرة التي كانت لمن كانوا من أصول نبطيّة، فمنهم من السابقين إلى الإسلام، من مثل : الخبّاب بن الأرتّ التميمي، أوّل من أسلم من سواد العراق[٨٨٢] ؛ ومنهم ميثم التمّار الأسديّ الكوفيّ[٨٨٣] ، ومنهم الحسن البصري التابعيّ الفقيه، والإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن مرزبان الكوفي ، وفي تاريخ بغداد كان أبوه نبطيًّا[٨٨٤] .

ويذكر الدكتور محمد كريم الكواز أنّ السبب في ذمّ النبط هو للحيويّة وكثرة الفعل وقوّة المؤثّرات الحضاريّة ، وسلبيّة التفاعل السياسي والثقافيّ والاجتماعيّ بين القادمين من الجزيرة والمستقرّين بالعراق ، إذ نسجت أخبار كثيرة وأساطير تنصر ثقافة الغالب على حساب

---

[٨٧٨] الحيوان ٤ / ٢٩٦ .

[٨٧٩] تاريخ ابن خلدون ١ / ١٦٢ .

[٨٨٠] تاريخ ابن خلدون ١ / ١٦٢ .

[٨٨١] شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢ / ١٦٨ ، ولسان العرب ١ / ٧٢٩ .

[٨٨٢] الكامل في التاريخ ١ / ٦٦٥ ، ٦ / ٣٩٠ .

[٨٨٣] شرح نهج البلاغة ٢ / ٤٥٨ .

[٨٨٤] سير علماء النبلاء ٤ / ٥٦٤ .

المغلوب، ويبتني الكواز كتابه الطريف الموسوم : (العراقي الذي غلب إبليس ، سليمان والنبطي، دراسة في التاريخ الثقافي) ؛ على قصّة أقرب ما تكون إلى الأساطير المنقولة إلى الثقافة الإسلاميّة ، من تأليف وهب بن منبّه أو تدوينه ، وابن منبّه عالم بأساطير الأولين ولاسيما الإسرائيليات ، تتحدّث هذه القصّة عن نبطي من أهل السواد ، يحمل صورة أهل العراق، حيث المكر والغدر والفطنة والعلم ، يستنتج الكواز أنّ وهبًا وظّف أسطورته لخدمة ولاة الأمر، ليسوّغ ظلمهم واستبدادهم ، فيما يتصرّفونه مع رعيّتهم ، إذ إنّ هذا الراوي صاحب الأسطورة فاعل ثقافي له حضور في حركة التاريخ ، يحسن السريانيّة ، ويعيد صياغة كتب اليهود والنصارى بمنظور يبدو إسلاميًّا[٨٨٥] ، لكنّه يخفي مكرًا ودهاءً .

[٨٨٥] العراقي الذي غلب إبليس ١٩ ، ٢٣ .

المبحث السادس : أصل اللغة العبرية

كان من أبرز هذه التصنيفات التي اعتمدت القرابة بين اللغات "نظرية مكس مولر Max Muler ، التي ترجع جميع اللغات الإنسانية إلى ثلاثة فصائل : الفصيلة الهندية . الأوربية ، والفصيلة السامية . الحامية ، والفصيلة الطورانية ... اللغات السامية الشمالية ، وتشمل اللغات الأكدية Accadien ، أو الآشورية البابلية Babyloiennes ssyro - واللغات الكنعانية – العبرية والفينيقية ، واللغات الآرامية[٨٨٦] .

وذكر الدكتور عامر سليمان أن اللغة العبرية تصنّف ضمن اللغات الجزرية التي تضم اللغة العربية والأكدية والآرامية والعبرية ، وذكر أنّ اللغة السومرية تنتمي إلى عائلة لغوية أخرى غير معروفة تختلف عن اللغة الأكدية ، وأن الكتابة المسمارية ابتدعت لتدوين اللغة السومرية[٨٨٧] .

أما بروكلمان فقد ذهب إلى أنّ اللغة العبرية لهجة من لهجات اللغة الكنعانية ، في قوله: إنّ (أهم اللهجات الكنعانية عندنا ، هي "العبرية . الإسرائيلية" ، وأقدم مصادرنا فيها ، هي (قصيدة دبورة) (الإصحاح الخامس من سفر التكوين) ، التي ترجع إلى عصر الفتح ، أي في الألف الثانية قبل ميلاد المسيح[٨٨٨] ، وتابع باحثنا الدكتور البحث عن أصل اللغة العبرية، ورجّح تصنيف بروكلمان ، وكان قد جعلها ضمن اللغات الشمالية (الكنعانية . الفينيقية)، والآرامية ، والآشورية ، وأنّها فرع من لغة كنعان ، أو هي من الجزيرة العربية ، ثم أورد قول المتخصصين أنّ اللغة العبرية والفينيقية لهجتان للغة واحدة[٨٨٩] ، وذكر ما ورد في سبب تسمية اللغة العبرية ، وقال : (سُمّيت اللغة العبرية بهذا الاسم نسبة إلى العبرانيين الذين حملوا اللغة من بعد الكنعانيين ، ويَدَّعِي العبرانيون أنَّهم من ذرية إبراهيم العبري ؛ لأنَّه عَبَرَ النهر، أو لأنَّ

---

[٨٨٦] علم اللغة، علي عبد الواحد وافي ١٩٦ . ٢٠١.

[٨٨٧] اللغة الأكدية، (البابلية، والآشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها ٩٩.

[٨٨٨] فقه اللغة السامية ١٨.

[٨٨٩] اللغات السامية، تيودور نولدكة ٣٢، وموجز تاريخ اللغات السامية ٦٩.

اسم أحد آبائه (عبر أو عابر)[٨٩٠] ، وقد أفاد مما ورد في القرآن الكريم في ردِّ هذه الدعوة ، ونفي يهودية إبراهيم واسماعيل ، في قوله تعالى : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . آل عمران ٦٧) ، وفي البحث عن أصول بني إسرائيل وجد عددًا من الآراء منها رأي (ولفنسون) الذي يرى أن بني إسرائيل من الأمم البدوية الصحراوية ، وأن كلمة عبري تدل على الانتقال والتحول . ونقل باحثنا أنّ (الآرامية وريثة العبرية في العناية بتدوين العهد القديم ، فيما كانت السريانية . التي هي لهجة من الآرامية . اللغة التي دوّن بها العهد الجديد ، وسرعان ما ضاعت نسخة التدوين ، بعد أنَّ نقلها اليونانيون عنها إلى اللغة الإغريقية ، ثم عاد السريان إلى إعادة ترجمته إلى اللغة السريانية مرة أخرى)[٨٩١] ، واللغة الآرامية هي لغة الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية وانتقلت إلى الجزيرة الفراتية ، وانتشرت في بلاد الشام وأطراف بلاد الرافدين وتعود أقدم نصوصها إلى القرن العاشر قبل الميلاد[٨٩٢] .

و(السريانية هي الآرامية نفسها بعد تنصَّر المتكلمين بها وكانت في البدء لهجة محدودة الانتشار في بلاد الشام ثم انتشرت تدريجيًا مع ظهور المسيحية وانتشارها وأصبحت لغة منطقة واسعة من بلاد الشام والعراق)[٨٩٣] .

وقد أكد بروكلمان غلبة اللغة الآرامية ، قال : (وعندما حل الفرس محل الآشوريين في الحكم في صدر آسيا، كانت اللغة الآرامية ، قد صارت اللغة العامة للتعامل)[٨٩٤] ، وأكّد سيطرة اللغة الآرامية على الإنجيل، (وقد كانت اللغة الآرامية الغربية ، هي اللغة المسيطرة في فلسطين في زمن المسيح عيسى عليه السلام كذلك ، ولكننا للأسف لا نعرف صيغتها بالضبط في ذلك الوقت، فنحن لا نعثر في كتاب "العهد الجديد" كله منها إلَّا على حوالي ست عشرة كلمة بين ثنايا النص الإغريقي ، غير أنّ الأساس الآرامي للإنجيل القديم ، كما كتبه "مرقص" لا يزال

---

[٨٩٠] موجز تاريخ اللغات السامية ٦٩.

[٨٩١] تاريخ اللغات السامية، ولفنسون ٩٧، وموجز تاريخ اللغات السامية ٧٤.

[٨٩٢] اللغة الأكدية، (البابلية ، الآشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها ٧٤.

[٨٩٣] المصدر نفسه ٧٦.

[٨٩٤] فقه اللغات السامية ٢٢-٢٣.

يظهر بوضوح نوعًا ما ، تحت الثوب الإغريقي ، في تركيب الجملة ، وطريقة التعبير، كما يظهر في المفردات كذلك)[٨٩٥] .

[٨٩٥] فقه اللغات السامية ٢٤ .

المبحث السابع : العبرية والحضارة العراقية

لاحظ ولفنسون الشبه الكبير بين كلمتي عبري وعربي واستنتج أنهما مشتقان من أصل واحد وأنهما تدلّان على معنى واحد ، وذكر أنّ اللغة العبرية كانت تسمى في صحف العهد القديم تارة باللغة اليهودية ، وتارة تسمى بلغة كنعان[٨٩٦] ؛ وقد أكد الدكتور هاشم الطعان أنّ الأصل بين العربية والعبرية واحد في قوله : (وهذه جزيرة العرب كانت كلها مملكة واحدة، يملكها ملك واحد. ولسانها واحد، سرياني وهو اللسان الأول، لسان آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء)[٨٩٧] .

ويميل باحثنا الدكتور إلى دحضِ الرأي القائل بنسبة اللغة العبرية إلى إبراهيم وهذا ما ذكره أحمد سوسه في قوله : (أمَّا مصطلح "العبري" أو "العبراني" فكان يطلق في نحو الألف الثانية قبل الميلاد ، وفيما قبل ذلك ، على طائفة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب في بادية الشام ، وعلى غيرهم من الأقوام العربية في المنطقة)[٨٩٨] ؛ وقد ذكر الدكتور أنَّ اليهود أخذوا من أرض وادي الرافدين ما اكتسبوا من إبداع فكري وديني ، وأنّ هذه السرقات مورست من كهنتهم ورؤسائهم ، ووضعت في كتبهم المقدسة[٨٩٩] ، وتكرّرت هذه السرقة بسرقة المتحف العراقي بعد الاحتلال عام ٢٠٠٣ ، إذ كانوا على علم بما فيه ، وبما يريدون أخذه منه ، (فكانوا يتركون القطع المزوّرة المنسوخة ويأخذون القطع الأصلية ، فضلاً عن أن هؤلاء نزلوا إلى الطابق الثالث تحت الأرض ، وسرقوا أشياء محددة ...)[٩٠٠] ، وذكر أيضًا ما فعله المحتلون نقلاً عن كتاب بابل والتوراة المنشورة ، من حرق مكتبة المخطوطات ، وقد تابع باحثنا الدكتور عددًا من الأدلة على هذه الجرائم التي قام بها اليهود والمحتل بعد عام ٢٠٠٣ ، وقد نقل ما ذكرَته رئيسة هيأة الآثار والتراث العراقية الدكتورة أميرة عيدان في قولها : (إنَّ القوات الأمريكية

---

[٨٩٦] تاريخ اللغات السامية ، ولفنسون:٧٨.

[٨٩٧] مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية، د هاشم الطعان ٣٨ .

[٨٩٨] موجز تاريخ اللغات السامية ٧١.

[٨٩٩] المصدر نفسه ٧٧.

[٩٠٠] المصدر نفسه ٧٨.

عثرت على حوالي (٣٠) صندوقًا يحتوي مخطوطات باللغة العبرية في أحد أقبية دائرة المخابرات العراقية)[٩٠١] .

ونقل أن غلاة اليهود كانوا بحاجة إلى ما يثبت أنَّهم صُنَّاع حضارة العراق والمنطقة ، وذكر أنَّ هذا الأرشيف يتضمن (الأنانوكي) وهو مجمع الآلهة ، الفكرة التي يروّج لها بعض اليهود، فكرة أنَّهم تناسلوا مع القادمين من الفضاء، بعد أن اختلطوا معهم، وتناسلوا وأنجبوا أجيالاً من المبدعين، وكان السومريون من هذا الجيل[٩٠٢] .

وقد عرض تزييف اليهود إلى زمن نبي الله موسى عليه السلام ، قال : (ومن كَشفِ هذا التزييف أيضًا ما يتضح من موازنة قوانين حمورابي وأسفار التوراة ، فقد فوجئ العالم بمقدار الشبه الكبير بينهما ، ومن هذا كان الاعتراض على أنَّ كاتب القوانين التوراتية لا بُدَّ أنَّه اقتبس نصوصه من مسلَّة حمورابي ... لأنَّ حمورابي نفسه يسبق موسى عليه السلام بمئات السنين، وشعب بابل وَثَنِي، في زعم كاتب التوراة ، فكيف يكون نص التوراة وحيًا إلهيا ؟!)[٩٠٣] .

ونجد أنَّ ما عرضه الدكتور عن غلاة اليهود في سرقاتهم الفكرية والمادية ، ليستدل على أن ديدن هؤلاء اليهود الادّعاء الكاذب والسرقات ومصادرة جهود الآخرين ، ولاسيّما حضارة العراق القديم .

والمعلوم أنّ السبي الذي تعرّض له اليهود ، كان له الأثر الكبير على اللغة العبرية ، فكان زوال دولة اليهود ضربة قاصمة للغة العبرية ، وانحسر استعمالها ، لكنها لم تختفِ نهائيًّا، بل اختفت كلية من الاستعمال في الحياة اليومية ، في أثناء مدة السبي البابلي ، وأنها منذ تلك المدة استمرت لغة للعلماء فقط ، وأن كل اليهود اتخذوا اللغة الآرامية حينئذ لغة لهم[٩٠٤].

---

[٩٠١] عملية أحفاد بابل ٤٦ . ٤٧، وجريدة المدى العدد٦٦، ك١، ٢٠١٤. وموجز تاريخ اللغات السامية ٧٩.

[٩٠٢] عملية أحفاد بابل ٦٥ ، وموجز تاريخ اللغات السامية ٨٠ .

[٩٠٣] موجز تاريخ اللغات السامية ٨١ .

[٩٠٤] اللغات السامية، نولدكة ٣٦ .

وحاول الدكتور كشف بعض الحقائق الغائبة عن بعض المتابعين من أنّ اللغة العبرية كانت قد استفادت من اللغات الجزريّة ، في تطوير اللغة العبريّة ، وذكر أن اللغة العبرية أفادت من تطور اللغة العربية في عصر نهوضها الحضاري ، ونقل أنَّهم اقتبسوا علومهم اللغوية وعملوا على صياغتها منها بحسب ما يناسب لغتهم ، واستدل بنبوغ عدد كبير من اليهود وظهور أساليب جديدة في التأليف الأدبي والفلسفي والتشريعي ، وقد انتقل إلى بيان الكيفية التي أصرّ بها قادتهم على إحياء اللغة العبرانية الميتة بالاستعمال ، فوجد أنَّ اليهود كانوا يعدّون لظهور دولتهم ، أنهم رفضوا في أوائل العشرينيات من القرن الماضي ، افتتاح الجمعية اليهودية الألمانية (معهد التخنيكو) التقني في حيفا ، الذي أنشأته ألمانيا بأموالها وجهود خبرائها ؛ وارتأت هذه الجمعية جعل الألمانية لغة التدريس فيه ، على اعتبار أن العبريّة ليست متطورة بالقدر الذي يسمح باستعمالها في حقل العلوم والتقنيات ، فقامت الدنيا بموجات الاحتجاج ، وإضراب المعلمين والتلاميذ ، عادّين ذلك إهانة قوميّة[٩٠٥] . وكان هذا الإصرار من جملة الخطوات المهمة لجعل العبرانية لغة علم وحياة ، وإنّ رفض اليهود واحتجاجاتهم كان نابعًا من فهم لأهمية اللغة ، وقوة انتمائهم ، وقد أدت تلك الاحتجاجات إلى تراجع الجمعية ، وكان لليهود ما أرادوا ، وقد توجهوا إلى إنشاء مدارس باللغة العبرية ، وقد استطاعوا إحياء لغتهم العبرية الميتة ، فقد بذلت المدراس اليهودية جهودًا كبيرة في محاولة منها لضبط النصوص المقدسة ، بوضع رموز للحركات وغيرها ، وقد استطاعت إثبات نطق العصور المتأخرة للغة العبرية ، لا العصور القديمة جدًا[٩٠٦].

وذكر الدكتور تفكيرهم المستقبلي في استعمال اللغة العبرية إلى تأسيس لغوي عبري عام ١٨٨٩ في القدس لإحياء لغتهم ، حتى عادت اللغة الرسمية الأولى لهم ، وذكر أنها غير العبرية التوراتية وما هي إلَّا خليط من العبرية والعربية واللغات الأوربية وغيرها[٩٠٧] .

---

[٩٠٥] موجز تاريخ اللغات السامية ٨٣، ومجلة مجمع اللغة الأردني، د. إسحاق الفرحان ٢٢.

[٩٠٦] اللغات السامية، نولدكة ٣٥.

[٩٠٧] موجز تاريخ اللغات السامية ٨٤.

المبحث الثامن : أوجه الشبه بين اللغات الجزرية (السامية)

قسم الدكتور يحيى عبابنة اللغات الجزرية على ثلاثة مجموعات ، المجموعة الأولى: الشمالية الغربية ، وعدَّ الكنعانية منها ، وذكر أن اليونان يطلقون عليها اسم (الفينيقية) للدلالة على اللون التمري الغامق للكنعانيين ، وعدَّ العبرية لهجة منها ، في حين ذكر أنَّ الآرامية جاءت بديلاً عن الكنعانية في أنَّها سادت الشام والعالم القديم ، ثم جاءت من بعدها السريانية. الثانية: الشمالية الشرقية، وتجسدت بالسومرية والأكدية، وعد البابلية والآشورية من لهجاتها[٩٠٨]. والثالثة: الجنوبية، (وهي العربية العدنانية، والعربية اليمنية الجنوبية والأثيوبية الحبشية)[٩٠٩]، وقد أكد التقارب بين العربية والعبرانية والسريانية، وأنَّ سبب هذا التقارب بسبب تجاور الديار، وقد توصل في بحثه هذا إلى أنَّ هذه اللغات تجمعها خصائص، منها ما كان في تشابه (أصوات حروف الحلق) ، و(حروف الإطباق والتفخيم) ، وذكر أن النظام الاشتقاقي لمفرداتها يعتمد على تغيير مقاطع الكلمات ، وأن ظاهرة الإعراب أصيلة في هذه اللغات ، ومن شواهده وجوده في مسلة حمورابي ، وفي الآثار الأكدية ، ووجوده في اللغة العبرية ، ثم ذكر أن هذه الظاهرة قد اندثرت في بعض هذه اللغات ، في حين احتفظت بها اللغة العربية[٩١٠].

وكان ولفنسون قد سبق إلى ذكر مزيات اللغات السامية التي تجعل من هذه اللغات كتلة واحده، وكان من هذه المزيات[٩١١] :

١. أنّ أغلب الكلمات يرجع في اشتقاقه إلى جذر ثلاثي ولبعضها أصل ذو حرفين.
٢. أنّ الأصل في هذه اللغات الفعل، ومنه نشأ اشتقاق الكلمات.
٣. ميل الأمم السامية في أساليبها الكتابية إلى المحافظة على القديم وعدم الرغبة في إحداث شيء من التغيير أو التحول .

---

[٩٠٨] النحو العربي المقارن ٢٢-٢٣، وموجز تاريخ اللغات السامية ٨٥.

[٩٠٩] موجز تاريخ اللغات السامية ٨٥.

[٩١٠] المصدر نفسه ٨٧-٨٨ .

[٩١١] تاريخ اللغات السامية، ولفنسون ١٤-١٧.

وقد أكد ولفنسون إلى أن وجه الشبه بين اللغات السامية تظهر في بعض أسماء الأشياء التي كانت معروفة لهم كأسماء أعضاء الجسم والضمائر، كما نقل الدكتور تقسيماته للغات السامية: (وتنقسم اللغات السامية من الوجهة الجغرافية إلى ثلاث مناطق: شرقية وفيها: اللغة البابلية الآشورية، وغربية وتشتمل على الكنعانية والعبرية والآرامية، وجنوبية وفيها اللهجات العربية في جميع بلدان الجزيرة العربية واللهجات الحبشية)[٩١٢].

الكتابة (السامية) الجزرية الأولى

ذكر الدكتور عامر سليمان أن اللغة الأكدية هي أقدم اللغات الجزرية المعروفة من حيث التدوين، وأنها دونت . أولاً . بالخط المسماري الذي سبق إليه السومريون[٩١٣] .

ونقل باحثنا الدكتور أنّ معظم الباحثين اتفقوا على أن الكتابة هي الحد الفاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية ، وأن الكتابة كانت . أولاً . في مدن الجنوب وأولها مدينة الوركاء (أوروك) التي عرفت الكتابة قبل ما يزيد على خمسة آلاف عام ، ثم ذكر ما جاء عن علماء الجزريات (الساميات)، أن أقدم الأبجديات هي الأبجدية السومرية المسمارية التي عرفت قبل ٣٢٠٠ ق م . وذكر أن الكتابة المسمارية استمرت حتى آخر الأدوار الحضارية في العراق ، وأنَّ الخط المسماري استعمل لتدوين لغتين هما السومرية والأكدية ، ثم تفرعت إلى لهجتين البابلية والآشورية[٩١٤].

وتابع باحثنا ما ذهب إليه الدكتور عامر سليمان (أنَّ تاريخ ابتداعها يعد الحد الفاصل بين عصور الإنسان قبل التاريخ وعصوره التاريخية)[٩١٥] ، وذهب . أيضًا . إلى أنّ تاريخ ابتداع أول أنماط الكتابة لا يتجاوز ستة ألاف سنة ، وأجمعوا على أن السبق إلى الكتابة ينسب إلى العراقيين في القسم الجنوبي منه في حدود ٣٥٠٠ ق. م ، إذ بدأت الكتابة بالصورية ، ثمّ التطور

---

[٩١٢] تاريخ اللغات السامية، ولفنسون ٢٠، والنحو العربي المقارن، د. يحيى عبابنة ٢٢.

[٩١٣] اللغة الأكدية (البابلية، الآشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها ٩٧–٩٨.

[٩١٤] موجز تاريخ اللغات السامية ٩٢.

[٩١٥] اللغة الأكدية (البابلية، والآشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها ١٠٥.

السريع لأشكال الكتابة المسمارية التي تغيرت من الصورية إلى الرموز التي شبهوها بالمسامير، في حين حافظت الهيروغليفية على الصورية البدائية ، وأنَّ النصوص الأولى التي وجدت في أوروك كانت صورية بأبسط أشكالها ، إلى أنها انتقلت في المرحلة الثانية إلى الرمزي والصوتي ومثلوا لها بتعبيرهم عن الإله بالنجمة ؛ لأن النجمة في السماء وهم يعتقدون أن الإله في السماء ويشيرون إليه بهذا الدال[٩١٦] .

وكان الدكتور عامر سليمان قد فرق بين اللغة الأكدية واللغة السومرية ، في قوله: (فاللغة الأكدية لغة جزرية تزخر بالأصوات الحلقية والمفخمة، شأنها في ذلك شأن بقية اللغات الجزرية، كاللغة العربية، والآرامية، والعبرية، في حين أن اللغة السومرية لغة تنتمي إلى عائلة لغوية أخرى، غير معروفة بعد، وهي تختلف على كل حال عن اللغة الأكدية، بأنَّها تضم معظم الأصوات الحلقية والمفخمة ؛ وحيث أن الكتابة السومرية كانت قد ابتدعت أصلاً لتدوين اللغة السومرية)[٩١٧].

أما الكتابة المقطعية الصوتية فقد عرفت في العراق قبل الألف الثالث قبل الميلاد، وأن هناك من عثر على وثائق تعود إلى عرب الجنوب تدل على تطور الكتابة، وكانت هذه النصوص تدل على قرارات وقوانين، تكتب على ألواح حجرية أو معدنية، وتوضع في الأماكن العامة ليطلع عليها عامة الناس، وأنَّ أوّل من مارس الكتابة المقطعية هم أواخر السومريين وأوائل الأكديين، وأنَّ هذه الكتابة مؤلفة من الحروف والحركات، ثم ربما استغنوا عن كتابة الحركات؛ لأنَّها معلومة[٩١٨] .

أثر الكتابة الجزرية في الكتابة العربية

ذكر باحثنا بعض الآثار التي دلَّت على أنَّ نقش النمَّارة الذي يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد أقدم كتابة عربيّة، وأنَّ ذكر العرب قد ورد في عشرات النصوص في التاريخ اليوناني

---

[٩١٦] الكتابة، د. رينجر ٣٢، وموجز تاريخ اللغات السامية ٩٣-٩٤.

[٩١٧] اللغة الأكدية،(البابلية، والآشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها ٩٩.

[٩١٨] الصلات المشتركة بين أبجديات الوطن العربي القديمة ٥٢، وموجز تاريخ اللغات السامية ٩٥.

باسم العرب أو العربية السعيدة ، ولم يذكر اسم (سام) أو (الساميين) في أي نص منها، وفي البحث في أصل العرب ذكر أنّ البعض يدعي أن العرب على ثلاثة أصناف ، عرب بائدة، وعرب عاربة ، وعرب مستعربة ، وذهب في هذا الرأي إلى أن هذه التقسيمات من الاسرائيليات، وأن الهدف منها أنهم يريدون أن إبراهيم كان عبرانيًا وليس عربيًا ، وأن أبناء اسماعيل هم العرب المستعربة ، وقد احتج الدكتور بتكذيب هذا الادعاء، بقوله تعالى: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . آل عمران ٦٧ . ٦٨) ، فتقسم العرب إلى عاربة ومستعربة ، خرافة وطعنٌ بأحاديث النبي ﷺ ، والثابت أنَّ اللغات الجزرية سلالة واحدة استنادًا إلى انتقال حروف الكتابة إلى اللغة العربيّة بروايات منها :

١-إن الأبجدية النبطية مكونة من اثنين وعشرين حرفًا ، وهي متفرعة من الأبجدية الآرامية التي استعملها الأنباط في تدوين لغتهم العربية .

٢-كانت الحيرة واليمن مركزين للكتابة والثقافة وقد تأثر الخط العربي بالخط الآرامي ؛ وأنّ الخط الكوفي هو الخط السرياني نفسه، والخط المسند هو خط حمير اليمني، وأنّ الحِمَيريّين استبدلوا الخط المسند بالخط السرياني ، وقيل إن الخط المسند هو الخط المنقول من الخط الكنعاني مباشرةً .

٣- رواية للبلاذري (٢٧٩هـ) التي قال فيها : اجتمع نفر من طيئ ، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، بدير بقَّة على بعد فرسخين من الحيرة والأنبار، فتعلمه قومٌ من الأنبار، فتعلَّمهُ منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلمه أهل الحيرة ونقلوه إلى الحجاز[٩١٩] ، فالكتابة العربية ولدت من كتابة آرامية متطورة ، ورجَّح أنها تمت بعد سقوط الحضر سنة ٢٤١ م ومن ثم انتقلت إلى الأنبار[٩٢٠] .

---

[٩١٩] فتوح البلدان للبَلَاذُري ٤٥٣ .

[٩٢٠] موجز تاريخ اللغات السامية ١٠١ . ١٠٤ .

الفصل العاشر
المصطلح ولغة العلم

المقدمة

يبدو أنّ الدكتور مهدي صالح كان قد فكّر في لغة العلم ، حين كُلِّفَ بتدريس مادّة العربيّة العامّة في كليّة طبِّ الكنديّ ، لمدّة سنتين ، في أواخر القرن الماضي ، وهاله ما وَجَدَ من مفردات غير نافعة ، كانت قد قُرِّرَت في تدريس مادّة العربيّة العامّة ، لطلبة كانوا قد حصلوا على أعلى الدرجات في مادة اللغة العربيّة في الامتحانات العامّة ، إذ وَجَدَ ما هو أدنى من مستواهم ، وبعيدًا عمّا ينفعهم من مادّة لغويّة تناسب تخصّصهم ، فضلًا عن أجواء التعليم التي فُرِضت من التي تفارق لغتهم الوطنيّة ، وانحياز الهيئات التعليميّة إلى هذه اللغة الأجنبيّة، حتّى سلّم معظمهم إلى أنَّ اللغة الإنكليزيّة وغيرها من اللغات الأجنبيّة هي اللغات الصالحة للطب والهندسة وغيرهما من العلوم ، لمسوّغات كثيرة : منها : الكسل ، والتّسليم ، والتعوّد ، والألفة ، والتداول في مثل هذه الكليّات ، أو ربما ظنّ الكثير من الأساتذة في التخصّصات العلمية والتقنيّة المختلفة أنّ الاهتمام باللغة العربية يؤدّي حتمًا إلى تدنّي المستوى العلمي ، وإلى ضعفِ مواكبةِ التطورات العلمية ، وهذا ما يُحبِطُ من يريد أن يفكّر في التعريب ، أو في وضع المقابل العربي للأجنبي ، لأنّه سيكون ثقيلاً وممجوجًا ومهجورًا وبعيدًا عن الاعتياد والتداول ، لا لأسباب علمية ، ولا لقصور لغة وطنيّة ، بل لجفاء أهل هذه اللغة للغتهم ، ولاسيما في هذه الأوساط ولأجيال متعاقبة ، حتى سَلَّموا بنقص اللغةِ العربية واقتصارِ وظيفتِها على الدِّين والأدبِ ، وعدمِ صلاحيتِها للعلم ، وهذا ما يَضُرُّ باللغة وبالمستوى العلمي لمستقبل الدارسين ، والمجتمع عامة[٩٢١] .

والواقع ينبّه على بطلان هذه الأفكار، استنادًا إلى الإنجازات العلمية والصناعية التقنيّة التي حققتها أمم حيّة كثيرة كاليابان والصين وروسيا وغيرها ، بلغاتها الوطنية والقومية وهي تتقدم إلى أمام ، لتسبق من ينسبُ إليهم وإلى لغاتهم الانفراد بالتفوّق ، ولماذا نذهب بعيدًا ، فجميع دول الجوار غير العربية تدرس وتتداول العلوم والطب والهندسة وغيرها بلغاتها القومية ، وهي من الدول الأكثر تقدّمًا قياسًا بمستوى الدول العربيّة التي سلّمت للتبعيّة الغربيّة .

---

[٩٢١] في المصطلح ولغة العلم ، مقدمة الطبعة الأولى ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ٢٠١٢ .

فليس للوطنيّين المخلصين إلا أن يُميَّزوا بين منهجين : منهجِ التسليمِ للغةِ الأجنبيّة ، وإلغاءِ التفكيرِ باللغةِ الوطنيّة ، والآخر التعاطي الإيجابي الواعي ، أي الأخذ والعطاء ، ولاسيّما ما يؤسّسُ لنهضةٍ علميّةٍ تقنيّة ، على وَفقِ الضوابطِ والخصائصِ اللغويّةِ العربيّةِ الصحيحة ، بانتقاءِ الأصلحِ لنظامِ اللغةِ العربيةِ والأقربِ لطبيعتها ، أمّا إلغاءُ التفكيرِ باللغةِ الوطنيةِ فتعبيرٌ عن أزمةِ المعنيين بالتعاملِ مع لغةِ مجتمعِهم ، ونأيِهم عن التفكيرِ المستقبليّ في منافعِ استعمالِها.

ولا يُعقَلُ أنَّ المتخصّصين يعادون لغتهم ، ويصرّون على تجنّب استعمالَها ، لكنَّ عُذرَ معظمِهم أنّهم لم يطلعوا على تجربةِ العربيةِ في مجالِ العلمِ ، وربما لا يدركونَ الإمكاناتِ التي تملكها ، ولا الطاقاتِ التي تتوافرُ عليها ، فمحاولات الإقصاء مؤثّرة ، وهالةُ الغموضِ كبيرة ، حتى ترسّخت الجفوة ، وابتُعِدَ عن تداولَ المصطلحاتِ التي أقرّتها المجامعِ اللغويّة العربيّة ، وغُيِّبَت عن التداول ، فاستفحلت هذه الظاهرة واعتِيد الترك وإلى الله المُشتكى[٩٢٢] .

كلُّ هذا أثار باحثنا ، وجعله يفكّر في الاستجابة لهذه الظاهرة ، ولاسيما بعد ترؤّسه للجنة اختبار الأساتذة في جامعة بغداد من التمكن من اللغة العربيّة عام ٢٠٠٨ ، التي أتاحت له هذه التجربة الحوار الواسع مع المعنيين بدراسة العلوم وتدريسها باللغة الأجنبيّة ، فكانت من الثمار كتابه (في المصطلح ولغة العلم) ، وقد طُبِعَ طبعتان ، والكتاب الثاني (المعجم الصحّيّ العراقي) الذي ينتظر النشر، ومجموعة بحوث منشورة في مجلة المجمع العلمي العراقيّ وأوراق مجمعيّة ، منها (الحاجة إلى معجم صحّي عراقي) ، و(الأمراض المزمنة بين المعنى اللغويّ والاصطلاح الطبّي)[٩٢٣] ، وغير هذه النشاطات .

---

[٩٢٢] في المصطلح ولغة العلم ، مقدمة الطبعة الثانية ، مطبعة وزارة التعليم ٢٠١٨ .

[٩٢٣] في المصطلح ولغة العلم ، الطبعة الأولى مطبعة المجمع العلمي العراقي ٢٠١٢، والطبعة الثانية، مطبعة وزارة التعليم ٢٠١٨، والأمراض المزمنة بين المعنى اللغويّ والاصطلاح الطبّي ، مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ٢٩ ، ٢٠٢٢ ، و الحاجة إلى معجم صحّي عراقي ، أوراق مجمعيّة .

المبحث الأوّل : خطر التسليم للغة الأجنبية:

كان باحثنا من جملة من دعا إلى خطر التسليم للغة الأجنبية ، وأكد أن اللغة العربية هي من أنسب اللغات للعلوم ، بحسبِ التجربة في عصور ازدهارها ، وبهذا يدحض الادّعاء بعدم الصلاحية ، التي تُزعَمُ للغةٍ بعينِها من دون اللغاتِ الأخرى ، وهي الفِريَةُ المرفوضة من وجهة نظر علم اللغة الحديث ، الذي ساوى بين اللغات في الصلاحية ، واستشهد بأنَّ أُممًا حيَّة حققت إنجازات علمية كبيرة بلغاتها الوطنية ، من دون الأخذ ممن ينسب إليهم الانفراد بالتقدم ، وذكر أنَّ كلَّ الدول العربية لا تدرس العلوم والطب والهندسة وغيرها باللغات الوطنية ، التي يتحدثون بها[٩٢٤] ، سوى سوريّا التي نافروها وحاربوها .

ودعا الدكتور إلى أخذ العِبَرِ من تجارب الأمم الأخرى ، وحتى من نجاح تجربة العبرانيّين في إحياء لغتهم الميتة ، مستفيدين من اللغة التي كانت مجرّد لغةٍ طقسية دينية ، أعادوا إحياءَ هذه اللغة الميّتة قبل بناء دولتهم ، في حين تراجع العرب بعد الاحتلال الاستعماريّ ، ولاسيّما بعد أن بدؤوا بنقل العلوم إلى المجتمع العربيّ في العصر الحديث إلى اللغة العربية ، تلك الجهود الكبيرة التي بدأت بالبعثات الرياديّة المصرية إلى فرنسا سنة ١٨١٣ م ، مثلما سنعرض في هذا الفصل[٩٢٥] بعد قليل .

وقد سَلّمَ هؤلاء التابعون إلى لغاتِ الأمم التي احتلّت بلدانهم ، وارتضوا بما فُرِضَ عليهم ، وربما صاروا يدافعون عن هذه التبعيّة ، بالقول بعدم صلاحية اللغة العربيّة ، مع أنّ صلاحيّة اللغة تظهر في دقّة مفرداتها ، ونضج تجربتها التراثيّة في إبداع المصطلحات والنّصوص العلميّة ، وبالرغم ممّا قرره المحدثون أنفسهم ، في قولهم : (يقرر علماء اللغة المحدثون أنْ ليس هناك لغة قاصرة ولغة مقتدرة ، وأن اللسان أي لسان يملك القدرة على التواصل والاستمرار والتعبير الذي يناسب كل عصر)[٩٢٦] .

---

[٩٢٤] في المصطلح ولغة العلم ١٣٧–١٣٨

[٩٢٥] المصدر نفسه ١٣٣ .

[٩٢٦] مجلة الترجمة واللسانيّات ٤ ، في المصطلح ولغة العلم ١٤٠ .

فإذا كان ذلك كذلك فلماذا لا نحافظ على لغتنا العربية ، وننقلُ إليها الحديثَ من العلوم ؟! بَدءًا بإقناع المتخصّصين بضرورة استعمال لغتهم الوطنيّة ، الأيسر عليهم وعلى طلبتهم وعامة مجتمعهم ؛ والبدء بالتفكير في استعمال المصطلح العربي مقابل المصطلح الأجنبي وبموازاته ، في الشؤون الوظيفية والتواصلية والثقافية والمحلية والعربية ، والتزام المصطلحات العالمية إلى جانب المصطلحات العربية في التخصصات العلمية والبحوث الأكاديمية .

وكان الدكتور قد دعا إلى التفكير في التعريب خطوةً مهمة من خطواتِ النهضةِ الشاملة ، وجُزءًا من مشروعِ التغييرِ الكبير، من ضمنِ التخطيطِ العلميّ الراسخِ ، والسديدِ الراكز، والجاذبِ لتفاعلِ الكفاءاتِ العلميةِ في الداخلِ والخارج ، والباعثِ على حماسِها واطمئنانِها على مستقبلِها ومستقبلِ أوطانِها ، والذي سيمنعُها من الالتفاتِ إلى غيرِها ، وَلْتَنتَهِ مرحلةُ اليأسِ من حصولِ النهضةِ الحقيقيةِ في بلدانِنا ، ومغادرةِ الأوضاعِ المتخلّفةِ الحاليةِ ، حتى يكونَ التوجّهُ نحو التعريب واقعًا يدافع عنه الجميع[٩٢٧] .

وهنا لا بُدَّ من تذكيرِ الباحثين الجادّين بضرورةِ إعادةِ اكتشافِ لغتِهم علميًا ، والالتفاتِ إلى أهميّةِ تعريبِ المستحدثاتِ التي لا مقابلَ لها في العربيةِ ؛ والمراجعةِ المستمرةِ للمصطلحاتِ المُعَرّبة ، التي أقرتها المجامعُ العلميةُ العربية ، والدعوةُ إلى استعمالها ، والسعيُ إلى تجديدِها سنويًا إن لم تَعُدْ صالحة ، وجعل هذا التوجه جزءًا من اهتمامِ البحوثِ والرسائلِ والأطاريحِ مثلما يجري عند أهلِ اللغاتِ الحية[٩٢٨].

ولا بأسَ من الاهتمامِ بالعربيةِ مع اللغاتِ الأخرى لمصلحةِ المُجتمعِ والعلمِ والمتعلمِين ، الذين لن يبلغوا العَفَويّةَ والتَّلقائيّةَ ، والمُتعةَ إلاّ باستعمالِ ما تعوّدوه ونشأوا عليه ، فَضلًا عن أنّ مُعظمَهم لن يُتقِنَ اللغةَ الأجنبيةَ كأهلِها ، ولن يبدعَ فيها كإبداعِه بلغتِه ، وسَتَظَلُّ الأجنبيةُ غريبةً، وعائقًا من معوّقاتِ النهضةِ العلميّة ، مهما بالغَ المبالغون في تمجيدِها والدفاعِ عنها ، وتقديمِها على لغتِهم التي مُنِعوا من تداوُلِها ، وحُرِموا من الاطّلاعِ ما يخصُّهم فيها .

---

[٩٢٧] في المصطلح ولغة العلم ١٣٢ .

[٩٢٨] المصدر نفسه ١٣٧ .

فتوطينُ العلومِ بلغةِ المجتمعِ حاجةٌ وضرورة ، دعت إليها منظماتٌ علميّةٌ عالمية ، ومنها على سبيل المثال : (المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة) ، التي أوصت باستعمالِ اللغاتِ الوطنيةِ في التعليم ، اعتمادًا على دراساتٍ وتقاريرَ أعدّها خبراءٌ في قضايا التعليم والعلم والثقافة؛ ومن تلك المؤتمرات المؤتمر العالمي لوزراء الطب في العالم ، الذي رعته الأمم المتحدة في باماكو ٢٠٠٨ ، وكان قد أكّدَ مَبدَأ تعليمِ الطبِّ باللغةِ المحليّة ، لمصلحة العلم والمجتمع[٩٢٩] .

أمّا القبول بالثنائيّة اللغوية ، أي العربيّة إلى جانب الأجنبيّة ، فلمراحل تتخذ فيها شروط النهضة العلمية العربية ، باعتماد أساليب التعليم الحديثة ، بما فيها اختيار اللغة الوطنيّة ، الأنسب للعلم والمتعلمين في المستقبل القريب والبعيد[٩٣٠] .

---

[٩٢٩] في المصطلح ولغة العلم ٨٢ .

[٩٣٠] المصدر نفسه ١١٦.

المبحث الثاني : الاختصاص ولغة العلم

ميّزَ باحثنا الدكتور الفرق بين الحقائق العلمية والحقائق الأدبية ، لحاجةِ المتصدّين إلى هذا الفرق والتمييز، لوصمِهم العربيّة بالقصور في تداول العلوم ، وذكر أن لغة العلم تعبّر عن قضايا علمية من غيرِ لَبسٍ أو غموض ، وقد وجّه بضرورة التفريق بين لغة العلم ولغة الأدب في مراحل التعليم ، بعد أن نوّه إلى ما اتّجه إليه التعليم من الاقتصار على التركيز على لغة الإعجاز والأدب ، مما أدى إلى التشكيك بإمكانية اللغة العربية من أداء دورها في تداول العلوم[٩٣١] ؛ وقد جاء هذه التفريق لبيان صعوبة التعامل مع اللغة العلمية ودقّتها ومن ضمنها المصطلح العلمي ؛ ويوافق هذا الرأي ما ذهب إليه الدكتور كمال بشر، في قوله : (إنّ غالبية هذه المصطلحات لها صفة العالمية، ولا تستطيع لغة واحدة أن تتعامل معها وتنقلها إليها بأدواتها التعبيرية الخاصة ، فتنفصم العرى بين الدارسين وتضطرب الأمور وتختلط مفاتيح العلم المتمثلة في هذه المصطلحات)[٩٣٢] .

وذكر باحثنا أنَّ للُّغةِ العلمية خصائص ثلاث ، هي[٩٣٣] :

١-الموضوعية : إذ تقتصر اللغة العلمية على عرض الحقيقة العلمية مستقلة عن أي رغبات منشئ النص العلمي ؛ ويتضح معنى الحقيقة من (أن يقال : هي اللفظ المستعمل في ما وضع له أولاً في اللغة)[٩٣٤] .

٢-الدقة : فاللغة العلمية لا تحتمل التأويل ، ولا يمكن استعمال الأساليب البلاغية فيها ؛ لأنَّ هدفها نقل المضمون الواضح ، فـ(تحديد الشيء الخارجي في عالم الموجودات بكيفية لا تعيق عملية الإبلاغ والتواصل ، من المسائل التي ما زالت تشغل اهتمام علماء الدلالة في العصر الحديث)[٩٣٥] .

---

[٩٣١] في المصطلح ولغة العلم ٣٨-٣٩.

[٩٣٢] دراسات في علم اللغة، كمال بشر ٢٣٢.

[٩٣٣] في المصطلح ولغة العلم ٤٠.

[٩٣٤] الإحكام في الأصول والأحكام، الآمدي ١/ ٢٧، وعلم الدلالة ٢٧٧.

[٩٣٥] علم الدلالة، منقور عبد الجليل ٦١.

٣-الإيجاز: إذ تقتصر اللغة العلمية على أداء الهدف المراد بأقل الألفاظ وبأقصر عبارة ممكنة، على أن تكون الدلالة عقلية أو منطقية ، التي يكوّن فيها العقل أمر إدراك طبيعة العلاقة التي تربط الدال بالمدلول[٩٣٦].

وعقَّب باحثنا بعد ذكره لهذه الخصائص، بقوله : و(على الرغم من تَمَيُّزِ اللغة العلمية الخاصة بهذه الخصائص ، لكنَّها تظل جزءًا من اللغة العامة ، لا تنفصل منها ، بل هي الجزء المتميّز منها ، ووجودها بوجودها ، فهي مرجعها ونوع مقنّن من أنواعها)[٩٣٧] ، فاللغة العلمية في نظر الدكتور تمام حسان تختلف عن اللغة الأدبية أو عن أي تعبير آخر، فهو يرى (إنَّه يمكن القول بأنَّ التعبير عن أية فكرة ، لا يخلو مطلقًا من لون عاطفي، إلَّا إذا استثنينا التفكير العلمي، أو اللغة العلمية ، التي يجب أن تكون معبرة عن الفكرة المحضة ، والحقيقة المجردة ، الخالية من الانفعالات النفسية)[٩٣٨] .

وفي بيان أهمية المصطلح ذكر باحثنا أنَّ استقرار المصطلح في العلم الحديث بدأ بالسعي الأوربي في توحيد قواعد وضع المصطلحات منذ القرن التاسع عشر، وقد أصدر فريق دولي من الخبراء معجم مصور للمصطلحات التقنية بست لغات في بداية القرن العشرين، ثم زاد عليها جهود كبيرة لعلماء آخرين إذ أصدر فيستر(١٩٧٧م) معجم خاص بالهندسة الكهربائية، وظهور (المنظمة العالمية للتوحيد المعياريISO) ، في جنيف ، فقد عملت على تقديم جهود كبيرة في توحيد أسس وضع المصطلحات قبل تأسيس (مركز المعلومات الدولي للمصطلحات) في (فيَنَّا)، فضلاً عن الجامعات التي تصل إلى عشرين جامعة في العالم الغربي تعمل على دراسة المصطلحات وتؤهل طلبتها إلى التخصص في مجال المصلحات[٩٣٩] .

---

[٩٣٦] علم الدلالة، منقور عبد الجليل ٦٥ .

[٩٣٧] في المصطلح ولغة العلم ٤١.

[٩٣٨] المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ١٤٠ .

[٩٣٩] المصدر نفسه ٨٠-٨٢.

وقد دعا بعد تفصيله لأهمية المصطلح (إلى التفكير الجدي في تعريب العلوم، ووضع المقابل الوطني المستقر في الاستعمال)[٩٤٠] ، إذ (ليس من المقبول شكلاً وموضوعًا أن يظل العلم (أو بعض فروعه) في البلاد العربية أسيرًا للغات الأجنبية تفكيرًا وتناولًا وتحصيلا حتى هذه اللحظة، ذلك أنّ إيثار اللغات الأجنبية على لغتنا القومية فيه تقليل لشأنها وإضعاف لمنزلتها بين الناس؛ وربما يؤدّي ذلك في النهاية إلى خلق جو علمي ثقافي)[٩٤١] يعاديها .

[٩٤٠] المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ٨٢-٨٣.

[٩٤١] دراسات في علم اللغة، كمال بشر ٣١٦.

المبحث الثالث : اللغة والفكر والتوظيف العلميّ

ينقل باحثنا الدكتور عن المحدثين أنّهم ربما تجاوزوا قول ابن جني في حد اللغة ، على (أنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)[٩٤٢] ، بل ربما انطلقوا منه إلى تحديد علاقة اللغة بالعلوم الأخرى ، وبيان مفهومها الأوسع ، فلِلّغةِ (ارتباطٌ وثيقٌ بعلوم الطبيعة ، فإنَّ أصوات لغة الكلام، تنتج وتستقبل عن طريق أجهزة الجسم الإنساني ؛ وتركيب هذه الأجهزة ووظائفها جزء من علم وظائف الأعضاء ؛ وإنَّ انتقال الصوت على شكل موجات صوتية عبر الهواء ، يدخل في اختصاص علم الطبيعة ، وبخاصة ذلك الفرع ، المعروف بعلم الصوت ؛ ولكنَّ اللغة ، من ناحية أخرى ، لها علاقة وثيقة بعلم الإنسان ، وعلم الاجتماع ، باعتبارها نتاج علاقة اجتماعية، ووسيلة نقل الثقافة ، التي تعد من وجهة نظر علم الإنسان ، مجموعة تقاليد الشعب، وأوجه استعمالاته للغته ، وبالنظر إلى وظيفة اللغة ، كتعبير عن الفكر، يمكن اعتبار اللغة جزءًا من علم النفس)[٩٤٣] .

ولا تقتصر وظيفة اللغة على إيصال الأفكار، بل (إنّ اللغة ليست كما يرى التعريف التقليدي وسيلة من وسائل توصيل الأفكار والانفعالات أو التعبير عنها ، أو نقلها ... فمثل هذا لا يَعدُو أن يكون وظيفة واحدة من وظائف اللغة ، ورأى [مالونفسكي] أنّ اللغة كما يمارسها المتكلمون في أي جماعة من الجماعات ، إنَّما هي نوع من السلوك ، وضرب من العمل ، وأنَّها تؤدي وظائف كثيرة غير التوصيل)[٩٤٤] .

ذلك أنّ اللغة هي التي تُمَيّزُ الإنسانَ من غيره من المخلوقات ، ووظيفتها في تحديد الحدود النفسية والاجتماعية والسياسية والقومية المختلفة بين القوميات ، فضلاً عن وظيفتها العامة التي ذكرها ابن جني في تعريفه للغة ، فللّغة وظيفة اجتماعية ، تجمع كلّ قوم من الأقوام وتميزهم من غيرهم ، ونقل باحثنا الدكتور التمثيل بالفئة الاجتماعيّة أو المهنيّة المشتركة ، كالأطباء

---

[٩٤٢] الخصائص ١/٣٤.

[٩٤٣] أسس علم اللغة ، ماريو باي ٤٢، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ١٢٥ .

[٩٤٤] علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران ٢٥١.

الذين يستعملون المعلومات الطبيّة فيما بينهم ، فتتأثّر لغتهم بطبيعة مهنتهم وخصوصياتها اللغويّة التي تميّزها من اللغة العامّة ، ويكتسب أهل المهنة هذا التميّز والخصوصيّة في أثناء التدريب وممارسة المهنة لتستقرّ لغة تواصلهم مع بقيّة أبناء مهنتهم[٩٤٥] .

وذهب الدكتور تمام حسان إلى تنوع وظائف اللغة ، في قوله : (ومما يرجع إلى اهتمامنا باللغة، ووظائفها في المجتمع أن يصبح من الضروري أن نعترف بأنَّ سلوك الجماعة الإنسانية ، تصبح له خصائص معينة ، كلما وجد الرمز الاجتماعي ، أي التفاهم ؛ وهذا النوع من النشاط، الذي يشتمل على رمزية يؤدي في المجتمع نفس الوظيفة ، التي يؤديها النشاط العقلي في الفرد؛ فالتذمر الجمعي والوضع الجمعي للخطط ، والإحساس الجمعي والإرادة الجمعية كلّ أولئك يتعدّل بوجود أشكال رمزية ، للتفاهم في الجماعة ، هذه الرموز الجمعيّة هي التي تمكن الجماعة من أن تباشر نشاطها ، وتمكنها اللغة من أن تباشر هذا النشاط بإتقان أعظم ؛ وتجعل اللغة في قدرة الجماعة أن تمنح الرمز لعقلها الجمعي ، فتعطيه القوة التي يصبح بها عقلا جمعيًّا واعيًا ؛ والاعتراف بكلّ أولئك هامٌّ جدًّا لفهم وظيفة اللغة في المجتمعات الحديثة)[٩٤٦] .

وقد حرص باحثنا الدكتور على البحث عن علاقة اللغة بالفكر، فوجد من يربط اللغة بالفكر، ويؤكد أن أحدهما لا يكون بغير الآخر[٩٤٧] ، فضلاً عن أنّ هناك من يرى أن لا تفكير ولا لغة بغير مجتمع وقد نقل عن سابير هذا الرأي[٩٤٨] ، كما نقل عن لودفيغ فتنغشتاين قوله : (إنَّ الفلسفة عبارة عن معركة ضد البلبلة ، التي تحدث في عقولنا ، نتيجة لاستخدام اللغة)[٩٤٩]، في حين وجد رأيًا آخَر . يمثل الفلاسفة المثاليين . يرى أن اللغة ليست إلاَّ وسيلة للتعبير، وأنها مستقلة عن الفكر وتابعة له[٩٥٠] ، ثم ذكر اعتراض الفلاسفة المادّيّين ومخالفتهم لرأي الفلاسفة

---

[٩٤٥] علم المصطلح ٦٥ . ٦٦ ، وفي المصطلح ولغة العلم ٣٠.

[٩٤٦] مناهج البحث في اللغة ، تمام حسان ٦٢ .

[٩٤٧] أبنية الأفعال ١١ .

[٩٤٨] فقه اللغة وعلم اللغة ١٥.

[٩٤٩] فلسفة اللغة عند لودفيغ فتنغشتاين ٢٧٧-٢٧٨.

[٩٥٠] الصراع بين القديم والحديث ١٧، وفي المصطلح ولغة العلم ١٣-١٤.

المثاليين ، ثم وجد رأيًا وسطًا متمثلاً بما ذهب إليه سوسير الذي فصل بين اللغة والكلام[٩٥١] ، ثم تطرق لرأي الفكر الإسلامي الذي استند إلى قوله تعالى : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ـ الرحمن ٣ ـ ٤) ، وقوله تعالى : (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ـ البقرة ٣٠) ، وقد ميَّز الجاحظ بين الفصيح والأعجم في قوله: (الفصيح هو الإنسان، والأعجم كلُّ ذي صوت لا يفهم إرادته إلَّا ما كان من جنسه)[٩٥٢] ، وترجح أنَّ الفكر مرتبط باللغة ، وأنَّ معجزة القرآن معجزة قرآنية لغوية وقد انتقد باحثنا الذين يبحثون عن لغة أخرى ، وذكر (أنَّ التاريخ الأوربي الحديث نفسه يؤكد أنَّ نهضة الأمم الغربية الحديثة استندت إلى مثل ما نفكر من أسس ، فمنها ما هو علمي، ومنها ما هو سياسي، ومنها ما هو اجتماعي ، وكانت اللغة أو الشخصية اللغوية قد احتلت عندهم المكانة المرموقة بين هذه العوامل)[٩٥٣] .

وقد مرَّت اللغة العربية بمؤثرات أدّت بها تارة إلى التطور، وتارة أخرى إلى التأثر السلبي (واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول ؛ فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العربي الضيق الذي امتازت به حضارتهم في عصر بني أمية ، إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر بني العباس ، وكان لهذين الانتقالين أجلُّ أثر في نهضة لغتهم، ورقيّ أساليبها، واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم)[٩٥٤] . فكان التفكير في المصطلح العلميّ العربي ووضع المصطلحات في اللغة العربيّة حاجة وفوائد جمّة ، منها الدخول إلى عالم اللغة دخولًا يعيد لها مكانتها بين أهل العلم ، الذين سيجعلون ما عندهم من العلم لمصلحة مجتمعهم ، ويعزّزون التواصل والفهم والإفهام فيما بينهم وبين مجتمع تعليمهم ، وكذلك مع تراثهم والإسهام في صنع حاضر يسعى أن يكون زاهرًا ومستقبلًا باهرًا ، وكان غاية الدكتور من الخوض في هذا المضمار لأجل الانفتاح الواسع على اللغة ممّا يتصل

---

[٩٥١] علم اللغة العام ٣٢، وفي المصطلح ولغة العلم ١٤.

[٩٥٢] البيان والتبيين ١١، وفي المصطلح ولغة العلم ١٥.

[٩٥٣] في المصطلح ولغة العلم١٧.

[٩٥٤] علم اللغة، علي عبد الواحد وافي ٢٥٧.

بالإنسان وصحته وحياته وجميع ما يتصلُ به من قريب أو بعيد ؛ ومحاولة اختراق غربة بعضِ الأطبّاء والمهندسين وغيرهم عن لغتهم الوطنيّة في التعبير عمّا يريدون بها تعبيرًا صحيحًا ؛ والتخلَّص من الغُربة والتغريب والضياع الثَّقافي الذي ربما تمكَّنَ من معظمهم وجعلهم بعيدين عن واقع مجتمعهم وتراثهم وجذورهم ، فضلًا عن الحاجة والضرورة إلى :

١ . التعرف على المصادر العربية القديمة والجديدة التي تتصل بأهل كلّ اختصاص ، ولاسيما كتب المعجمات العامة ومعجمات المصطلحات الخاصّة .

٢ . الاطلاع على أسس وضع المصطلح العربي ، كالترجمة ، والتعريب ، والاقتراض ، والنحت ، والتوليد ، والاشتقاق ... إلخ .

٣ . التفكير في استعمال المصطلح الذي أقرّته المجامع العلمية العربية ، والدعوة إلى تجديد المعرّب إن لم يعد صالحًا ، في البحوث والرسائل والأطاريح .

٤. التفكير الجدّي بتعريب المستحدثات التي لا مقابل لها في العربية ، واقتراح ما يناسبها استناداً إلى :

أ . استيعاب كتب التراث العلمي العربي ، واختيار ما يناسب هذا العصر .

ب . اتّباع الأسس الصحيحة في ابتداع المصطلح ، صوتيًّا وصرفيًّا، ونحويًّا، ودلاليًّا.

ج . استشارة اللغويين والمترجمين لمعرفة القياس والمقابل الذي يؤدّي المعنى المطلوب .

د . ترك الاستعانة بالانترنت غير الموثق بديلاً عن الجهود العلمية الرصينة .

٥. تحويل ما عند الغربيين إلينا ، لا أنْ يأخذوا أفضلَ أبنائِنا ليلتحقوا بهم ، فيكونُ الجزءُ المأخوذُ أداةً تسعى في تغييرِ قناعاتِنا ، وتَهدِمُ ما عندنا ، لكُلِّ هذا علينا أن نعتبرَ بما حولنا من الأمم الأخرى ، فليس هناك أمةٌ تحترمُ نفسَها تتنازلُ عن لغتِها إلى أمة أخرى ، لأنّ سيادة الأمم تبدأ بسيادة لغتها ، التي تستند إلى تراثها المعرفي ، وإلى مؤسّساتها التي ترقى بهذه اللّغة .

٦ . تأسيسَ بنكٍ افتراضيٍّ للمصطلحاتِ العلمية العربيّةِ التي أقرّها المجمعُ العلميُّ العراقيُّ والمجامعُ العربيّة الأخرى ؛ أسوةً ببقيّةِ بنوكِ المعلومات ، كقاعدةِ المُعطياتِ المُعجميّةِ

بالرباط، والبنك الآلي السعوديّ ، وقاعدةِ المُعطياتِ المصطلحيّةِ بتونس ، وبنكِ مجمعِ اللغةِ العربيّةِ للمصطلحاتِ في الأردن ، وبنكِ مكتبِ تنسيقِ التعريبِ في المغرب ... إلخ. حتّى يشيعَ المصطلحُ العربيُّ الموثوقُ عن طريقِ الشابكةِ الدوليّة ... ولِيصل إلى المتخصّصين لاستعمالِه .

٧ . إثراء المعجم العلمي العربي بالمفردات ، والمتضادات ، والفروقات ، وييسّر العلوم على المتخصّصين والراغبين ، وسيرسخ أسس الجودة والوضوح والشمول ، كالذي يحصل عند الأمم الحية .

المبحث الرابع : اللغة وشروط وضع المصطلح

المقدمة

اللغة العربيّة لغة اشتقاق ، و(الاشتقاق أَخْذُ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنًى ومادةً أصلية ، وهيأة تركيب لها ، ليُدلَّ بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة ، لأجلها اختلفا حروفًا أو هيأة، كضارب من ضرب ، وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة حتى يرجع منها إلى صيغة هي أصل الصِّيغ دلالة اطّرادًا وحروفًا غالبًا : كـ"ضرب" ، فإنَّه دالٌّ على مطلق الضرب فقط ، أمَّا "ضارب، ومضروب، ويَضْرب، واضرب" ، فكلُّها أكثر دلالة وأكثر حروفًا ، و"ضرب" الماضي مساوٍ حروفًا وأكثرُ دلالة ، وكلّها مشتركة في "ض، ب، ر" وفي هيئة تركيبها)[٩٥٥] ؛ وللاشتقاق أثر كبير في اتساع اللغة العربيّة وكثرة ألفاظها الدالة على المعاني المختلفة .

وذكر باحثنا أنَّ الألفاظ العلمية لها ارتباط باللغة التي صدرت عنها ، وحثَّ على لحظ الجانب الصوتي، والصرفي، والتركيبي، والدلالي للمفردات قبل نقلها واستعمالها في اللغة المنقولة لها ، وجعلها مناسبة ومنسجمة ، ودعا إلى الاستفادة من نظام الاشتقاق في اللغة العربية بابتكار صيغ لم تسمع عن العرب ، تأتي على النسق الذي اعتمدوه ، ومثّل لها بـ(تلفز) للدلالة على ما يتصل بالتلفاز[٩٥٦] ؛ ومعروفٌ أنّ حاجة العلم غير حاجة التواصل في الاستعمال .

أوّلًا : تمييز التخصّص العلمي

وقد ميّز الدكتور بين وجهة اللغوي ووجهة التخصص العلمي ، فاللغوي يبحث عن الكلمة في معجمات اللغة لمعرفة جذرها وترتيب حروفها ، في حين يرتبط المصطلح بمنظومة الحقل العلمي لا بجذر الكلمة ، ونبه على أن المتخصّص ربما لا يبحث عن المصطلح في المعجمات اللغوية ، إنما يبحث عنه في الكتب الخاصة بالمصطلحات[٩٥٧] .

---

[٩٥٥] البلغة إلى أصول اللغة ١١٥ .

[٩٥٦] في المصطلح ولغة العلم ٦٠.

[٩٥٧] المصدر نفسه ٦١.

فـ(بين المصطلح العلمي المحوّل عن معناه العرفي العام "لغة" إلى المعنى العرفي الخاص "اصطلاحًا" ؛ ولغة العلم من صنع العلماء ، وفي كل لغة حية من لغات العالم يصطلح العلماء كل يوم على الجديد من الكلمات والمصطلحات ، ويتفنَّنون في عملية الإلصاق لعناصر من لغة إلى عناصر من لغة أخرى قديمة أو حديثة حية أو ميتة)[٩٥٨] . وقد فرق فندريس بين وجهة نظر العام والخاص في اللغة ، بقوله : (بأننا لا حق لنا في اعتبار لغة معقولة تجريدية تفوق لغة أخرى مشخصة غيبية ، لمجرد أن تلك الأولى هي لغتنا ، إنَّهما في الوقع عقليتان مختلفتان يمكن لكل منهما أن يكون لها ناحيتها من الفضل)[٩٥٩] .

ثانيًا : شروط وضع المصطلح العلمي

إنّ من أهمّ شروط وضع المصطلح العلمي العربيّ التي لا بُدَّ من اعتمادها قبل إعداد أي مصطلح علمي وإقراره ، ويمكن تلخيصها بما يأتي[٩٦٠] :

١-موافقة أهل الاختصاص ورضاهم ، ومشاركتهم في وضعه ، لأنه لغة خاصّة ، ومعجم لقطّاع معيّن ، يسهم في وضعه ورواجه أهل التخصّص أنفسهم ، ألا أنّ هذه اللغة الخاصّة تتصل باللغة العامّة المشتركة ، وغير منفصلة منها ، فالمصطلح وإن استقلّ نسبيًّا عن اللغة العامّة إلّا أنّه يغترف منها وينسحب عليه ما ينسحب عليها ، وألفاظه تكشف عن البعد الفكريّ والمعرفي لتلك اللغة[٩٦١] .

٢- اعتماد الدلالة المناسبة القريبة أو البعيدة الرابطة بين المصطلح والأصل اللغوي ؛ بالاختيار من الثروة اللغويّة الهائلة ، وبما يصلح من المُعرّب ، أو الاشتقاق من أوزان بدلالات جديدة لمشابهة لفظيّة أو معنويّة ، لتلبية الحاجة بابتكار صيغ جديدة منسجمة ،

---

[٩٥٨] اللغة العربية معناها ومبناها ١٥٢.

[٩٥٩] اللغة، فندريس ١٩.

[٩٦٠] المصدر نفسه ٩٤.

[٩٦١] اللسانيّات واللغة العربيّة ٢٢٨ ، وفي المصطلح ولغة العلم ٩٦.

ومعروفٌ أنّ المتخصّص يربط بين المصطلح والمفهوم ضمن الحقل العلميّ الواحد ، ضمن منظومة علميّة خاصّة بكلّ علم[٩٦٢] .

٣-المصطلح الواحد للمفهوم الواحد ؛ إذ (إنّ المصطلح لفظ يدلّ على مفهوم محدّد ، أمّا اللغة فهي بنية لسانيّة فكريّة نفسيّة اجتماعيّة ، وتعريب التعليم ضرورة وشرط لتعريب المصطلحات ، لأنّ الاستعمال الفعليّ للمصطلح في السياقات اللغويّة المختلفة هو الذي يرشّحه ويوضح دلالته ويثبتها)[٩٦٣] .

ذلك لأنّ الذي يُراد من المصطلح هو تمييز الدلالة الدقيقة والمباشرة على المفهوم ، دلالة تعيّن وجود مؤدّاه ، وتستند إلى المنطق في تمييزه من غيره ، فضلًا عن وضوح علاقته بغيره من الألفاظ كاشتقاقه واختلاف معناه ، وموضعه من المعجم المصطلحيّ ومن بناء اللغة العلميّة للغةٍ من اللغات[٩٦٤] .

أمّا أهمّ المشكلات الكبرى التي تواجه وضع المصطلح العلمي العربي فهي[٩٦٥] :

١-تعدّد واضعي المصطلحات .

٢-إغفال التراث العلمي العربي .

٣-عدم الالتفات إلى حاجة الجمهور ومصلحته .

٤-انقطاع بين جامعات الدول العربية ، وبين الجامعات في البلد العربي الواحد .

٥-انعدام الاختراعات ، وقلّة الأبحاث العلمية الرصينة .

٦-تعدّد استعمال أكثر من لغة أجنبية في تعريب المصطلحات التقنية في الوطن العربي.

ولا بُدَّ من تفادي دلالة أكثر من لفظ على مصطلح واحد في اللغة الواحدة ، والالتزام بالتعبير بالمصطلح الواحد عن المفهوم الواحد في حقل علمي واحد[٩٦٦] .

---

[٩٦٢] علم المصطلح ٣٣٤ ، وفي المصطلح ولغة العلم ٩٦.

[٩٦٣] علم المصطلح ٣٣٣ . ٣٣٤ .

[٩٦٤] علم المصطلح ٣٣٣ . ٣٣٤، وفي المصطلح ولغة العلم ٩٤.

[٩٦٥] في المصطلح ولغة العلم ٩١.

[٩٦٦] المصدر نفسه ٩٥.

وكان الدكتور محمود السعران قد أشار إلى ذلك في قوله : (وقد اضطرب بعض المؤلفين والمترجمين فترجم المصطلح الأوروبي بلفظ معين مرة ، ثم ترجم المصطلح نفسه مرة أخرى في نفس الكتاب بلفظ آخر)[٩٦٧].

[٩٦٧] علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ٣٥.

المبحث الخامس : تعريب العلوم

المقدمة

نبَّهَ باحثنا الدكتور على خطورة التهاون في التعريب ، وتسليم المتخصّصين للتعامل باللغات الأخرى وعدم الالتفات للغة الأم ، بحجة أنَّ حركة العلوم لا تكون إلّا باللغات الأجنبية، فضلًا عن اتهامهم العربية بالعجز وعدم القدرة على استيعاب العلم ولاسيما المصطلحات العلمية الحديثة، وذكر أن هذه الخطورة تكمن في كونها مدخل للأزمة الثقافية ، ولتراجع مكانة اللغة العربية ، وأنّ التحاقَ المتعلمِ باللغة الأجنبية ربما سيُفضي إلى الالتحاق بمجتمع تلك اللغة ، والابتعاد عن مجتمع لغته ، وهذه خسارة وتراجع مستوى ، وخطر علمي واقتصادي وتقني ونفسي واجتماعي[٩٦٨] ، وقد سبقه الدكتور كمال بشر إلى هذا ، في قوله : (إذا كان هذا الطالب ضعيفًا في لغته القومية فهو في اللغة الأجنبية أضعف ، وإذا كان عاجزًا عن توظيف اللغة العربية ، فهو في التعامل مع اللغات الأجنبية أعجز؛ ومنطق الأشياء يقرر أنّ الإنسان مهما تزدد حصيلته من اللغة الأجنبية ، فلن يقوى على التعامل بها أو توظيفها بالقدر الذي يمنحه لسان أمه ، الذي استقر في عقله ووجدانه ولازمه منذ نعومة أظفاره)[٩٦٩] .

وحَذّرَ باحثنا الدكتور من خطر انغلاق الجامعات على نفسها بسبب تعليم العلوم باللغة الأجنبية، وذكر أنّ هذا الانغلاق يؤدّي إلى انعدام الدور القيادي لهذه الجامعات في مجتمعاتها في مجال التنمية البشرية ؛ لهذا يدعو إلى الاهتمام بالعربية إلى جانب اللغة الأخرى لمصلحة المتعلمين والأساتذة أنفسهم ، الذين لن يتقن جلّهم اللغة الأجنبية كأهلها ، ولن ينتجوا مثلما يُتوقع أن ينتجوا بلسانهم ، لكن لو هَيّئوا للسانهم مثلما يهيّئون للغة الأجنبية ، كأن يدرسوا بالعربية (إلى جانب الأجنبية) لحققوا ما هو أفضل ، ولأسهموا إسهامًا مضاعفًا وفعّالاً في النهوض العلمي والحضاري ، ولأنّ الأجنبية ستظلّ أجنبية مهما بالغوا في تمجيدها واتخاذها بديلاً عن لغتهم ، التي أهملوها أيّما إهمال ؛ ويقول : ليس هناك أمة تحترم نفسها تتنازل عن

---

[٩٦٨] في المصطلح ولغة العلم ٨٩.

[٩٦٩] دراسات في علم اللغة، كمال بشر ٣١٧.

لغتها إلى أمة أخرى ، لكن لا بأس من التواصل باللغات الحيّة ، إلى جانب الوطنية في مراحل التعليم العالي، أي هذه وهذه ، وهما معًا ؛ ولأجل تحقيق الموازنة بين اللغتين ، لابدّ من تأسيس التقاليد العلمية الصحيحة ، بالتعرّف إلى العربية ، استنادًا إلى تداولها عند أهل التخّصص، مقتنعين بأنّ هذا المسلك من صميم تخصصهم ، ويؤثر إيجابًا فيما يتداولون، وفك عقدة الانبهار بحضارات الأمم الأخرى ، وإنهاء الاغتراب العلمي ؛ ويربط ابن حزم بين تراجع اللغة وتراجع مكانة أهلها إذ يسقط أكثر اللغة ويبطل بسقوط دولة أهلها ، إذ يتسلّل غيرهم إليهم ، وأمّا من ضَعُفَتْ دولتهم وغلب عليهم عدوَّهم ، اشتغلوا بالخوف والحاجة والذلّ وخدمة أعدائهم ، فمضمون منهم التبعيّة وموت الخواطر، وربما كان ذلك سببًا لذهاب لغتهم ، وتراجع أخبارهم... إلخ[٩٧٠] ، فهذا التراجع يؤدّي إلى أن يقتدي المغلوب بالغالب وربّما يُقلِّدُه تقليدًا أعمى ، من دون تمييز ما يضرّ أو ينفع .

فهذه الدعوة تستند إلى الدفاع عن لغة المجتمع التي ما عاد الدفاع عنها ضرورة كماليّة ، يدعو إليها الذين يدافعون عن القديم لِقدمِه عاطفيًّا أو عَقَدِيًّا ، إذ ليست اللغة شيئًا طارئًا يمكن أن نتخلّى عنه ، بل هي الأساس في التحرّر والنَّهضة وبناء الإنسان .

ويمكن أن نخلصَ إلى أنّ للثقافة أثرَها الروحي في التعامل مع المفاهيم ، وَفقًا للمعتقدات الثقافيّة الضابطة للفعاليّات الاجتماعيّة والسلوك الذي تتّبعه هذه الفعاليّات ، إذ تتشابك المفاهيم الدينيّة والاجتماعيّة والطبيعيّة ؛ ذلك لأنّ اللغة روح المجتمع ووعاء الثقافة ، وأداة التعبير عن الفكر، والحصن المنيع للبقاء والاستمرار .

أوّلًا : مفهوم التعريب وضرورته

التعريب عند الدكتور كمال بشر: (يعني تعريب الفكر واللغة معًا ، إذ الاقتصار على التعريب اللغوي علاج قاصر إذا لم يعتمد على تفكير عربي ؛ لأنَّ التوظيف اللغوي المحض غير الصادر عن فكر عربي قد يكون بالترجمة أو بنقل أفكار الآخرين والاقتباس منها وصوغ ذلك كلّه باللغة العربية ، ومردود ذلك أننا نظل تابعين فكريًّا وإن بدا أننا مستقلون لغويًّا، والتبعية

---

[٩٧٠] أصول الأحكام ٣٢ .

الفكرية هي الداء الحقيقي الذي يفرز أدواء أخرى تنخر في عظام الجسم العربي ، وعلى رأسها داء التعريب اللغوي الذي توجهت إليه أنظار الدارسين، وجعلوه محور مناقشاتهم ومعاركهم، غافلين عن مصدره الذي يتولد عنه ويمدّه بعناصر وجوده، وهو التعريب الفكري)[٩٧١].

وقد يفهمُ من التعريب أنّه مجرّد ترجمة ، لكنّ هذا المعنى على سبيل الجواز، أو بسبب الجهل بالمعاني الدقيقة للمصطلحات[٩٧٢] ، في حين يختلف التعريب عن الترجمة اختلافًا كبيرًا فـ(التعريب أسلوب مشروع ، وله أحكامه وضوابطه التي تعني في الأساس إخضاع المصطلح الأجنبي لشيء من التعديل أو التغيير في بنيته، ليطابق النظم الصوتية والصرفية في العربية. فالتعريب في مجال المصطلحات تابع للترجمة وتال لها، متى كانت الترجمة الدقيقة عصية المنال، أو كانت تنتظم تضحية بدقائق المعاني ومفاهيم المصطلح الأجنبي)[٩٧٣] .

وعرض باحثنا عددًا من التعريفات التي تبين دلالة التعريب ، تتخلص بأن (التعريب هو ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي)[٩٧٤] ، (وهو الاقتراض اللغوي ، أو الاستعارة من اللغات الأخرى ، بنقل المفردة الأجنبية ومعناها إلى اللغة العربية)[٩٧٥] .

ومن التعريفات المختلفة قولهم : (التعريب : استعمال اللغة العربية في مختلف فروع المعرفة، كلامًا وكتابة ، دراسة وتدريسًا وبَحثًا وترجمةً وتأليفًا)[٩٧٦] ، وعلى اختلاف التعريفات التي قدمها، ذكر من بينها تعريف المحدثين ، فـ(التعريب عند المحدثين ... إدخال اللفظ الأعجمي ضمن العربي فيصقل ويصاغ في قوالب الأوزان العربية ... على الطريقة التي بها يشتق من اللفظ

---

[٩٧١] دراسات في علم اللغة، كمال بشر ٣١٣.

[٩٧٢] المصدر نفسه ٣١٠.

[٩٧٣] المصدر نفسه ٣٢٦.

[٩٧٤] في المصطلح ولغة العلم ١٢٨.

[٩٧٥] المصدر نفسه ١٢٨.

[٩٧٦] مجلة مجمع اللغة العربية الأردني١٩٨٤م ،٩.

العربي الصميم "أو" إيجاد مقابلات عربية لألفاظ أعجمية ، حتى تصير العربية الفصحى وحدها هي لغة الكتابة والتدريس والإعلام)[٩٧٧] .

ويرى الدكتور صبحي الصالح (ألّا نلجأ إلى التعريب إلا عند الضرورة ، انسجامًا مع القرار الحكيم الذي اتخذه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ونصه : (يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم)[٩٧٨] .

واختلف عدد من الباحثين بين مؤيد ومعارض في مجال التعريب ، فذهب بعضهم إلى أنّ التعريب ضرب من التخلف ، وذهب آخرون إلى أن للتعريب ضرورة ومطلب قومي ، ولغوي، وعلمي ، واجتماعي[٩٧٩] ، ودافع باحثنا الدكتور عن التعريب ، وبين أهميّته وخطورة تركه، وحَثَّ على ضرورة اعتماد التعريب ، لتكون العربية بموازاة اللغات الأخرى ، خدمةً لمصلحة المجتمع العربيّ .

وبيّن أنَّ اللغة العربية لغة حيَّة ، وأكّد أنَّ ثبات القرآن الكريم يُعَدُّ مزية قدمت العربية على جميع اللغات ، فهو النص المقدس ، ونص التشريع ، ومرجع البناء الفكري والثقافي والعلميّ[٩٨٠]. حتى فضّل ابن فارس على سبيل المثال اللغة العربية ، وقدّمها على غيرها ؛ (قال جلّ ثناؤه : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . الرحمن ٣ . ٤) ، فقدّم جلّ ثناؤه ذكر البيان عَلَى جميع مَا توحَّد بخلقه وتفرَّد بإنشائه ، من شمس وقمر ونجم وشجر، وغيرِ ذَلِكَ من الخلائق المحْكمة والنَّشايا المُتْقَنة. فلما خصَّ جلّ ثناؤه اللسان العربي بالبيان عُلِمَ أنَّ سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه)[٩٨١] .

وأكد باحثنا في . بيان ضرورة التعريب . أنّ هذه الضرورة ليست ضرورة علمية فحسب ، بل هي ضرورة حياتية ، ولا بُدَّ من معالجة الغزو الفكري والثقافيّ ، والتخلّص من استمرار التبعية ،

---

[٩٧٧] في المصطلح ٥٥، وفي المصطلح ولغة العلم ١٢٩.

[٩٧٨] دراسات في فقه اللغة ٣٢١.

[٩٧٩] دراسات في علم اللغة ، كمال بشر ٣١٦–٣١٨.

[٩٨٠] في المصطلح ولغة العلم ١٣٢.

[٩٨١] الصاحبي ١٩.

وأن لا بُدَّ أيضًا من احترام الأمّة لنفسها ، باحترام لغتها ، وعدم التنازل عنها ، لكن لا بأسَ من التواصل باللغات الحية الأخرى ، وتعلّمها ، والإفادة منها ، إلى جانب اللغة الوطنية[٩٨٢] .

ثانيًا : التعريب واللغات الأخرى

من الطبيعي أن يفكّرَ علماء اللغة العربية وغيرهم في دفع الخطر عن لغتهم ، لغة القرآن الكريم ، وفي الوقتِ نفسه مشاركة الأمم الأخرى في الأخذ من علومهم بلغاتهم ، على أن لا يكون الأخذ على حساب اللغة العربية ، وقد لحظ باحثنا أنّ الضرورة توجب العناية باللغة العربية وتدارك تركها في دراسة العلوم بلغات أخرى ، من دون مشاركة لها في المجالات العلمية ، مما يؤدي إلى تناسيها ، وقدّم أمثلةً للتمسك باللغة القوميّة عند الأمم الأخرى، منها : ما (اشتهر عند الألمان أن "لا شهادةَ لضعيف في اللغة الألمانيّة" ، وقد أوقف الأسبان في القرن الحادي والعشرين حفل تنصيب "ثباتيروا" ، ليمنعوا متحدّثًا كاثوليكيًّا ، كان قد تحدّث بلهجة كتالونيّة ، وهذا المنع يستند إلى الدستور الأسباني)[٩٨٣] ؛ وعلى هذا الأساس قدّم مجموعة من التساؤلات لعله ينبّهُ على خطر إهمال اللغة الوطنيّة :

فهل من المبالغة أن ندعو إلى جعل العربيّة إلى جانب الأجنبيّة؟!

وهل يكفي التجريب لقرن ونصف من التعليم باللغة الأجنبيّة وترك العربيّة؟!

ألم نكن من المعتدلين قياسًا ببارسيلرز[٩٨٤] ؟!

وهل خطا الخطوة الصحيحة أم كان من المتعصبين ؟!

وأتبع هذه التساؤلات بما يلائمها من الأجوبة ، بعد أن أورد آراء عدد من الباحثين وعضد بعضها وخالف بعضها الآخر، بحسب وجهة تلك الآراء ؛ وقد تركز بحثه هذا على ضرورة استعمال اللغة الوطنيّة[٩٨٥] .

---

[٩٨٢] في المصطلح ولغة العلم: ١٣٢-١٣٣.

[٩٨٣] مجلة مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ ، د . محمود الجليلي، ١٩٨٤ ، ١٦٣ ، وفي المصطلح ولغة العلم ١٤٢ .

[٩٨٤] الذي بدأ بإحراق كتب ابن سينا إيذانًا ببدء النهضة الغربيّة في مدينة بازل في القرن السادس عشر أمام جمع حاشد.

[٩٨٥] في المصطلح ولغة العلم ١٤٢ وما بعدها .

أمّا الدفاع عن تدريس العلوم باللغة الأجنبية فلم تكن لغوية ، ويرجّح باحثنا السبب هو انشغال المتخصّصين بغير لغتهم لسنوات طويلة ، فليست المشكلة في اللغة العربية ، بل في عزوف أساتذة الجامعات ومراكز البحث العلمي عن الاستعمال العلمي للغة العربية ، فلا بُدَّ من حثّ المسؤولين في التعليم على أن ينتصروا للغتهم ، ويَسعَونَ إلى ترقية استعمال اللغة العربية في العلوم ، والتوفيق بين الحاجة إلى التجديد وصون القيم والثوابت ، لأنّ سَلبَ المجتمع لغته ، هو مقدمة لإذلاله ، ومدخل لاستعباده ، وتسليم مستقبل أبنائه لزحف اللغات الأجنبيّة ، والرضوخ لمتطلبات حلفاء أعدائه ، خلافًا لسُنّة التطوّر العلميّ الحقيقيّ التي تقول إنّ اللغة قيمة جوهريّة من القيم التي يُبنى عليها المجتمع وينهض ويسود[٩٨٦] .

ثالثًا : عوائق التعريب

يُثِيرُ باحثنا الدكتور إعجابَ (المتابعِ أن لا يجد سلطة تنفيذيّة حقيقية على المتخصصين وغيرهم، توجب استعمال مصطلحات لغتهم مع المصطلحات العلمية ، وتمنعهم من الاقتصار على استعمال المصطلحات الأجنبية)[٩٨٧] ، ذلك على الرغم من وجود التشريعات ، ولاسيما قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربيّة في العراق ، رقم ٦٤ لسنة ١٩٧٧ ، وما بعده من قرارات تعزز تنفيذه ، ولاسيما كتاب الأمانة العامّة لمجلس الوزراء ١٠٢٩٦ في ٨ / ٤ / ٢٠٠٩ ، الذي يمنع من استعمال المصطلحات الأجنبيّة في المكاتبات الرسميّة ، وكذلك في الجامعات والكليّات ودوائر الدولة كافّة ، وقد وضع الدكتور يده على بعض العوائق ، وأهمّها[٩٨٨] :

١-إصرار عدد من المتخصصين على التدريس باللغات الأخرى ظنًا منهم أن التدريس باللغة العربية يؤدي إلى تدني المستوى العلمي ، وإلى عدم مواكبة التطور العلمي مثلما عرضنا.

---

[٩٨٦] المصطلح في اللسان العربيّ ٥٣ ، وفي المصطلح ولغة العلم ١٤١ .

[٩٨٧] المصدر نفسه ١٤٢.

[٩٨٨] المصطلح في اللسان العربيّ ١٤٣-١٤٤..

٢-قلة عدد المتخصصين القادرين على تعريب الكتب العلمية تعريبًا دقيقًا يحافظ على مضامينها العلمية ، ومع هذه القلّة يُلحظُ كثرة أخطائها العلمية واللُّغوية والطباعية ، فضلًا عن ضعف الاهتمام بها ، من مثل مراجعتها ونقد مضامينها ، ما يؤدي إلى انعدام تأثيرها.

٣-اقتصار أهل التخصص على اللغة الأجنبية ، وتركهم اللغة العربية ، أدّى إلى ضياع فرص الاطلاع الجماهيريّ الواسع على العلوم الجديدة ، وقد تركوا ترجمة العلوم لغيرهم ، من غير المتخصّصين في العلوم ، لأنّ المترجم اللغويّ غير المتخصّص لن يكون دقيقًا فيما ينقله من مادّة علميّة[٩٨٩] .

٤-غياب الوعي بمكانة اللغة في تنمية المجتمع ، وأثرها في التحديث التربوي والاجتماعي ، بالتخطيط لترجمة الكتب العلمية بحسب أهميّتها لتطوير هذا المجتمع .

٥-ضعف النشر الرقمي العلمي باللغة العربيّة ، وعدم تطوّر آليات البحث باللغة العربيّة وقلّة البرمجيّات المتقدّمة لتحديث تعليم اللغة العربيّة ، وتكرار بعض الجهود لغياب التنسيق بين الدول العربيّة[٩٩٠] .

رابعًا : التفكير في تدارك ما فات

من المؤلم حقًّا أن يتعامى المنحازون عن جهود الحضارة العربية الإسلامية طيلة عشرة قرون في العلوم والفنون والآداب ، بعد أن استوعبت هذه اللغة بالترجمة والتعريب ما عند الأمم الأخرى، ومن كل لغات الدنيا ، وقد وَعَت هذه اللغة تلك العلوم ، وتمثلت تلك الفنون ، وكانت قد قُدِّمت بلسان عربي مبين تجربة مهمة من التجارب الإنسانية[٩٩١] .

و(لعلّ سبب تقاعس الكثير من علمائنا العرب المعاصرين عن الترجمة ، في الحقول التي تخصصوا بها، في جامعات أجنبية ، وكتبوا رسائلهم الجامعية بلغاتها ، هو خوفهم من التعامل

---

[٩٨٩] مواصفات الكتب المترجمة ٣١ ، وفي المصطلح ولغة العلم ١٤٣-١٤٤.

[٩٩٠] مواصفات الكتب المترجمة ٣١ ، وفي المصطلح ولغة العلم ١٤٤ .

[٩٩١] العربية لغة العلم ، د محمد حسان الطيان ٢٢ .

مع اللغة العربية ، لعدم اهتمامهم بصرفها ونحوها وآلياتها في النحت والاشتقاق ، وجهلهم بالتراث المعجمي والاصطلاحي الذي خلفه الأجداد وظلّ دفين المخطوطات والكتب التي لا يريدون الرجوع إليها) [٩٩٢] ؛ وحتى الذين يدرسون في بلدانهم يمنعون من استعمال العربيّة ، ولا يسمح لهم أن يفكروا فيها ، أو يخطّطوا لاستعمالها .

ويتضح لمن يتابع هذا الموضوع أنّ جلّ المتخصّصين لا يعرفون مزيات اللغة العربية ، وليس عندهم أدنى فكرة عن تجربة استعمالها علميًّا ، فهم لا يميّزون بين خصوصيّة النصّ العلميّ وغيره مثلما قلنا ، وأنّهم يخلطون بين مفردات اللغّة العامّة والمصطلحات العلميّة الخاصّة ، وليس لديهم تصوّر علمي أو موازنة يسيرة بين اللغة الأجنبيّة التي يدرسون بحسبها ، وأصوات اللغة العربيّة ، وكلماتها ، وجملها ، ونصوصها ، لأنّهم سَلَّموا للأجنبية وجهلوا تجربة لغتهم ، والإنسان عَدُوّ ما جهل كما يقولون .

ولو اعتُنِيَ بتعليم ما يخصّ لغة كلّ علم بالعربية ، وبحدود مناسبة لزالت هذه الغربة وهذا الجهل، لأنّ الأساس اللغوي للملتحقين بكليات الطب والهندسة والعلوم كان جيدًا ، عند التحاقهم بهذه الكليات ، استنادا إلى الدرجات التي حصلوا عليها في نهاية المرحلة الإعدادية ، ويشهد لمعظمهم أيضا ما لمسناه منهم ، بعد الانتظام في دورات الإعداد السريعة في كليّة الآداب من تمكن أكثرهم من المهارات اللغوية الأساسية ، نطقا وكتابة وإنشاءً، لكنّ تراجع أداء أكثرهم كان بسبب تركهم استعمال لغتهم ، استعمالا فصيحًا يناسب كل مقام ، وتركهم التفكير في المفردات والأبنية اللغوية العربية ، ولا يحتاجون في مرحلتهم الجامعية الجديدة أكثر من تنشيط ما كان معهم من مراحل التعليم ، يزاد عليه التعرّف إلى لغة العلم التي تختلف عن لغة الأدب ، والمداومة على تعوّد لغة التخصص العلمي ، أي ممارسة النصوص العلمية السليمة باللغة العربية ، للعلوم التي صاروا يتخصصون بها ، وهذا ما سيرسخ الفهم عندهم بلغة قومهم لأنها الأقرب إلى نفوسهم لولا الحواجز التي زرعت ، ولو أزالوا الهالة السوداء التي رسمت ظلمًا لهذه اللغة ولأهلها ، لتضاعفت الثقة عندهم بإمكان تداول العلوم بهذه اللغة الكريمة ، وسيفكرون

---

[٩٩٢] مواصفات الكتب المترجمة ٥١.

حتماً بالكتابة بها ، لزوال تلك الغربة ، وذلك الجهل ، ولتأكدوا من حقيقة هذه اللغة التي تصلح للعلوم كغيرها من لغات البشر .

لذلك فالتفكير في جعل المتخصّص يقتنع باستعمال لغته الأم ، في بناء الجمل السليمة وتداول المصطلحات العلمية الصحيحة ضرورة علميّة واجتماعيّة وثقافية وحياتية مباشرة ، لا الانتصار لطرف من أطراف الصراع المنقسم على طرفين طرف التعلّم باللغة الوطنيّة والآخر باللغة الغربية ، والإصرار على أنّ المسألة مقصورة على التعليم ومستواه ، وأنّها محسومة عند الذين تعلّموا على الغربيين ، ولا التفات لمصلحة المجتمع وحاجاته ، ومن دون ملاحظة جميع جوانب هذه القضيّة ، وتفرّعاتها . ومن ذلك التخطيط لتحسين الأداء اللغوي لوضع الأسس الصحيحة لاستعمال متداولي العلوم للمصطلحات العربية ، وعرض باحثنا الدكتور نوعين من التخطيط ، الأول : التخطيط الإجباري ، ومَثّلَ له بفرض أتاتورك تغيير اللغة التركية ، و ما قام به الاتحاد السوفياتي السابق في فرض توحيد خطاب جمهورياته ، والثاني : الإيعاز إلى الجمعيات والجامعات في استعمال المصطلح العربي ، وذكر الدكتور أنّ الأخير هو المتاح فهو نشاط علمي يمكن بوساطته التأثير لتحسين الأداء ؛ ومنه أيضًا ما أعدَّه الدكتور من منهجٍ لتوظيف مادة اللغة العربية في تهيئة تعريب العلوم ، على النحو الآتي[٩٩٣] :

١-بناء منهج علمي وعملي مناسب يشترك فيه المتخصصون باللغة العربية والترجمة في مراجعة نصوص أهل التخصّصات العلميّة ، بعد أن يُلزم المتخصّصُ بتعريب منجزه العلميّ من رسالة وأطروحة ومؤلفات وبحوث .

٢-تنظيم حلقات نقاشية علمية تطبيقيّة ، تعرض فيها أهم مواصفات النصوص ، العلمية الصالحة للتطبيق اللغوي ، ومحاولة التدريب على تفصيح ما يتداول من نصوص كلّ تخصّص علميّ .

---

[٩٩٣] في المصطلح ولغة العلم ١٠٧-١٠٨.

٣-إعداد مستلزمات التعريب ورعايته ، في كلّ تخصّصٍ من التخصصات العلميّة ، وجعله نشاطًا علميًا مستمرًا ، وتقويم المتحقق منه ، في كل فصل من فصول السنة التعليمية .

٤-التركيز على استعمال المعجم العربي لكلّ تخصّصٍ ، ولاسيما المعجمات التي أصدرتها وتصدرها المجامع العلميّة العربيّة ، والتعريف بمنجزاتها ، وصلة هذا المعجم بالمعجمات اللغويّة الأُخر.

خامسًا : التجارب الرائدة في مجال التعريب:

أشار باحثنا الدكتور إلى بعضٍ من جهود العلماء الأجلّاء وتجاربهم الرائدة في مجال تعريب لغة العلم ومصطلحاته ، قاصدًا بالريادة من سعى إلى الإصلاح والتغيير والتحديث، والريادة عنده هي التي تؤسس للجديد والأصيل .

واستعرض الجهود التي يؤرّخ بها لنقل العلوم إلى المجتمع العربيّ في العصر الحديث ، وأوّلها البعثة المصرية إلى فرنسا سنة ١٨١٣ م ، في عهد محمد علي[٩٩٤] ، وقد توالت البعثات المصرية إلى أوربا بعد هذا التاريخ ، وما نتج عنها من تطور، ولاسيما في التدريس في مجال الطب باللغة العربيّة ، وذلك باستدعاء محمد علي في عام ١٨٢٥ م الطبيب الفرنسي (انطوان بارتملي كلوت) الذي أصبح رئيسًا لجرَّاحي الجيش المصري ، ثم مؤسسًا لمدرسة الطب عام ١٨٢٧ م ، ثم ظهور حركة الترجمة في المجال الطبي ، ثم ذكر المعجم الخاص بالمفردات الطبية الذي ضم أكثر من ستة آلاف كلمة، ومن الذين أسهموا في نهضة الترجمة العلمية (الدكتور برون) ، ورفاعة الطهطاوي (١٨٧٣م) رائد الترجمة في مصر، والجراح إبراهيم النبراوي(١٨٦٢م)، وأحمد حسن الرشيدي (١٨٦٥م) وقد عدَّه الدارسون ركنًا من أركان النهضة العلمية الطبية في الترجمة والتأليف[٩٩٥] .

---

[٩٩٤] الجهود اللغويّة في المصطلح العلمي الحديث ٢٤ ، وفي المصطلح ولغة العلم ١٤٦.

[٩٩٥] في المصطلح ولغة العلم ١٤٦-١٤٨.

وكان من هذه الجهود ما قام به استاذ الجراحة محمد علي البقلي ، بإصدار (اليعسوب) أوَّل مجلة طبية عام ١٨٦٥ م ، ومن مثله . أيضًا . جهود أستاذ الأمراض الباطنية الدكتور محمد الشافعي(١٨٧٧م) في تأليفه (أحسن الأغراض في التشخيص ومعالجة الأمراض) ، و(الدرُّ الغوال في معالجة أمراض الأطفال) .

وعاضد هذا النشاط حركة الترجمة والتأليف بإنشاء مدرسة الألسن التي تخرّج فيها المترجمون، وكان أستاذها المبرّز رفاعة الطهطاوي نفسه ، وترجمت المدرسة أكثر من ألفي كتاب ، متفاوتة المستوى ، وقد امتدّ أثرها إلى مناحي علميّة متعدّدة ، اتّجهت نحو التخصّص ، والتفكير في المصطلحات باللغة العربيّة ، وقد تركّزت الجهود على إحياء المصطلحات العربيّة التراثيّة لما يقابل المصطلح الأجنبيّ في التعريب ، ما يظهر حرص المعنيين على إحياء ما في اللغة من كنوز ومرونة واستيعاب الجديد[٩٩٦] .

وقد انطلقت هذه التجربة من تعاون المتخصّصين من أهل العلم المحض ، وأهل اللغة ، والمترجمين الذين يتقنون أكثر من لغة ، وما فات باحثنا الدكتور انتقاد اصطناع الأسجاع ولاسيّما في العنوانات ، والخلط بين الأسلوب الأدبي والعلميّ ، من مثل : (الجواهر السنيّة في الأعمال الكيمياوية) ، و(غرر النجاح في أعمال الجرّاح) ، و(نزهة المحافل في معرفة المفاصل) ، و(غاية الفلاح في فنّ الجراح)[٩٩٧] .

ويلحظ باحثنا الدكتور نفسه أنّ التفكير في نقل العلوم الحديثة يحوج المشتغلين إلى إدراك أهميّة التمكّن من اللغة العربيّة ، بالاطّلاع الكافي على قواعدها وأبنيتها وأسرارها ، ولذّة الفهم والإفهام بها ، في حين أنّ ترك التعريب يشعر معظمهم الغالب بعدم الحاجة إليها ، وبالتسليم الكامل للغة الأخرى[٩٩٨] .

---

[٩٩٦] الجهود اللغويّة في المصطلح العلمي الحديث ٣٦ . ٤٠ ، وفي المصطلح ولغة العلم ١٤٩ .

[٩٩٧] في المصطلح ولغة العلم ١٤٨.

[٩٩٨] في المصطلح ولغة العلم ١٤٩ .

لكن لمّا احتلّ الإنكليز مصر عام ١٨٩٨ م ، جعلوا التعليم بعد سنوات باللغة الإنكليزيّة ، وأُقصيت العربيّة عن ميدانها العلمي مع الأسف الشديد بعد قرابة السبعين عامًا ، وتكرّرت تجربة التعريب بعد الثورة المصريّة بين الخمسينيّات وأوائل السبعينيّات ، لكنّها تنتكس بعد كامب ديفد ، وبهذا يتأكّد الربط بين التبعيّة السياسيّة وترك اللغة العربيّة ، وهذا ما عبّر عنه ابن حزم الذي عرضناه سابقًا ، الذي يشير إلى تراجع مكانة أهل اللغة لتغلب عدوَّهم ، فمضمونٌ منهم التبعيّة وموت الخواطر، وربما كان ذلك سببًا لذهاب لغتهم ، وتراجع أخبارهم ... إلخ[٩٩٩].

[٩٩٩] أصول الأحكام ٣٢ .

المبحث السادس : المصطلح بين التراث والترجمة

المقدّمة

عرض باحثنا الدكتور ما جاء في شأن المصطلح من التراث ، مستشهدًا بنصِّ الجاحظ عند عرضه لكلام بِشر بن المعتمر وإبرازه لكلام المتكلمين ، في أنّهم (تخيّروا تلك الألفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقّوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له اسم في لغة العرب)[١٠٠٠] ؛ وعرض ما جاء به الشريف الجرجاني في القرن الثامن الهجريّ ، (الاصطلاح : إخراج اللفظ من معنى لغويّ إلى آخر لمناسبة بينهما ، وقيل : الاصطلاح اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى ... وقيل الاصطلاح لفظ معيّن بين قوم معينين)[١٠٠١].

فالمصطلح هو الاتفاق على المسمّى والتعارف باستعماله ، ونقل أنّ المصدر الميمي (مصطلح) من اصطلح ، بوزن (افتعل) من الصُّلح والاتفاق على الشيء ، ثم قدم تعريفات أخرى للمصطلح ، منها : (التعبير عن معنى من المعاني العلمية ، يتفق عليها علماء ذلك العلم ؛ فالاصطلاح يجعل للألفاظ مدلولات جديدة غير مدلولاتها الأصلية أو اللغوية ، فهو علم يبحث في أُسَس وضع المصطلحات عامة ، وخصائصها وطرائق بنائها ، ويُعَدُّ علم المصطلح أحد أفرع علم اللغة التطبيقيّ ، لأنه يتناول الأسس العلمية لوضع المصطلحات وتوحيدها ، وكان (فوستر) قد حدَّدَ في القرن العشرين موضع علم المصطلح بين فروع المعرفة، بأنّه مجال يربط علم اللغة بالمنطق ، وبفروع علم اللغة المختلفة[١٠٠٢] .

ووجد أنَّ علم المصطلح من أظهر العلوم اللسانية ، وأكثرها أهمية ؛ لارتباطه بجميع العلوم ، وبتمييز المصطلحات من غيرها من المسميات ، فأعضاء جسم الإنسان ، كـ(القلب، الكبد، والمعدة، والدماغ ، والشريان) مسمّيات وليست مصطلحات ، ونوّه إلى أنّ المصطلحات المعرّبة

[١٠٠٠] البيان والتبيين ١/ ١٣٩.

[١٠٠١] التعريفات ٢٢ .

[١٠٠٢] علم المصطلح ، ممدوح محمد خسارة ١٥ ، وفي المصطلح ولغة العلم ٧٨.

لا ترتجل من دون أسس وقواعد ومراجع تسوغ وضعها ووجودها[١٠٠٣] . وكان الدكتور القاسميّ قد عرّف المصطلح بأنّه : (العلم الذي يبحث في العلاقة بين المفاهيم العلميّة والألفاظ اللغويّة)[١٠٠٤] .

وعمل باحثنا الدكتور على بيان مكانة المصطلح مستعينًا بجهود من سبقه من العلماء والباحثين، فذكر أنَّ المصطلحات مفاتيح العلوم ، وأنَّ استعمالها الصحيح نصف هذه العلوم ؛ لأنَّ المنهج العلمي لا يستقيم إلَّا إذا بُنِيَ على مصطلحات دقيقة ، مستشهدًا بشعار "لا معرفة بلا مصطلحات" ، وهذا الذي أخذته الشبكة العالمية للمصطلحات في فينا[١٠٠٥] مثلما عرضنا .

وينبّه الدكتور على أنّ إهمال التفكير في المصطلح العلمي العربي لكلّ تخصّصٍ من عقوق هذه اللغة الكريمة ، لما تستحقه من عناية ، لأنّ شيوع المصطلحات باللغة العربيّة المقابلة للأجنبيّة ثمرة طيبة يجنيها المجتمع من باحثيه الذين انتدبهم له لا لغيره ، ويصل الإهمال المتعمّد من معظم الباحثين حتى في الملخص العربيّ القصير للرسالة أو الأطروحة أو البحث، إذ لا يُفهم حين قراءته ، لأنّه لا يعبّرُ عن المضمون العلميّ الدقيق ، وقد تُرِك لمترجم أو متخصّص باللغة العربيّة ، لا من اعتناء صاحب المنجز العلميّ نفسه ، إذ لا يتمكن هذا الباحث من توضيح ما يتضمنه بلغته الوطنيّة ، وقد كُتِب بعيدًا الفهم الدقيق ، والإفهام الصحيح، ولا من يحاسب عليه محاسبة جدّية ، إذ العناية للمصطلح الأجنبي ، وكلّ الاهتمام لمصلحة اللغة الأخرى ، على حساب اللغة القوميّة ، ولاسيّما بين معظم أهل العلوم والطب والهندسة وغيرهم[١٠٠٦] ، ولتدارك ما فات فلا بُدَّ من الاهتمام بالترجمة ووضع المصطلحات .

[١٠٠٣] علم المصطلح، ممدوح محمد خسارة ١٥، وفي المصطلح ولغة العلم ٧٨.

[١٠٠٤] علم المصطلح٢٦٩ ، وفي المصطلح ولغة العلم ٧٧.

[١٠٠٥] علم المصطلح ٢٦٥ ، وفي المصطلح ولغة العلم ٨٠.

[١٠٠٦] في المصطلح ولغة العلم ٨٠.

أوّلًا : الترجمة والاصطلاح

حاجة اللغة العربيّة إلى الترجمة والاصطلاح والتعريب أكيدة في هذا العصر[١٠٠٧] ؛ لتجدّد المفاهيم العامّة ؛ ولاسيما في تداول العلم المحض ، وتدارك صعوبة إيجاد ما يقابل المفاهيم من المصطلحات ؛ لأنَّ المصطلح يختلف عن المفردات اللغوية الأخرى ، ونبّه باحثنا على عدم الخلط بين المفردات العامة والمصطلح العلمي ، وأنّ النقل إلى العربية بالترجمة لإيجاد مقابل للدلالة على ما يناسب المصطلح الأجنبي ، يجعل من المتخصص مجرّد متلقٍّ سلبي ؛ لأنّ المعاني العامة لها دلالات متعددة في حين للمصلح معنى خاص لا يتعدّد ، ثم أكدَّ قصور المعجمات العربية في هذا المجال ؛ لأنَّها لم تخرج عن الاتجاه العام ، وبقيت تحافظ على المدلول القديم ، واستبعدت التطور الثقافي والحضاري ، وكذلك تنبيه المعنيين على التفريق بين المعجم اللغوي العام ومعجم المصطلحات العلمية ، وضرورة إيجاد المصطلح العلمي العربي المقابل للمصطلح الأجنبي المعاصر، وعدم القبول بالمعاني المترجمة المتعددة للمصطلح الأجنبي الواحد[١٠٠٨] .

وقد فرق الدكتور ممدوح محمد خسارة بين الترجمة والتوليد في قوله : (فإذا وردت عَلَيَّ كلمةٌ أجنبية فأوجدت لها من المفردات العربية المحفوظة أو المدونة كلمة تؤدّي معناها مباشرةً، فعملي هذا هو "الترجمة" ، وإذا لم أجد لتلك الكلمة الأجنبية مقابلاً فيما بين يديّ من مفردات اللغة، فاجتهدت في وضع كلمةٍ جديدة غيرِ مستخدمةٍ سابقًا لهذه الكلمة الأجنبية ، فعملي هنا هو التوليد)[١٠٠٩] .

وكان الدكتور كمال بشر قد ذكر أنّ لترجمة المصطلح شرطين ، في قوله : (اختيار البدء بالترجمة مشروط بشرطين متلازمين :

أوّلهما : الفهم التام الدقيق لمفهوم المصطلح الأجنبي .

[١٠٠٧] علم المصطلح ٢٤ ، ودراسات في علم اللغة، كمال بشر ٣١٠- ٣١١.

[١٠٠٨] في المصطلح ولغة العلم ٩٢-٩٣.

[١٠٠٩] علم المصطلح ٢٤.

وثانيهما : أن يكون (المصطلح العربي المقابل مناسبًا نطقا وصياغة ، خاليا من الشذوذ والإغراب في أصواته وبنائه ، أي : أنْ تكون صورته النطقية مقبولة مستساغة وشكله الصرفي مأنوسا، بحيث يسهل استخدامه بطريقة تعمل على استقراره وانتشاره في الوسط العلمي المعين)[١٠١٠] .

وقد ذكر باحثنا الدكتور الجهود المصطلحيّة المميزة لبعض الباحثين ، ومنها جهود المجمع العلمي العراقي في إقرار المصطلحات ، ولاسيما ما ورد عن الدكتور جواد علي عضو المجمع، في نهاية الأربعينيّات ، في أنّ المجمع إذا عرض عليه مصطلح علمي من لغة الاختصاص، يعمل على التعرف على أصله ونشأته ، ويأخذ برأي المتخصصين في اختيار الكلمات العربية، ويستعرض ما ورد في الكتب اللغوية والتخصّصية ، للوصول إلى ما يَفِي بالمراد ، على أن تكون عربية يألفها الذوق، وعادة ما يطلع المجمع على آراء العلماء في البلاد العربية الأخرى لعلّ لهم رأيًا أصوب[١٠١١] .

وكان المجمع العلميّ العراقي قد سعى مبكّرًا إلى التنسيق مع المجامع اللغويّة العربيّة ، وإلى توحيد المصطلحات وتطويرها وإشاعة استعمالها ، وكذلك النشاط العربيّ المشترك ولاسيما نشاط (مكتب تنسيق التعريب بالرباط) التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الذي أقام عمله على ما أنجزَته المجامع اللغويّة في دمشق والقاهرة وبغداد وعَمّان ، والمؤسّسات العلميّة والجامعيّة الأخرى في الوطن العربي[١٠١٢] .

وأشار الدكتور إلى (أنّ المصطلحات العلمية ... في الغالب منحوتة من اللاتينية القديمة ، ومن الممكن أن تعرب هذه المصطلحات تعريبًا يناسب اللغة العربيّة ، أو أن تبقى كما هي ، أو تكتب بالحروف العربية)[١٠١٣] .

[١٠١٠] دراسات في علم اللغة ٣٢٥.

[١٠١١] في المصطلح ولغة العلم ١٠٠.

[١٠١٢] علم المصطلح ٣٣٣ . ٣٣٤ ، وفي المصطلح ولغة العلم ١٠٠.

[١٠١٣] المصدر نفسه ١٠٢.

ثانيًا : المصطلح وخصائص العربية

اختلف العلماء في تحديد طرائق وضع المصطلح ، فذهب الدكتور أحمد عيسى .وهو من المسهمين الأوائل في تعريب المصطلح ، الذي قال : (ولنا في ذلك خمسُ وجهاتٍ نولّي وجوهنا شطرها ، واحدة بعد الأخرى ، أو نحوها جميعًا بحسب الضرورة ، فلا نلجأ إلى أشدّها خطرًا إلَّا بعد أن نكون قد بذلنا الجهود واستوعبنا الفكر في استكناه كلِّ وسيلة قبلها ، فإذا عجزنا فالضرورات تبيح المحظورات ، وهذه الوجهات أو الوسائل المؤدّية للغرض هي بحسب الترتيب المبني على درجة التسامح : الترجمةُ ... فالاشتقاق ... فالمجازُ، فإذا حصل العجزُ ينحت ... فإذا حصل العجزُ يُعَرَّبُ اللفظ)[١٠١٤] ؛ في حين ذهب الأستاذ مصطفى الشهابي إلى اعتماد (الاشتقاق والمجاز والتعريب والنحت) في وضع المصطلح[١٠١٥] ، وقد اعتمد الدكتور ممدوح محمد خسارة ثلاث طرائق ، هي : (الترجمة ، والتوليد ، والاقتراض) وقد ضم التوليد جميع الاشتقاق بأنواعه ، الصرفي الإبدالي والتقليبي والنحتي والإلحاقي ، والمجاز بفروعه ، وضمَّ الاقتراض نوعين هما : التعريب اللفظي ، والتدخيل ، قاصدًا بالتدخيل استعمال الكلمة الأجنبية بعُجرها وبُجرها[١٠١٦] .

وقد أكّد الدكتور قدرة اللغة العربية ، وتميّزها عن باقي اللغات من حيث إمكانيّة التعبير، والاتساع لاستيعاب الجديد ، وذكر أنّ المصطلح قد يشتق من جذر كلمة للدلالة على كلمة جديدة ، أو قد يؤتى به من أوزان العربية ، أو قد يشتق من مصطلح عربي، مثل : مكننة ، ودبلجة ، وتلفزة ، أو يستعمل على صيغة المصدر اليائي ، أو ما يسمى بالمصدر الصناعي، مثل الرومانسية ، والعقائدية ، والبابية ، وغيرها ، أو استعمال المجاز بالإفادة من الكلمات القديمة للدلالة على معنى جديد ، كالبريد ، والسيارة ، أو النحت من كلمتين مثل(ذات الرئة) ،

[١٠١٤] التهذيب في أصول التعريب، د. أحمد عيسى ١١٣، وعلم المصطلح ، د. ممدوح محمد خسارة ١٧.

[١٠١٥] المصطلحات العلمية في اللغة العربية، أ. مصطفى الشهابي ٩٣، وعلم المصطلح ١٨.

[١٠١٦] علم المصطلح ١٩-٢٠.

وذكر . أيضًا . إلحاق المعرّب ، على أوزان غير عربية بتغيير يناسب كلماتهم ، وقسّم هذا الإلحاق على ثلاثة أقسام ، هي[١٠١٧] :

١. تغيير بعض الحروف لإلحاق المصطلح ببناء الكلمات العربية وإبقاء الوزن على حاله مثل: (دِرهَم) وقد أُلحق بـ(هِجرَع)، و(دينار) و(ديباج) إلحقا بـ(ديماس).

٢. إبدال مكان الحرف بحرف أخر؛ لتغييره عن حالته الأعجمية ، مثل (آجُرّ) ، و(بريسم)، و(سراويل) ، و(فيروز) .

٣. ترك الاسم على حاله ، مثل (خُراسان) ، و(خُرَّم)، و(كُرْكُم) .

وقد عرفت العرب التعريب قديمًا ، والطرق التي اعتمدتها في التعريب ، وقد ذكر ابن بري (٥٨٢هـ) بعضها في قوله : (أعلم أَنهم كثيرًا مَا يجترئون على تَغْيِير الْأَسْمَاء الأعجمية ، إذا استعملوها ، فيبدلون الْحُرُوف الَّتِي لَيست من حروفهم إِلَى أقربها مخرجًا، وَرُبمَا أبدلوا مَا بعد مخرجه . أَيْضًا . والإبدال لَازم ؛ لِئَلَّا يدخلُوا فِي كَلَامهم مَا لَيْسَ من حروفهم ، وَرُبمَا غيروا البناء من الكَلَام الْفَارِسِي إِلَى أبنية الْعَرَب ، وَهَذَا التَّغْيِير يكون بإبدال حرف من حرف ، أَو زِيَادَة حرف ، أَو نُقْصَان حرف ، أَو إِبْدَال حَرَكَة بحركة ، أَو إسكان متحرك ، أَو تَحْرِيك سَاكن، وَرُبمَا تركُوا الْحَرْف على حَاله لم يغيروه)[١٠١٨] .

وقد بيّن باحثنا الدكتور أنّ اللغة العربية لغة ثرية ، ومن أسباب ثرائها الترادف ، وأن هذا الترادف بسبب اختلاف الكلمات في المجتمعات الواسعة ؛ ليثبت أن اللغة العربية قادرة على مواكبة العصور واستيعاب اللغة العلمية ، وقد نفى أن ثمة لغة خاصة يمكن أن تكون صالحة للعلوم والتقنيات ، وأن غيرها من اللغات لا تتمكن من استيعاب هذا المجال ، وقال : (يمكننا القول بكل تجرد إنّ اللغة هي أداة مطواعة بيد من يستعملها ، فتعكس بأمانة وصدق ، تطوره الفكري والعلمي والتقنيّ والحضاري ، وهكذا يجب أن تكون ... وبطبيعة الحال فليست لنا

[١٠١٧] في المصطلح ولغة العلم ١١٨-١١٩.

[١٠١٨] في التعريب والمعرب ٢٢.

معطيات علمية ، أو مواصفات خاصة ، اقتصادية أو تقنية ، تساعدنا على اعتماد لغة أمة من الأمم فنقرر أنها لغة تكنولوجيا هذا الزمان)[١٠١٩] .

(وكان من رأي الدكتور أحمد عيسى : أنّه لا مانع من استعمال الكلمات الأعجمية عند الضرورة على أن يستغنى عنها بعد أن توجد بديلات عربية عنها ولا مانع من التعريب ففي القرآن الكريم كلمات معربة كالسندس)[١٠٢٠] .

وقد قارب الدكتور بين اللغة والمخترعات التي يمكن أن تكون بها حاجة إلى مصطلحات جديدة، ذلك لأنّ لِلّسان العربي خصائص صوتية وإفرادية وتركيبية متميزة ، وأنّ المجتمع الذي يستورد مصطلحاته مجتمع خامل ، لا يريد الدخول إلى آفاق التطور، وأنّ المخترعات لا تخرج عن دائرة الحرفة أو الصناعة ، وفي غالبها أجهزة للعمل ، وأن هناك نسبة من المصطلحات العربية المبثوثة في التراث العربي[١٠٢١] ؛ يمكن أنْ توظّف في هذا المضمار .

[١٠١٩] في المصطلح ولغة العلم: ١٢١.

[١٠٢٠] تاريخ الغزو الفكري والتعريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين ١٩٢٠/ ١٩٤٠، ٣٠٠.

[١٠٢١] في المصطلح ولغة العلم ١٢٢.

الخاتمة

يمكن أن نعرض خلاصة جهود الدكتور مهدي صالح سلطان موزّعة على محاور، هي :

أوّلًا : الاهتمام بنشأة النحو التي كانت قد اعتمدت على تدوين القرآن الكريم وضبط حروفه، بحسبِ حاجة تداوله في البيئات الإسلاميّة الجديدة ، وقد تصدّى باحثنا لروايات تشكيك القدماء والمحدثين، وأكّد أنّ الرائد في وضع نقط المصحف وأقسام الكلام ، وأبواب النحو الأولى هو أبو الأسود الدؤلي ، وكان ذلك بتوجيه مباشر من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، بعد انتهاء معركة الجمل ، وبلقائهما العتيد انبثقت الأسس الصحيحة للتأسيس اللغوي العربيّ .

ثانيًا : النقط بضبط حروف القرآن الكريم أدّى إلى إظهار مقاطعها ، وضبط المقاطع هو الأساس في التمييز الصوتيّ والصرفي والتركيبيّ والدلاليّ ، وثمرة التدوين الأوّل لانطلاق التفكير النحوي ؛ اعتمادًا على الحسّ والتجريب ، وتأمّل طريقة نطق الكلمات ، بملاحظة هيأة الشفتين من جهة ، وما يصل إلى الأذنين من مسموع ، ما أدّى عمليًّا إلى اكتشاف الصوائت العربية ، التي تكمّل الحروف الصوامت في بناء مقاطع الكلمات العربية .

ثالثًا : التدوين النحويّ العربيّ الأوّل استند إلى وحدات التمييز اللغويّ ، التي وضعها الواضع ، باكتشاف وحدات الإعراب المنصوص عليها بروايات التأسيس ، والتي ألمحت إلى الربط بين الضبط ووظيفة الكلمة المضبوطة في جملتها ، والأسلوب الذي انتظمت فيه ، وهي الفكرة التأسيسية الأولى التي تَنامَت واكتملت في قرنٍ من الزمان لتكون ناضجة مستوية في كتاب سيبويه ، أعظم كتابٍ لغويّ ، وعِلمٍ لا يمكن أن يستعار من لغة أخرى لاختلافه واختلافها ، فما كان هذا ليكون لولا أهل القرآن ، من العلماء الأفذاذ الذين أفنَوا أعمارهم في خدمته ، فصنعوا هذه القواعد لهذه اللغة ، وعلى هذا التأسيس ، وبهذه المطابقة الخالدة خلود الدهر[١٠٢٢].

رابعًا : التأصيل النحويّ لمرحلة ما قبل كتابِ سيبويه، في كتاب باحثنا الموسوم (خلف الأحمر والريادة اللغويّة)، ملتفتًا إلى ربط خلف الأحمر بين علامات الضبط والأبواب أو الخانات

[١٠٢٢] في المصطلح ولغة العلم ١٢٢ .

النحوية التي تقابل هذه العلامات[١٠٢٣] ، إذ إنّ الأبواب العامة عنده على سبيل التقريب ، هي أبواب أبي الأسود الدؤلي ، من دون تعليل متعسف ولا تأويل بعيد؛ بل لإظهار أجزاء ما يقع تحت الرفع أو النصب أو الجرّ أو الجزم ، فارتفاع الفاعل عند خلف على سبيل المثال بالإسناد لأنه فاعل، والمفعول به منصوب بمعنى المفعولية ، وهي الآراء التي حفظها التراث النحوي، من التي تنتمي إلى مرحلة التأسيس، بعيدة عن التنظير البارع الذي بُنِيَ بحسبه كتاب سيبويه .

خامسًا : الانتظام بالتكرار، في كتابه الموسوم : (أنظار لسانيّة في آيات وسور قرآنيّة) ، فمن بين ما عرضه ، نذكرُ أنموذجَ التكرار العجيب بالعدد ثمانية في سورة النجم الذي كان بهذا العدد لكلِّ مضمون من المضامين الثمانية، ومجموعها ثمانية أيضًا دالة على علمه وهدايته؛ ومعروفٌ أنّ أبواب الجنّة ثمانية، (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ . الحاقة ١٧) والله أعلم .

سادسًا : الاعتناء في كتابه النحويّ الموسوم : (الأفعال الناسخة في دراسات المحدثين) ، وفيه يقول : (وجدتُني أبحث في أوسع باب من أبواب النحو وأكثرها دورانًا على الألسنة ، باب الأفعال الناسخة التي تؤلّف ربع العربيّة في الاستعمال)[١٠٢٤] ، منطلقًا من تمييزِ هذه الأفعال في الفكر النحوي العربيّ ، والأسس المنطقية التي استُنِد إليها في تصنيفها، عوامل ومعاني أثّرت في تركيبها ودلالتها ، أمّا المحدثون فقد (نزعوا لإنشاء جديد، كان في مجمله ينحو إلى إلغاء القديم، أو التشكيك في الأصول التي بُنِيَ بحسبها، ولاسيّما في الأفعال الناسخة، إذ أثاروا أوهامًا وشبهات ودعا بعضهم إلى إلغاء هذا الباب، وإلحاق ما يخصّه بأبواب الفعل العام)[١٠٢٥].

سابعًا : البحث في موضوع : (الخلاف النحوي بين الكوفيين) أطروحة باحثا للدكتوراه ، وقد تمكّن من الوصول إلى مئة وسبع وثلاثين مسألة خلاف بين النحويين الكوفيين[١٠٢٦] ، وترى الباحثة أنّ الدكتور أسّس كتابه على ما وجده من الاختلاف في الآراء بين العلماء الكوفيين؛

[١٠٢٣] مراتب النحويين ٢٤ .

[١٠٢٤] في علم النحو ٧ .

[١٠٢٥] الأفعال الناسخة ، في دراسات المحدثين ٣ .

[١٠٢٦] مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ٦ .

بادئًا بإثبات وجود مدرسة كوفية ، والرد على منكريها ، ومقابلتها مع المدرسة البصرية في المصادر والأصول والمصطلح .

ثامنًا : الاعتراض في كتابه الموسوم : (موجز تاريخ اللغات الساميّة) ، على تسمية (شلوتزر): (اللغات الساميّة) ، الذي حصر اختلاف البشر ولغاتهم وانتشارهم في المعمورة في ثلاثة من أبناء نوح ، وأكّد أنّ هذا الرأي لا يستند إلى دليل علميّ ، ولا إلى منطق صحيح ، مستندًا إلى ما جاء عن ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)[١٠٢٧] ، وهذا أيضًا ما توصّل إليه الفيلسوف الهولندي اليهودي باروخ سبينوزا (ت ١٧٦٦م)، بعد نحو ثلاثة قرون من وفاة ابن خلدون[١٠٢٨] .

تاسعًا : التنبيه على خطورة التهاون في تعريب العلوم في كتابه الموسوم (في المصطلح ولغة العلم) ، بحجة أنَّ حركة العلوم لا تكون إلّا باللغات الأجنبية ، وأنّ هذه الخطورة تكمن في كونها مدخل للأزمة الثقافية ، وسببًا في تراجع مكانة اللغة العربية ، وربما إلى التحاقَ المتعلّمِ بمجتمع اللغة الأجنبية ، والابتعاد عن مجتمع لغته ، وهذه خسارة وتراجع مستوى ، وخطر علمي واقتصادي وتقني ونفسي واجتماعي[١٠٢٩] ؛ وحَذّرَ الدكتور من خطر انغلاق الجامعات على نفسها بسبب تعليم العلوم بغير اللغة الوطنيّة ، وهذا الانغلاق يؤدّي إلى تراجع المكانة الرياديّة لهذه الجامعات في مجال التنمية البشرية وغيرها .

عاشرًا وأخيرًا : ننقل ما ذكره باحثنا أنْ (ما عاد الدفاع عن اللغة الوطنيّة ضرورة كماليّة ، يدعو إليها الذين يدافعون عن القديم لِقدمِه عاطفيًّا أو عَقَدِيًّا ، إذ ليست اللغة شيئًا طارئًا يمكن أن نتخلّى عنه ، بل هي الأساس في التحرّر والنَّهضة وبناء الإنسان) ... والحمد لله ربّ العالمين.

[١٠٢٧] مقدمة ابن خلدون ٩٨–١٠٠، وموجز تاريخ اللغات السامية ١٦.

[١٠٢٨] اللاهوت والسياسة ١٩٨.

[١٠٢٩] في المصطلح ولغة العلم ٨٩.

المصادر

. ائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة ، للزبيدي ، تح د طارق الجنابي ، بيروت ١٩٨٧ .

. الإبانة في اللغة العربيّة، للصحاري تح د. عبد الكريم خليفة وآخرين ، مسقط ، ١١٩٩٩م .

. أبحاث في أصوات العربيّة ، د . حسام سعيد النعيمي ، بغداد ، ١٩٩٨ .

. ابن الأنباري في كتابه الإنصاف ، محيي الدين توفيق ، جامعة الموصل ، ١٩٦٩ .

. أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب ، د عصام نور الدين ، بيروت ،، ١٩٩٧ .

. أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، د.عبد الفتاح الدجني ، الكويت ١٩٧٤.

. أبو زكريا الفرّاء ، د أحمد مكي الأنصاري ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

. الاتجاهات النحوية الحديثة ، فيصل أحمد فؤاد ، رسالة ماجستير آداب بغداد ، ١٩٧٦ .

. الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م .

. الإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم ، مصر ، د . ت .

. الإحكام في الأصول والأحكام، الآمدي ، ، دمشق – بيروت، د. ط، ١٤٠٢هـ.

. أخبار النحويين البصريين، للسيرافي ، تح طه الزيني ومحمد علي خفاجي ، مصر البابي الحلبي ، ١٩٥٥.

. ارتشاف الضرب لأبي حيان ، تح د رجب عثمان ، د رمضان عبد التواب ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

. الاستغناء في أحكام الاستثناء ، القرافي ، تح طه محسن ، بغداد ، ١٩٨٢

. أسرار البلاغة ، الجرجاني ، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، بجدة .

. أسرار العربية، أبو البركات الأنباري ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

. أسس الترجيح في كتب الخلاف النحوي ، فاطمة محمد طاهر حامد، أطروحة دكتوراه، العربية السعودية .

. أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر، ط٨، ١٩٩٨م .

. الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلاني ، تح صدقي جميل العطار ، دار الفكر ، ٢٠٠١ .

. إصلاح المنطق ، ابن السكيت، تحقيق: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

. أصوات اللغة العربيّة، د. عبد الغفار حامد هلال، ط٣، القاهرة، ١٩٩٦م.

. الأصوات اللغوية، الدكتور عاطف فضل محمد، دار المسير للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م .

. الأصول ، لابن السراج ، تح د . عبد الحسين الفتلي ، ط ٤ ، بيروت ، ١٩٩٩ ،

. الأصول ، د. تمام حسان ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٨٨ .

. أصول الأحكام ، لابن حزم ، بيروت ، ١٩٨٠ .

. أصول الكافي ، للكليني ، بيروت ، ٢٠٠٨ .

. إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، لابن خالويه، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٠هـ -١٩٤١م.

. إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي بيروت، ١٤٢١ هـ

. إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث النبوي، أبو البقاء العكبري ، تح عبد الحميد هنداوي، القاهرة ، ١٩٩٩ .

. الإعراب المحلي للمفردات النحويّة ، حسين منصور الشيخ ، بيروت ، ٢٠٠٩ .

. الأغاني ، لأبي الفرج الأصبهاني ، بيروت ، د ت .
. الاقتراح في أصول النحو ، جلال الدين السيوطي ، د. محمود فجال، دمشق، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩ .
. الألف باء ومقاطع الحروف أسس القراءة والكتابة وعلوم العربيّة، د. مهدي صالح سلطان، دار عدنان، ط٣، ٢٠١٨
. أمالي المرتضى أمالي المُرتضى ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، ٢٠٠٥ .
. إنباه الرواة ، للقفطي ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ،بيروت ٢٠٠٤ .
. أنساب الأشراف أنساب الأشراف للبلاذري تحقيق سهيل زكار ، بيروت ، ١٩٩٦
. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات الأنباري، المكتبة العصرية ، ٢٠٠٣ .
. انطولوجيا المعرفة اللغوية علامات النقط والنحو والدرس الحديث، ، الدار العربيّة للعلوم ناشرون .
. أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ، الدكتور مهدي صالح سلطان، دار ومتبة عدنان للطباعة والنشر، ٢٠١٦م.
. أهل القرآن وتأسيس النحو ، د . مهدي صالح سلطان ، النجف ، ٢٠١٣ .
. الأوائل، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري ، طنط ، ١٤٠٨هـ .
. الإيضاح في علل النحو ، أبو القاسم الزَّجَّاجي ، تح الدكتور مازن المبارك، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.
. إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله العزيز، لأبي بكر بن الأنباري، تح الشيخ عبد الرحيم الطرهوني، القاهرة، ٢٠٠٧.
. بحار الأنوار ، للمجلسي ، تح محمود درياب ، بيروت ٢٠٠١ .
. البحث اللغوي عند العرب ، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، ط٨، ٢٠٠٣م .
. البحر المحيط ، لأبي حيان ، تح صدقي محمد جميل، بيروت ، ١٤٢٠هـ .
. البحر المحيط ، غ . م ، لأبي حيان ، الرياض ، د . ت .
. بحوث ودراسات في اللسانيات العربيّة ، د عبد الرحمن حاج صالح ، الجزائر ، ٢٠١٢ .
. البداية والنهاية، أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ، تح علي شيري، بيروت، ١٩٨٨م .
. البديع في علم العربيّة، أبو السعادات الجزري ابن الأثير ، تح د. فتحي احمد علي الدين، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ،
. البلغة إلى أصول اللغة، أبو الطيب البخاري القِنَّوجي، تح سهاد حمدان أحمد السامرائي، ماجستير تربية بنات تكريت.
. بنية العقل العربي، د. محمد عابد الجابري، بيروت، ط٣، ١٩٩٠م .
. البيان في تفسير القرآن ، لأبي القاسم الخوئي ، قم ، ٢٠٠٣ .
. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، بيروت، ١٤٢٣هـ .
. تاج اللغة وصحاح العربيّة، أبو نصر الفارابي، تح أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧
. تاريخ ابن خلدون ، تح خليل شحاذة ، وسهيل زكار ، دار الفكر ، د . ت .
. تاريخ دولة الأنباط ، إحسان عباس ، عمان ، ١٩٨٧ .
. تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، د فيليب حتّي ، تر د جورج حداد ، وعبد الكريم رافق ، بيروت ، د . ت .
. تاريخ الغزو الفكري والتعريب بين الحربين العالميتين ، أحمد أنور سيد أحمد الجندي، دار الاعتصام، د. ط.
. تاريخ اللغات السامية، ولفنسون ، دار القلم، بيروت لبنان، ١٩٨٠.
. تاريخ النحو العربي تاريخ النحو وأصوله النحو بين البصرة والكوفة ، عبد الحميد السيد ، مكتبة الشباب ، ١٩٧٦م.

. تاريخ واسط ، لأسهل بن سهل الرزاز الواسطي ، تح كوركيس عواد ، ١٩٨٦ .
. التأليف النحوي بين التعليم والتفسير ، د وضحة جمعان الميعان ، الكويت ، ٢٠٠٧ .
. التبيان للطوسي ، قم ، مؤسسة النشر الإسلاميّ ، ١٤١٣ .
. التبيين عن مذاهب النحويين ، أبو البقاء العكبري، تح د. عبد الرحمن العثيمين، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦.
. التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي تونس، ١٩٨٤ .
. التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان الأندلسي تح د. حسن هنداوي، دمشق
. ترتيب كتاب العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدي ، تح د . مهدي المخزومي ، ود. إبراهيم السامرائي ، قم ، ١٤١٤ .
. التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربيّة ، نورة بنت عبد الله بن علي النعيم ، الرياض ، ٢٠٠٠ .
. التعبير الزمني عند النحاة العرب ، عبد الله بوخاخال ، الجزائر ، ١٩٨٥ .
. تعريب اللغة الأكدية، عامر سليمان، الموصل، ندوة الأصل المشترك للغات العراقية القديمة، المجمع العلمي، ٨ شباط ١٩٩٨م.
. التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني ، بيروت ، ١٩٨٣ .
. التعليقة على كتاب سيبويه، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ، تح د. عوض بن حمد القوزي، ١٩٩٠ .
. التفسير البسيط، للواحدي النيسابوري ، دكتوراه ، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠هـ .
. تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زَمَنِين ، تح أبو عبد الله حسين بن عكاشة . محمد بن مصطفى الكنز، القاهرة، ٢٠٠٢م
. التفسير الكبير (مفاتح الغيب) ، الفخر الرازي ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٨٥ .
. تفسير الكشاف ، للزمخشريّ ، باعتناء خليل مأمون شيحا ، بيروت ، ٢٠٠٢ .
. تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن الأزدي البلخى تح عبد الله محمود شحاته، بيروت، ١٤٢٣ هـ
. تفسير الموطأ، عبد الرحمن بن مروان الأنصاري، تح الأستاذ الدكتور عامر حسن صبري، قطر، ٢٠٠٨.
. تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) التيسير في التفسير، أبو البركات ، تح يوسف علي بديوي ، بيروت، ١٩٩٨ .
. التفكير الصوتي عند الخليل ، د. حلمي خليل إبراهيم، الاسكندرية، ١٩٨٨م .
. التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، أبو هلال العسكري ، تح عزت حسن، ط٢، دمشق، ١٩٩٦م
. التمهيد في علم التجويد ، ابن الجزري ، تح الدكتور علي حسين البواب ، الرياض، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م ،
. تنمية اللغة العربية في العصر الحديث ، د. إبراهيم السامرائي، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٣م .
. التهذيب في أصول التعريب، د. أحمد عيسى ، مطبعة مصر –القاهرة ، ١٩٢٣م.
. تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، القضاعي الكلبي المزي ، تح د. بشار عواد معروف، بيروت، ١٩٨٠م .
. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري ، أبو منصور ، تح محمد عوض مرعب، بيروت، ٢٠٠١،
. جريدة المدى ، العدد ٦٦ ، ك١، ٢٠١٤ .
. الجُمل في النحو، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري ، تح د. فخر الدين قباوة، ط٥، ١٤١٦هـ-١٩٩٥.
. جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تح رمزي منير بعلبكي، بيروت، ١٩٨٧ .
. الجهود اللغويّة في المصطلح العلمي الحديث ، د . محمد علي الزركان ، ١٩٩٨ .
. الحجة للقراء السبعة، للفارسيّ ، أبو علي ، تح بدر الدين قهوجي، وبشير جويجابي ، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م .

. حركات العربيّة ، عبد الحميد زاهيد ، مراكش ، ٢٠٠٥ .
. حضارة بابل وآشور، غوستاف لوبون تر محمود خيرت المحامي ، بيروت ، ٢٠١٧ .
. حكمة الإشراق إلى كتاب الآفاق، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض بمرتضى الزبيدي، القاهرة،، ١٤١١هـ.
. الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ، د. عبد العال سالم مكرم، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣ .
. حوليات الجامعة التونسية، الجملة في نظر النحاة العرب ونقد الكتب، عبد القادر المهيري، العدد٣، ١٩٦٦م.
. الحيرة المدينة والمملكة العربية ، يوسف رزق الله غنيمة ، بغداد ، ١٩٣٦.
. الحيوان ، للجاحظ ، ، تح عبد السلام هارون ، بيروت ، ١٩٦٥ .
. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي ، تح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧ م.
. الخصائص، لابن جني ، تح محمد علي النجار ، بغداد ، ١٩٩٠ .
. الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف ، للحلواني ، حلب ، ١٩٧٤ .
. دراسات علم اللغة، د. كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، د. ط، ١٩٩٨م .
. دراسات في الأدوات النحوية ، مصطفى النحاس، كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، ط١، ١٩٧٩م.
. دراسات في فقه اللغة، د. صبحي إبراهيم الصالح ، دار العلم للملايين، ١٣٧٩م-١٩٦٠ .
. دراسات في اللغة والنحو العربيّ ، معهد البحوث والدراسات العربيّة ، ١٩٦٩ .
. دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة، د. ت .
. الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ، د فاضل السامرائي ، بغداد ، ١٩٧٠ .
. دراسات نقدية في النحو العربي، عبد الرحمن محمد أيوب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة .
. دروس في المذاهب النحوية ، د . عبده الراجحي ، بيروت ، ١٩٨٠ .
. دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني الدار ، تح محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م .
. دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء ، د بتول قاسم ناصر ، بغداد ، ١٩٩٩ .
. دي سوسير، حياة في اللغة ، المؤتمر الدولي التاسع عشر المنعقد في كلية الآداب، الجامعة المستنصرية ، ثنائيات النحو العربي، د مهدي صالح سلطان ، ٢- ٤ نيسان، ٢٠١٣ .
. ديوان أبي الأسود الدؤلي، تح الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط٢، بغداد .
. روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، محمد باقر الموسوي الأصبهاني ، قم ، ١٣٩١هـ .
. زاد المسير زاد المسير في علم التفسير المؤلف: جمال الدين بن الجوزي ، تح عبد الرزاق المهدي، بيروت، ٢٠٠٢م.
. سر صناعة الإعراب ، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م .
. سنن أبي داود ، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
. السنن الصغير للبيهقي، تح عبد المعطي أمين قلعجي، باكستان، ١٩٨٩ .
. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، القاهرة، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م .
. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، للعكبري الحنبلي، تح محمود الأرناؤوط ، دمشق – بيروت ، ١٩٨٦م .
. شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك ، تح محمد محيي عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٨٠.

. شرح أبيات سيبويه، للسيرافي، تح الدكتور محمد علي الريح الهاشم، القاهرة– مصر، ١٣٩٤هـ– ١٩٧٤م.
. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.
. شرح تسهيل الفوائد، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي تح د. عبد الرحمن السيد، ود. محمد بدوي المختون، ١٩٩٠.
. شرح التسهيل، محب الدين الحلبي المصري المعروف بناظر الجيش، تح أ.د.علي محمد فاخور وآخرون، مصر، ١٤٢٨م
. شرح الرضي على الكافية ، تح د عبد العال سالم مكرم . عالم الكتب،مصر ، ٢٠٠٠ .
. شرح الفصيح لابن الجبان ، تح عبد الجبار جعفر القزاز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ،١٩٩١م.
. شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام ، تح محمد محيي الدين عبد لحميد، القاهرة، ط١١، ١٩٨٣م .
. شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، أبو بكر الانباري، تح عبد السلام هارون ، دار المعارف، ط٥، ٢٠١٤م.
. شرح كتاب سيبويه ، أبو سعيد السيرافي ، تح أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي، بيروت ، ٢٠٠٨م.
. شرح المقدمة المحسبة ، لابن بابشاذ ، تح خالد عبد الكريم، المطبعة العصرية – الكويت، ط١، ١٩٧٧م.
. شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد المعتزلي ، بيروت ، ٢٠٠٤ .
. الشعر والشعراء ، لابن قتيبة، تح أحمد محمد شاكر،دار المعارف بمصر، ١٩٨٢.
. الصاحبي ، كتاب في فقه اللغة العربية ، أحمد بن فارس ، تح السيد أحمد صقر ، القاهرة ، ٢٠٠٥ .
. الصلات المشتركة بين أبجديات الوطن العربيّ ، مجموعة باحثين ، بيت الحكمة ٢٠٠٢ .
. صحيح مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، تركيا، ١٤٣٣هـ .
. الصراع بين القديم والحديث في الأدب العربي الحديث، د. محمد الكتاني، الدار البيضاء، ١٩٨٢م.
. ضحى الإسلام ، أحمد أمين، مطبعة الاعتماد، ط١، مصر، ١٣٥١هـ–١٩٣٣م.
. ضياء السالك إلى أوضح المسالك، محمد عبد العزيز النجار، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م .
. طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلاّم بن عبيد الله الجمحي ، تح محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة.
. طبقات النحويين طبقات النحويين واللغويين ، الزبيدي ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٢.
. عبقري من البصرة ، د مهدي المخزومي ، بغداد ، ١٩٧٢ .
. العراقي الذي غلب إبليس ، د محمد كريم الكواز ، بغداد ، ٢٠١٩ .
. العربية لغة العلم ، د محمد حسان الطيان من الشابكة الرقمية .
. العربية والإعراب ، د عبد السلام المسدّي ، ط٢ ، بيروت ، ٢٠١٠ .
. العربية وعلم اللغة البنيوي دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية،٢٠٠٠م.
. العلامة الإعرابية ، د. محمد حماسة عبد اللطيف، الكويت ، د . ت .
. علم الأصوات، د.كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، د. ط، ٢٠٠٠م،
. علم الأصوات العام، بسام بركة، بيروت، ١٩٨٨م،
. علم الأصوات العربيّة، محمد جواد النوري وآخرون، منشورات جامعة القدس، عمان، ١٩٩٦.
. علم الدلالة، متقور عبد الجليل، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠١م
. علم الصرف الصوتي ، د عبد القادر عبد الجليل ، عمان ، ١٩٩٨.

. علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر ، د . ت .
. علم اللغة العام ، فرديناند دي سوسور، تر الدكتور يوئيل يوسف عزيز، مراجعة د. مالك يوسف المطلبي، أفاق عربية، بغداد.
. علم اللغة العربيّة، د. محمود فهمي حجازي، دار غريب للنشر والتوزيع
. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار الفكر العربي، ط٢، القاهرة، ١٩٩٧م .
. علم المصطلح، د. ممدوح محمد خسارة، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م
. علوم الحديث ومصطلحه ، د صبحي الصالح ، ط ٥ ، بيروت ، ١٩٦٩ .
. عملية أحفاد بابل، قصة سرقة الأرشيف اليهودي العراقي، د. فوزي هادي الهنداوي ، بغداد ٢٠١٨ .
. غريب الحديث ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ، بيروت ١٩٨٦ .
. الفاضل ، للمبرد ، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٣، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
. فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (٢٧٩هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨ .
. الفصيح ، أبو العباس، المعروف بثعلب ، تح د عاطف مدكور ، دار المعارف .
. فقه اللغة السامية، كارل بروكلمان، تر د. رمضان عبد التواب، الرياض ، ١٩٩٧ .
. فلسفة اللغة عند لودفيغ فتنغشتاين ، ، جمال حمود، مكتبة ناشرون، ط١، ٢٠٠٩م.
. فن الألقاء، طه عبد الفتاح مقلد، مكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، د . ت .
. الفهرست ، ابن النديم ، تح ابراهيم رمضان، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م .
. في الأصوات اللغوية، دراسة في أصوات المد العربيّة، الدكتور غالب فاضل المطلبي، بغداد، ١٩٨٤م،
. في أصول النحو ، سعيد الأفغاني، امكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
. في تاريخ اللغة العربية، د. نهاد الموسى، الأردن، ١٩٧٦ .
. في التعريب والمعرب، عبد الله بن بَرّي ، أبو محمد، ابن أبي الوحش ، تح الدكتور إبراهيم السامرائي، بيروت .
. في علم اللغة العام في علم اللغة العام، الدكتور عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ط٦، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
. في علم النحو ، د أحمد ماهر البقري ، الإسكندرية ، ١٩٨١ .
. في اللهجات العربية. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ،١٩٧٣م .
. في المصطلح ولغة العلم ، د مهدي صالح سلطان ، مقدمة الطبعة الأولى ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ٢٠١٢ .
. في المصطلح ولغة العلم ، د مهدي صالح سلطان ، الطبعة الثانية ، طبعة وزارة التعليم العالي ٢٠١٨ .
. في النحو العربي – نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزومي، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٤م.
. القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، عبد الصبور شاهين، دار القلم، القاهرة، ١٩٩٦م .
. القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ، عبد العال سالم مكرم ، ١٩٦٥ .
. القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ، د. مهدي صالح سلطان، درابين للكتاب، العراق- بغداد، ٢٠٢٠م.
. قواعد تحويلية للغة العربية، د. محمد علي خولي، الرياض، ١٤٠٢هـ- ١٩٨١م.
. الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، تح إبراهيم البنا وجماعته ، مصر ، د . ت .
. كتاب الجمل في النحو المنسوب للخليل ، د . محمد إبراهيم عبادة ، الاسكندرية ، ١٩٨٧ .

. كتاب سيبويه ، ط بولاق مصر ، ١٣١٦ هـ .
. كتاب سيبويه ، تح عبد السلام محمد هارون ، ط ٣ ، بيروت ١٩٨٣ .
. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تح د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، ١٩٨٠ .
. الكتاب المقدس ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٦ .
. الكتابة ، رينجر ، تر عامر سليمان ، بغداد ، ٢٠٠١ .
. الكشاف ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ، بيروت ، ط٣ ، د . ت .
. الكشاف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي، تح مجموعة باحثين، جدة، ٢٠١٥ .
. اللاهوت والسياسة ، تر حسن حنفي ، بيروت ، ٢٠٠٥ .
. اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء العكبري ، تح د. عبد الإله النبهان، دمشق، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م،
. اللباب في علوم الكتاب، لابن الحنبلي الدمشقي ، تح عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، بيروت، ١٩٩٨م.
. اللحن في اللغة العربيّة تاريخه وأثره اللسانيّات العربيّة الحديثة ٩٢ .
. لسان العرب ، ابن منظور الإفريقى ، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ .
. اللسانيّات المجال والوظيفة والمنهج ، د سمير شريف استيتيّة ، ط ٢ ، عالم الكتب الحديث ، ٢٠٠٨ .
. اللسانيّات واللغة العربيّة ، د عبد القادر الفاسي الفهري ، بغداد ، ١٩٨٢ .
. اللسانيّات في الثقافة العربيّة المعاصرة ، حافظ إسماعيلي علوي ، عمان ، ٢٠١٨ .
. اللسانيّات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة ، د نعمان بو قرّة ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، ٢٠٠٩ .
. السماع اللغويّ العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ، د عبد الرحمن الحاج صالح ، الجزائر ، ٢٠١٢ .
. اللغات السامية ، تيودور نولدكة ، ترجمه عن الألمانية: رمضان عبد التواب، مكتبة النهضة، د. ط ، د. ت.
. اللغة، جوزيف فندريس ، تعريب: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م .
. اللغة الأكدية (البابلية . الآشورية) ، د. عامر سليمان، الدار العربية للموسوعات ط٢، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م:
. اللغة العربيّة معناها ومبناها ، الدكتور تمام حسان عمر، عالم الكتب، ط٥، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
. اللغة العربيّة واللسانيّات المعاصرة ، د مجيد الماشطة ، البصرة ، ٢٠١٠ .
. اللغة والمعنى عند فتجنشتين، أساري فلاح حسن ،دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ٢٠١١م.
. اللمع في العربيّة لابن جني ، تح حامد المؤمن ، بغداد ، ١٩٨٢ .
. ليس في كلام العرب ، لابن خالويه ، تح أحمد أمين الشنقيطي ، مصر ، د . ت .
. مبادئ اللسانيات ، د محمد أحمد قدور ، دمشق ، ٢٠٠٨ .
. متشابه القرآن ، لابن شهراشوب ، طهران ، ١٣٢٨هـ .
. مجالس ثعلب ، تح عبد السلام هارون ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩.
. مجالس العلماء ، للزجاجي ، تح عبد السلام هارون ، الكويت ، ١٩٦٢ .
. مجلة الآداب، جامعة بغداد ، التغيّر اللغوي لمقاطع أواخر الكلمات
. مجلة البلاغ ، واضح النحو الأول، د. كمال ابراهيم، العدد٨ .

. مجلة تراثنا، مؤسسة آل البيت ، أبو الأسود الدؤلي ودوره في وضع النحو العربي، السيد هاشم الهاشمي .
. مجلة التربية والعلم، العدد١، لعام ١٩٧٩م، المصلح الكوفي، محيي الدين توفيق .
. مجلة الترجمة واللسانيّات ، هيثم المشكور ، ط ٣ ، أزمة التعريب ومأزق الترجمة ، بغداد ، ٢٠٠٦ .
. مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة، السنة ٢٨، العددان ١٠٥-١٠٦، ١٩٨٧-١٩٨٨م، أصول علم العربية في المدينة، الصاعدي،
. مجلة الرسالة ، احمد حسن الزيات (ت١٣٨٨هـ) ، العدد ٢٥٤،
. مجلة العلوم الإنسانيّة ، البحرين ٢٠١٧ ، العدد ٢٩ المستشرقون وتجريد اللغة العربية من لهجاتها إثبات عروبة لغة الأنباط.
. مجلة لغة العرب ، الأب أنستاس ماري الكرملي ، الكلدانيون ، المجلد الأول ، ١٩١١ م .
. مجلة المجمع العلمي العراقي ، النبط واللغات العراقية القديمة ، ت ٢ ، ٢٠٢٢ ، د مهدي صالح ود تحسين الوزان .
. مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ٢٩ ، ٢٠٢٢، الأمراض المزمنة ، والحاجة إلى معجم صحّي عراقي ، د مهدي صالح .
. مجلة مجمع اللغة العربيّة الأردني ، د. إسحاق الفرحان ، عمان ، ١٩٨٣ .
. مجلة مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ ، د . محمود الجليلي، ١٩٨٤ .
. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مجلد ٥٩ ، ج ٤ ، قضية المصطلح ، شاكر الفحام ، ١٩٨٤ .
. مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي ، تح هاشم الرسولي المحلاتي ، بيروت ١٩٩٢ .
. مجمل اللغة لابن فارس، تح زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م
. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ، لابن جنيّ ، القاهرة ، ٢٠٠٤ .
. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تح عبد السلام عبد الشافي، بيروت ،٢٠٠١ .
. المحكم في نقط المصاحف، عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) ، تح د. عزة حسن، دمشق، ط٢، ١٤٠٧،
. المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده ، تح عبد الحميد هنداوي، بيروت ، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م .
. مختصر تفسير ابن كثير ، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت ، ط٧، ١٩٨١ م
. المدارس النحوية ، شوقي ضيف ، دار المعارف، ط٧، ١٩٦٨ .
. مدخل إلى الألسنية ، يوسف غازي ، دمشق ، ١٩٨٥م .
. المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التواب، ط٣، القاهرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧ .
. مدرسة البصرة ، عبد الرحمان السيد ، دار المعارف بمصر ، د . ت .
. مدرسة الكوفة ومنهجها في النحو ، د مهدي المخزومي ، دار المعارف ، ١٩٥٥ .
. المذكر والمؤنث لابن الأنباري ، تح محمد عبد الخالق ، لجنة إحياء التراث،١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
. مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، سبط ابن الجوزي ، تح محمد بركات وآخرين ، دمشق، ٢٠١٣م .
. مراتب العلوم لابن حزم رسائل ابن حزم المجموعة الأولى ، تح إحسان عباس ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٨٧ .
. مراتب النحويين ، أبو الطيب اللغوي ، تح أبو الفضل إبراهيم ، مصر ،١٩٥٤.
. مروج الذهب ومعادن الجوهر ، للمسعودي ، ط ٢ ، بيروت ، ٢٠٠٧ .
. المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، تح محمد جاد المولى، وأبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، ط ٣، القاهرة، د . ت .
. مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين، د. مهدي صالح سلطان، بغداد ، ٢٠١٣ .

. مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية، د هاشم الطعان، منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية ،العدد ١٩ .
. المستدرك على الصحيحين، للنيسابوري ، تح مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.
. المستوفى في النحو، علي بن مسعود الفرغاني تح محمد بدوي المختون ، دار الثقافة العربيّة ، ١٩٨٧ .
. مشكل إعراب القرآن ، مكي القيسي ، تحقيق: د.حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.
. المصطلحات العلمية في اللغة العربية، أ. مصطفى الشهابي ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٥ .
. المصطلح النحوي ، عوض القوزي ، جامعة الرياض ، ١٩٨١ .
. معاني القرآن ، للفراء ، تح محمد علي النجار ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٠ .
. المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين، رينيه لابات، تعريب الأب أبونا ، ود. وليد الجادر، الناشرين العراقيين، ط٢، بغداد.
. معجم الأدباء للحموي، تح احسان عباس، بيروت، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
. المعجم العربي نشأته وتطوره ، د حسين نصار ، مصر ، ١٩٨٨ .
. معجم علم الأصوات، د. محمد علي الخولي، مطابع الفرزدق التجارية، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م
. معجم القراءات القرآنية ، د أحمد مختار عمر، وعبد العال سالم مكرم، ط ٢، الكويت، ١٩٨٨.
. معجم اللغة العربيّة المعاصرة ، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر ، ١٤٢٩ .
. معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تح عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، ١٣٦٦
. المعلم بفوائد مسلم، أبو عبد الله التميمي المازري المالكي ، تح فضيلة الشاذلي النيفر، الجزائر، ط٢، ١٩٩١.
. المغني في النحو ، ابن فلاح اليمني ، تح عبدالرزاق السعدي ، بغداد ، ١٩٩٩.
. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام ، تح د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٩٨٥م،
. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي (ت ١٤٠٨هـ) ، ط٤، ٢٠٠١م .
. المفيد في النحو ، لأبي الحسن بن بابشاذ ، تح د. محسن بن سالم العميري الهذلي ، مكة المكرمة الفيصلية٢٠٠٤.
. المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، الشاطبي ، مجموعة محققين ، مكة المكرمة، ٢٠٠٧م
. المقتضب ، للمبرد ، تح د عبد الخالق عضيمة ، بيروت ، د . ت ..
. المقدمة ، لابن خلدون ، بيروت ، ٢٠٠٧ .
. مقدمة إلى قواعد اللغات القديمة في بلاد الرافدين (اللغتان السومرية والأكدية)، أ د نوالة أحمد المتولي .جامعة بغداد ، د . ت.
. المقدمة الجزولية في النحو، للجزولي ، تح د. شعبان عبد الوهاب محمد، مطبعة أم القرى .
. مقدمة في النحو ، تأليف خلف الأحمر، تح عزّ الدين التنوخي، دمشق ، ١٩٦١.
. مقدمة لدراسة اللغة ، د . حلمي خليل ، الاسكندريّة ،١٩٩٦ .
. مملكة الخزر اليهوديّة ، د . محمد عبد الشافي المغربي، الأسكندرية، ٢٠٠٢ .
. مناهج البحث في اللغة ، تمام حسان ، الدار البيضاء ١٩٧٩ .
. من تاريخ النحو العربي ، سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، ١٩٧٨ .
. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، أبو الفرج الجوزي تح محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت ١٩٩٢م،
. منطق العرب في علوم اللسان، الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ، الجزائر ، ٢٠١٢ .

. منهج الدرس الصوتي عند العرب، علي خليف حسين، أطروحة دكتوراه، آداب بغداد .
. المنهج الصوتي للبنية العربية ، د . عبد الصبور شاهين ، بيروت ، ١٩٨٠
. مواصفات الكتب المترجمة ، د سامي مهدي المظفر ، منشورات المجمع العلمي العراقي ، ١٩٩٨ .
. موجز تاريخ اللغات السامية ، د . مهدي صالح سلطان ، بغداد ، ٢٠١٩ .
. الموسيقا الكبير ، لأبي نصر الفارابي ، تح عطاس خشبة ، القاهرة ، د . ت .
. الموطّأ لمالك وشرحه للسيوطيّ ، مطبعة البابي الحلبي بمصر ، ١٩٥١ .
. الميزان ، للطباطبائي ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٦ .
. نتائج الفكر في النحو، للسهيلي ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م .
. النحو العربي المقارن في ضوء اللغات الساميّة واللهجات العربيّة ، د. يحيى عبابنة ، إربد ، ٢٠١٨ .
. النحو المصفى، محمد عيد، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٥م:
. نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، أبو البركات، كمال الدين الأنباري ، تح ابراهيم السامرائي ، الزرقاء ، ط٣ ، ١٩٨٥م ،
. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، للطنطاوي، تح عبد الرحمن بن محمد بن اسماعيل، إحياء التراث الإسلامي ٢٠٠٥ .
. النظريّة اللسانيّة عند ابن حزم الأندلسي ، د . نعمان أبو قرّة ، دمشق ٢٠٠٢.
. نظرية النحو العربي ، د رابح أبو معزة ، عمان ، ٢٠١١ .
. النواسخ الفعلية والحرفية ، د أحمد سليمان ياقوت ، مصر ، ١٩٨٤ .
. النواسخ في كتاب سيبويه، حسام سعيد النعيمي، دار الرسالة للطباعة، بغداد ١٣٩٧هـ- ١٩٩٧م
. نور القبس المختصر من المقتبس، أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود اليغموري، تح زلهايم، بفيسبادن، ١٩٦٤ .
. همع الهوامع ، تح أ . د عبد العال سالم مكرم ، القاهرة ، ٢٠٠١ ،
. يتيمة الدهر، للثعالبي ، تح د مفيد محمد قميحة ، بيروت ، د . ت .

المحتويات

تصدير ١
المقدّمة ٣
الفصل الأول : نَقْطُ المُصْحَفِ الشريف ١١
المبحث الأوّل : دواعي ضبط الحروف ١٤
المبحث الثاني : واضع نقط المصحف الشريف ٢٣
المبحث الثالث : وحدة الضبط وحدة الإعراب ٣١
المبحث الرابع : نقط الإعراب وحدات صغرى ٣٤
المبحث الخامس : الضبط وقواعد العربيّة ٣٨
المبحث السادس : الضبط عند الخليل وفي كتاب سيبويه ٤٥
المبحث السابع : ثنائية الحرف والحركة والحرف والسكون ٤٩
الفصل الثاني : آثار التّفكير في النّقط ٥٤
المبحث الأوّل : الصوت اللغويّ ٥٥
المبحث الثاني : الصوت والضبط ٥٨
المبحث الثالث : حروف اللغة العربية ٦١
المبحث الرابع : مقطع الحرف ٧١
المبحث الخامس : تنوّع مقاطع الحروف ٧٧
الفصل الثالث : النّقط والمقطع والعلم اللغويّ ٨٣
المبحث الأوّل : الكتابة المقطعيّة قبل أبي الأسود ٨٤
المبحث الثانِيً : مقاطع الكلمات ٨٩
المبحث الثالث : نظام كتابة الحروف العربيّة ٩٣
المبحث الرابع : المقطع الصوتي والفونيم (الصويت) ١٠٥
المبحث الخامس : الفونيم بين القدماء والمحدثين ١١٠
الفصل الرابع : التفكير النحويّ ١٢١
المبحث الأوّل : جمع القرآن بعد النبي ١٢٤

المبحث الثاني : النحو بعد أبي الأسود الدؤليّ ١٣٠
المبحث الثالث : سيبويه ونضج النحو واكتماله ١٤١
الفصل الخامس : القرآن والنحو ١٥٠
المبحث الأوّل : دلالة (كان) تامة وناقصة ١٥٣
المبحث الثانيّ : الخطوة الأولى في التأسيس النحويّ ١٥٦
المبحث الثالث : المطابقة بين الحاجة والاستعداد ١٥٩
المبحث الرابع : أثر التأسيس فيما بعده ١٦٣
المبحث الخامس : المطابقة بين الضبط والمعنى ١٦٦
الفصل السادس : مباحث قرآنيّة ١٦٩
المبحث الأوّل : دلالة (كان) تامة وناقصة ١٧١
المبحث الثاني : عبارة (أسماء سميتموها) ١٧٦
المبحث الثالث : الربط بالتكرار بين أجزاء سورة هود (عليه السلام): ١٧٩
المبحث الرابع : التكرار في سورة النجم : ١٨٤
المبحث الخامس : الجدل والنجوى في سورة المجادلة ١٩٠
المبحث السادس : الزمن في سورة الحاقة ١٩٦
الفصل السابع : الأفعال الناسخة ١٩٩
المبحث الأول : دواعي التأليف ٢٠٠
المبحث الثاني :الأفعال الناسخة في كتاب سيبويه ٢٠٤
المبحث الثالث : الأفعال الناسخة بعد سيبويه ٢٠٨
المبحث الرابع : الإسناد بين أجزاء جملة الأفعال الناسخة : ٢١١
المبحث الخامس : الحذف والرتبة والتمام والدلالة : ٢١٦
المبحث السادس : زمان الأفعال الناسخة : ٢٢١
الفصل الثامن : الخلاف النحوي ٢٢٥
المبحث الأول : المدرسة الكوفية ٢٢٧
المبحث الثاني : مصادر الكوفيين ٢٣٠
المبحث الثالث : الأصول بين البصريين والكوفيين ٢٣٣
المبحث الرابع : المصطلح الكوفي ٢٣٨

المبحث الخامس : توزيع الخلاف بين الكوفيين ٢٤١
المبحث السادس : تقويم مسائل الخلاف ٢٤٥
الفصل التاسع : جذور اللغات العراقيّة القديمة ٢٤٨
المبحث الأول : العربيّة وقراباتها اللغويّة ٢٥١
المبحث الثاني : السومرية أقدم اللغات العراقية ٢٥٥
المبحث الثالث : الأكدية والآشورية والبابلية ٢٥٨
المبحث الرابع : الآرامية والسريانية ٢٦١
المبحث الخامس : القرابة بين العربيّة والنبطيّة ٢٦٥
المبحث السادس : أصل اللغة العبرية ٢٦٩
المبحث السابع : العبرية والحضارة العراقية ٢٧٢
المبحث الثامن : أوجه الشبه بين اللغات الجزرية (السامية) ٢٧٥
الفصل العاشر: (المصطلح ولغة العلم) ٢٧٩
المبحث الأوّل : خطر التسليم للغة الأجنبية ٢٨٢
المبحث الثاني : الاختصاص ولغة العلم ٢٨٥
المبحث الثالث : اللغة والوظيفة والفكر ٢٨٨
المبحث الرابع : اللغة والاشتقاق وشروط وضع المصطلح ٢٩٣
المبحث الخامس : تعريب العلوم ٢٩٧
المبحث السادس : المصطلح بين التراث والترجمة ٣٠٩
الخاتمة **٣١٦**
المصادر **٣١٩**